الكتاب
في الحضارة الإسلامية

الدكتور يحيى وهيب الجبوري
الأستاذ بجامعة آل البيت

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت

الكتاب
في الحضارة الإسلامية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

لم تعن أمة من الأمم بالكتاب عناية العرب والمسلمين به، فقد أحبوا الكتاب وافتخروا بتأليفه واقتنائه وصونه، والكتاب هو العلم، والعلم أساس من أسس الإسلام، وقد شاءت قدرة الله تعالى أن تكون أول آية تنزل على الرسول الكريم فيها الدعوة إلى القراءة، والقراءة وسيلة العلم، فكانت: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1 ـ 5]، والدعوة إلى القراءة موصولة بالكتابة، وأداة الكتابة القلم، ولذلك كان للقلم شأن كبير، ومن عظمة وجلال القلم أن أقسم الله سبحانه به: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 1ـ 2]، والقلم من أدوات العلم، والمراد بالقلم كل أداة استخدمها الإنسان في الكتابة مهما كان شكلها ونوعها، وبالقلم يكون التعبير عن الخواطر والأفكار والأحاسيس، وجاءت الآيات الكريمة تدعو إلى العلم والتفكير واستخدام العقل، وترفع من منزلة العقل والذين يعقلون، والآيات البينات تحض الإنسان على التفكر والتدبر وإعمال العقل، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، وكما كانت الدعوة إلى العقل، كانت الدعوة إلى التفكير، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، والدعوة إلى العقل والتفكير هي الدعوة إلى العلم، وقد رفع الله سبحانه من قدر العلم والعلماء، قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: 9]، ودعا إلى أخذ العلم عن

العلماء فهم أهل الذكر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 7]، والعلم موصول بالإيمان، والعلم والإيمان توأمان، يرفع الله سبحانه أهلهما درجات: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: 11]، والآيات الكريمة تخاطب في الإنسان عقله وجوارحه وحواسه ليتدبر ويتفكر ويتعلم، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام، يحض على طلب العلم، ويجعله فريضة من فرائض الدين: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (سنن ابن ماجة 1/5)، ويبين منزلة العلماء: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) (مسند أحمد 12/180)، ولم تقتصر دعوة الرسول على طلب العلم الشرعي، بل شملت علوم الدنيا، وتعلم لغات الأقوام، فقد أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري أن يتعلم لغة يهود، لأنه لا يأمنهم على دينه، وقد رفع من منزلة العلماء فجعلهم في أكرم منزلة وأعلاها، قال عليه السلام: (العلماء ورثة الأنبياء) (مجمع الزوائد 1/121)، ودعا إلى تبجيل العلماء وتوقيرهم في قوله: (ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه) (مجمع الزوائد 1/127)، وجعل الرسول العلم أمانة في أعناق العلماء، وعليهم تبليغه للناس، ولا ضير في أن يحمل أحدهم العلم إلى من هو أعلم منه، قال عليه السلام: (ليبلغ الشاهد الغائب، وربَّ مبلَّغ أوعى من سامع) (البخاري بحاشية السندي 1/23) وقال: (نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (مسند أحمد 6/96)، وكان النبي ﷺ يحث على العلم وينشره، سواء أكان ذلك في مجالسه، أم بإرسال الرسل يحملون كتبه، أم بتوجيه الأمراء والقضاة والمعلمين، ليفقهوا الناس ويعلموهم القضاء والفتوى وكل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم، فقد أرسل في ذلك أكابر الصحابة في أنحاء الجزيرة، وجعل رسول الله ﷺ الخير غير مخصوص بالعالم وحسب، بل وبالمتعلم أيضاً، وذلك في قوله: (العالم والمتعلم شريكان في الخير) (مجمع الزوائد 1/127)، وفي مجالس العلم وطلاب العلم رحمة وهدى وأجر ومثوبة، قال: (من سلك طريقاً يلتمس فيه

علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله عزّ وجلّ فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) (مسند أحمد 13/161)، وكان من سبب هذه الدعوة إلى العلم وإكرام العلماء أن أقبل المسلمون في كل أقطارهم وأمصارهم على العلم، ينهلون منه ويعبون، ويؤلفون فيه ويكتبون ويقرأون، وبذلك نزل الكتاب من نفوسهم منزلة لم ينزلها في أمة من الأمم.

ومدلول الكتاب ينصرف إلى العلم والمعرفة والفكر المدون بالكتابة، أياً كان نوع الكتابة، سواء أكانت على الحجر، أم على ألواح الطين، أم على أوراق الشجر، أم على الخشب، أم على القرطاس (البردي)، أم الورق، أم الوسائل الحديثة على رقائق الاسطوانات والأشرطة، وكان الكتاب عند العرب في الجاهلية والإسلام، هو الكتاب الديني، فأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وكتاب الله هو القرآن الكريم، ثم صارت التسمية تنصرف إلى كل ما هو مكتوب، فالرسالة كتاب، والوثيقة كتاب، وما حوته الصحف كتاب، وقد يراد بالكتاب أيضاً جزءاً أو قسماً من الكتاب بمعنى الباب. وحين ترسخت الحضارة واتسعت في العصور الإسلامية، ازدهر التأليف وكثرت الكتب، وكان لتدوين الحديث النبوي أثره في ازدهار التأليف، وحين عمدوا إلى تفسير القرآن الكريم، رأوا الحاجة إلى معرفة اللغة ورواية الشعر، فجُمعت الدواوين ليستدلوا بالشعر على فهم ألفاظ القرآن الكريم، ثم جاءت الترجمة في العصر العباسي لترفد المؤلفين بعلوم جديدة، فتوسعت دائرة الكتاب لتشمل العلوم التي لدى الأمم الأخرى من يونان وروم وفرس وهنود، وما أن يطل عصر المأمون حتى تتوسع حركة التأليف لتشمل العلوم والفنون والآداب الدينية والدنيوية، ويعمّ الكتاب وينتشر في كل الأصقاع والأمصار الإسلامية، فتضيق خزائن الكتب بالمؤلفات، وتكثر المكتبات العامة والخاصة، وينتشر الوراقون في كل مكان، ويفتن الكتبة والخطاطون والمزوقون في صنع الكتاب وتجليده وتذهيبه وتزيينه، ويتفاخر الخلفاء والعلماء في حيازة الكتب وجمعها من أقاصي البلدان والاعتزاز بها،

وقد رويت العجائب عن اعتزاز العلماء بكتبهم وكثرتها وندرتها، من ذلك ما قيل إن الصاحب بن عباد وزير عضد الدولة بن بويه، كانت له خزانة فيها مائتي ألف وستة آلاف كتاب، وإنه كان حين يسافر تشد كتبه التي يحملها معه على ثلاثين جملاً، وكان لشغف الصاحب بالكتب وحيازتها أن كان يبعث رسله في مشارق البلاد ومغاربها ليشتروا له الكتب، وكانت فهارس مكتبته تتألف من أربع وأربعين كراسة، كل منها عشرون ورقة، لا تحمل سوى أسماء الكتب، وما الصاحب بن عباد إلا واحد من آلاف العلماء في مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها، هذا غير ما كان يحرص عليه الخلفاء الوزراء من تشجيع العلماء والإغداق عليهم واقتناء كتبهم التي زخرت بها خزائنهم ومكتباتهم، تلك الخزائن التي حوت عشرات الآلاف من الكتب، إن لم نقل الملايين، في الوقت الذي كان العالم من حولها يعُمُّهُ الجهل، وكانوا يرون أن في الكتب سحراً وطلاسم تخيفهم، وكان ملوك أوربة لا يعيرون اهتماماً للكتاب والمكتبات، وإذا وجدت لديهم فهي كتب قليلة معدودة تعد بالعشرات . . .

وعلى الرغم مما نزل بالعالم الإسلامي من نكبات وحروب واحتلال وحرق وتدمير وإغراق للكتب، فإن ما وصل من كتب التراث عدد كبير وكبير جداً، أكثر من أن يحصى، وقد توزعتها مكتبات العالم العربي والإسلامي والأوربي، وإذ تفخر اليوم مكتبات العالم، فإنما تفخر بالكتب المخطوطة التي كتبت باللغة العربية، التي حوتها مكتبات فرنسا وألمانيا وإنجلترا وهولندا وإيرلندا وإسبانيا وروسيا وغيرها من الدول الأجنبية، فضلاً عن الدول الإسلامية مثل تركية وإيران والهند وباكستان.

وهذا التراث الضخم الباقي من كنوز الأجداد في البلاد العربية والإسلامية والأجنبية هو أمانة في أعناقنا عرباً ومسلمين، ولا بد من إحيائه ونشره نشراً محققاً تحقيقاً علمياً رصيناً، ومن ثم دراسته دراسة أصيلة معمقة، تُستنبط منه المضامين الفكرية والروحية والإنسانية التي تمثل أصالة التراث وجوهره النقي، وبذلك يتداول الناس فكر الأمة وتراثها وحضارتها، مجلوّاً في كتب فيها علم وفكر وروح أصيل.

ويبقى أن نجدد ونحيي في نفوس الأجيال حب الكتاب وفضل الكتب، لنعود كما كنا نعطي أكثر مما نأخذ، وقد كان من جملة الدواعي لتأليف هذا الكتاب، حث طلبة العلم والناشئة على قراءة الكتاب، والإفادة منه، والتعلق به، ولينظروا من خلاله ما كان من أمر السلف الصالح من العلماء والقدوات الخيرة الذين بذلوا المال وأفنوا العمر في تحصيل العلم، وكان الكتاب عندهم أعزّ وأنفس نفيس.

ونحن ـ العرب والمسلمين ـ في هذا الزمن النازل المنحدر، لا تقوم نهضتنا، ولا تُجْبَر عثرتنا إلا بالكتاب، والكتاب العلم، والكتاب الحضارة، والكتاب التقنيات الحديثة، وقد مرَّ أسلافنا بما نمر به الآن، بل بأسوأ مما نمر به، وقد تمكنوا أن يتغلبوا على عثراتهم وهوانهم بالعودة إلى الكتاب، فبعد أن ضعفت الخلافة العباسية، ثم تقسمت إلى دويلات، ثم انهيارها وإبادتها على يدي المغول، نهض علماء الأمة رغم اليأس والتشتت والتنابذ والتحاسد بين الحاكمين، نهض العلماء فجمعوا العلم وصانوه وألفوا فيه الموسوعات والشروح والمعجمات اللغوية، وكل الكتب الكبيرة، ويكفي أن نشير هنا إلى مؤلفات ما يعرف بالعصر الوسيط أو الفترة المظلمة أو فترة الدولة المتتابعة، حيث نجد فيها مؤلفات مثل: صبح الأعشى، ونهاية الأرب، ونفح الطيب، وأزهار الرياض، وخزانة الأدب، والمزهر في علوم اللغة، والإتقان في علوم القرآن، والإصابة في تمييز الصحابة، ولسان العرب، وتاج العروس، وغيرها كثير كثير.

لقد رُسِم لهذا الكتاب أن يأتي في ثمانية فصول، يمهد سابقها للاحقها، ويكمل بعضها بعضاً، وقد تتداخل المعلومات في الفصول وتتكرر، حسب ما يقتضيه السياق، وطبيعة البحث والموضوع، وقد تناول الفصل الأول الكتاب والكتابة، فتعرض لنشأة الكتابة وأنواعها وتطورها، والخطوط القديمة والأدوار التي مرت بها، ووقف عند الكتابة القديمة وجهود علماء الآثار من مستشرقين وعرب في الكشف عنها، وما أنجزوا من حفريات وما قدموا من بحوث

ودراسات حول جنوب الجزيرة وشمالها.

وتناول الفصل الثاني التدوين والكتابة، فتعرض إلى مفهوم الكتاب ودلالته، وبدايات التدوين والتأليف، والمؤلفين الأوائل، وبدايات التأليف في الأنساب والمغازي والسير والتاريخ، وتدوين القرآن الكريم والحديث النبوي، وتفسير القرآن واتجاهات المفسرين، والمراحل التي مرّ بها الحديث النبوي من حيث الجمع والتدوين.

أما الفصل الثالث فقد درس موضوع الوراقة والوراقين، وتناول نشأة الوراقة التي أسهمت في ازدهار حركة التأليف، وما كان من تيسر وسائل الكتابة وصناعة الورق وتطور الخط ونشوء ما يعرف بالخط الوراقي وصلته بالخطوط العربية، وتحدث عن الأمالي والمجالس العلمية التي كانت سبباً في ازدهار الوراقة، وكانت مجالس الأمالي مجالس علم ودرس وتلقي وتأليف، وكان يقصد هذه المجالس جمهور كبير وكبير جداً من طلاب العلم والمتعطشين إليه، وتناول البحث حرفة الوراقة ومقدار ما تدره على أهلها من رزق، ومن اتخذها مهنة من العلماء، والتعرف على مقدار ما يكتبون، وعلى أجور النسخ وأسعار الكتب، مع وقفة عند سوق الوراقين التي أصبحت سوقاً علمية وأدبية، بالإضافة إلى كونها سوقاً تجارية، وكما تكون في كل مهنة من صالح وطالح، فكذلك ظهرت في الوراقة فئة قليلة الشأن كانت تغش وتعبث وتزور الكتب، كما هي الحال الآن في بعض أسواق الكتب ودور النشر، وقد تم التعرف أيضاً على جمهرة كبيرة من أعلام الوراقين والترجمة لهم بمقدار ما يتصل الأمر بطبيعة عملهم.

وكان الرافد الآخر لازدهار حركة التأليف ونشر الكتب هي حركة الترجمة، وقد تناولها بالدرس الفصل الرابع، إذ وقف عند الترجمة في العصور القديمة حيث حضارة العراق والشام ومصر، ثم التعرف على الترجمة إلى اللغة العربية في ظلّ الإسلام، حيث بداياتها في زمن الرسول والخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموي، وبعد ذلك ازدهارها ونضجها في العصور

العباسية، في زمن المنصور والرشيد، وفي زمن المأمون خاصة، وما بعد المأمون في القرن الرابع الهجري، مع التعرف على أهم العلوم والموضوعات التي ترجمت، ودور المترجمين والخلفاء والأسر والوزراء الذين رعوا حركة الترجمة وأسهموا فيها.

وهذا التراث الضخم من الكتب المؤلفة والمترجمة لا بد له من خزائن ومكتبات عامة وخاصة تحفظه وتعنى به، وقد تكفل الفصل الخامس بدراسة ذلك وكان عنوانه: خزائن الكتب والمكتبات، وقد تعرض لخزائن الكتب الأولى التي تمثلت في بيت الحكمة، ورصد مسيرة هذا البيت في زمن المنصور والرشيد والمأمون، وأوضح ماهية هذا البيت أو الدار ومهامه، وما فيه من كتب ونشاط علمي، ومن كان يقوم عليه ويعمل فيه، وهناك خزائن أخرى عرفت ببيت الحكمة أو دار الحكمة لبعض الأمراء أو الوزراء أو العلماء في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي. وهناك الخزائن الخاصة للخلفاء والأمراء، وكذلك الخزائن الخاصة للعلماء، وهي كثيرة وثرية وعامرة، والحديث عنها طريف، فيه إكبار للعلم والعلماء، وخزائن العلماء هذه ـ لو تدبرنا وتفكرنا ـ هي خير قدوة حسنة كريمة لعلماء اليوم الذين يعتزون بخزائن كتبهم التي هي نعم الذخيرة وخير ما يخلف السلف للخلف.

وقد ازدهرت مع حركة التأليف والترجمة وانتشار المكتبات، صناعة طريفة جميلة فيها ذوق وفن رفيع، ولها أثر كبير في حفظ الكتاب وتجميله وتزيينه، هي صناعة الكتاب التي تتضمن تجليد الكتب وتذهيبها وتزيينها بالصور والرسوم، وكان هذا هو مضمون الفصل السادس.

أما الفصل السابع، فقد تعرض لما نزل بالكتب والمكتبات من آفات وكوارث، منها الحرق والغرق وغسل الكتب ودفنها خوفاً من مصادرتها والاستيلاء عليها، وكذلك ما حلّ بالكتب والمكتبات من نهب وسرقة ومصادرة، ثم بعد ذلك بيع الكتب بثمن بخس أو برغيف خبز بسبب الحاجة والمجاعات والكوارث، وقد توضحت الأسباب والأحوال التي

دعت إلى ذلك، بما نزل بالأمة من حروب ومنازعات وعصبيات وظلم وعدوان.

وتناول الفصل الثامن والأخير ما عُرف بآداب الكتب، وهي الآداب الواجب التزامها عند القراءة والكتابة والدرس والنسخ والنقل والسماع، وهذا الفصل هو نصوص ونقول من عيون الكتب التي تناولت هذه الموضوعات، آثرنا نقلها كما وضعها مؤلفوها في التراث القديم، وكان الاهتمام بإظهار فضل الكتب وبيان منافعها، وما قيل في الكتب من شعر.

وبعد، فقد أنفقت في هذا الكتاب بضع سنوات هي خيرة ما تبقى من سنوات العمر القليلة الباقية، قضيت فيها الليالي والأيام، جمعاً ومقارنة ومدارسة وكتابة ومراجعة، وكنت خلالها سعيداً جلداً، رغم الإرهاق والتعب والمرض، وقد أحببت الكتاب طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وسيكون الكتاب معي وعلى صدري حتى اللحظات والأنفاس الأخيرة من حياتي، وسألقى ربي وبيميني كتاب هو شفيعي بعد كتاب الله تعالى.

وقد كانت وما زالت أحلى الأيام وأسعدها عندي، حين أخلو بكتاب أقرأ فيه، وأناجي صاحبه، وأسامر أهله، فهو سميري عند الوحدة، ورفيقي في الحل والترحال، وأول ما ألقاه عند بدء يومي، وآخر ما يودعني حين يغالبني النوم، وقد عرفت بالكتاب ربي وديني، وتعرفت بفضله على أفاضل العلماء، من عرب ومسلمين وأجانب، في شرقي العالم وغربيه، سواء من رأيتهم وتعلمت منهم من أساتذة كرام، أو من علَّمتهم من طلبة لامعين نجباء أوفياء، أو من لم أرهم وتوثقت أواصر الود بيني وبينهم بوساطة الكتاب، ذكراً وتنويهاً وتهادياً وإفادة، والكتاب بعد ذلك عندي دنيا، وهذه الدنيا كلها خير وعلم وعبادة ونفع وأنس وسمر، ليس فيها ما في دنيا الناس من غدر وخيانة وعقوق، ورحم الله القائل:

إذا اعتللت فكُتْبُ العلمِ تشفيني   فيها نزاهة ألحاظي وتزييني

إذا اشتكيت إليها الهم من حَزَنٍ		مالت إليَّ تعزيني وتسليني
حسبي الدفاترُ من دُنيا قَنِعْتُ بها		لا أبتغي بدلاً منها ومن ديني

أبو الفرات

يحيى وهيب الجُبُوري

الإثنين: 28 رمضان 1418 هـ
26 كانون الثاني 1998 م

عنوان المؤلف

ص. ب 150519 بريد الحي الشرقي

الرمز البريدي 41/211 إربد ـ الأردن

الفصـــل الأول

الكتـاب والكتابــة

الكتــاب والكتــابة

نشــأة الكتــابـــة :

إن نشأت الخط ومعرفة الحروف يلفها كثير من الغموض، وهناك من يذهب إلى أن معرفة الخط والكتابة أمر توقيفي، أي أن الله حين خلق آدم بث فيه أسرار الحروف، فخرجت الأحرف على لسان آدم بفنون اللغات، وكان من معجزات آدم تكلمه بجميع اللغات التي يتكلم بها أولاده إلى يوم الدين، وقيل إن الخطوط كلها أنزلت على آدم في إحدى وعشرين صحيفة[1]، وقيل إن أول من وضع الكتابة والخط هو آدم إذ كتبها في الطين وطبخه قبل موته بثلاثمائة عام، ثم بعد ذلك أخنوخ وهو النبي إدريس، وكان من الأنبياء ممن يعرف الكتابة النبي نوح وإسماعيل بن إبراهيم، وعن ابن عباس: إن أول من كتب بالعربية ووصفها هو إسماعيل، لأنه كما قيل: إن الله أنطقه بالعربية وعمره أربع وعشرون سنة، ثم سليمان بن داود الذي كتب الكتاب لبلقيس ملكة سبأ[2]، ولن نقف طويلاً عند هذه الآراء، والرأي الذي نرتضيه أن الإنسان شعر بالحاجة إلى التعبير عما في نفسه فاحتاج إلى الكتابة لتدوين أفكاره وتاريخه، وقد عبَّر الإنسان أولاً بطريقة الرسم، ثم ارتقى فعبر بطريقة الرمز باستخدام بعض الأدوات والأجسام، أي بدأت الكتابة بالأشكال ثم الرموز، وكانت الكتابة الهيروغليفية في مصر، هي أقدم الكتابات التي استعملت التعبير الصوري ثم الرمزي، ثم اللغات الأخرى، الحيثية في آسيا، والآشورية في العراق، والصينية

---

(1) ابن خلدون: المقدمة ط القاهرة 1904، 1/332.

(2) الصولي أدب الكتاب، ص 28، الكردي: تاريخ الخط العربي ص 16.

في الصين، وكل من هذه الكتابات نشأت في بلاده ولم يقتبس من غيره، وقد تطورت هذه الكتابات فعرفت استخدام المقاطع ثم الحروف، والخطوط المستعملة في الكتابة كثيرة جداً، ويمكن إرجاعها جميعاً إلى أربعة أصول، هي:

أ ـ الخط المصري: وهو ثلاثة أقسام:

الهيروغليفي الخاص بالكهنة.

والهيراطيقي الخاص بالموظفين.

والديموطيقي الخاص بالشعب.

ب ـ الخط الحيثي: وهو خط الشعب الحيثي الذي انتقل من بلاد القوقاز، وهاجر إلى آسيا الصغرى، وتوسع نفوذه فشمل شمالي سورية وشمال العراق.

ج ـ الخط المسماري أو الإسفيني: وكان مستعملاً في آشور وبابل في العراق.

د ـ الخط الصيني: وكان ما يزال مستعملاً في الصين واليابان.

وكان الشائع أن الكتابة السينائية هي أصل الهجاء، واعتمد القائلون بهذا الرأي على أنها أقدم وأبسط كتابة هجائية ظهرت، وقُدِّر زمنها بأنها ترقى إلى القرن التاسع عشر والعشرين قبل الميلاد، ويرى فيليب حتي أن أبجدية سيناء انتقلت إلى سورية الشمالية، حيث استخدمت في الكتابة الإسفينية، كما أثبتت ألواح (رأس الشمرة)، وفي القول بأصل الألفباء السينائي ما يعلل انتقالها إلى جنوبي الجزيرة العربية، حيث تطورت تطوراً مستقلاً خاصاً، وقد انتقلت إلى الساحل الفينيقي وحملها الفينيقيون مع تجارتهم إلى اليونان، فأصبحت بمرور الزمن أمّا لكل الهجائيات الأوربية[1].

ولكن لما تمّ اكتشاف نقوش هجائية في جنوبي فلسطين ووسطها، وقُدِّر

---

(1) تاريخ العرب ص 93.

أن تاريخها يعود إلى القرن السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وقد قدَّم المستشرق البرايت (Albright) دراسة بأدلة أثرية وتاريخية أثبتت أن الكتابة السينائية إن هي إلا صورة من الأبجدية الكنعانية التي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد[1]، وكانت مشكلة أصل الحروف قائمة وما زالت، وفيها متسع من القول، ولا تخلو من النزعات والأهواء، وستبقى القضية متدافعة ما دامت هناك نقوش تكتشف ودراسات تنشر، وقد تطور الخط بعد أن قطع المراحل والأدوار التي مرّ بها، وهي:

الدور الصوري المادي.

الدور الصوري المعنوي.

الدور الصوري الحرفي.

الدور الحرفي الصرف[2].

والكتابة الصورية كتابة رمزية، ترمز للأشياء بصورها المادية، فإذا أرادوا أن يدلوا على معنى شجرة رسموا صورة شجرة، وإذا أرادوا أن يدلوا على حيوان رسموا صورته، وإذا أرادوا أن يدلوا على معبد رسموا صورة معبد، وإذا أرادوا أن يدلوا على معنى رجل رسموا صورة رجل، وهكذا، وهي أشبه بإشارات المرور وغيرها في العصر الحاضر، ولكن ما يعيب هذه الطريقة أنها ترمز لصور الماديات، أما صور المعنويات فمن الصعوبة أن يرمز لها، كالفرح والحزن والخوف، وكذلك النسب الإضافية والتوصيفية.

ثم توصلوا إلى الدلالة على المعاني التي لا صور لها، بصور لوازمها، فكانوا يرسمون الدواة والقلم للدلالة على الكتابة، والشعر المسدول للدلالة على الحزن، وضخامة الجسم للدلالة على غنى صاحبه، وصارت الكتابة في هذا الدور صورية معنوية تتألف من صور ماديات للدلالة عليها، وصور ماديات

---

(1) يوسف ذنون: مقالة في مجلة النبراس العراقية العدد السادس السنة 1973، فوزي عفيفي: نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ص 16.

(2) حفني ناصف: تاريخ الأدب العرب، ص 35.

أخرى للدلالة على ملزوماتها من المعاني[1].

ثم ترقَوْا في الدور الحرفي بواسطة الصور، فاصطلحوا على رسم صور وأشكال للدلالة على الحروف التي في أول أسمائها، وكل قوم اصطلحوا على صور مخصوصة حسب نطق لغتهم، ثم اختصروا تلك الصور مع مرور الأيام، حتى صارت علامات لا تدل إلا على أصوات الحروف، كما هو الشأن الآن[2].

الكتابة العربية القديمة وجهود علماء الآثار

في جنوب الجزيرة العربية:

كان المستشرقون سباقين إلى دراسة الآثار العربية، فمنذ القرن الثامن عشر، بدأ علماء الآثار يجوبون المناطق العربية شمالاً وجنوباً، وكانت أول بعثة أثرية انطلقت من الدنمارك سنة 1761 م للبحث عن الآثار في جنوب الجزيرة العربية، وكانت البعثة تتكون من خمسة أفراد، أحدهم عالم باللغات الشرقية، والآخر من علماء التاريخ الطبيعي، والثالث طبيب، والرابع رسام، والخامس ضابط، ووصل جميعهم إلى اليمن، فتوفي منهم اثنان سنة 1762 م، فخافوا أن تكون المنطقة موبوءة بالأمراض، فرحلوا إلى الهند، ومات اثنان، ولم يبق إلا واحد هو الضابط المستشرق كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)، وقد جمع هذا معلومات متنوعة عن المنطقة، وأشار إلى بعض النقوش التي لفتت انتباهه، وكتب مقالات عنها، وقرأ الأوربيون المعلومات التي عاد بها نيبور، والمقالات التي كتبها، وبدأ من ثم النشاط الآثاري لدى مستشرقي المانيا وبريطانيا وفرنسا[3].

---

(1) لاحظ صور الرسوم المصرية القديمة، لوحة رقم 1، 2.

(2) حفني ناصف: تاريخ الأدب ص 35، فوزي عفيفي: نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ص 17.

(3) ديتلف نلسون: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، الفصل الأول، خليل=

وفي عام 1810 م زار الدكتور ستزن (Sectzen) الأماكن التي ذكرها نيبور، ونسخ النقوش العربية الجنوبية، وكان يجمع الثعابين ويحفظها في كحول فظن الناس أنه ساحر، ومات في ظروف غامضة.

وفي سنة 1834 م حصل الضابط البريطاني ولستد (Wellsted) على بعض النقوش من قلعة حصن الغراب، وكان فيها معلومات كثيرة أثارت اهتمام الأوربيين.

وفي سنة 1836 م وصل العالمان هلتون (Hulton) وكروتندن (Gruttenden) إلى اليمن، وجمعا معلومات، ومرض هلتون وتوفي، ونشر كروتندن المعلومات التي توصلا إليها[1].

واستطاع جوزيف توماس ارنود (Arnaud) ـ وهو صيدلي فرنسي كان يعمل لدى إمام اليمن ـ أن يحصل على ستة وخمسين نقشاً، سلمها للقنصل الفرنسي في جدة، واستطاع أن يزور سد مأرب، وهو أول أوربي يزور السد ويضع له خريطة، وقد لقي هذا صعوبات كثيرة، وأصيب بالرمد الذي أدى إلى عماه سنة 1843 م.

وحصل الأميرالاي الإنجليزي كوكلان (Coghlan) في سنة 1860 م من العرب اليمنيين على مجموعة من اللوحات البرونزية السبئية، وفي هذه الفترة دخلت في المتحف البريطاني أربعون قطعة من النقوش واللوحات اليمنية.

وقد اهتم المعنيون بالدراسات الشرقية من الفرنسيين بالمعلومات التي حصل عليها ارنود، فعزموا على تكوين جمعية للآثار السامية، وبعثت هذه الجمعية سنة 1869 م جوزيف هالفي (Halevy) وهو عالم يهودي، وصل إلى

= يحيى نامي: العرب قبل الإسلام، تاريخهم، لغتهم، آلهتهم ص 53 ـ 83، علي الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي ص 26، فوزي عفيفي: نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ص 34.

(1) المراجع السابقة، وأحمد فخري: اليمن ماضيها وحاضرها، الفصل الخاص بتاريخ الأبحاث الأثرية ص 75 ـ 118.

مأرب بمعونة يهود اليمن، واكتشف منطقة الجوف، وسار إلى نجران وعاد ومعه ستمائة وثمانون نقشاً، وكان برفقته يعقوب سفير (Saphir).

وكان الموظفون الأتراك في اليمن يشترون آثاراً كان يجلبها العرب إلى صنعاء، وقد أرسلوا إلى المتحف التركي بالقسطنطينية ما يقرب من خمسين نقشاً، أغلبها قطع من نقوش، وقد نشرها المستشرقان مولر (Muller) ومورتمان (Mordtmann).

وفي سنة 1882 م سافر سيجفريد لنجر (Langer) إلى اليمن، وهو مستشرق نمساوي مختص باللغة العربية، وحصل على اثنين وعشرين نقشاً، وكانت نهايته القتل، إذ أطلق دليله عليه الرصاص وهو يستحم بنهر (بنا) في اليمن[1].

وفي الفترة ما بين سنة 1882 ـ 1884 م قام جلازر (Glaser) بثلاث رحلات إلى اليمن، وجلازر عالم فلكي نمساوي وأستاذ اللغة العربية، وكان قد درس العادات والتقاليد والديانة واللغة لعرب الجنوب، وكان يحدد هدفه قبل البدء بالرحلة، وكان محبباً لكثير من القبائل، وكان يرسل النتائج التي يتوصل إليها من دراسته للنقوش إلى الأكاديمية الفرنسية، ثم قام برحلة أخرى سنة 1885 م جمع فيها سبعة وثلاثين نقشاً من إقليم الجوف، وقد أضيفت هذه المجموعة إلى المتحف البريطاني، وعندما عاد كان معه مائة وخمسون نسخة من النقوش الجنوبية.

وفي سنة 1887 م قصد جلازر مأرب متنكراً في زي شيخ، وقام بنسخ الكتابات التي كانت على السدود، وعمل قياسات للمعبد الموجود، وعاد بنقوش وقطع أثرية ونقود وخواتم، وقد حفظت كلها في برلين، وأحضر معه ما يقرب من أربعمائة نسخة لكتابات مختلفة.

وعاد جلازر مرة أخرى إلى اليمن سنة 1892 م، ولكنه لم يوفق هذه المرة بسبب الظروف السياسية حيث أن القبائل كانت ثائرة ضد الأتراك، وقد

(1) أحمد فخري: المرجع السابق.

تجمعت وحاصرت صنعاء، وكان من العسير عليه أن يغادر صنعاء، فلم ييأس جلازر، واستأجر بعض البدو وعلمهم طريقة طبع النقوش على الورق بـ (الاستمباج)، وهو عبارة عن ورق نشاف مخصوص يوضع على النقوش بعد بله بالماء ثم يضغط عليه فتطبع النقوش عليه، وقد نجحت هذه الطريقة، لأن البدو كانوا يحاسبون عن كل استمباج بمبلغ مغر، فانسل البدو خفية من وسط أخطار الحروب إلى الأماكن المغطاة بالخرائب التي لم يدخلها أي أوربي ولم يصل إليها أحد إلا نادراً في ذلك الوقت، وحصل جلازر بهذه الطريقة من أقاليم الجوف على كمية ثمينة من النقوش المعينية، وحصل على نقش صرواح الكبير المكتوب في العصر القديم للمملكة السبئية والذي يحتوي على ما يقرب من ألف كلمة سبئية وكذلك ما يقرب من مائة نقش كتبت في عهد المملكة القتبانية[1].

وقد كان للعرب المعاصرين دور في هذه الرحلات الأثرية فقد أرسلت الجامعة المصرية سنة 1936 م بعثة علمية إلى بلاد اليمن، وقد جمعت هذه البعثة واحداً وتسعين نقشاً، بينها تسعة وسبعون نقشاً جديداً لم تعرف من قبل، كما أحضرت إلى مصر من هذه النقوش أحد عشر نقشاً، وهي موجودة في كلية الآداب جامعة القاهرة بقسم الجغرافية، كما نسخ الدكتور حزين رئيس البعثة صور بعض المخربشات الثمودية من حضرموت[2].

وسافر في هذا العام 1936 م نزيه مؤيد العظم وهو صحفي سوري إلى صرواح ومأرب، ونسخ بعض النقوش المكتوبة على أنقاض سد مأرب، كما نسخ بعض النقوش من أماكن أخرى، ونشر نزيه العظم كتاباً في القاهرة سنة 1938 م اسمه (رحلة في بلاد العرب السعيدة).

وفي سنة 1945 م استعانت اليمن بمصر لمحاربة أسراب الجراد، فأرسلت الأستاذ محمد توفيق الذي أفاد من وجوده هناك فزار الجوف وشاهد

---

(1) خليل نامي: العرب قبل الإسلام ص 63 ـ 64.

(2) خليل نامي: المرجع السابق ص 70.

آثاره وصورها، وصور آثاراً أخرى ونشر جزءاً منها سنة 1951 م ونشر الجزء الثاني سنة 1952 م.

وفي سنة 1947 م زار اليمن الدكتور أحمد فخري، وتكررت زياراته، وزار خلال ذلك مأرب، وأحضر معه عدداً من الرسوم والصور مع مائة وثلاثين نقشاً لم تنشر من قبل، ومن الأماكن التي زارها: الجوف وخربة سعود والدوريب التي كانت تعرف قديماً باسم كتل، وزار كمنا والبيضاء والسوداء والحرم.

وفي سنة 1952 م جاءت بعثة أمريكية إلى اليمن برئاسة العالم البرت جام (Jamme).

أما العالم اليمني أحمد شرف الدين، فقد قام قبل سنة 1968 م بدراسة علمية ميدانية على أرض وطنه، وصحح فيها بعض النظريات الموجودة في كتب المستشرقين.

في شمال الجزيرة العربية:

بدأت الرحلات الاستشراقية الأوربية بالقدوم إلى شمالي الجزيرة في حوالي القرن السابع عشر، حيث كانت هذه المنطقة قبلة للرحالة والمستشرقين، إلا أنهم لم يحققوا كشوفاً مثل الكشوف التي حققها العلماء الذين زاروا جنوب الجزيرة، ففي عام 1814 م وصل العالم بوركهارت (Burckhardt) إلى جدة وبقي فيها زمناً، ثم توجه إلى مكة عن طريق الحج، ثم زار مدائن صالح، وكشف للأوربيين عاصمة النبطيين.

وفي سنة 1824 م زار ادوارد رويل بعض المناطق الشمالية، وفي سنة 1845 م زار ولستد وادي السرحان وحائل، وفي سنة 1850 م زار المنطقة فون كريمر، وجاء بعده هاملتون سنة 1854 م حيث زار الطائف وجدة، وقام بعد ذلك كارلوجورما برحلة من القدس إلى جبل شمر.

وفي سنة 1875 م زار تشارلس داوتي (Doughty) البريطاني سيناء

والبتراء، وفي سنة 1878 م زار بارتون (Barton) مصر والحجاز، وفي العام نفسه جاء تشارلز هوبر (Huber) وهو فرنسي سويسري، وزار هذه المناطق، وعاد مرة أخرى مع أوتنج (Euting) الألماني فوصلا إلى حائل وتيماء، ثم انفصل أوتنج عن هوبر إثر خصام بينهما سنة 1884 م، فتوجه هوبر إلى خيبر والمدينة وجدة، وقد قتل بالقرب من مكة، ولكن نتائج أعماله وصلت إلى فرنسا، ومن بينها مسلة تيماء التي تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد.

وفي سنة 1906 م زار موريتز (Moritz) بلدة معان وتبوك، وفي سنة 1910 م زار الانجليزي أويس موزل (Musil) شمال الحجاز.

وفي سنة 1907 م كان جوسن (Jaussen) وسافيناك (Savignac) الفرنسيان ـ وهما مبشران مسيحيان ـ يعيشان في القدس، فقصدا منطقة العلا عن طريق الحج، ولكن لم يصرح لهما بالإقامة، وعملا على استصدار موافقة عثمانية بزيارة المنطقة، ثم عادا سنة 1909 م فوصلا المنطقة ومكثا فيها حوالي سنتين، سجلا فيها ما رأياه من آثار تصويراً ورسماً، وجمعا نقوشاً كثيرة، واهتم بنتائج أعمالهما العالم الألماني جريمي (Grimme).

وفي سنة 1962 م زار فردريك ونيت منطقة حائل، وجمع عدة نقوش، وكان يرافقه الدكتور ريد من جامعة تورنتو بكندا، ثم قاما بعمليات مسح أثري فيها سنة 1967 م، وأصدرا في سنة 1970 م كتاباً عن شمال الجزيرة العربية[1].

في أطراف الجزيرة:

أما في أطراف الجزيرة العربية، فقد جرى أول تنقيب أثري في بيحان سنة 1950 م بإشراف جامعة هوبكنز الأمريكية، ثم في حضرموت سنة 1961 م بإشراف معهد شميشونيان بواشنطن.

وممن زار حضرموت وكتبوا عنها مجموعة من العلماء منهم: لتل وفلبي

---

(1) المراجع السابقة المذكورة في ص 20 هامش 3.

وانجرامز وفرياستارك، وجرى أول تنقيب أثري لمعبد الخريصة قام به كاتون ثامبسون (Thompson) مع مجموعة من العلماء[1].

ومن الجهود الكبيرة التي أمدت علم الكتابات العربية بفوائد جليلة ما كتبه العالم السويسري ماكس برشم (Perchem) الذي جمع عدداً وافراً من النصوص العربية القديمة الموجودة على العمائر في سورية وفلسطين مصر، وجمعها في كتابه النفيس (جامع الكتابات العربية) (Corpus Inscripionum Arabicarum) وقد عاونه في إنجاز هذا الكتاب عدد من تلاميذه، وأبرزهم جاسون فييت (Wiet) الذي أتـمّ الجزء الخاص بمصر بعد وفاة أستاذه برشم.

وألف العالم الإسباني ليفي بروفنسال (Levi Provencal) كتاب (النقوش العربية الإسبانية)، جمع فيه عدداً وافراً من النقوش الإسبانية، يضاف إلى ذلك الأبحاث التحليلية التي قام بها كل من مارسيه (Marcais) وفلوري (Flury) وجان دافيد فيل [2](J.D.Weill).

ومن البحوث المهمة كتابات المستشرق أدولف جروهمان (Grohmann) الذي درس البرديات المصرية بعناية كبيرة وقرأها ونشرها[3].

ونشرت نابيا (نبيهة) عبود (Abbott) الأستاذة في جامعة شيكاغو دراسات وكتباً في هذا الموضوع، وكذلك نشر مايلز (Miles) الكتابات الموجودة بالطائف في السعودية، وكتابات أخرى.

وهكذا تضافرت جهود العلماء في الكشف عن الكتابات والحضارات العربية القديمة التي كان لها وجهها المشرق في تاريخ الحضارات العالمية.

---

(1) أحمد شرف الدين: اللغة العربية في عصور ما قبل التاريخ ص 28.
(2) إبراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابة الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، ص 31.
(3) صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، ص 116.

الآثار التي اكتشفها العلماء:

لقد عثر علماء الآثار من المستشرقين وغيرهم على مجموعة مهمة من الآثار، كان لها أثر كبير في معرفة أسرار اللغات والكتابات القديمة، وقد توصلوا إلى حلّ رموزها الخطية، ومن أهم هذه الآثار[1]:

*** حجر رشيد:**

اكتشفه العالم الفرنسي شامبليون بمصر عام 1799 م، وعليه كتابات باللغات الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية، وقد استطاع شامبليون أن يفك رموز هذه الكتابات، وبفضله تمّ معرفة الكتابات المصرية القديمة.

*** حجر النمارة:**

اكتشف المستشرق الفرنسي ديسو (Dussaud) حجر النمارة، بأطلال قصر النمارة، وهو قصر صغير كان للروم في الحرة الشرقية من جبل الدروز بالشام، وعلى هذا الحجر كتابات بالخط النبطي، يعود تاريخها إلى سنة 328 ميلادية.

*** حجر زبد:**

عثر على حجر زبد في أطلال زبد بين قِنِّسْرين والفرات، جنوب شرقي حلب، وعليه نقوش خطية يرجع عهدها إلى سنة 512 ميلادية، والكتابات التي عليه باللغات اليونانية والسريانية والعبرانية القديمة (النبطية).

*** حجر حـرَّان:**

عُثر عليه في حران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، وعليه كتابات

---

(1) نجيب العقيقي: المستشرقون ص 1097، علي الجندي: أطوار الثقافة والفكر ص 383.

يعود تاريخها إلى سنة 568 هـ/ 1143 م، والكتابات باللغتين العربية واليونانية.

*** صخرة بهستون:**

عثر الضابط الإنجليزي هنري رولنسن (Rawlinson) على هذه الصخرة في كردستان سنة 1837 م، وعليها نقوش قديمة بالخط المسماري.

*** أحجار آشورية:**

عثر أوستن ليرد في إحدى مقاصير الملك آشور بانيبال الذي ملك سنة 668 قبل الميلاد، عثر على أحجار كثيرة تجاوزة الأربعة آلاف حجر، وكلها منقوشة بالخط المسماري.

*** لوحات منطقة أور:**

أور عاصمة الكلدان بين النهرين، عُثر فيها على لوحات قد نقش عليها بالخط العبري الأول، ويرجع عهدها إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

*** ناووس ملك صيدا:**

عُثر على ناووس الملك اسمو نزار ملك صيدا، الذي توفي قبل ميلاد المسيح بنحو 380 عاماً، وعليه كتابة فينيقية.

*** صخور ظفار:**

اكتشف العالمان الدانماركيان نيبور وستزن صخور ظفار سنة 1711 م وعليها نقوش حميرية.

*** آثار نقاب الهجر وحصن الغراب:**

اكتشف العالم ولستيد سنة 1834 م آثار نقاب الهجر وحصن غراب على ساحل حضرموت.

* آثار صنعاء الخطية :

اكتشف الرحالة كروتندن سنة 1836 م آثار صنعاء الخطية، وهي باللغة الحميرية .

* صخور سد مأرب الخطية :

اكتشف العالم الفرنسي ارنود وجلازر وغيرهما آثار صخور سد مأرب الخطية .

* آثار حضرموت :

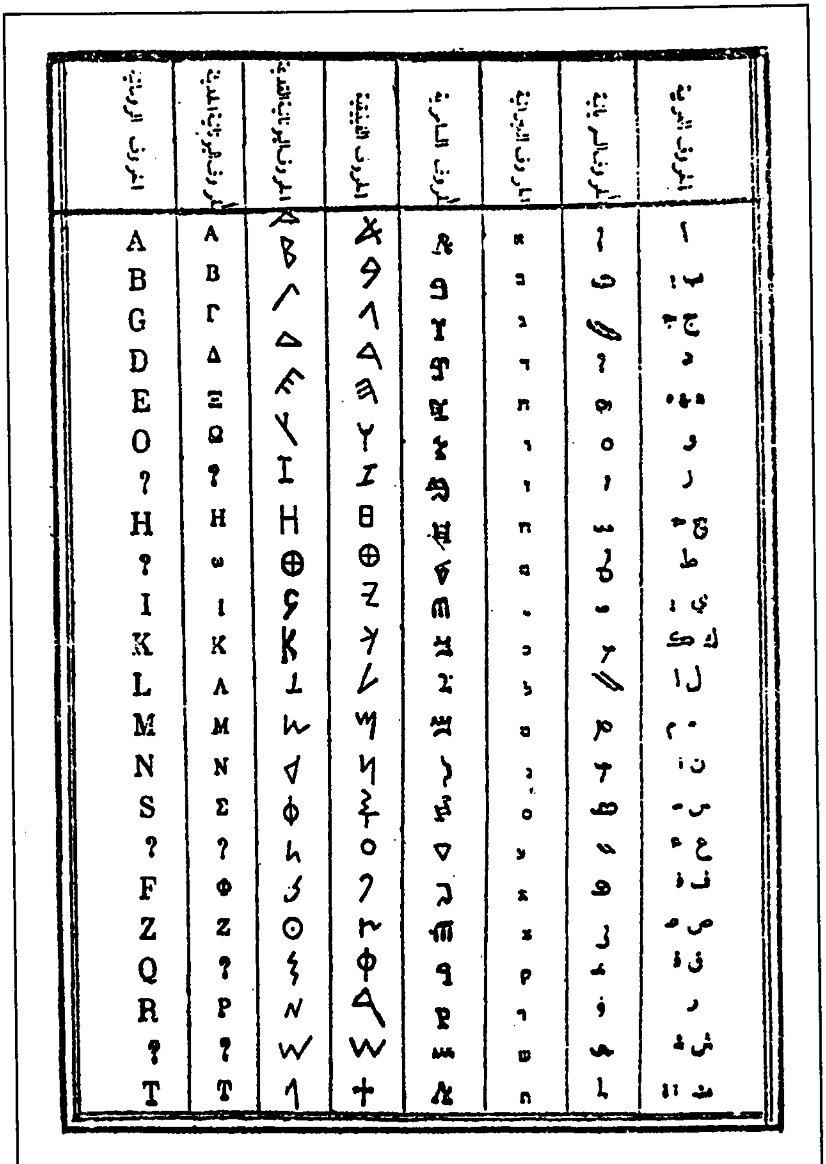
عثر الرحالة فريده (Wrede) سنة 1870 م على آثار حضرموت .

* ديار عاد وثمود :

وعثر العلماء على صخور ديار عاد وثمود ومشهد وادي ثقب والكتابات عليها بالخط الحميري .

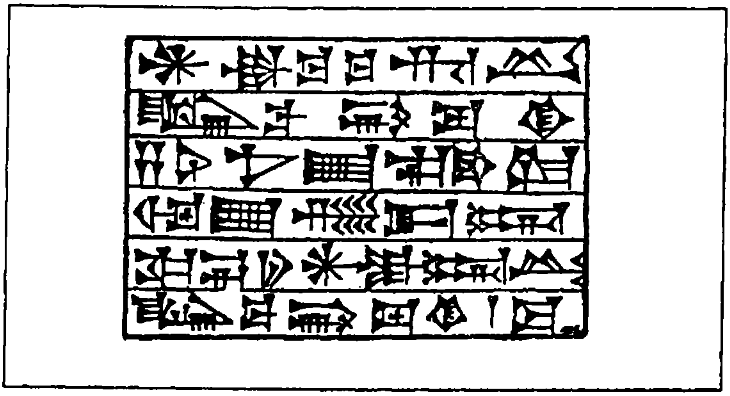
وهناك كشوف كثيرة أُخرى، منها ما وجد في مصر، من آثار قدماء المصريين ونقوشهم الخطية، التي سجلوها على معابدهم ومقابرهم وهياكلهم ومسلاتهم، وكذلك ما وجد في بلاد الرافدين، من الخطوط والكتابات على الجدران والمسلات والهياكل، وفي المتاحف مجموعات كثيرة من الكتابات على أوراق البردي، وفي دور الآثار العربية والأوربية أحجار ورُقم كثيرة عليها كتابات تمثل الحضارة الشرقية، يجدر التنويه بها، ومن الصعب حصرها .

نماذج من الحروف والكتابات القديمة

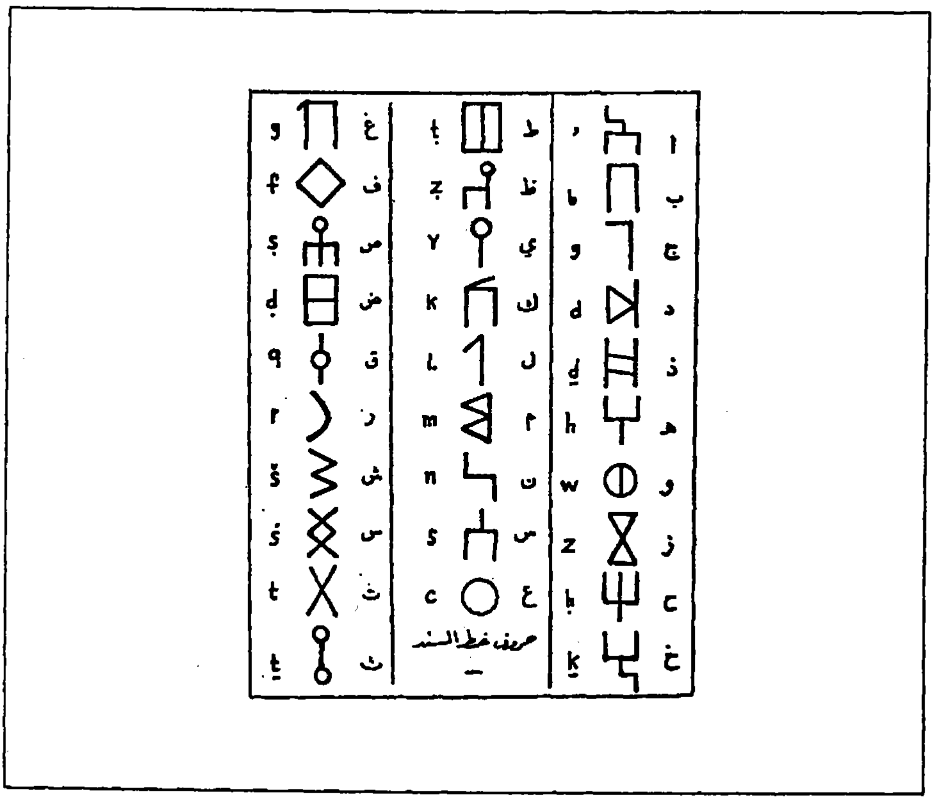


الحروف العربية ومقارنة بين الحروف العربية وغيرها

(من كتاب التاريخ الخط العربي للكردي ص 134



نموذج من الكتابة المسمارية‌الإسفينية التي كانت عند الآشوريين في العراق القديم



حروف خط المسند أصل الكتابة العربية

الفصـــل الثانـــي

التـدويـن والتأليـف

التدوين والتأليف

الكتـــاب:

الكتاب اسم لما كُتِب مجموعاً، والكتاب مصدر، والكتابة لمن تكون له صناعة مثل الصياغة والخياطة، وجمع الكتاب كُتُبٌ، وكُتْبٌ (بسكون التاء)، وكتبَ الشيء يكتبه كَتْباً وكتاباً وكتابة، والكِتْبة: اكتتابك كتاباً تنسخه، والكتاب: ما كُتِب فيه، والكتاب: الصحيفة والدواة، والكتاب: الفَرْضُ والحُكْم والقَدَرُ، قال الجعدي:

يا ابنة عمي كتابُ اللّهِ أخرجني عنكم وهل أمنَعَنَّ اللهِ ما فعلا

والكتاب يوضع موضع الفَرْض، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ معناه: فُرِضَ[1].

ومفهوم الكتاب عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام هو المفهوم الديني، ويُراد به الوحي، وما نزل على الأنبياء، وأهل الكتاب هم: اليهود والنصارى، والكتاب هو: القرآن الكريم الذي أُنْزِلَ على النبيّ الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2].

(1) اللسان (كتب).
(2) النساء: ١٣٦.

وعرف المسلمون الكتاب بمفهومه الإسلامي وهو القرآن الكريم، وهو أول كتاب مدون في تاريخ العرب والمسلمين، لا يعرفون غيره، ومن ثم اتسع مفهوم الكتاب ليشمل ما دُوِّنَ بعد ذلك من علوم دينية وأدبية ولغوية وغيرها.

وكان اسم الكتاب يطلق أيضاً على الرسالة المكتوبة، وعُرِفت رسائل الرسول بكتب الرسول التي كان يرسلها إلى من يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك أُطلِق الكتاب على رسائل الخلفاء ومن بعدهم، وعمَّ استعمال الاسم فأصبح يشمل كل ما هو مكتوب.

بدايات التدوين:

عرفت الكتابة في العصر الجاهلي، وإن كانت على نطاق ضيق، وغلبت الرواية الشفهية على نقل الأشعار والأخبار، ولكن هناك ما يعزز كتابة الشعر مع روايته رواية شفوية[1].

ومن البدهي أن تظهر الكتابة في المدن كالحيرة والشام ومكة ويثرب واليمن خاصة، حيث الحضارة القديمة المستقرة، وقد تمثلت الكتابات في النقوش المعينية والسبئية والحميرية، ومن غير المتوقع أن نجد كتاباً بمعنى الكتاب المكون من عدة صحف في الجاهلية، ولكن الكتب الأولى التي وصلت أو ذكرها المؤرخون كانت من القرن الأول الهجري، ومن علماء يمتون إلى الحضارة اليمنية والأصل اليمني، من ذلك كتاب عن تاريخ الحميريين يحتوي على أسماء الملوك القدماء، وبعض القصص والأخبار والوقائع التي حدثت في الجاهلية، وهو كتاب (أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) لعبيد بن شَرِيَّة الجرهمي (ت 70 هـ/ 689 م)، قيل إن معاوية أشخص عبيد بن شرية من صنعاء ليسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمْرِ افتراق الناس في البلاد، ثم أمر معاوية أن يدوَّن ويُنسب إلى عبيد بن شرية[2]، وكان

(1) سزكين: تاريخ التراث العربي 1/ 397.

(2) ابن النديم: الفهرست ص 132، المسعودي: مروج الذهب، ط أوربا 4/ 89.

عبيد من المعمرين عاش في الجاهلية وأدرك زمن معاوية حتى نهاية حكمه[1]، ولعبيد بن شرية كتاب آخر هو (كتاب الأمثال)، ذكره الميداني وأفاد منه، كما روى عنه ابن اسحاق[2].

وكتاب آخر فيه أخبار الجاهلية وملوك اليمن هو (كتاب الملوك)، أو كتاب (التيجان) لوهب بن منبه (ت 110 هـ/ 728 م) والكتاب مطبوع مع كتاب عبيد بن شرية، ويتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة، ولوهب كتاب آخر يسمى كتاب (المبتدأ في الأمم الخالية)[3]، وينسب لوهب كتاب آخر باسم (قصص الأنبياء) وهو في الإسرائيليات، نقل عنه المفسرون كثيراً[4]، وعالم آخر من علماء اليمن هو كعب الأحبار (ت 32 هـ/ 652 م)، وكان من يهود اليمن وأسلم، وله مرويات كثيرة أدخل فيها الإسرائيليات، ووصل له كتاب طبع بأخره اسمه (في حديث ذي الكفل)[5].

وقد عُرف في هذه الفترة من علماء عرب الشمال العدنانيين، الذين برعوا في الشعر والأخبار والأنساب وأيام العرب، رجال منهم: مخرمة بن نوفل، وأبو الجهم بن حذيفة، وحويطب بن عبدالعزى، وعقيل بن أبي طالب، وقد نقل عنهم وأشاد بهم الجاحظ في كتابيه الحيوان والبيان والتبيين[6].

وقد كان التدوين وانتشاره مرتبطاً بتيسر الرقوق والقراطيس، والورق من بعد ذلك، وكانت الصحف قد انتشرت منذ الصدر الأول، وصار لها أسواق ومتاجر، ومن يقومون بالنسخ وتكثير الكتب، وقد عُرِف هؤلاء بالوراقين[7]،

---

(1) السجستاني: كتاب المعمرين ص 40، وقيل: بل أدرك زمن عبد الملك بن مروان، الفهرست ص 132.

(2) جب: دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية 4/ 484.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 115.

(4) شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص 454.

(5) السابق ص 455.

(6) البيان والتبيين 1/ 323 ـ 324.

(7) ينظر فصل الوراقة والوراقون من هذا الكتاب.

ومما يروى عن قدم الوراقة وتيسر الصحف، ما روي أن علي بن أبي طالب، خطب الناس في الكوفة، فقال: من يشتري علماً بدرهم، فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم، ثم جاء بها علياً، فكتب له علماً كثيراً[1]، وكان الصحابة والتابعون يشترون صحفاً ليكتبوا لهم مصاحف، وقد عُرف بعضهم باسم الوراق، من أولئك مطر بن دهمان مولى علي بن أبي طالب، كان يُدعى مطراً الوراق، وكان عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب، ومالك بن دينار، وسلمة بن دينار الأعرج، ممن ينسخون المصاحف[2].

لقد عُرف التدوين منذ عهد الصحابة والتابعين، وكانوا يكتبون الكتب الدينية مثل التوراة والإنجيل ومجلة لقمان وكتاب دانيال، من ذلك ما ذكره خالد بن عرفطة من أن رجلاً من أهل السوس، نسخ كتاب دانيال، فضربه عمر بن الخطاب بالدرَّة ثلاثاً، ثم قرأ عليه القرآن وأمره أن يمحو ما كتبه، وقال له: لا تقرأه ولا تقريه أحداً من الناس، ثم قال له عمر: «انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: ما هذا بيدك يا عمر؟ قال، قلت: يا رسول الله، كتاباً انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه»[3].

وقد كثرت الكتب في زمن عمر بن الخطاب، وخشي أن تشغل الناس عن قراءة القرآن، وأن تضلهم، وقد خطب الناس وقال: «أيها الناس، إنه بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاباً إلا أتاني به فأرى فيه رأيي» فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار[4].

وقد كثرت الكتب في منتصف القرن الأول من الهجرة وصارت تباع في الأسواق، ومن دلائل ذلك ما روي من أن همام بن منبِّه كان يشتري الكتب

---

(1) ابن سعد: الطبقات 6/116، الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 90.

(2) السجستاني: كتاب المصاحف ص 133، 169، 172، تقييد العلم ص 55، 59، وينظر: ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص 136 ـ 137.

(3) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 51 ـ 52.

(4) تقييد العلم ص 53.

لأخيه وهب بن منبه (ت 110 هـ/ 728 م)، ومعروف أن وهب بن منبه كان واسع الاطلاع قد قرأ كثيراً من الكتب[1].

ومما يعزز كثرة الكتب وانتشارها أن بعض العرب في العصر الأموي قد أنشأ مكتبة عامة يؤمها الناس فيقرأون فيها، فقد ذُكر أن عبد الحكيم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي، قد اتخذ بيتاً، فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرْقات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل على الجدار أوتاداً، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جرَّ دفتراً فقرأه، أو بعض ما يُلعب به فلعب به مع بعضهم[2].

ومما يدل على أن حركة التأليف قد بدأت مبكرة، ما يُروى عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قد انصرف إلى العلم وتأليف الكتب وترجمة بعضها، أو تُرجمت له إلى العربية، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء[3].

ولننظر بعد هذا إلى بدايات حركة التدوين في بعض العلوم البارزة التي كان لها أثر واضح في حركة التدوين والتأليف، لنتعرف على بدايتها وتطورها حتى بلغت أوج نضجها في العصور العباسية.

التأليف في الأنساب:

لقد برع عرب الشمال بالأنساب، واهتموا بها اهتماماً كبيراً، حتى أن الجاحظ قد أحصى ممن ألف في الأنساب أربعة عشر رجلاً، وقد عاش أكثرهم في الجاهلية أو عند ظهور الإسلام[4]، من هؤلاء:

سطيح الذئبي (ت 52هـ/ 672م) وقد عُرف بعرَّاف العرب وحكيمهم[5].

---

(1) ابن سعد: الطبقات 5/395، ابن حجر: تهذيب التهذيب 11/67.

(2) الأغاني 4/253.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين 1/328.

(4) الجاحظ: الحيوان 3/209 ـ 220.

(5) المسعودي: مروج الذهب 3/364.

دغفل بن حنظلة السدوسي، الذي برع في النسب وعاش في الإسلام وتوفي سنة 70 هـ/ 689 م، وصفه ابن النديم بقوله: «نسَّابة أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه، ووفد على معاوية»[1]، وكانت مجالسه مع معاوية قد دونت في كتاب اسمها (التضافر والتناصر)، وتدور هذه المجالس بينهما في أسلوب حواري، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب، ويجيبه دغفل بعبارات بليغة، وقد دوَّن الجاحظ بعضها[2]، وقد أثنى الفرزدق على كتاب الأنساب لدغفل، واقتبس منه الهمداني سلاسل للأنساب في كتابه الإكليل[3].

كانت عناية العرب بالأنساب كبيرة في الجاهلية، وقد استمر هذا الاهتمام في الإسلام، ومن دلائل ذلك ما روي أن الخليفة عمر بن الخطاب طلب من بعض نسَّابي قريش أن يعدوا له شجرة بأنساب العرب، فقد طلب ذلك من جبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وقد عرفوا ببراعتهم في معرفة الأنساب وحفظها[4]، وقيل إن جبير بن مطعم أخذ هذا العلم بالأنساب من أبي بكر الصديق، الذي عُرف بإحاطته بأنساب العرب وأيامها وأشعارها[5]، وممن عُرف وشُهر بمعرفته بعلم الأنساب من الصحابة والتابعين أيضاً: عبدالله بن عباس، وعبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري (ت 83 أو 93هـ/ 702 أو 711 م)، وسعيد بن المسيب (ت 94 هـ/ 712 م)، وقتادة بن دعامة (ت 118 هـ/ 736 م)، وأبو بكر محمد بن مسلم الزهري (ت 124 هـ/ 741 م)[6].

وكانت مدونات الأنساب هذه، المادة التي رجع إليها العلماء ومؤلفو الطبقات والتراجم والسير والمغازي، واستمدوا معلوماتهم وأخبارهم من

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 131.
(2) البيان والتبيين 1/121، 247، 2/80، 253، التحفة البهية ط استانبول ص 38.
(3) الإكليل 1/404، أبو عبيدة: النقائض ص 189.
(4) ابن سعد: الطبقات 3/295 ـ 299.
(5) ابن حجر: الإصابة 1/461، 2/380.
(6) ابن سعد: الطبقات 2/387، سزكين: تاريخ التراث العربي 1/415.

مرويات أولئك الرجال، وفي كتاب الطبقات لابن سعد اقتباسات من كتاب (نسب الأنصار)[1]، وقد لمع مؤلفون في الصدر الأول في علم النسب، أحصاهم ابن النديم في الفن الأول من المقالة الثالثة[2]، وذكر كتبهم، منهم صُحار العبدي وله كتاب (الأمثال)، والصَّغَدي الذي كان عارفاً بأخبار النبي ﷺ وله كتاب (عُراة ذات الأباطيل)، ومعمر بن راشد من أصحاب السير والمغازي، وكان من أهل الكوفة، وأبو مخنف الذي يذكر له ابن النديم كتباً كثيرة في الفتوح والمقاتل والشورى.

ولم تقتصر كتب الأنساب على الأنساب وحسب، بل تجاوزت ذلك إلى تاريخ العرب منذ الجاهلية، وقد ضاعت كتب علماء النسب الأوائل، ولم يصل منها غير بعض المقتبسات في كتب مؤلفي العصر العباسي، أو ذكر أسمائها وحسب، ومن تلك الكتب التي ضاعت مؤلفات خالد بن طليق بن محمد الخزاعي الذي ولاّه الخليفة المهدي قضاء البصرة سنة 166 هـ/ 782 م، ألّف كتباً ذكرها ابن النديم[3] منها: كتاب المآثر، وكتاب المتزوجات، وكتاب المنافرات، وكتاب البرهان.

ومن مؤلفي النسب الذين ضاعت كتبهم أبو اليقظان سحيم بن حفص (ت 190 هـ/ 805 م)، كان عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب، وكان ثقة في مروياته، ذكر ابن النديم له خمسة كتب هي[4]: كتاب حلق تميم بعضها بعضاً، كتاب أخبار تميم، كتاب نسب خندف وأخبارها، كتاب النسب الكبير، وفيه نسب إياد وكنانة وأسد بن خزيمة، والهون بن خزيمة، وهذيل بن مدركة، وقريش، وقيس عيلان، وربيعة، وتيم بن مرة، وله كتاب النوادر، رآه ابن النديم بخط سعدان.

---

(1) الطبقات 3/ 626، 5/ 74.
(2) الفهرست ص 131 ط مصر، وص 102 ط طهران.
(3) الفهرست ص 139.
(4) الفهرست 138.

ومن النسَّابة أيضاً أبو هلال لقيط بن بكر المحاربي الكوفي (ت 190 هـ/ 805 م)، يصفه ابن النديم[1] بأنه كان من الرواة المصنفين للكتب، وكان سيء الخلق وشاعراً، وذكر له ثلاثة كتب هي: كتاب السمر، وكتاب الحراب واللصوص، وكتاب أخبار الجن.

ومن النسَّابة أبو البختري وهب بن وهب بن كثير بن عبدالله من قصي (ت 200 هـ/ 815 م) كان فقيهاً إخبارياً ناسباً، ولاه الرشيد القضاء بعسكر المهدي، ثم ولاه المدينة وجعل له حَرْبَها مع القضاء، ذكر له ابن النديم[2] ستة كتب، هي: كتاب الرايات، وكتاب طسم وجديس، وكتاب صفة النبي ﷺ وكتاب فضائل الأنصار، وكتاب الفضائل الكبير، ويحتوي على جميع الفضائل، وكتاب نسب ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وفيه أخبار وقصص.

ومن علماء النسب أيضاً عمارة بن القداح الأنصاري المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، كان عالماً بالنسب، أخذ عنه مصعب بن الزبير، وابن سعد، وعمر بن شبة، ولعمارة كتاب نسب الأنصار، اعتمد عليه ابن سعد في تاريخه للأنصار في طبقاته[3]، ونقل عنه ابن حجر في الإصابة، والطبري في تاريخه.

أما أبرز علماء النسب ومؤلفيهم فهو هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 206 هـ/ 821 م)، كان عالماً بأخبار العرب وأيامها وأنسابها ووقائعها ومثالبها، له مصنفات كثيرة في النسب والأيام والأحلاف والبيوتات والمنافرات وأخبار الأوائل والأسماء وغيرها، وله في الأنساب: كتاب نسب قريش، وكتاب نسب معد بن عدنان، وكتاب نسب ولد العباس، وكتاب نسب آل أبي طالب، وكتاب نسب بني عبد شمس بن مناف، وكتاب نسب بني عبد الدار بن قصي، وكتاب نسب بني زهرة بن كلاب، وكتاب نسب بني تيم بن مرة، وكتاب نسب

---

(1) الفهرست 138.

(2) الفهرست ص 146 ـ 147.

(3) ابن سعد: الطبقات 3/ 447.

بني عدي بن كعب بن لؤي، وغيرهم. وله كتاب النسب الكبير، ويحتوي على نسب القبائل العدنانية والقحطانية، ومن كتبه كتاب أولاد الخلفاء، وكتاب أمهات النبي ﷺ، وكتاب العواتك، وكتاب أمهات الخلفاء[1]، وقيل إن هشام بن محمد الكلبي اعتمد في علم الأنساب على كتاب ألفه أو رواه أبوه محمد بن السائب الكلبي[2].

التأليف في المغازي والسير والتأريخ:

كانت الأخبار والقصص والأساطير الجاهلية تروى شفاهاً، ولم يكن هناك تدوين تاريخي في ذلك العصر، وحتى الدول المجاورة كالمناذرة والغساسنة لم تخلف مدونات تاريخية، وإذا استثنينا الكتابات والنقوش التي كانت في اليمن والشام، فلا نجد شيئاً وصل من العصر الجاهلي.

وأول تفكير في الحوادث التاريخية بدأ في الإسلام، وقد رافق تفسير القرآن الكريم، فقد شعر المسلمون بحاجتهم إلى معرفة مناسبة النزول والحوادث التي تشير إليها الآيات، وفي القرآن إشارات إلى الأمم والأنبياء، وقصص الأمم البائدة، فرغب المسلمون في معرفة هذه الإشارات وتوضيحها، فاستعانوا باليهود والنصارى، فصار هؤلاء يحدثونهم عن قصص التوراة والإنجيل وشروحهما، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ، وعرفت هذه الأخبار باسم (الإسرائيليات)، وقد أكثر من هذه الأخبار كعب الأحبار (ت 34 هـ/ 654 م)، ووهب بن منبه (ت 110 هـ/ 728 م)، وتركا آثارهما في كتب التاريخ والتفسير التي ألفت فيما بعد[3].

وقد وجد المسلمون في الأحاديث النبوية أموراً تتعلق بحياة النبي ﷺ والصحابة فطفقوا يجمعون هذه الأخبار، فكانت أساساً لكتب السيرة والمغازي، وحين صارت للمسلمين دولة، وثبت نظام الملك في العصر الأموي،

---

(1) الفهرست ص 140 ـ 143.

(2) سزكين: تاريخ التراث العربي 1/ 433.

(3) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب ص 15.

واستجدت في حياتهم مشكلات اجتماعية وسياسية واقتصادية، نظروا إلى الأمم الأجنبية التي رسخ لديهم نظام الحكم، فاستعانوا بما وقع لديهم من أخبار تلك الأمم وسياسة الحكم الخاصة، وقد اهتم بهذه الأخبار معاوية بن أبي سفيان، روى المسعودي عن معاوية أنه كان يقتبس من تجارب السابقين، فهو: «يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة. . . ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»[1].

وكان لانتشار العرب في البلدان المفتوحة، أن واجهتهم مشكلات مالية تتعلق بالخراج وكيفية تحصيله، لأن الخراج يختلف حسب البلدان المفتوحة صلحاً أو عنوة أو بعهد، وكذلك اختلف عطاء المسلمين منذ عهد عمر، فصار حسب السابقة في الإسلام، وحسب أنسابهم وقرابتهم من النبي ﷺ ثم من أبي بكر وعمر، وقد استدعى هذا البحث في الأنساب، ومن ثم ظهور كتب الطبقات، وقد كانت العناية بالأنساب منذ الجاهلية، فازداد الاهتمام بها في هذا العصر، وظهرت في فترة مبكرة مؤلفات في شتّى العلوم، فنجد كتاباً في الأمثال يؤلفه صحار العبدي، وكتباً في الكيمياء تترجم باهتمام من خالد بن يزيد بن معاوية، وتترجم كذلك كتب في الطب، ويجمع الحديث النبوي في عهد عمر بن عبدالعزيز، ويؤلف عروة بن الزبير كتباً في الفقه، أحرق بعضها في يوم الحرة[2]، وتعد هذه الكتب باكورة المؤلفات.

وإذا جئنا إلى أوائل المؤلفات نجد أن الأخبار الشفوية التي كانت تُروى عن العصر الجاهلي وأخباره وأيامه وعلومه، صارت تدون في العصر الأموي، وتُصنف رسائل منذ عهد معاوية، ويؤلف في هذه الفترة زياد بن أبيه

(1) المسعودي: مروج الذهب 2/52.
(2) ابن حجر: تهذيب التهذيب 7/183.

(ت 53 هـ/ 672 م) كتاباً في مثالب العرب[1] ليغطي بذلك على نسبه المغموز، بعد أن استلحقه معاوية، ويؤلف دغفل النسابة البكري (ت 60 هـ/ 679 م) كتاباً في المجالس والأسمار ويسمي هذا الكتاب (التضافر والتناصر)، وكان معاوية يسأله أسئلة فيجيب عنها، وكانت أكثر هذه الأسئلة في أخبار أدبية، فالكتاب يمثل التاريخ الأدبي المعني بالسمر، وتتضح فيه جودة العبارة وحسن صياغتها.

وتنقل عن عبدالله بن عباس (ت 68 هـ/ 687 م) مدونات أفاد منها المؤرخون في العصور العباسية، وجل هذه المدونات في التفسير التي نقلت عنه في مجالسه التي كان يفسر بها القرآن الكريم، ويستعين بمحفوظه الغزير من الشعر الجاهلي، وقد دونها عنه طلابه[2].

ويؤلف عبيد بن شرية الجرهمي (ت 70 هـ/ 689 م) (كتاب الملوك وأخبار الماضيين)[3]، ويقال إن عمرو بن العاص أشار على معاوية ـ لما رأى فيه من حب المسامرة وأخبار الماضيين ـ باستدعاء عبيد بن شرية الجرهمي وتدوين أحاديثه ونسبتها إليه، ففعل معاوية، وأمر غلمانه أن يدونوا أقوال عبيد بن شرية وهو يسامره ويحدثه، ويجيب عن أسئلته، ويُعد هذا الكتاب من كتب التاريخ العربي الأولى، إذ يتناول فيه تاريخ اليمن، منذ اجتماع البشر في بابل ثم تفرقهم وخروج بني سام إلى اليمن، ثم يذكر أخبار اليمن وما أرسل إليهم من أنبياء، ويعتني كذلك بأخبار الملوك وغزواتهم، ويغلب على هذا الكتاب أسلوب مجالس السمر التاريخية وما يغلب عليها من أسلوب حواري، حيث يسأل معاوية ويجيبه عبيد بن شرية بشرح وتفصيل، ويتخلل تلك الأخبار أشعار، فقد كان معاوية يسأل بعد أن يسرد عبيد بعض الأخبار: «فهل قيل في ذلك شعر؟»، ولعل معاوية كان يستأنس بالشعر على تذكر الأخبار، ويتخذه دليلاً كذلك على صدق الخبر، والبرهان على صحة الحديث.

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 89.

(2) ينظر في هذا: الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي فصل تفسير القرآن الكريم ص 174 ـ 191.

(3) الفهرست ص 89.

وممن عُرف برواية الأخبار والمغازي أبان بن عثمان بن عفان (ت 105 هـ/ 723 م)، وأبان من علماء الحديث والفقه، وقد برع في مغازي رسول الله ﷺ، وأخذ عنه المغيرة بن عبد الرحمن[1]، وكان أبان يروي عن أبيه عثمان بن عفان، وقد نقلت بعض كتب الطبقات والأدب عن أبان بن عثمان أخباراً عن بردة الرسول ﷺ التي أعطاها لكعب بن زهير، ووفاة عمر بن الخطاب، وغير ذلك[2].

ومن معاصري أبان بن عثمان، عروة بن الزبير (ت 94 هـ/ 712 م)، وقد رويت عنه أخبار في التاريخ والمغازي أكثر من أبان بن عثمان، وكان ذوو الأمر يسألون عروة عن الأخبار التاريخية فيجيب عنها شفاهاً أو كتابة، فمن الكتابة ما طلبه منه عبد الملك بن مروان أو ابن أبي هنيدبة الذي كان في بلاط الوليد بن عبدالملك في سائل بعثها إليهما، وقد دون بعض تلك الرسائل ابن إسحاق والواقدي والطبري[3]، من ذلك رسالة عروة إلى عبد الملك بن مروان في أمر هجرة الحبشة، ورسالة عن موقعة بدر، وثالثة عن فتح مكة، ورابعة عن وفاة خديجة وهجرة النبي والصحابة إلى المدينة، وغير ذلك[4]، وتمثل رسائل عروة هذه أقدم المدونات التي وصلت عن الحوادث الخاصة بحياة النبي ﷺ، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية، ويقول حاجي خليفة إن عروة أول من صنَّف في المغازي[5]، ولكننا لا نجد في المصادر القديمة ذكراً لأي كتاب لعروة، وكانت عناية عروة بن الزبير منصرفة إلى جمع الأخبار المتصلة بحياة النبي وحياة الصحابة وحوادث الخلفاء الأولين، وحوادث الفتوح في عهدهم، من ذلك وقعة القادسية واليرموك وفتح الشام[6]، وقد عني كذلك بتاريخ آل

---

(1) ابن سعد: الطبقات 5/ 156.

(2) ابن سعد 3/ 262، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 106.

(3) الطبري: تاريخ 1/ 1180.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية 3/ 340، الطبري: التفسر 8/ 42.

(5) كشف الظنون 5/ 646.

(6) الطبري: تاريخ 1/ 1185، 1199، 1242 وغيرها.

الزبير وجمع أخبارهم وحروبهم، وقد نقلت عنه تلك الأخبار كتب التاريخ والأدب كتاريخ الطبري وكتاب الأغاني وحلية الأولياء وغيرها[1].

وممن ألّف في المغازي وهب بن منبه (ت 110 هـ/ 728 م)، ولم يكن وهب من أهل الحجاز كسابقيه، وإنما كان من أهل اليمن من بلدة ذمار بجوار صنعاء، ويقول حاجي خليفة: إنه جمع المغازي[2]، وقد حفظت بعض المراجع القديمة قطعتين من المغازي، تتناول الأولى فتح مكة، والثانية وفاة الرسول ﷺ[3]. وفي العصر الحديث اكتشف المستشرق بيكر (Becker) مجموعة أوراق بردي محفوظة في هيدلبرج فيها قطعة لوهب بن منبه تتناول تاريخ العقبة الكبرى واجتماع قريش في دار الندوة أو الهجرة، وغزوة بني خيثم، ومعنى هذا أن وهباً تناول الفترة المكية والمدنية من حياة الرسول ﷺ[4].

وكتابات وهب يغلب عليها عنايته باليمن موطنه، وكذلك أخبار أهل الكتاب والأنبياء والصالحين، وقد تأثر واستقى معلوماته في ذلك من اليهود والنصارى مواطنيه في اليمن، ونسب له ابن سعد كتاباً اسمه (كتاب العباد)[5]، وذكر له حاجي خليفة كتاباً اسمه (الأخبار)، ولعله هو كتاب العباد السابق، ونسب له أيضاً كتاب (الإسرائيليات)[6]، لأنه شُهر بالنقل عن اليهود والنصارى، ويقول ياقوت الحموي عنه إنه كان: «كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات»[7]، ومن مظاهر عناية وهب بن منبه بوطنه اليمن أن ألّف كتاباً عن اليمن القديمه اسمه: (كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم

---

(1) حسين نصار: المرجع السابق ص 42.
(2) كشف الظنون رقم 12464.
(3) الأصبهاني: حلية الأولياء 4/71.
(4) هورفتس: كتب المغازي أولى ومؤلفوها، ترجمة حسن نصار، عن نشأة التدوين التاريخي ص 49.
(5) ابن سعد: الطبقات 7/97.
(6) حاجي خليفة: كشف الظنون 4/518، 5/40.
(7) ياقوت: معجم الأدباء 6/232.

وقبورهم وأشعارهم)[1]، ولم يصل هذا الكتاب، وقد وصل كتابه الآخر عن ملوك اليمن المعروف بـ (كتاب التيجان في ملوك حمير) وهو من رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية. ويتناول كتاب التيجان تاريخ اليمن مبتدئاً بخلق العالم وقصص آدم وأبنائه حتى عهد نوح وأبنائه، ثم يتناول العرب من الساميين، وعرب الجنوب خاصة، ويذكر تاريخ أقيالهم وملوكهم وذكر غزواتهم، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب، مع ذكر بعض ملوك غسان. وذكر حاجي خليفة لوهب كتاباً آخر هو (كتاب الفتوح)[2]، ولم يذكره أحد من المؤرخين السابقين، وهناك شبه بين كتاب التيجان لوهب بن منبه، وكتاب الملوك وأخبار الماضين لعبيد بن شرية، في طريقة العرض وما فيهما من خيال وأساطير وقصص تاريخية، وكلاهما يضمِّن الأشعار في كتابه ويكثر من الاستشهاد بها، ويمتاز وهب بتأثره بالقرآن الكريم والنزعة الإسلامية الواضحة، والأسلوب البسيط الذي لا تكلف فيه، على الرغم مما فيه من القصص الشعبي والإسرائيليات، وكان وهب يجيد من اللغات العبرانية والسريانية والحميرية.

ومن رواة المغازي والسير عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت 120 هـ/ 737 م)، الذي عرف بأحاديثه عن حياة الرسول ﷺ، وقد وصفه ابن قتيبة بأنه: «صاحب السير والمغازي»[3]، وروى عن عاصم محمد بن إسحاق والواقدي، ونقل عنه ابن سعد في طبقاته، والطبري في تاريخه، وابن هشام في السيرة[4]، واعتنى عاصم في مروياته بالفترة المكية والمدنية من حياة الرسول، ويضمن رواياته ذكر الأشعار على ألسنة المشتركين بالحوادث، وكان يبدي رأيه في الأحداث ويعلق عليها.

وقد ظهر في القرن الثاني مؤرخ مشهور له أثره في الكتابات التاريخية

(1) السابق والصفحة.

(2) كشف الظنون 4/ 387.

(3) ابن قتيبة: المعارف ص 236.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية 2/ 67، 88، 89، 4/ 13.

وكتابة السيرة والمغازي، ذلك هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124 هـ/ 741 م)، كان الزهري عالماً بأخبار العرب وأنسابهم معنياً بهما، قال عنه الليث: «إن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا»[1]، وكان الزهري قد كتب لجدِّه (أسنان الخلفاء»[2]، وهي جريدة في وفيات الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة ومقدار ملكهم، وكان خالد بن عبدالله القسري قد أمر الزهري بكتابة السيرة له، كما أمره بتصنيف كتاب عن القبائل العربية الشمالية، ففعل ولكنه لم يتمه[3]، ومن مؤلفات الزهري كتاب (مشاهد النبي ﷺ)، رواه عنه يونس بن يزيد، وذكره شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي[4]، ولم يصل مما ذُكر للزهري من الكتب شيء.

ولقد عنى الزهري بحياة الرسول ﷺ وغزواته، وبالأنبياء وأهل الكتاب، وقد تسربت إلى مروياته الإسرائيليات، وكان الزهري محباً للعلم، ويحب أن ينتشر العلم بين الناس، وكان يحث على نشر الكتب بين المتعلمين، ذكر يونس عن الزهري أنه قال: «إياك وغلول الكتب، قلت: وما غلولها؟ قال: حبسها عن أهلها»، وكان الزهري يقول عن نفسه: «ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري»[5].

وممن اعتنى بالسير والمغازي موسى بن عقبة (ت 141 هـ/ 758 م)، وهو من المشهورين بمعرفة المغازي وألف فيها كتاباً، رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم[6]، وهناك مؤرخون آخرون لهم باع في هذا الحقل مثل سليمان بن طرخان (ت 143 هـ/ 760 م) الذي يتردد اسمه في تاريخ الطبري، وكذلك عوانة بن الحكم الفقيه الضرير (ت 147 أو 158 هـ/ 764 أو 774 م)،

---

(1) أبو نعيم الأصفهاني: الحلية 3/360.
(2) الطبري: تاريخ 2/428، 1269.
(3) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني 19/59، 69.
(4) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 88.
(5) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء 3/366.
(6) ابن سعد: الطبقات 5/310.

وقد نقل عنه الطبري والبلاذري[1]، وقد نسب له ابن النديم تأليف كتابين[2]، ولكن هؤلاء الثلاثة المتعاصرين لم يبلغوا في هذا الميدان شأو معاصرهم محمد بن إسحاق (ت 150 هـ/ 767 م) الذي ألف في السيرة (كتاب المغازي)، الذي لم يصل ولكن وصلت منه صورته المختصرة المهذبة في سيرة ابن هشام، ويقال في سبب تأليف ابن إسحاق كتاب المغازي إنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: أتعرف هذا يابن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين، قال: اذهب فصنِّف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا، فصنَّف ابن إسحاق هذا الكتاب، فقال له المنصور: لقد طولته، يا بن إسحاق، اذهب فاختصره، وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزائنه[3]، وعلى الرغم من عدم وصول كتاب ابن إسحاق، فإن النقول الموجودة في تاريخ الطبري وفي كتب المؤرخين المتأخرين تكمل الصورة التي جاء بها ابن هشام في اختصاره لكتاب ابن إسحاق، وكان كتاب ابن إسحاق مقسماً إلى ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي، «أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلي، وقد حذفه ابن هشام، وقد حفظ الطبري جزءاً كبيراً منه في تاريخه وتفسيره، وخاصة ما يتعلق بالأنبياء، كما حفظ الأزرقي أخباراً كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم، ووعى كتاب عبيد بن شرية بعض أخباره»[4]، وقد تناول ابن إسحق في القسم الجاهلي، تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام، منذ خُلق العالم حتى ظهور عيسى، ثم يتناول في فصل ثان تاريخ اليمن في العصور الجاهلية، وخبر أصحاب الأخدود وأصحاب الفيل، وقد حفظ ابن هشام والطبري جزءاً من هذا الفصل، ويتناول في فصل ثالث القبائل العربية، وعبادة الأصنام، ويتحدث في فصل رابع عن أجداد النبي المباشرين

(1) الطبري: التاريخ 1/1827، 2755، 3204، البلاذري: فتوح البلدان ص 62، 94، 182.

(2) الفهرست: ص 91.

(3) السيرة النبوية، المقدمة ص 10، وجاء في الهامش للمحققين: يظن أن من النسخة الأصلية، رواية ابن إسحاق، نسخة في مكتبة كوبرلي بالآستانة.

(4) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب ص 79.

وديانة أهل مكة.

أما قسم المبعث فيتناول فيه حياة النبي في مكة والهجرة وجزءاً من حياته في المدينة، ويتحدث فيه عمن أسلم من الصحابة، ومن هاجر إلى الحبشة، ومن عاد منهم، ويقدم معلومات كثيرة عن حياة المسلمين في المدينة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وعلاقة المسلمين باليهود، أما المغازي، فيتناول فيها حياة الرسول ﷺ في المدينة، وغزواته منذ الهجرة حتى وفاته، ويفصل في ذكر الغزوات ومن حضرها ومن قتل فيها، ويلاحظ أن ابن إسحاق قد رجع في معلوماته بالإضافة إلى المسلمين، إلى علماء من غير المسلمين، وخاصة في الحوادث المتعلقة باليهودية والمسيحية والفارسية، فيذكر بين رواته (بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول) أو (أهل التوراة) أو (من يسوق الأحاديث عن الأعاجم)[1]، وقد لاحظ المؤرخون منذ القدم أن ابن إسحاق قد أدخل في كتابه كثيراً من الأشعار التي يعتورها الشك والنحل، وخاصة التي قيلت في عهد عاد وثمود[2]، وقد أخذ عليه المؤرخون والأدباء كثرة الأشعار وعدم صحتها، فاعتذر ابن إسحاق بأنه لا علم له بالشعر يؤتى له فيحمله[3]، هذا بالنسبة للشعر، أما بالنسبة للمعلومات التاريخية، فقد كان ابن إسحاق ثقة فيما يقدم من معلومات، نزيهاً في آرائه، من ذلك أنه كان يدون آراء المذاهب المتعادية بأمانة من دون تحيز، حتى إنه روى أشعار المشركين في هجاء النبي ﷺ، فكان ابن إسحاق يحذف منها ما يراه فيه إساءة للنبي والصحابة[4].

ويُعد كتاب المغازي لابن إسحاق من أقدم الكتب العربية التي وصلت، وقد ذُكر له كتاب آخر في التاريخ الإسلامي هو (كتاب الخلفاء)[5]، إلا أنه لم يصل، ويتناول الكتاب كما يذكر المؤرخون الأحداث التي وقعت في عهد

(1) الطبري: تاريخ 1/140، 141، 413.
(2) الطبري: تاريخ 1/236 ـ 237.
(3) ابن سلام: طبقات الشعراء ص 4.
(4) ابن هشام: السيرة 2/244.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 6/401، ابن النديم: الفهرست ص 92.

الخلفاء الراشدين، وفي عهد عثمان خاصة، وبعضاً من حوادث العهد الأموي، وقد حفظ كل من الطبري والبلاذري شذرات منه[1].

وبعد فترة البدايات تكثر المؤلفات التاريخية الموسوعية الناضجة في القرون التالية بدءاً من القرن الثالث وحتى القرن السابع، ويلمع في هذه العصور مؤرخون كبار منهم: البلاذري والطبري وابن الأثير وغيرهم، ولكل منهم منهج وأسلوب في تناول الموضوعات، ونتجاوز هذه الفترة المتأخرة لنعود إلى فترة البداية والتأسيس لننظر في مظاهر وخصائص الكتابة التاريخية، فنجد أن الكتابات التاريخية قد استمدت من تيار جاهلي قديم، وتيار إسلامي جديد، فأما التيار القديم، فيتألف من القصص والأساطير الخيالية والشعبية المأثورة عن العرب الأقدمين، وتتمثل في مرويات القصاص عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم، وعن ملوك العرب الجنوبيين وأخبارهم وحروبهم، وقد مثّل هذا التيار عبيد بن شرية ووهب بن منبه.

وأما التيار الإسلامي، فهو تيار السيرة النبوية، وهي أخبار صحيحة دقيقة، كان الرواة ينقدونها ويمحصونها، وكان لغزوات الرسول ﷺ المكانة الكبيرة في هذا المجال، وقد ظهر هذا التيار العلمي الدقيق عند أبان بن عثمان وعروة بن الزبير.

وتمتاز الحركة التاريخية بعدة ظواهر، منها: أن المؤرخين كانوا أحراراً غير تابعين لفئة أو حكومة، فلم تسيرهم أهواء الآخرين، بل يدفعهم حبهم للعلم ورغبتهم الشخصية، ولذلك فهم أحرار في تناول القضايا والأحداث، وكان أكثر هؤلاء المؤرخين رجال فقه، وكانوا بجملتهم عدولاً ثقات، يأخذون عن عدول ثقات، فجاءت أخبارهم صحيحة دقيقة، وإذا كانت الروايات تعتمد على الذاكرة، ويعتريها النسيان، فإنهم اعتمدوا في الروايات المختلفة على الأسانيد، وقد تتكرر الأخبار بتكرر الإسناد، وقد كانوا يوثقون رواياتهم بالرجوع إلى الشعر، وكانت استشهاداتهم بالشعر تعطي الأخبار زينة ورونقاً، بالإضافة إلى أن

(1) الطبري: تاريخ 1/1823، البلاذري: فتوح البلدان ص 278، 312، 327 وغيرها.

أسلوبهم كان شيقاً عربياً فصيحاً.

وكان المؤرخون يمثلون مدارس وبيئات، فالبيئة اليمنية يمثلها عبيد بن شرية ووهب بن منبه، وتتميز هذه المدرسة بالقصص الخيالية والأساطير الشعبية في البيئة اليمنية خاصة، والمدرسة الثانية هي مدرسة المدينة، ومؤرخوها من الفقهاء والمحدثين من أمثال أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، والزهري، وكانت عنايتهم منصبة على السيرة النبوية والغزوات الإسلامية، وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين. أما المدرسة الثالثة فهي مدرسة العراق التي يمثلها عوانة وأبو مخنف وابن الكلبي وغيرهم، وتعني هذه المدرسة بالتاريخ الجاهلي والإسلامي وتاريخ الخلفاء، وقد نال تاريخ العراق دراسة مفصلة واضحة أكثر مما نالته بقية الأمصار والبيئات الإسلامية، وحين ظهر ابن إسحاق كان يمثل البيئات الثلاث مجتمعة[1].

تدوين القرآن الكريم والحديث النبوي

القــرآن الكريــم:

أول كتاب جمع في الإسلام هو القرآن الكريم، وقد كُتب في حياة الرسول ﷺ، ومما يسر حفظه وكتابته أنه أنزل على النبي ﷺ منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان الصحابة يحفظون ما ينزل من القرآن الكريم ويكتبونه على عسيب النخل واللخاف[2] وعلى الأديم والأقتاب والأكتاف، وكان النبي يأمر بكتابة ما يُنَزَّل عليه من القرآن في وقت نزوله، فقد كان كُتَّاب الوحي يكتبون القرآن أولاً بأول، وكتاب الوحي من الصحابة هم: زيد بن ثابت، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفَّان، وأُبَيُّ بن كعب، وقد رتبت سور القرآن وآياته بوحي من الله إلى رسوله ترتيباً كاملاً، وقد تلقى الصحابة القرآن من

(1) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب ص 95 ـ 97 باختصار.

(2) الحجارة الرقيقة.

الرسول قبل وفاته مرتباً بشكله النهائي كما أنزل على النبي ﷺ، وكان نظامه وحفظه بوحي من الله، قال تعالى: ﴿إنَّ علينا جمعه وقرآنه﴾[1]، ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنُثَبِّتَ به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾[2].

لقد كتب الصحابة القرآن الكريم في صحف، ولم يكن هذا التدوين مجموعاً في صحف، وكان أبو بكر الصديق هو الذي تولى تدوين القرآن تدوين جمع، فحين رأى أن القتل قد اسْتَحَرَّ يوم اليمامة بالصحابة القرَّاء حُفَّاظ القرآن، خشي أن يذهب بذهاب حفاظه، وقد أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن، وكان في نفس أبي بكر شيء من الحرج، كيف يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، وراجعه عمر مرات، حتى شرح الله صدر أبي بكر لجمع القرآن، فأوكل إلى زيد بن ثابت، وهو من كتبة الوحي وحُفَّاظ القرآن، وتكفل زيد بهذه المهمة الصعبة، التي وصفها بقوله: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ من ذلك»، وذهب زيد يجمع القرآن من صدور الرجال، ومن العُسُب والرِّقاع واللخاف والأكتاف، واستعان زيد بالصحابة المشهود لهم بالصلاح والحفظ، وقد أخذ بوصية أبي بكر بأن لا يقبل من حافظ شيئاً حتى يشهد شاهدان عدلان على صحته، وأنه كُتب بين يدي رسول الله ﷺ، فأخذ من جِلَّة الصحابة، من مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبي هريرة وعبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيدالله وحذيفة بن اليمان وأبي الدرداء وأبي موسى الأشعري وأُبَيِّ بن كعب.

وبعد تدوين القرآن تدوين الجمع في الصحف، أودعت هذه الصحف في بيت أبي بكر، حتى توفاه الله تعالى، ثم صارت عند عمر بن الخطاب، وبعد وفاة عمر، حفظت ابنته حفصة أم المؤمنين هذه الصحف. وهكذا كان أول جمع للقرآن في صورة كتاب في عهد أبي بكر، وقد أثنى علي بن أبي طالب على فعل

---

(1) سورة القيامة 17.

(2) الفرقان 32.

أبي بكر هذا بقوله: «رحمة الله على أبي بكر، كان أول من جمع بين اللوحين»، وقال: «أعظم الناس في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع بين اللوحين»[1]، وصار لكل صحابي مصحف يرجع إليه.

ولما كثرت الفتوح، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، صار أهل الأمصار يقرأون القرآن على يدي أحد الصحابة المقيم بينهم، فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرأون على مصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام يقرأون على مصحف أبَيِّ بن كعب، وأهل دمشق يقرأون على مصحف المقداد بن الأسود، وقد أدى ذلك إلى الاختلاف في بعض القراءات، ولم يكن معهم جميعاً مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه، فسارع حذيفة إلى عثمان بن عفان وقال له: «إن الناس قد اختلفوا في القرآن، حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف». وعندها عزم عثمان على أن يجمع الناس على مصحف واحد يرجعون إليه، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر لتعطيه مصحف أبي بكر، وأوكل إلى زيد بن ثابت أن يجمع القرآن في مصحف، ومعه من الصحابة: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأوصى عثمان هؤلاء: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فنفذوا ما أمرهم به، وأمرهم أن يكتبوا المصاحف من مصحفه هو وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار، ويُقرِئوا الناس على حرفها، وأرسل بالمصاحف إلى مكة، والكوفة، والبصرة، ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية، واحتفظ بنسخة في المدينة، وأعاد مصحف أبي بكر إلى حفصة، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى، وبذلك صار الناس يقرأون القرآن على مصحف عثمان، وقد أثنى علي بن أبي طالب على عمل عثمان وقال: «لو وليت ما ولي عثمان، لعلمت بالمصاحف ما عمل»[2].

---

(1) السجستاني: كتاب المصاحف ص 5.

(2) الزركشي: البرهان 1/240.

لقد اختلف المسلمون قبل أن توحد المصاحف بمصحف عثمان، وظهر من أثر ذلك ما يعرف باختلاف المصاحف، فقد ألف جمهرة من العلماء كتباً في هذا الموضوع، ذكر ابن النديم مجموعة منها: كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة، وأهل الكوفة وأهل البصرة، عن الكسائي (ت 189 هـ)، وكتاب اختلاف المصاحف لخلف، وكتاب في اختلاف المصاحف وجمع القرآن للمدائني (ت 225 هـ)، وكتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف للفرَّاء (ت 207 هـ)، وكتاب اختلاف المصاحف لابن أبي داود السجستاني (ت 316 هـ)، وكتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لأبي عامر اليحصبي (ت 118 هـ)، وكتاب في اختلاف المصاحف لمحمد بن عبد الرحمن الأصفهاني[1]، وقد وصل من هذه الكتب كتاب المصاحف للسجستاني.

تفسير القــرآن:

كان الصحابة ـ كشأن الناس جميعاً ـ يتفاوتون في الفهم وإدراك معاني القرآن الكريم، فكانوا يرجعون إلى رسول الله ﷺ لمعرفة ما غمض وانبهم عليهم من معانيه ودقائقه وتفاصيله، وبعد وفاة الرسول، غابت عنهم أمور كثيرة من دقائق القرآن الكريم، فكانوا يرجعون إلى الأكثر معرفة من الصحابة، وكان الصحابة يتفاوتون في فهم القرآن، فظهرت الحاجة إلى التفسير، وقد تحرج الصحابة أول الأمر في تفسير القرآن، إذ رأوا في هذا شهادة على الله بأنه عنى بهذا شيئاً قد لا يكون هو المقصود، ولذلك كان كثير من المفسرين أول الأمر يعتمدون على ما روي عن النبي ﷺ، وعن صحابته المقربين، من مثل علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب، وعُرف هذا الضرب من التفسير، بتفسير الأثر، أو تفسير الرواية، ومن الطبيعي أن يكون رجال الحديث هم أصحاب هذا الأمر، لأنهم يروون كل ما صدر عن النبي، ولذلك نجد أن كتب الحديث تعنى بتفسير القرآن، ونجد في صحيح البخاري

(1) الفهرست ص 54.

كتاب تفسير القرآن، وكتاب فضائل القرآن.

ولا شك أن في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحتاج إلى تفسير، فهناك آيات يحتاج فهمها إلى معرفة أسباب النزول، والآيات المحكمات، والآيات المتشابهات تحتاج إلى تفسير، وكذلك آيات العبادة والتشريع والمعاملات، وكذلك لغة القرآن وألفاظه تحتاج إلى فهم وتفسير، وكان اعتماد المفسرين الأوائل على أثر ما روي عن النبي ﷺ، وعن الصحابة، وصار هذا التفسير الذي عُرف بالتفسير المأثور، وما روي عن الرسول كان في الأصل قليلاً، ولكنِ هذه المرويات عن الرسول صارت بمرور الزمن تكثر وتتضخم تأثراً بالبيئات الإسلامية من قصص ديني وروايات عن أهل الكتاب، مما جعل علماء المسلمين لا يثقون بهذه المرويات والنقول، وقد ظهر اتجاه في التفسير، أن تجمع أقوال المفسرين في بلد ما، كما فعل أهل مكة حين جمعوا ما روي عن ابن عباس وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ثم تلا ذلك جمع المرويات بترتيب الآيات القرآنية، فظهرت من ثم كتب التفسير الكبيرة الشاملة. وبسبب من تعقد أمور الحياة الإسلامية، وكثرة الفرق والمذاهب، ظهر التفسير بالرأي أو التفسير العقلي، الذي تجاوز التفسير بالأثر أو المنقول بالرواية، وظهر في هذه التفاسير ألوان الثقافات المختلفة للمفسرين، كما ظهرت شخصية المفسرين، سواء كانوا متكلمين أو فقهاء أو نحاة، فألف المتكلمون في تأويل القرآن، والفقهاء في آيات الأحكام، والنحاة في معاني القرآن، وتبين كتب التفسير اتجاهات المفسرين ومناهجهم ومذاهبهم.

الحديث النبوي:

لنفرق أولاً بين كتابة الحديث وتدوين الحديث، فالمعروف أن تدوين الحديث جمعاً وكتابة، لم يحصل إلا في أواخر القرن الأول في خلافة عمر بن عبد العزيز (ولي سنة 97 ـ 101 هـ/ 717 ـ ٧٢٠ م)، أما كتابة الحديث فقد أذن رسول الله ﷺ لبعض الأفراد أن يكتبوا الحديث مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي كان يكتب أحاديث الرسول وبعلمه وإذنه، وكان عبدالله قد سأل

النبي ﷺ: هل يكتب كل ما يسمع؟ فقال عليه السلام: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق) وكان عبدالله يسمي صحيفته الصادقة[1]، وكتب عبدالله بن عباس[2]، وأنس بن مالك[3]، وأبو هريرة، وعروة بن الزبير، وغيرهم[4]. وروى أبو هريرة: أن رجلاً من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ فيسمع منه الحديث، فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: (استعن بيمينك) «وأومأ بيده إلى الخط»[5]، وكان النبي يحث المسلمين على حفظ الحديث وروايته وتعليمه الناس، فعن ابن عباس، قال، قال رسول الله ﷺ: (اللهم ارحم خلفائي، قلنا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس)[6]، وكان يقول للوفود: احفظوا أحاديثي واخبروا بها من وراءكم من العشائر، وفي خطبة حجة الوداع (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)[7]، ولكن الرسول كان ينهى عن كتابة الحديث والانشغال به عن القرآن، ويخشى أن تلبس السنة بالقرآن، ففي حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال ما معناه: (لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فلْيَمْحُه، وحدثوا عني فلا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[8].

وقد ظل الصحابة يتحرجون من كتابة الحديث، وكانوا ينهون عن انتساخ أي كتب أخرى، حرصاً على ألا ينشغلوا بغير القرآن، فقد فكَّر عمر بن الخطاب

(1) مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم 6510، ورقم 6802، الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 84.
(2) ابن سعد 5/216.
(3) تقييد العلم ص 95.
(4) ابن سعد 7/157، 162.
(5) تقييد العلم ص 65.
(6) مقدمة القسطلاني على البخاري.
(7) تنظر خطبة حجة الوداع في سيرة ابن هشام 2/603 ـ 604، شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص 36.
(8) صحيح مسلم 8/229 ط القاهرة 1329 هـ.

في جمع الحديث وتدوينه، ثم عدل عن ذلك، روى الخطيب البغدادي: «أن عمر بن الخطاب كان قد استشار الصحابة في كتابة الحديث، وأخذ يستخير الله في ذلك شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كتبوا قبلكم، كتبوا كتباً فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني لا ألْبِسُ كتاب الله بشيء أبداً»(1).

ومن هذا يتبين أن هناك بعض الصحابة قد كتبوا الحديث بإذن وعلم من رسول الله ﷺ، وهم قلة، وكان جمهور الصحابة يكرهون كتابة الحديث لئلا يلتبس بكلام الله، ولكن جمع الحديث وتدوينه لم يتم إلاّ في عهد عمر بن عبدالعزيز وبأمره، فقد روى عن عمر أنه ظلّ يستخير الله أربعين يوماً، ثم أذن لقاضي المدينة وواليها أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم (ت 120 هـ/ 337 م) أن يدون الحديث، جاء في موطأ مالك: «أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سُنَّته، أو نحو هذا، فاكتبه لي، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»(2).

وقد نشط المسلمون في جمع الحديث وتدوينه، وقد مرَّ جمع الأحاديث بمراحل، هي(3):

1 ـ مرحلة كتابة الحديث:

وهي المرحلة التي كتبت فيها الأحاديث في كراريس صغيرة، أطلق عليها اسم (الصحيفة) أو (الجزء)، كصحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص، التي كان يدون فيها أحاديث الرسول ﷺ، بعد أن أذن له بذلك، وكان عبدالله يسمى

---

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 49.

(2) صحيح البخاري 1/36، موطأ مالك ص 389، سنن الدارمي ص 68، طبقات ابن سعد 8/480.

(3) سزكين: تاريخ التراث العربي 1/87 ـ 118.

صحيفته هذه (الصادقة)[1]، وتتمثل هذه المرحلة في عصر الصحابة والتابعين.

2 ـ مرحلة تدوين الحديث:

وفيها جمعت التسجيلات المتفرقة، وكان ذلك في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني.

3 ـ مرحلة تصنيف الحديث:

وفيها تمّ ترتيب الأحاديث حسب مضمونها في فصول وأبواب، واستمر هذا العمل في القرن الثاني، ثم ظهر في أواخر القرن نظام ترتيب الأحاديث وفق أسماء الصحابة في كتب يحمل الواحد منها اسم (مسند).

وقد عرفت رواية الحديث بأنها شفاهية، ولكن بعض المحدثين كان يعتمد على نصوص مكتوبة، ومن خلال مصطلحات علم الحديث وتلقيه الذي عرف بـ (تحمّل العلم) تتضح الطرق التي نقل بها الحديث، فقد عرفت في ذلك ثماني طرق، هي:

السماع، والقراءة، والإجازة، والمناولة، والكتابة، أو المكاتبة، والوصية، والوجادة. والملاحظ أن هذه الطرق تقوم بمجملها على الرواية المدونة، فيما عدا السماع والقراءة[2].

وقد ظهر الجمع والتصنيف للحديث النبوي منذ وقت مبكر، وقد نشط العلماء والفقهاء في كل مصر لجمع الحديث وتدوينه، فكان مالك بن أنس (ت 179 هـ/ 795 م) قد صنَّف الموطأ في المدينة، وكذلك جمع الحديث كل من ابن جريج عبد الملك بن عبدالعزيز (ت 150 هـ/ 767 م) في مكة، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت 183 هـ/ 799 م) في الشام، وسفيان الثوري (ت 161 هـ/ 777 م) في الكوفة، وابن دينار حماد بن سلمة (ت 176 هـ/

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 84، ابن سعد: الطبقات الكبرى 262/4.
(2) سزكين: تاريخ التراث العربي ص 90.

792 م) في البصرة، وكانوا جميعاً متزامنين وإن تفرقوا في الأمصار. ثم تظهر بعد ذلك في القرن الثالث المصنفات الكبيرة، فأحمد بن حنبل (ت 241 هـ/ 855 م) صنف (المسند) الذي تضمن حوالي ثلاثين ألف حديث، وصنف الإمام البخاري محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ/ 869 م) (صحيح البخاري)، وصنَّف الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ/ 874 م) (صحيح مسلم)، ونال كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم مكانة عالية، وثقة كبيرة لدى جمهور المسلمين، وصنفت كذلك كتب السنن، وهي أربعة: سنن ابن ماجة محمد بن يزيد (ت 273 هـ/ 886 م)، وسنن السجستاني أبي داود (ت 275 هـ/ 888 م)، وسنن الترمذي أبي عيسى محمد (ت 287 هـ/ 900 م)، وسنن النسائي أحمد بن علي (ت 303 هـ/ 915 م)، وعرفت هذه السنن بمكانتها الرفيعة لدى المسلمين.

الفصل الثالث

الوراقة والوراقون

الوراقة والوراقون

كان لازدهار حركة التأليف في العصر العباسي، وشيوع الترجمة من اليونانية والفارسية، أن نشأت مهنة اشتق اسمها من الورق الذي عرف في سمرقند وصُنِّعَ من ثمَّ في بغداد وبعض الحواضر الإسلامية، فعرفت هذه المهنة باسم (الوِراقة)، وعُرِف متعاطوها باسم (الوراقين).

والوراقة كما يعرفها ابن خلدون هي: (معاناة الكتب بالانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكُتُبيَّة والدواوين)[1]، ويعرِّف السمعاني الوراقة بقوله: (الورَّاق اسم من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد ببغداد، الوراق أيضاً)[2]، فالوراقة مهمة انتساخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس، والوراق من يقوم بذلك، وقد يكون هو الناسخ، أو يكون غيره، وله من ينسخون له، بالإضافة إلى ما يستتبع عملية النسخ من التجليد والتذهيب وبيع الورق والأقلام والمحابر والدويّ[3]، أي أن الوراقين كانوا يقومون بما تقوم به دور النشر في العصر الحديث، من الطبع والتوزيع وبيع الورق وأدوات الكتابة[4].

ولا شك بأن الوراقة قد ازدهرت في المدن الكبرى، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكانت سبباً من أسباب ازدهار حركة

---

(1) المقدمةص 962.

(2) السمعاني: الأنساب ص 579 ب.

(3) جمع دواة.

(4) الحلوجي: المخطوط العربي ص 125 ـ 126.

التأليف والترجمة، وأضحت صورة مشرقة زاهية من صور الحضارة العباسية في أوج عزها، وقد مثلت الوراقة كل أنواع النشاط العقلي في العلوم العربية والإسلامية، والعلوم المنقولة عن الأمم الأخرى.

من ألف في الوراقة:

وعلى الرغم من ازدهار مهنة الوراقة، واشتغال جمهرة من العلماء والأدباء والشعراء في هذه المهنة، واقتران اسم بعضهم بلقب (الوراق)، على الرغم من كل ذلك، فإن ما ألف عن الوراقة والوراقين قديماً قليل جداً، ولم يصل إلينا مما ألف في ذلك شيء، وقد استطعنا أن نقف على أسماء بعض الرسائل والكتب التي ذكرتها كتب التراجم وغيرها. وأول ما يلقانا من ذكر للوراقة والوراقين رسالتان للجاحظ، الأولى في مدح الورّاق، والثانية في ذم الورّاقين[1]، ثم رسالة في مدح الوراقة لأبي زيد البلخي (المتوفى 322 هـ/ 934 م)[2]، وله كذلك كتاب كتبه إلى أبي بكر بن المستنير في ذم المعلمين والوراقين[3]، وألف الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن مسك السخاوي (المتوفى سنة 1025 هـ/ 1616 م) كتاباً اسمه: (تنويق النطاقة في علم الوراقة)[4].

بداية الوراقة:

ولعل البدايات الأولى للوراقة كانت متصلة ببيع الورق والأقلام وأنواع الحبر والمداد، وكل ما له صلة بالكتابة، وكان أول ما عرف من النسخ هو نسخ المصاحف، وكان الصحابة والتابعون ينسخون المصاحف لأنفسهم، ثم صار

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 6/ 78.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 3/ 68، ابن النديم: الفهرست ص 199.
(3) ياقوت 3/ 68.
(4) حبيب زيات: الوراقة والوراقون مقالة في مجلة المشرق سنة 1947 ص 305 ـ 306، وقد أفدنا منه وله فضل السبق.

الناس ينسخون لغيرهم، ثم تجاوز ذلك إلى كتابة الحديث وسائر العلوم الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية. وأقدم ما عرفنا من الوراقين الذين كانوا ينسخون المصاحف بالأجرة هو خالد بن أبي الهياج، الذي كان يوصف بحسن الخط، وقد اختص بكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك، وذكر ابن النديم أن عمر بن عبدالعزيز سأل خالد بن أبي الهياج أن يكتب له مصحفاً على غرار المصحف الذي كان في قِبْلة مسجد النبي ﷺ: «فكتب له مصحفاً تنوَّق فيه، فأقبل عمر يقبِّله ويستحسنه، واستكثر ثمنه فرده عليه»[1]، ومن قدامى الوراقين المنوَّه بهم، الذين كانوا ينسخون المصاحف بأجرة، مالك بن دينار (المتوفى 131 هـ/ 748 م) مولى أسامة بن لؤي بن غالب[2]، وكان جابر بن زيد الأزدي (توفي 93 هـ/ 713 م) يعجب من مالك بن دينار ومن كسبه الحلال هذا، فقد دخل عليه يوماً فوجده يكتب المصحف، فقال له: «ما لك صنعة إلا أن تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة، هذا والله كسب الحلال، هذا والله كسب الحلال»[3]. ومعنى هذا أن وراقة المصاحف كانت سابقة على وراقة الكتب في مختلف العلوم، وقد عرف من كتاب المصاحف المشهورين ـ غير من تقدم ـ خشنام البصري، ومهدي الكوفي، وكانا في أيام الرشيد، قال ابن النديم: «ولم يُرَ مثلهما إلى حيث انتهينا، وإن خشنام البصري كانت ألفاته ذراعاً مشقاً (شقًّا) بالقلم»[4]، ويذكر ابن النديم من كتاب المصاحف أبا جري، وكان يكتب المصاحف اللطاف أيام المعتصم، وهو من كبار الكوفيين وحذَّاقهم، ومنهم ابن أم شيبان، والمسحور، وأبو خميرة، وابن خميرة، وأبو الفرج، في زمن ابن النديم[5]. وكان من هؤلاء مُذَهِّبون للمصاحف ومجلدون، برعوا في تجليد المصاحف وتذهيبها، فمن المذهِّبين: اليقطيني، وإبراهيم الصغير، وأبو

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 9 ـ 10.

(2) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص 216، ابن خلكان: وفيات الأعيان 3/387، ابن النديم: الفهرست ص 10.

(3) السجستاني: كتاب المصاحف ص 131.

(4) ابن النديم: الفهرست ص 10.

(5) السابق والصفحة.

موسى بن عمّار، وابن السقطي، وأبو عبدالله الخزيمي، وابنه[1]. ومن المجلدين المذكورين: ابن أبي الحريش، وكان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون، وشفة المقراض العجيفي، وأبو عبس بن شيران، ودميانة الأعسر، وابن الجمام إبراهيم، وابنه محمد، والحسين بن الصفار[2].

كان العصر العباسي هو عصر ازدهار الوراقة والوراقين، فقد تيسر الورق، وعرفت صناعته في سمرقند، ثم صُنِّعَ في بغداد ورخص ثمنه، كما رخصت أثمان البردي، وقد كان من نتيجة ذلك أن شاع التصنيف والتأليف، وكثر المصنفون من العلماء والأدباء، وظهرت الحاجة إلى الوراقة، فكثر الوراقون في هذا العصر، وقد رافق ذلك حركة علمية في أول العصر العباسي، تمثلت في حركة التأليف والترجمة من اللغات الفارسية والسريانية واليونانية، وقد حرص المسلمون على نقل تراث اليونان والرومان وحضارة العالم القديم[3]، أما قبل ذلك في العصر الأموي، فليس لدينا معلومات وافية عن الوراقة والوراقين، وهذا أمر طبيعي، فقد كانت أثمان القراطيس ـ قبل شيوع الورق ـ غالية، وكان الرواة يقومون بمهمة الوراقين في رواية شعر الشعراء وحفظه وكتابته وإذاعته بين الناس[4].

ولا شك أن المؤلفين كانوا يختارون لنسخ كتبهم الوراقين الجيدين المعروفين بجودة الخط وصحة النقل ودقة الضبط[5]، والحذق في التزويق والتذهيب في كتابة المصاحف، وعُرف بعض الوراقين بهذه الأوصاف التي تجود بها الوراقة، وقد ذكر ابن النديم بعضاً من هؤلاء كأبي موسى الحامض الذي عُرف: «بصحة الخط وحسن المذهب في الضبط»[6]، ومحمد بن عبدالله

(1) السابق ص 12.
(2) السابق ص 12.
(3) الحلوجي: المخطوط العربي ص 125.
(4) حبيب زيات: الوراقة ص 310.
(5) ابن النديم: الفهرست 117 ـ 118.
(6) السابق ص 117.

الكرماني الذي كان: «مضطلعاً بعلم اللغة والنحو مليح الخط صحيح النقل»[1]، وذكر ياقوت وغيره أيضاً بعضاً من هؤلاء الوراقين المشهورين بالحذق وجمال الخط وجودة النقل، فمنهم: أحمد بن محمد القرشي: «صاحب الخط الحسن المشهور»[2]، والمحسن بن حسين العبسي المعروف بابن كوجك (المتوفى 416 هـ/ 1025): «وخطه مرغوب فيه يشبه خط الطبري»[3] وأبو الحسن علي بن أحمد بن أبي دجانة المصري الذي كان: «جيد الخط كثير الضبط إلا أنه مع ذلك لا يخلو خطه من السقط، وإن قل، وهو من أهل مصر ومقامه ببغداد، وبها كتب ونسخ الكثير»[4]، ومن الوراقين الجيدين أيضاً أبو محمد عبيد الله بن أبي الجوع الذي أثنى عليه ابن خلكان وقال: «إن نسخه كان في غاية الجودة وخطه مرغوب فيه»[5]، ومنهم السراج الوراق المشهور وكان خطه: «في غاية الحسن والقوة والأصالة»[6].

وقد كثر الوراقون في العصر العباسي، وشهرت بغداد بجودة وراقيها وحسن خطهم، وكمال صنعتهم، ولذلك كان أبو المطهر الأزدي يفاخر بهم في مناظرته لأهل أصبهان، قائلاً: «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات مثل ما أرى ببغداد من الوراقين والخطاطين»[7]. وهؤلاء الوراقون وغيرهم من المُحَسِّنين المُجَوِّدين كانوا في المشرق، أما في المغرب، فقد وفد على الأندلس جمهرة من الوراقين البارعين، منهم ظفر البغدادي الذي اتخذ قرطبة مقاماً وسكناً، وكان من رؤوساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط، وأحمد بن محمد بن الحسن الخلال الأديب الذي اشتهر: «بخطه المليح الرائق

---

(1) السابق ص 118.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 2/78.
(3) السابق ص 6/249.
(4) السابق ص 5/81.
(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان
(6) ابن شاكر الكتبي؛ فوات الوفيات 2/35.
(7) حكاية أبي القاسم البغدادي ص 24.

والضبط المتقن الفائق»[1]، ومن وراقي المغرب الجيدين أيضاً: عباس بن عمر الصقلي، ويوسف البلوطي، وغيرهم[2].

الخــط الوراقــي:

قبل أن نتحدث عن الخط الوراقي ينبغي أن نجمل تطور الخط العربي منذ ابتدائه وحتى زمن ازدهار الوراقة ونشوء الخط الوراقي:

لقد ازدهر الخط في العصر الأموي، وساعد الخلفاء الأمويون على ارتقاء الفنون التشكيلية، بما بنوه من مساجد وقصور، وزخرفتها بالفسيفساء، والحفر على المرمر، وكتابة الآيات القرآنية عليها، من ذلك قبة الصخرة، والجامع الأموي، وقصر المشتى، وقصير عمرة، وقصر الحيرة، وقصر الجوسق، والقلاع وغيرها. كما نشط الناس في تزويق المصاحف وجلودها، وتطريز الملابس والكتابة على الأنسجة والملابس، والأواني النحاسية والسُّرُج، وغيرها[3].

ومنذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ. اعتُبِرَ الخط الكوفي مفضلاً لكتابة كلام الله، فكتبوه على المواد المتيسرة لهم، فلما جُمِعَ القرآن بين دفتي كتاب في زمن عثمان وكُتِبَ بالخط الكوفي، وأُرْسِلَ إلى الأمصار، كان ذلك نقطة انطلاق للكتابة العربية بالانتشار والازدهار والتطور. وبعد تمصير البصرة والكوفة ونشوء الحركة العلمية التي ارتبطت بكل من المدينتين، بذلت عناية كبيرة لتجويد الخط الكوفي، ذلك الخط الذي تأقلم بأشكال الأقاليم التي امتدت ما بين ما وراء النهر شرقاً، إلى الشمال الأفريقي غرباً، حتى بلغت أسماء أنواعه الإثني عشر، كما ذكرها أبو حيَّان التوحيدي[4].

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 2/88.
(2) المقري: نفح الطيب 2/103.
(3) راجع يحيى الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية ص 111 ـ 117.
(4) التوحيدي: رسالة علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل) ص 29 ـ 30. ابن النديم: الفهرست ص 11.

وترسخت الكتابة في العصر العباسي، وازدهرت الخطوط وتنوعت، وبقي الخط الكوفي هو السائد في كتابة المصاحف، والكتابة على جدران المساجد والمآذن والقباب، والقصور والقلاع، ثم بدأ خط الثلث يدخل في تزيين المساجد والمحاريب والقباب، وظل الخط النسخي القديم في خدمة الدواوين الرسمية، والمكاتب اليومية، والأغراض العلمية والتعليمية، وذلك لمرونته، وسرعة كتابته[1]، وقد صار الخط في العصر العباسي ممثلاً للطابع الإسلامي، ودليلاً على الحضارة الإسلامية، وامتزج الفن بالعقيدة، فكان التبرك بكتابة الآيات القرآنية أمراً لا يخلو منه عمل فني، أو مسجد، أو منارة، في الأقطار الإسلامية كافة.

يقول ابن خلدون عن تطور الخط العربي في الدولة الإسلامية: «كان الخط غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا في التوسط، لمكان العرب من البداوة وبعدهم عن الصناعات. ثم لما فتحوا الأمصار وملكوا الممالك، ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت الدولة إلى الكتابة، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه، وتداولوه فترقت الإجادة فيه، واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان، إلا أنها كانت دون الغاية. ثم انتشروا في الأقطار والممالك، وافتتحوا أفريقية والأندلس، واختط بنو العباس بغداد، فترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران، وكانت دار الإسلام ومركز العربية، ومن بغداد انتشرت شرقاً وغرباً أصول (الخط البديع المنسوب) الذي خالفت أوضاعه ببغداد أوضاعه بالكوفة، في الميل إلى إجادة الرسوم، وجمال الرونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأعصار إلى أن رفع رايتها ببغداد أبو علي بن مقلة الوزير، ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب، ووقف سند تعليمها عليه في المئة الثالثة وما بعدها، وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهت إلى المباينة»[2].

---

(1) المصرف: بدائع الخط العربي ص 23.

(2) ابن خلدون: المقدمة طبعة كاترمير 2/344، وانظر الأثري: الخطاط البغدادي ص 19.

يقال إن أقدم خط استعمل في بلاد العرب هو الخط الأنباري أو الحيري[1]، ويسمى بـ (الجزم)، لأنه جُزِمَ أي قُطِعَ من المسند، أقدم خط في بلاد العرب، وكان مستعملاً في الأنبار والحيرة، وكان الخط المسند مستعملاً في بلاد اليمن، وقد أُطلِقَ على الخط الأنباري (الخط الكوفي)، وذلك بعد بناء الكوفة زمن عمر بن الخطاب، وهي على مقربة من الحيرة، وقد نزح إلى الكوفة بعد بنائها من بقي من أهل الحيرة والأنبار لحلولها محل مدينتهم، ونزلت فيها أيضاً قبائل من اليمن في جانبها الشرقي، وكانوا يعرفون الكتابة بالخط المسند، فانتشر الخط في أهلها وبرعوا فيه وجوّدوه، واخترعوا فيه حلية وزخرفة تشبه الزخرفة التي استعملها السريانيون في خطهم المعروف بـ (السطرنجيلي)[2].

والخط الكوفي في عدة أقلام مرجعها إلى أصلين: التقوير والبسط.

(المقوَّر): ويسمى بالخط اللين والنسخي، وهو الذي تكون عراقاته منخسفة منحطة إلى أسفل، كقاف الثلث والرقاع ونحوهما، وهو الذي كثر استعماله وعم تداوله في الرقاع والمراسلات والكتابات المعتادة، كالتي كان يكتبها كتّاب رسول الله ﷺ.

و (المبسوط): وهو ما يسمى باليابس، ما كانت عراقاته مبسوطة كالنون الطويلة، ولا يستعمل عادة إلا في كتابة المصاحف الكبيرة، وفي النقش على المحاريب، وأبواب المساجد، وما يقصد به الزينة والزخرفة[3]، وكان كُتّاب رسول الله ﷺ يكتبون بالخط المقوَّر (النسخي)، وبهذا الخط كتب زيد بن ثابت رضي الله عنه صحف القرآن بأمر أبي بكر وإشارة عمر رضي الله عنهما، حينما استحرَّ القتل في القرّاء باليمامة وكذلك كانوا يكتبون بخط الجزم القرآن الكريم، وكل ما يُطْلَب تجويده وتحسينه.

ولما جُمِعَ القرآن بالمدينة، وأُرسلت المصاحف إلى البصرة والكوفة ومكة

---

(1) سماه طاهر الكردي ص 65 (الحميري) وهماً.

(2) الكردي: تاريخ الخط العربي ص 65.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى 3/15.

والشام واليمن وغيرها، تسارع الناس إلى نسخها، وتنافسوا في كتابتها، وتفننوا في أوضاعها، وأبدعوا في تجويدها وتنميقها، حتى اتخذ نساخ كل جهة وصقع لهم طريقة خاصة تميزت باسم خاص(1).

ويبين أبو حيان التوحيدي عناية القدماء بتحسين الخط الكوفي بأنواعه، ويذكر اثني عشر نوعاً وهي: الإسماعيلي، والمدني، والمكي، والأندلسي، والشامي، والعراقي، والعباسي، والبغدادي والمشعب، والريحاني، والمحرر، والمصري، وقال: «فهذه الخطوط العربية التي كان منها ما هو مستعمل قديماً، ومنها فقريبة الحدوث، وأما هذه الطرائق المستنبطة، فهي مروية عن الصحابة حتى اتصلت بابن مقلة»(2).

وبدأ الخط في التحسن والتطور والازدهار في العصر الأموي، ويذكر في هذا العصر من أوائل الخطاطين المجيدين (خالد بن أبي الهياج) الذي اشتهر بكتابة المصاحف في الصدر الأول، وأجاد كتابتها ووصف بحسن الخط، وقد رأى ابن النديم مصحفاً بخطه، وقال: «كان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك، وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب، من قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وما بعدها من السور إلى آخر القرآن»(3).

وفي آخر العصر الأموي اشتهر خطاط آخر كان له أثره في تحسين الخط وتطويره، هو (قطبة المحرر)، قيل: إنه هو الذي بدأ في تحويل الخط العربي من الشكل الكوفي إلى ما يقارب الشكل الذي هو عليه الآن، واستخرج الأقلام بعضها من بعضها، وهو الذي اخترع القلم الطومار، والقلم الجليل، وهو ما يسمى الآن بالخط (الجلي)، أي الكبير الواضح، وقيل: إنه كان أكتب الناس

---

(1) الكردي ص 68.

(2) رسالة علم الكتابة ص 21 ـ 27 مجلة اسلاميكا، نشرها روزنتال، وانظر: ثلاث رسائل، نشرها ابراهيم كيلاني ص 29 ـ 30، والأثري: الخطاط البغدادي ص 43.

(3) ابن النديم: الفهرست ص 10، والكردي: ص 68، قال: لم يبق الآن شيء من آثار هذه الكتابة.

على الأرض العربية[1].

واشتهر في هذا العصر الأموي أيضاً مالك بن دينار (المتوفى 131 هـ/ 749 م)، وكان من كبار الزاهدين، وكان يتعيش من كتابة المصاحف، ولم تكن له حرفة أخرى يتعيش بها.

أما في العصر العباسي فقد ظهرت مجموعة من الكتاب طوروا الخط العربي وأفتنوا بكتابته، وأول هؤلاء: (الضحاك بن عجلان الكاتب)، وكان في خلافة السفاح أول خلفاء بني العباس. ثم لمع بعده: (إسحاق بن حماد الكاتب) في أيام المنصور والمهدي، فزاد على الضحاك، وكان هذان الكاتبان، الضحاك وإسحاق، يخطان (الجليل)، ويراد به الطومار أو قريب منه، وبلغ عدد الأقلام في عهدهما اثني عشر قلماً، كان لكل قلم عمل خاص[2].

وفي عصر المأمون اشتهرت مجموعة من الكتاب من تلامذة إسحاق بن حمّاد الذين كتبوا (الخطوط الأصلية الموزونة) التي لا يقوى عليها أحد، إلا بالتعليم الشديد، وعدتها إثنا عشر قلماً، يخرج منها اثنى عشر قلماً[3]، من هؤلاء الكتّاب (أحمد بن أبي خالد) كاتب المأمون، قال أبو حيان التوحيدي: «سمعت ابن المشرِّف البغدادي يقول: رأيت خط أحمد بن أبي خالد كاتب المأمون، وكان ملك الروم يخرجه - في يوم عيده - في جملة زينته، ويعرضه على العيون، قال: وكانت ألفاته ولاماته على غاية الانتصاب والتقوّم، ولم أجد في جميع حروف خطه عيباً إلا في الواوات الموصولة والياءات المفصولة»[4].

ومن كُتَّاب العصر العباسي المذكورين (ابراهيم الشجري)[5]، الذي

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 10.

(2) ابن النديم ص 10، القلقشندي: صبح الأعشى 3/ 16.

(3) ابن النديم: ص 11.

(4) أبو حيان التوحيدي: ثلاث رسائل ص 29 - 30، والخطاط البغدادي ص 44 - 45.

(5) الشجري: قيل نسبة إلى الشجرة، وهي قرية بالمدينة المنورة (اللباب 2/ 13، ومعجم البلدان 5/ 238)، ولا وجود لها اليوم، ولعل اسمها قد تغير. والشجرة أيضاً: اسم قرية بفلسطين (معجم البلدان 5/ 238)، وشجرة أيضاً: اسم رجل.

وصف بأنه أخطُّ أهل دهره، أخذ عن إسحاق بن حمَّاد خط الجليل، واخترع منه قلماً أخف منه يسمَّاه (قلم الثلثين)، ثم اخترع من قلم الثلثين قلماً سمَّاه (الثلث)[1] وقيل إن ابن مقلة هو الذي اخترع قلم الثلث، وهذا نص على أن ابن مقلة مسبوق باختراع قلم الثلث[2].

أما أخوه (يوسف الشجري) فقد أخذ القلم الجليل عن إسحاق أيضاً، واخترع منع قلماً أدقَّ منه، وكتبه كتابة حسنة، فأعجب به ذو الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون، وأمر أن تحرر الكتب السلطانية به، ولا تكتب بغيره، وسمَّاه (القلم الرئاسي)، وقيل: هو (قلم التوقيعات)[3].

وبرع في هذا العصر (الأحول المحرر)، وهو من صنائع البرامكة، أخذ عن إبراهيم الشجري قلم الثلثين، وقلم الثلث، واستنبط منهما قلماً سمَّاه (قلم النصف)، وقلماً أخف من الثلث سمَّاه (خفيف الثلث)، وقلماً متصل الحروف، ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سمَّاه (المسلسل)، وقلماً سمَّاه (غبار الحلية)، وقلماً آخر سمَّاه (خط المؤامرات)، وقلماً سمَّاه (خط القصص)، وقلما سماه (الحوائجي)، وقد رتب الأقلام وجعل لها نظاماً، إلا أن خطه مع رونقه وبهجته لم يكن مهندساً، فكان خطه يوصف بالبهجة والحسن، من غير إحكام ولا إتقان، وكان عجيب البري للقلم[4].

وكان ينافس الأحول في جودة الخط رجلان، الأول هو (وجه النعجة) محمد بن معدان المعروف بأبي ذرجان، وكان مقدماً في (الجليل)، أما الثاني فهو أحمد بن محمد بن حفص المعروف بـ (زاقف) وكان أجل الكتاب خطاً في (الثلث)، وكان ابن الزيات في أيام ابن طولون وزير المعتصم، يعجب بخطه ولا يكتب بين يديه غيره. وانتهت رئاسة الخط بمصر إلى (طبطب المحرر) في

(1) القلقشندي: 3/16.
(2) الأثري: الخطاط البغدادي ص 45.
(3) القلقشندي 3/16، وانظر الكردي ص 69.
(4) القلقشندي 3/16.

الجودة والإحكام[1].

وفي رأس الثلاث مئة انتهت رئاسة الخط إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة (المتوفى 328 هـ/ 940 م)، وإلى أخيه أبي عبدالله الحسن بن مقلة (المتوفى 338 هـ/ 950 م)، وكلاهما أخذ عن الأحول، وولدا طريقة اختراعاها، وكتب في زمنهما جماعة فلم يقاربوهما. تفرد أبو عبدالله الحسن بن مقلة بـ (النسخ)، والوزير أبو علي بـ (الدرج)، وكان الكمال في ذلك للوزير، وهو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها، وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها[2]، وقد وصفهما ياقوت الحموي بقوله: «كان الوزير أحد الدنيا في كَتْبِهِ (قلم الرقاع) و (التوقيعات) لا ينازعه في ذلك منازع، ولا يسمو إلى مساماته ذو فضل بارع، وكان أبو عبدالله أكتب من أخيه في (قلم الدفتر) و (النسخ)، مسلماً له في فضيلته، غير مفاضل في كَتْبِهِ»[3].

وقد أخذ عن الوزير ابن مقلة أتباع كثيرون، يتمرسون طريقته ويحاكون خطه، منهم أحمد بن الحسين الغضاريّ، والحسن بن علي البغدادي، المعروف بابن ناهوج (المتوفى 588 هـ/ 1192 م)، وأبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى 624 هـ/ 1227 م)، وابن كمونة اليهودي الفيلسوف، وكان يزوِّر على خط ابن مقلة، وغيرهم.

وكان أبرز هؤلاء الذين أخذوا عن ابن مقلة (محمد بن السمسماني)، وهو محمد بن علي الشيرازي، كان أحد النحاة المشهورين بمعرفة الأدب واللغة (توفي 415 هـ/ 1024 م)[4]، ومحمد بن أسد بن علي الكاتب المقريء (المتوفى 410 هـ/ 1018 م)[5]، وترجع أهمية هذين الكاتبين، السمسماني

---

(1) القلقشندي 3/ 16، والكردي ص 70، وجاء اسم (طبطب) فيه محرفاً إلى (قطبة)، وعنه أخذ هذا الوهم من كتبوا في الخط من المحدثين، وانظر الخطاط البغدادي ص 45.
(2) القلقشندي 3/ 17، وضوء الصبح المسفر 1/ 183.
(3) معجم الأدباء 10/ 29.
(4) السيوطي: بغية الوعاة ص 343.
(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان في ترجمة ابن البواب 1/ 345، والسيوطي: بغية الوعاة=

ومحمد بن أسد، إلى أن كاتباً كبيراً أخذ عنهما وترسم طريقتهما، ثم زاد عليهما وأبدع، وتفنن وأكمل قواعد الخط وتممها، واخترع غالب الأقلام التي أسسها ابن مقلة، ذلك الكاتب هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب (المتوفى 413 هـ/ 1022 م)، وهو الذي حرر (قلم الذهب) وأتقنه، وبرع في (الثلث) و (الرقاع) و (الريحان)، وميز قلم المتن والمصاحف وكتب بـ (الكوفي) فأجاد وأبدع.

وصف ابن كثير خط البواب فقال: «أما خطه وطريقته فيه فأشهر من أن ننبه عليها، وخطه أوضح تعريباً من خط ابن مقلة، ولم يكن بعد ابن مقلة أكتب منه، وعلى طريقته الناس اليوم في سائر الأقاليم إلا القليل»[1]، وابن البواب هو الذي هذَّب طريقة ابن مقلة ونقَّحها وكساها طلاوة وبهجة، كما يقول ابن خلكان متحدثاً عن ابن مقلة، إنه: «لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه، ولكن ابن البواب هذَّب طريقته ونقَّحها وكساها طلاوة وبهجة»[2]، وقد بلغت الأقلام التي اتقنها ابن البواب وأدخل عليها التحسين ثلاثة عشر قلماً»[3].

وقد شاعت طريقة ابن البواب وراج خطه، فتبعته مجموعة كبيرة من الكاتبين، من أمثال: أبي علي الجويني، وعلي بن حمزة البغدادي، والوزير ابن صدقة، وعمر بن الحسين غلام ابن خِرِنْقا، وبني العديم الحلبيين، ولا سيما الحسن بن علي، وعبد القاهر بن علي، وفاطمة بنت الأقرع، وأبي منصور الفضل بن عمر، وأبي طالب الكرخي، وابن البَرَفْطي، ومحمد بن سعد الرازي، وبَيْنَمان الأصفهاني، وابن التِبْنِيّ، وياقوت عبدالله المعروف بالملكي، وياقوت بن عبدالله الرومي نزيل الموصل، وأخذ عن ابن البواب أيضاً محمد بن منصور بن عبدالملك، الذي أخذت عنه الكاتبة زينب، ويقال فاطمة، وتُعرف

= ص 343، والبغدادي: تاريخ بغداد 12/10.

(1) البداية والنهاية 12/14.

(2) وفيات الأعيان 3/28.

(3) المصرف: بدائع الخط العربي ص 35.

بشَهْدَة الأبري التي توفيت سنة 574 هـ/ 1178 م، وغيرهم. على أن أشهر هؤلاء جميعاً هو ياقوت المستعصمي[1].

وياقوت هو جمال الدين أبو الدر (وقيل أبو المجد)[2] ياقوت بن عبدالله المستعصمي البغدادي، كان من مماليك المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، فانتسب إليه، وعرف ياقوت بالأدب والشعر وجودة الخط، قال ابن العماد: «هو آخر ما انتهت إليه رئاسة الخط المنسوب، كان يكتب على طريقة ابن البواب»[3]، كتب عليه خلق من أولاد الأكابر، وكان محترماً معظماً، توفي ببغداد سنة 698 هـ/ 1299 م.

وهكذا نجد الخط العربي يتابع مسيرته وتطوره، منذ بداية العصر الأموي حتى أواخر العصر العباسي، ويسهم في ازدهاره وانتشاره مجموعة كبيرة من الكتاب المسلمين، حتى يصل إلى آخر المبدعين في العصر العباسي ياقوت المستعصمي.

وأما الوراقون فقد عُرِف لهم خط تميزوا به، وهو خط المهنة أو الصنعة، وشهر بـ (الخط الوراقي)، ومعلوم أن لكل وراق خطه المتميز، وقلمه الذي يجيده، وقد يُطلب من الوراق النسخ بقلم دون آخر، إلا أن الخط الذي شُهِرَ للوراقين وصار خط الصنعة كما يذكر ابن النديم[4]، هو الخط الوراقي والمحقق والعراقي، ولمَ نجد في المصادر وصفاً وافياً لهذه الخطوط، ولكن الرأي الراجح في ذلك أنه «كان بالقلم الجليل، لاتساع رقعته وجلاء صفحاته وزيادة ما يقتضيه من الصحف، وفي تعددها زيادة أجورهم وأثمانهم»[5]. ومن صالح الوراق أن يكون خطه كبيراً حتى ينجز في وقت قصير صفحات كثيرة، لأن الأجر كان على ثمن الورقة الواحدة وليس الأجر مقطوعاً على مجمل الكتاب، إلا في

---

(1) الأثري: الخطاط البغدادي ص 48 ـ 49.
(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 5/ 283.
(3) ابن العماد: شذرات الذهب 5/ 443.
(4) الفهرست ص 12.
(5) حبيب زيات ص 319.

حالات خاصة. وعلى خلاف ذلك كان خط المحدِّثين الذين يكتبون لأنفسهم، فهؤلاء لهم قلم مختزل رقيق الحروف متراصّ تسهل معه مقاربة ما بين السطور، توفيراً للورق أو الرَّق أو القرطاس لغلائها، ولذلك كان يسمى خط المحِّدثين بالخط (المُقَرْمَط)، وقيل إن الخليفة المعتز بالله العباسي كتب به مرة، فقال له علي بن حرب الطائي: «أخذت يا أمير المؤمنين في شؤم أصحاب الحديث، فضحك المعتز»[1]، وكذلك كانت خطوط المصنفين والعلماء تميل إلى القلم المختزل الرقيق الحروف المتراصّ، على خلاف قلم الوراقين، ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمة الحسين بن أحمد النيسابوري الحافظ، قال: «أفنى عمره في جمع المسند الكبير... ووقع في خطه في ألف وثلاثمائة جزء، ولقد قلت على التحقيق إنه يقع في خطوط الوراقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء»[2]، وكذلك كتب النيسابوري نفسه مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «في بضعة عشر جزءاً بعلله وشواهده، وكتبه الوراقون في نيّف وستين جزءاً»[3]. ومن هذا يتضح أن خطوط الوراقين تزيد على خطوط العلماء بثلاثة أضعاف إلى ستة أضعاف.

وكان بعض الوراقين يكتبون المصاحف بالخط المحقق والمشق وما شاكل ذلك، وقد ذكر ابن النديم جمهرة من الوراقين، منهم: ابن أبي حسان، وابن الحضرمي، وابن زيد، والفريابي، وابن أبي فاطمة، وابن مجالد، وابن حسن المليح، وأبو محمد الأصفهاني، وغيرهم[4].

الأمالي سبب ازدهار الوراقة:

وقفنا على نمطين من التوريق، الأول: أن يعطي المؤلف كتابه إلى وراق لينسخ منه نسخاً يبيعها في الأسواق، ويتم هذا العمل بأن يأخذ الوراق الكتاب

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 11/419.
(2) تهذيب ابن عساكر 4/352.
(3) السابق والصفحة.
(4) ابن النديم: الفهرست ص 10.

ثم يجلس ليملي هذا الكتاب على مجموعة من النساخ قلّت أو كثرت، وعندما ينتهي الوراق من إملاء الكتاب، يكون قد حصل من النسخة الواحدة على نسخ بعدد الناسخين.

والنمط الثاني أن يجلس العالم نفسه فيملي درسه، ويكتب الناس ما أملاه، ومن هؤلاء الكاتبين طالب العلم الذي ينسخ لنفسه، ومنهم الوراق الذي ينسخ لتكثير نسخ الكتاب وبيعها.

وهناك نمط ثالث هو أن ينسخ الوراق كتاباً لمن يطلبه، كما كانوا يفعلون في نسخ المصاحف. ومن هذا يتبين أن صلة الوراقة بالإملاء كانت صلة وثيقة.

وقد كثرت مجالس الإملاء وانتشرت في المدن الإسلامية، وكان كثير من مؤلفات العلماء المسلمين قد ألفت عن طريق الإملاء، ويعزز هذا قول ابن النديم في حديثه عن أبي الحسن علي بن عيسى الرماني إن «أكثر ما يصنفه يؤخذ عنه إملاء»[1]، وهناك نصوص صريحة على أن بعض الكتب كانت تملى إملاء، من ذلك ما ذكره ياقوت عن (أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة) للطبري، أن الطبري: «قطع الإملاء في بعض الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ما خرَّج منه نحو خمس مئة ورقة، وكان قد عمل أربعة أجزاء ولم يخرجها إلى الناس في الإملاء»[2]، ولهذا فقد ظهرت كتب كثيرة مقرونة باسم (الأمالي)، وقد ذكر حاجي خليفة جملة صالحة من هذه الكتب، نذكرها حسب أزمانها:

فأقدم هذه الكتب المنوَّه بها أمالي الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (المتوفى سنة 183 هـ/ 799 م) في الفقه، قيل إنه أكثر من ثلاث مئة مجلد[3]، وظهرت في القرن الرابع جملة من كتب الأمالي، منها: أمالي أبي العباس ثعلب أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني (توفي سنة 291 هـ/ 903 م)

(1) الفهرست ص 94.
(2) معجم الأدباء 18/ 77.
(3) حاجي خليفة: كشف الظنون 1/ 164.

وتعرف أماليه هذه أيضاً بـ (مجالس ثعلب)، وأمالي الزجاج إبراهيم بن السري بن سهل (المتوفى سنة 311 هـ/ 923 م)، وأمالي ابن دريد محمد بن الحسن بن دريد (المتوفى سنة 321 هـ/ 931 م) في اللغة، وأمالي أبي جعفر البختري محمد بن عمرو (المتوفى سنة 343 هـ/ 954 م) في الحديث، وأمالي أبي علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي (المتوفي سنة 356 هـ/ 967 م) في الأدب واللغة، وأمالي بديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة 398 هـ/ 1007 م)، وأمالي أبي طاهر الزيادي (المتوفى سنة 410 هـ/ 1016 م)[1]، وفي الأندلس كان القاضي أبو المطرف عبدالرحمن بن فطيس (المتوفى سنة 402 هـ/ 1011 م) يملي الحديث من حفظه، على طريقة أصحاب الحديث في المشرق[2]. ويذكر السيوطي أن آخر من أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي عبد الرحمن بن إسحاق (المتوفى سنة 339 هـ/ 951 م)، يقول: «وله أمالي كثيرة في مجلد ضخم، ولم أقف على أمالٍ لأحد بعده»[3]. ومعنى هذا أن أمالي اللغة قد توقفت بعد القرن الرابع، أما أمالي الحديث فقد استمرت قروناً أخرى، فالسيوطي نفسه كان قد بدأ بإملاء الحديث في سنة اثنتين وسبعين وثمان مئة، وجدده بعد انقطاعه عشرين سنة من وفاة الحافظ أبي الفضل بن حجر وأنه أراد أن يجدد إملاء اللغة ويُحييه بعد دثوره، فأملى مجلساً واحداً ولم يجد له حملة، ولا من يرغب فيه، فتركه[4].

والإملاء كما يقول حاجي خليفة: «هو أن يقصد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس، فيتكلم العالم بما فتح الله عليه من العلم، ويكتبه التلامذة فيصير كتاباً»[5]، وفي تراجم بعض العلماء ذكر وبيان لهذه الأمالي ومقدارها، من ذلك أن أبا بكر بن الأنباري أملى كتابه المشكل في معاني القرآن سنين كثيرة

(1) السابق 1/ 164 ـ 165.

(2) ابن بشكوال: الصلة 1/ 298.

(3) السيوطي: المزهر 2/ 314.

(4) السابق والصفحة.

(5) كشف الظنون 1/ 147 ـ 148.

ولم يتمه[1]، وأملى من حفظه كتاب غريب الحديث، الذي يقال إنه خمس وأربعون ألف ورقة، وأملى كذلك أكثر مصنفاته[2]، وأملى أبو السعادات ابن الشجري كتاب الأمالي، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً[3].

وقد يملي العالم ارتجالاً في مجالس مختلفة، وعندها يختلف اللفظ وتتغير العبارات، ويكون هناك تقديم وتأخير وزيادة ونقص، فتختلف لذلك نسخ الكتاب، وهذا الذي جعل بعض نسخ المخطوطات مختلفة غير متطابقة. والكتب التي تعددت إملاءاتها كثيرة، نذكر منها كتاب مجالس ثعلب (المتوفى سنة 291 هـ/ 903 م)، وقد اختلفت نسخه زيادة ونقصاً باختلاف رواياته، وكتاب الجمهرة لابن دريد الذي أملاه بفارس، وأملاه ببغداد من حفظه، فلما اختلف الإملاء زاد ونقص، والنسخة التامة التي عليها المعوَّل هي النسخة الأخيرة، وآخر ما صح من النسخ نسخة أبي الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[4]، أما الأصمعي فقد زيد على كلامه، روى الأزهري أنه أملى ببغداد كتاباً في النوادر فزيد عليه ما ليس من كلامه، وأن الكتاب عرض عليه فقال: «ليس هذا كلامي كله، وقد زيد فيه عليَّ، فإن أحببتم أن أعلم ما أحفظه منه وأضرب على الباقي فعلت، وإلا فلا تقرأوه»، قال سلمة بن عاصم: «فأعلم الأصمعي على ما أنكر من الكتاب وهو أرجح من الثلث، ثم أمرنا فنسخناه له»[5].

كانت بيوت المؤلفين هي المجالس التي يملي فيها العالم ويتحلق حوله طلابه، فيكتبون ما يملي عليهم، فلما كثر الناس وزادت الرغبة في السماع والكتابة، ضاقت البيوت فصارت مجالس الإملاء تنتشر في الطرق والأزقة والحارات، ولدينا من صور ذلك روايات توضح هذه الحال، من ذلك: «أن ابن

(1) ياقوت: معجم الأدباء 7/ 76.
(2) ياقوت 7/ 25 و 74.
(3) ياقوت 7/ 247 ـ 248.
(4) ابن النديم: الفهرست 67.
(5) الإهري: تهذيب اللغة 1/ 15، وانظر الحلوجي ص 159.

أبي الجعابي، كان يملي مجلسه فتمتلي السكة التي يملي فيها والطريق[1]، ويصور ابن الجوزي مدى اهتمام الناس بأمالي الشيوخ وعدد من حضر: «لما ورد جعفر الفريابي (توفي سنة 301 هـ/ 913 م) إلى بغداد استقبل بالطيارات والزبازب[2]، ووعد الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه، فحُزِرَ من حضر مجلسه لسماع الحديث فقيل نحو ثلاثين ألفاً»[3]، وليس في عدد الحضور هذا مبالغة، فقد ترد روايات تذكر من الحاضرين مائة ألف وأكثر[4]، ولا بد لإسماع هذه الجموع الغفيرة من منادين يرددون إملاء الشيخ كالصدى ليسمع الناس، ويقال لهؤلاء المنادين (المُسْتَمْلُون)، ويختلف عدد المستملين بحسب ازدياد المستمعين وانتشار الحلقات، وبعد المسافات، وفي تراجم هؤلاء العلماء والمحدثين صورة لهذه المجالس وأعداد المستمعين والمستملين، ومن ذلك ما ذُكر أنه كان للقاضي المحاملي أربعة مستملين على ما يروي يوسف بن عمر القوّاس، قال: «حضرت مجلسه وكان له أربعة مستملين يستملون عليه، وكنت لا أكتب في مجالس الإملاء إلا ما أسمعه من لفظ المحدث، فقمت قائماً لأني كنت بعيداً عن المحاملي بحيث لا أسمع لفظه، فلما رآني الناس أفرجوا لي وأجازوني حتى جلست مع المحاملي على السرير»[5]، وكان لإبراهيم بن عبد الله بن المهاجر البصري المعروف بالكجي (المتوفي سنة 292 هـ/ 905 م) سبعة مستملين، روى أبو بكر أحمد بن جعفر بن مسلم، قال: «لما قدم علينا أبو مسلم الكجي، أملى الحديث في رحبة عنان، وكان في مجلسه سبعة مستملين، يُبَلِّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قياماً، بأيديهم المحابر، ثم مُسِحَتْ الرَّحْبَة وحُسِبَ من حضر بمحبرة فبلغ ذلك نَيِّفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظارة»[6].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 3/ 28.

(2) نوع من الزوارق والسفن.

(3) ابن الجوزي: المنتظم 6/ 124.

(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 12/ 248.

(5) السابق 14/ 326.

(6) السابق 6/ 121 ـ 122.

وكان مجلس أبي الحسن عاصم بن علي الواسطي يضم مائة ألف إنسان، وكان الواسطي يحدِّث في بغداد في مسجد الرصافة، وكان يستملي عليه هارون الديك، وهارون مكحلة، قال عمرو بن حفص: «وجَّه المعتصم مَنْ يحزر مجلس عاصم بن عليّ في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان عاصم بن عليّ يجلس على سطح المسقفات، وينتشر الناس في الرحبة وما يليها، فيعظم الجمع جداً، حتى سمعته يقول: (حدثنا الليث بن سعد) ويستعاد، فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون، وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ويستملي عليها، فبلغ المعتصم كثرة الجمع فأمر بحزرهم، فوجه بقطاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ومئة ألف»(1).

وإجلالاً للعلم ورغبة في سماعه وأخذه فقد كان بعض الخلفاء يحضرون هذه المجالس، ومنهم المأمون، فقد حضر مجلس سليمان بن حرب الواشجي البصري، وكان مجلسه عند قصر المأمون: «فبنى له شبه منبر، فصعد سليمان، وحضر حوله جماعة من القُوَّاد وعليهم السواد، والمأمون فوق قصره قد فتح باب القصر، وقد أرسل سِتْرٌ يشفُّ وهو خلفه يكتب ما يُملي، فَسُئِل: (حديث حوشب بن عقل) فلعله قد قال: (حدثنا حوشب بن عقل) أكثر من عشر مرات، وهم يقولون: لا نسمع، حتى قالوا ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة فأحضروه، وكان صوته كالرعد، فسكت المستملون كلهم وأملى هارون»(2).

ولم تكن هذه المجالس قاصرة على المشرق، فقد كان في المغرب والأندلس أمثال هذه المجالس، التي يحضرها العدد الغفير من الكاتبين، كما ذُكِرَ عن مجلس الفقيه أبي مروان عبدالملك الطُنْبي الذي رحل إلى المشرق، ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه في المجلس

(1) السابق 12/248.

(2) السابق 9/33، وهارون هذا في الأرجح هو هارون بن سفيان بن راشد أبو سفيان المستملي المعروف بمكحلة، ينظر تاريخ بغداد 14/24.

خلق عظيم، فلما رأى تلك الكثرة وما له عندهم من الأثرة، قال[1]:

إني إذا حضرتني ألفُ محبرةٍ   يكْتُبْنَ حدَّثني طَوْرا وأخبرني
نادتْ بعِقْوَتيَ الأقلامُ معلنةً   هذي المفاخرُ لا قعبانُ من لَبَنِ

ولم تكن هذه المجالس قاصرة على الحديث، بل تتناول المجالس أصناف العلوم الدينية واللسانية، فقد كان الفَرَّاء يملي كتاب المعاني في النحو[2]، وابن دريد يملي كتاب الجمهرة في اللغة[3]، وابن السِّكِّيت يملي كتبه في اللغة. وقد حُفظ لنا اسم مستملي ابن السكيت، وهو عبد الله بن محمد بن رستم اللغوي[4].

لم تقتصر وظيفة المستملين على مجالس العلم، بل شملت مجالس القضاء أيضاً، فقد كانوا يقومون بين أيدي القضاة في الجامع إذا احتاجوا إلى المناداة بذنوب المتهمين في دينهم واستتابتهم، قال محمد بن عبد الرحمن الصيرفي: «شهدت مسجد الجامع بالرصافة وقد اجتمع الناس، وجلس قتيبة بن زياد للناس، وأُقيم بشرٌ على صندوق من صناديق المصاحف عند باب الخدم، وقام المستمليان: أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس مستملي ابن عُيينة، وهارون بن موسى مستملي يزيد بن هارون، يذكران أن أمير المؤمنين إبراهيم بن المهدي أمر قاضيه قتيبة بن زياد أن يستتيب بِشْر بن غياث المريسي من أشياء عددَّها، فيها ذكر القرآن وغيره، وأنه تائب»[5].

الوراقة بين اليسر والعسر:

كانت الوراقة حرفة مريحة، وقد امتهنها جمهرة من العلماء والأدباء،

---

(1) ابن خاقان: مطمح الأنفس ص 50.
(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان 2/301 ـ 302.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 91.
(4) القفطي: إنباه الرواة 4/394.
(5) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 14/364.

وكانت أسعار النسخ ترتفع بمرور الزمن، وكان الوراق المتقن الجيد الخط الصحيح النقل مقصد أنظار العلماء وطلاب العلم، وكان هؤلاء الوراقون المتقنون ربما قصدوا العلماء لعرض الكتب عليهم ونسخها لهم وفق أجر معلوم، ومن خلال الإشارات التي ذكرتها كتب التراجم نستطيع أن نقف على كيفية ممارسة هذه المهنة، ومقدار ما كانوا يكسبون، فقد روى الخطيب البغدادي، قال: حدَّث أبو القاسم بن بنت منيع (توفي سنة 317 هـ/ 929 م) قال: «كنت أورِّق، فسألت جدي أحمد بن منيع أن يمضي معي إلى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، يسأله أن يعطيني الجزء الأول من المغازي عن أبيه عن ابن إسحاق حتى أورقه عليه، فجاء معي وسأله فأعطاني الجزء الأول، فأخذته وطفت به، فأول ما بدأت بأبي عبد الله بن مغلّس وأريته الكتاب، وأعلمته أني أريد أن أقرأ المغازي على سعيد الأموي، فدفع إليَّ عشرين ديناراً، وقال: اكتب لي منه نسخة، ثم طفت به بقية يومي، فلم أزل آخذ من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير فأكثر وأقل، إلى أن حصل معي في ذلك اليوم مئتا دينار، فكتبت نسخاً لأصحابها بشيء يسير من ذلك، وقرأتها لهم، واستفضلت الباقي»[1].

وقد كسب بعض الوراقين ثروة طائلة من هذه المهنة، كما روي عن ابن شهاب العكبري (المتوفي سنة 428 هـ/ 1037 م)، فقد حدَّث عيسى بن أحمد الهمذاني، قال: «قال لي أبو علي بن شهاب العكبري يوماً: أرني خطك، فقد ذُكرَ لي أنك سريع الكتابة، فنظر فيه فلم يُرضِه، ثم قال لي: كسبت من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية[2]، وكنت اشتري كاغدا بخمسة دراهم، فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليال، وأبيعه بمئتي درهم وأقله بمئة وخمسين درهماً»[3]، وبلغ من ثراء العكبري هذا أن السلطان أخذ من تركته ـ كما يقول الأزهري ـ ما قدره ألف دينار، سوى ما خلفه من الكروم والعقار[4].

---

(1) السابق 10/ 113 ـ 114.

(2) نسبة إلى الراضي بالله محمد بن المقتدر العباسي الذي ولي سنة 322 هـ/ 933 م.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/ 329.

(4) السابق 7/ 329 ـ 330، وابن الجوزي: المنتظم 8/ 92.

ومن الدلائل على رواج هذه المهنة وما تدره من ربح جيد، أن بعض القضاة كان يتحسر على أيامه حين كان يشتغل بالوراقة، ويندم على ما صار إليه من سوء حال وهو قاض، فقد روي عن أبي عبيد علي بن الحسين بن حرب البغدادي الفقيه الشافعي قاضي مصر، من أهل المئة الرابعة، قال أبو بكر بن الحداد: «سمعت أبا عبيد القاضي يقول: ما لي وللقضاء، لو اقتصرت على الوراقة ما كان حظي بالردي، وكان رزقه في الشهر مئة وعشرين ديناراً»[1].

وكانت الوراقة مهنة بعض العلماء والفقهاء والمحدثين، إذ وجدوا فيها مهنة حرة شريفة تدر الربح الحلال وتوفر العيش الكريم، ومن هؤلاء العلماء الذين كانوا يكسبون عيشهم من الوراقة أبو العباس محمد بن محمد بن يعقوب الأموي الأصم (توفي سنة 346 هـ/ 957 م)، من أكابر علماء خراسان ومحدثيهم، «كان يورق ويأكل من كسب يده، ويكره أن يأخذ شيئاً عن التحديث»[2]، وأبو زكريا يحيى بن عدي من فلاسفة القرن الرابع، نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، وكتب من كتب المتكلمين ما لا يحصى، وكان يقول: «ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مئة ورقة وأقل»[3].

الوجه الآخر للمهنة:

على أن هذه الصورة المشرقة للوراقة لم تكن عامة، بل كان هناك من العلماء، والأدباء الذين امتهنوا الوراقة، واتخذوها سبباً في معاشهم، يرون فيها (حرفة الشؤوم) كما سمَّاها أبو حيَّان التوحيدي (توفي سنة 400 هـ/ 1009 م)، وكان التوحيدي أكثر الأدباء المتذمرين المتشائمين من هذه الحرفة، ومن حياته بعامة، وقد ترك بغداد ورحل إلى الصاحب بن عبَّاد هرباً من حرفة الوراقة[4]، وقد وصف ياقوت أبا حيَّان بأنه كان: «يتشكى صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام ص 118. الكندي: الولاة والقضاة ص 531.

(2) ابن الجوزي: المنتظم 6/386.

(3) ابن النديم: الفهرست ص 369.

(4) ياقوت: معجم الأدباء 15/28.

على حرمانه»[1]، وقد وصف أبو حيَّان حالته وحرفته هذه، فقال: «لقد استولى عليَّ الحُرْف[2]، وتمكن مني نكد الزمان إلى الحدِّ الذي لا أسترزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد الذي يمسخ النسخ، ويفسخ الأصل والفرع»[3]، ولا شك بأن أبا حيَّان حالة خاصة فريدة لا يقاس عليها، لأنه كان بطبعه متشائماً كثير الشكوى، ولعل الناس كانوا يَزْوَرُّون عنه وينصرفون إلى غيره، تهيباً من مكانته العلمية، وهو كما يصفه ياقوت: «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء»[4]، ولذلك فقلما يجرؤ الناس على توريقه، ويطلبون من هو دونه علماً وفضلاً ومهارة في الصنعة[5]، وفي كل حرفة وعمل هناك أناس يحالفهم التوفيق، وهناك أناس ترافقهم الخيبة، ويلازمهم الفشل، رغم ما لديهم من أسباب النجاح، ولعل أبا حيَّان حين قصد الصاحب بن عبَّاد، وهو الأديب الذائع الصيت، كان يأمل أن يعرف الصاحب قدره، وينال عنده الحظوة والمكانة العالية، لا أن يجعله ورَّاقاً من الوراقين، ولعل الصاحب قد حسد أبا حيَّان على مواهبه فأذله، ومما يرجح هذا الفرض قول أبي حيَّان نفسه: «وقصدت ابن عبَّاد، بأمل فسيح، وصدر رحيب، فقدَّم لي رسائله في ثلاثين مجلدة على أن أنسخها له، فقلت إن نسخ مثلها يأتي على العمر والبصر... ثم إني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم»[6]، ومما يؤكد فرضية حسد ابن عبَّاد وإذلاله لأبي حيَّان، ما ذكره أبو حيَّان في كتابه أخلاق الوزيرين، قال: «طلع ابن عبَّاد عليَّ يوماً وأنا قاعد في كسر إيوان أكتب شيئاً قد كادني به، فلما أبصرته قمت، فصاح بحلق

(1) السابق 15/6.
(2) الحُرْف: الحرمان.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 15/13.
(4) السابق 15/5.
(5) الحلوجي ص 131.
(6) ياقوت: معجم الأدباء 15/38.

مشقوق: اقعد فالورَّاقون أخسُّ من أن يقوموا لنا»[1].

لا شك أن الوراقة كانت مهنة كريمة شريفة، تدر ربحاً وفيراً جيداً، فأقبل عليها فريق من الكُتّاب المقبلين على الحياة الراضين بأرزاقهم، وهناك فئة من الكتاب غير راغبة بهذه المهنة، ولكن ضيق العيش اضطرها إلى أن تلجأ إلى الوراقة، فاتخذوها حرفة وعملوا لها على مضض من غير إقبال ولا رضا، وكان من هذا الفريق جمهرة من الأدباء والنابهين، من مثل الأديب النحوي محمد بن سليمان بن قطرمش بن تركمان شاه أبي نصر البغدادي، الذي خلف له والده أموالاً كثيرة فضيعها في القمار واللعب بالنرد، حتى احتاج إلى الوراقة: «فكان يورق بخطه المليح الصحيح»[2]، ومن هؤلاء الذين دفعتهم الحاجة إلى الارتزاق بالوراقة أيضاً الشاعر السري بن أحمد الرفَّاء الموصلي، يقول الخطيب البغدادي إنه: «عُدِمَ القوت فضلاً عن غيره فجلس يورق شعره ويبيعه، ثم نسخ لغيره بالأجرة، وركبه الدَّيْن ومات ببغداد على تلك الحال بُعَيْدَ سنة ستين وثلاث مئة»[3]. ومن هؤلاء أيضاً تاج الدين عليُّ بن أحمد الحسيني الغرَّاف، شيخ الإسكندرية: «كان يرتزق بالوراقة، فإذا حصل قوته لا يتجاوزه»[4]، وممن عاش من كسب يده في الوراقة من العلماء: محمد بن عبدالله الكرماني اللغوي: «كان يورق بالأجرة ويرغب الناس في خطه»[5]، ومحمد بن سليمان البغدادي النحوي: «كان يورق بالأجرة بخطه المليح الصحيح المعتبر، فكتب كثيراً من الكتب»[6]، ومحمد بن أحمد بن عبدالباقي المعروف بابن الخاضبة مؤلف ومحدث، قال: «كنت أورِّق للناس وأنفق علىالأهل»[7]، وعلي بن عبدالله

(1) ياقوت: معجم الأدباء 5/293،394.
(2) السيوطي: بغية الوعاة ص 47.
(3) الخطيب البغدادي؛ تاريخ بغداد 9/194.
(4) ابن العماد: شذرات الذهب 6/11.
(5) ابن النديم: الفهرست ص 118.
(6) ياقوت: معجم الأدباء 7/140.
(7) السابق 6/336.

العلوي المعروف بابن الشبيه[1]، وأمثال هؤلاء العلماء كثير[2].

وقد تذمر بعض هؤلاء الأدباء المتشائمين من مهنة الوراقة ووصفوا متاعبها وضيق العيش فيها، فقال أحدهم يصف حاله: «عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدقُّ من مسطرة، وجاهي أرقُّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشدُّ سواداً من الحبر، وحظي أحقر من شقِّ القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمرُّ من العفص، وسوء الحال ألزم لي من الصبغ»[3]. ولا شك أن أثر الصنعة في هذه الفقرة ظاهر، فقد أراد صاحبها أن يصف حاله مستمداً صورها من أدوات صنعته.

وقد صور الشعر مهنة الوراقة وما فيها من ضيق عيش وكساد سوق، فقال أحد الشعراء[4]:

أدمى البُكا جفْنَيَّ والمآقي ... وظَلْتُ ذا هَمٍّ وذا احتراقِ
ما إنْ أرى في الأرضِ والآفاقِ ... أدنى ولا أشْقى من الورَّاقِ
إذا أتى في القُمُصِ الأخلاقِ ... رأيته مطْنَزَةَ العُشَّاقِ
يفرحُ بالأقلامِ والأوراقِ ... كفرحةِ الجنديِّ بالأرزاقِ

وقال آخر إنه يفرُّ من هذه الحرفة ويرده الزمان إليها[5]:

هربتُ من الوِراقةِ مِلْءَ شوطي ... فردَّنيَ الزمانُ إلى الوِرَاقهْ
وتركُ المرءِ حرفتَهُ فِرارا ... لأمرٍ ليس يدريهِ حماقهْ

وذم أبو حاتم الورَّاق من كَشْمَر إحدى قرى نَيْسَابور، هذه الحرفة التي مارسها خمسين عاماً، قال[6]:

---

(1) السابق نفسه 5/230.
(2) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب ص 154.
(3) الصولي: أدب الكتَّاب ص 97.
(4) السابق ص 95.
(5) الوطواط: غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة ص 159 ـ 160.
(6) الثعالبي: يتيمة الدهر 4/403، ياقوت: معجم البلدان 4/463.

إنَّ الـوِراقَـةَ حِـرْفَـةٌ مـذْمـومـةٌ ... محـرومـةٌ عيشـي بهـا زَمِـنُ
إنْ عِشْتُ عِشْتُ وليسَ لي أَكُلٌ ... أو مُتُّ مُتُّ وليسَ لي كَفَنُ

ولم تخلُ الأندلس أيضاً ممن يتذمر من هذه الحرفة وذمها، فهذا عبد الله بن صارة الشنتريني الأندلسي، يقول(1):

أما الوِراقةُ فهي أنْكَدُ حرفةٍ ... أوراقُهـا وثِمـارُهـا الحِـرْمـانُ
شبَّهْتُ صاحِبَها بصاحِبِ إبْرَةٍ ... تكْسُو العُراةَ وجِسْمُها عُرْيانُ

وقد بالغ آخر في تذمره فذم الوراقة والعلم والاشتغال بالفقه وسائر العلوم، وعزا إليها كل أسباب الذل والمهانة(2):

إنَّ الــوِراقَــةَ والتفقُّــهَ ... والتشــاغــلَ بــالعلــومِ
أصـلُ المـذلَّـةِ والإضـاقَـةِ ... والمهــانَــةِ والهُمــومِ

إن روح التذمر والتشاؤم هذه أمر بدهي، وفي كل حرفة لها من يمدحها ولها من يذمها، فحتى طلب الحديث النبوي، وهو من أكرم ما يطلبه العلماء وطلاب العلم، كان في نظر بعضهم (صنعة المفاليس)، على حدِّ قول غياث بن إبراهيم، الذي سأله الخليفة المهدي العباسي: «ما صنعتك؟ قال، قلت: صنعة المفاليس، قال: وما صنعة المفاليس؟ قلت: طلب الحديث»(3).

مقدار ما يكتبون:

ترتبط الكتابة كثرة وقِلَّة بحسن الخط، ويسر الأداة، واعتدال المزاج، والرغبة في العمل، فهي كأي حرفة أخرى فيها المجيد النشط السريع، وفيها الخامل البطيء البليد، على أن السرعة والبُطء ليسا مقياساً للجودة والرداءة، بل هناك عوامل أخرى لها صلة بالمواهب والصحة والمزاج. وجاءنا من أخبار

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/331، الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص 360.
(2) الصولي: أدب الكتَّاب ص 97.
(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 12/324.

الوراقين طرف مما كانوا يكتبونه في اليوم والليلة، فقد كان أبو زكريا يحيى بن عدي الذي نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، يقول: «ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مئة ورقة وأقل»[1]، وكان ابن شهاب العكبري يكتب ديوان المتنبي في ثلاث ليال[2]، وديوان المتنبي لا يقل في أية حال عن ثلاث مئة ورقة، ومعنى هذا أن مقدار ما كانوا يكتبون في اليوم والليلة مئة ورقة، تنقص أو تزيد، وإذا علمنا أن أجرة المئة ورقة كانت عشرين درهماً، أو ثلاثين درهماً ـ وفق ما سيجيء ـ كان في ذلك مورد حسن.

أجـــور النَّسْـــخ:

إن أسعار النسخ تختلف باختلاف الورَّاق، وجودة خطه، وصحة نقله، ودقة ضبطه، وتختلف أيضاً باختلاف الورَّاق إذا كان عالماً معروفاً، أو جاهلاً مغموراً، وتختلف كذلك من عصر إلى عصر حسب غلاء الأسعار أو رخصها، وحسب تغير قيمة النقود وصرف الدينار بالدرهم.

كانت أسعار النسخ في أول القرن الثالث في زمن الفَرَّاء (المتوفى سنة 207 هـ/ 822 م) كل عشر أوراق بدرهم، وأرادها الورَّاقون كل خمس ورقات بدرهم، وفي الرواية الآتية صورة جلية لأسعار النسخ وكذلك لإقبال الناس على العلم، ولإجلال الدولة للعلماء، وما كان يفعله الوراقون من احتكار الكتب. فقد روى ابن خلكان عن الخطيب البغدادي، قال: «إن الفرَّاء لما اتصل بالمأمون، أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، وما سمع من العربية، وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه، حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنُونَهُ بأوقات الصلاة، وسيَّرَ إليه الورَّاقين، وألزمه الأمناء والمُنْفِقين، فكان يُمْلي والوراقون يكتبون، حتى صنَّفَ (الحدود) في سنتين، وأمر المأمون بكتبه بالخزائن. فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ بكتاب (المعاني)، قال الراوي: وأردنا

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 369.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/329 ـ 330.

أن نُعِدَّ الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم نضبطهم، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً. فلم يزل عليه حتى أَتَمَّهُ، ولما فرغ من كتاب المعاني خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به، وقالوا: لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم، فشكا الناس إلى الفرّاء، فدعا الوراقين وقال لهم في ذلك، فقالوا: إنما صحبناك لننتفع بك، وكل ما صنَّفْتَهُ فليس بالناس إليه حاجة ما بهم إلى هذا الكتاب، فدعنا نعيش به، فقال: قاربوهم تنتفعوا وينتفعوا، فأبوا عليه، فقال: سأريكم، وقال للناس: إني مُمْلٍ كتاب معان أتمَّ شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت، وجلس يملي، فأملى (الحمد) في مئة ورقة، فجاء الوراقون إليه وقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون، فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم»[1]. ويستفاد من هذا أن أجرة خمس ورقات بدرهم في زمن المأمون كانت غالية، والسعر المقبول هو عشر ورقات بدرهم.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث، كانت أجرة نسخ الخمس ورقات بدرهم إلى درهم ونصف أي ضعف ما كانت في بداية القرن الثالث زمن الفرّاء (توفي سنة 207 هـ/ 822 م)، وآية ذلك قول أبي عبيدالله اليزيدي: «كان أبو العباس الأحول (محمد بن يزيد بن دينار) يكتب لي مئة ورقة بعشرين درهماً»[2]، ثم ارتفعت أسعار النسخ في أواخر القرن التالي إلى دينارين، أي نحو ثلاثين درهماً، ومن الوراقين المشهورين وقتئذ أبو محمد عبيدالله بن أبي الجوع، ذكره ابن خلكان وأثنى عليه، قال: «كان شاعراً حلواً مقبولاً ونسخه في غاية الجودة، وكان ينسخ كل خمسين ورقة بدينار وخطه مرغوب فيه»[3].

أما في أواخر القرن الرابع، فقد أصبحت الورقة الواحدة بدرهم ـ وهذا أمر لا يقاس عليه ـ فقد كان القاضي أبو سعيد السيرافي النحوي (المتوفى سنة 368 هـ/ 978 م): «لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم، تكون مقدار مؤونته ثم يخرج إلى

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان 2/301 ـ 302.

(2) ياقوت: معجم الأدباء 6/483.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان 726 ط باريس، وحبيب زيات ص 317.

مجلسه»[1]، أي أن الفرق بين زمن الفرَّاء وزمن السيرافي مئة وإحدى وستون سنة، يتضاعف فيها الأجر عشر مرات، فهل هبطت قيمة النقود؟ أم أن الناس كانت ترغب في خط عالم نحوي وضبطه، فتبذل له ما لا تبذل لغيره؟.

أما في العصور التالية فلم نظفر بمعلومات تعين على معرفة أجور النسخ لدى الوراقين.

أسعـــار الكتـــب:

كان بعض الوراقين يقومون بتجارة الكتب، من بيع وشراء وسمسرة، فكان بعضهم دلالين لبيع الكتب، وكانت تُقام في أسواق الكتب عمليات البيع والشراء والدلالون ينادون لبيع الكتب، ومن أخبار هؤلاء الدلالين نستطيع أن نقف على أسعار الكتب آنذاك، ومنها ما بيع بسعر بخس، ومنها ما بيع بسعر باهض، فمن ذلك ما ذُكر أن تركة الطبيب الأسلمي أسعد المطران، بيعت بالدلالة، وفيها ألوف كثيرة من الأجزاء الصغار بيعت بالمناداة بثلاثة آلاف درهم[2]. وحكى يحيى بن عدي أن كتابين من شرح الإسكندر للسماع ولكتاب البرهان: «عُرِضا عليه بمئة وعشرين ديناراً، قال: فلما مضيت لأحتال في الدنانير ثم عدت فأصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار»[3]. ولما مات أحمد بن ثعلب خلف كتباً جليلة، فلما عُرِضَت للبيع قال الزجَّاج للقاسم بن عبدالله الوزير: هذه كتب جليلة فلا تفوتنك، فأحضر خيران الوراق وكان دلال كتب، فقوَّم ما يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلاث مئة دينار، فأخذها القاسم بها»[4].

ولا تخلو هذه العمليات من غش وخداع، من ذلك ما يحكى أن ابن الخشاب (المتوفى سنة 567 هـ/ 1171 م) كان إذا حضر سوق الكتب وأراد

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 8/146، البغدادي: تاريخ بغداد 7/342.
(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/178 ـ 179.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 354.
(4) ياقوت: معجم الأدباء 2/144 ـ 145.

شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع، ليأخذه بثمن بخس[1].

ســـوق الوراقيـــن:

منذ أن تيسر الورق وشاع التأليف، صارت هناك حوانيت للوارقين، وتجمعت في أسواق عرفت بأسواق الوراقين، كان يُتعاطى فيها النسخ وبيع الورق والأقلام والمداد وكل ما له صلة بالأدوات الكتابية، وبدهي أن تقوم هذه الأسواق في المراكز الحضارية، و (الأمصار العظيمة العمران) كما يقول ابن خلدون[2]، ولذلك كانت حوانيت الوراقين وأسواقهم تنتشر في شوارع بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفي المدن الإسلامية الأخرى في المشرق والمغرب والأندلس.

وقد بلغت حوانيت الوراقين في بغداد في القرن الثالث أكثر من مئة حانوت، وأصبح لها سوق يعرف بسوق الوراقين[3]، وصارت هذه الأسواق (مجالس العلماء والشعراء) كما يقول ابن الجوزي[4]، ونستطيع أن نتخيل ما كان يجري فيها من المحاورات والمناظرات وتبادل الآراء والأشعار، وإن لم يصلنا عنها وصف شاف، وكان من روّاد هذه الأسواق أدباء وشعراء وعلماء، وكان من روّادها المشهورين الجاحظ (توفى سنة 255 هـ/ 869 م) الذي كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر[5]، وكان المتنبي (توفي سنة 354 هـ/ 965 م)، يكثر من ملازمة الورّاقين وينظر في الكتب[6]، وفي الرواية التالية صورة عما كان يجري في هذه الأسواق بين الباعة والمشترين، وفيها أيضاً

---

(1) السابق 4/278.
(2) ابن خلدون: المقدمة ص 962.
(3) اليعقوبي: البلدان ص 13.
(4) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص 26.
(5) ابن النديم: الفهرست ص 169.
(6) البغدادي: تاريخ بغداد 4/103.

صورة عن شدة ذكاء المتنبي وقوة حافظته، روى أحد الورَّاقين قال: «ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان (المتنبي)، كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ينظر فيه طويلاً، فقال الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعيد، فقال: إن كنت حفظته فما لي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب، قال الوراق، فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كُمِّهِ وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك من سبيل، قد وهبته لي، فمنعناه منه وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه عليه»[1].

ومن المترددين على هذه الأسواق الذين يشترون الكتب الكثيرة أبو الفرج الأصفهاني (توفى سنة 356 هـ/ 967 م)، يروي الخطيب البغدادي عن ابن النوبختي أن أبا الفرج كان: «يدخل سوق الوراقين وهي عامرة بالدكاكين، مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها»[2].

ولم يكن أمر هذه الأسواق موقوفاً على بغداد وحدها، بل كانت الأسواق منتشرة في كل مدينة من المدن الإسلامية، وكانت ملتقى الأدباء والعلماء، ففي الرها كان دكان سعد الورَّاق[3] مجلس كل أديب يغشاه طلاب العلم من النصارى، ويتردد عليه شعراء الشام[4]، وكان الجلوس إلى دكاكين الوراقين والنظر في الكتب وسماع أحاديث المترددين عليها، مصدر علم وفوائد لا حصر لها، ولهذا كان المهلب بن أبي صفرة يوصي أبناءه بقوله: «يا بَنِيَّ لا يَقْعُدَنَّ أحدٌ منكم في السوق، فإن كنتم لا بد فاعلين، فإلى زرَّاد أو سرَّاج أو ورَّاق»[5]، أي

(1) السابق والصفحة.
(2) السابق 11/399.
(3) سعد بن علي بن القاسم الوراق المتوفى سنة 568 هـ/ 1132 م.
(4) ياقوت: معجم البلدان: 2/22.
(5) ابن قتيبة: عيون الأخبار 1/139، الجاحظ: الحيوان 1/52، الزرَّاد: صانع الدروع.

ما يتزود به الإنسان من أسباب الرجولة: الفروسية والعلم، وفي هذا المعنى أنشد أبو عبدالله الحسين بن محمد بن القاسم العلوي لبعض الشعراء[1]:

مجـالسـةُ السـوقِ مـذمـومـةٌ   وفيهـا مجـالـسُ قـد تُسْتَحَـبْ
فلا تقْصُدَنْ غيرَ سوقِ الدَّوابِ   وسوقِ السِّلاحِ وسوقِ الكُتُبْ
فتلـكَ مجـالِـسُ أهـلِ الهَـوَى   وهـذي مجـالِـسُ أهْـلِ الأدَبْ

أماكـن النسـخ والتوريـــق:

كانت حوانيت الوراقين هي الأماكن المعهودة للنسخ والتوريق، وكان المؤلف يقصد الورَّاق لينسخ له كتابه، أو أن الورَّاق كان يحضر مجلس إملاء المؤلف فينقل عنه، ثم يكثِّر نسخ الكتاب في حانوته، ومن الورَّاقين من يختصون بعلماء ويتفرغون لهم كلياً أو جزئياً، وكان من الوراقين من يعمل بوظيفة دائمة في دواوين الدولة، أو لدى الأعيان وسراة القوم، من ذلك ما روي أن في خـزانة الوزير أبي الفضل بن الفرات كان عدة وراقين[2]، وكان في دار الوزير أبي الفرج يعقوب بن كلس (توفي سنة 380 هـ/ 990 م): «قوم يكتبون القرآن الكريم، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب، حتى الطب، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها»[3]، وكان الوزير ينفق على من عنده من العلمـاء والوراقين والمجلدين ألف دينار في كل شهر[4]، وكان للقاضي أبي مطرف عبد الرحمن بن فطيس في الأندلس (توفي سنة 402 هـ/ 1011 م): «ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً»[5]، ولما وفد ظفر البغدادي على الأندلس: «استخدمه الحكم

---

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 125، المقريزي: الخطط 2/102.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 7/176.
(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان 6/28.
(4) الأنطاكي يحيى بن سعيد: تاريخ يحيى بن سعيد ص 164.
(5) ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم 1/299.

المستنصر في الوراقة»[1].

وقد ينتقل الوراقون إلى بيت المؤلف ويقيمون عنده حتى ينجزوا وراقة كتابه، أو ما يراد منهم من نسخ الكتب، ففي تاريخ بغداد أن يعقوب بن شيبة السدوسي (المتوفى سنة 262 هـ/ 875 م) حين بدأ في تصنيف مسنده: «كان في منزله أربعون لحافاً أعدها لمن كان يبيت عنده من الوراقين لتبييض المسند ونقله»[2]، وأنفق في سبيل ذلك عشرة آلاف دينار. وهناك أكثر من خبر عن الوراقين الذي يُستَقدمون إلى بيوت من يريدون نسخ كتبهم، ويقيمون في هذه البيوت حتى يُنْجِزوا ما أوكل إليهم، فمن ذلك ما ذكره ياقوت من أن إسماعيل بن صبيح الكاتب: «أقدم أبا عبيدة[3] من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم[4] وهو يومئذ وراق، وجعله في دار من دوره، وأغلق عليه الباب، ودفع إليه كتب أبي عبيدة وأمره أن ينسخها»[5]. وكذلك كان عِلّان الشعوبي ينسخ في دار أحمد بن أبي خالد الأحول، فدخلها أحمد يوماً فقام له كل من فيها غير عِلّان، فقال: ما أسوأ أدب هذا الورّاق، فتضايق عِلّان ورد عليه: «لماذا أردت مني القيام لك، ولم آتك مستميحاً لك[6]، ولا راغباً إليك، ولا طالباً منك، وإنما رغبت إليَّ في أن آتيك فأكتب عندك، فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الأجرة، وقد كنتُ بغير هذا منك أولى، ثم حلف أيماناً مؤكدة ألا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله تعالى»[7].

وحين يكثر عمل الوراقين ويراد منهم إنجازه في وقت معين، كانوا يؤجرون غيرهم لاستنساخ ما لديهم من كتب، من ذلك أن أبا عبيدة حين عهد

---

(1) المقري: نفح الطيب 2/76.
(2) البغدادي: تاريخ بغداد 14/281.
(3) أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة 209 هـ/ 824 م.
(4) الأثرم: علي بن المغيرة المتوفى سنة 232 هـ/ 846 م.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 15/77 ـ 78.
(6) أي طالباً عطاءك، من استماح، أي سأل العطاء.
(7) ياقوت: معجم الأدباء 12/192 ـ 193.

إلى الأثرم بنسخ كتبه، وكان الأثرم يدفع الكتاب والورق لأبي مسحل وجماعة من أصحابه ويسألهم نسخه وتعجيله ورده في وقت معين، فكانوا يفعلون[1].

مبالغات الورَّاقين وعبثهم بالكتب:

عُرف بعض الوراقين بدس بعض الأخبار في الكتب المنسوبة لأهل العلم، ومحاكاة رواياتهم فيها، من ذلك ما قيل: إن كتاب (الأغاني الكبير) المنسوب لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وضعه ورَّاق لإسحاق الموصلي بعد وفاته، على ما يروي حماد بن إسحاق الموصلي، وقال أبو الفرج الأصفهاني: «أخبرني جحظة أنه يعرف الورَّاق الذي وضعه، وكان يسمى سند بن علي وحانوته في طاق الزبل، وكان يورق لإسحاق، فاتفق هو وشريك له على وضعه»[2]، ومما يروى عن السيرافي أنه كان يحب الربح ولو جاء من غير وجهه، وزعموا أنه كان: «إذا أراد بيع كتاب استكتبه بعض تلامذته حرصاً على الطمع منه... وكتب في آخره وإن لم ينظر في حرف منه: قال الحسن بن عبدالله (قد قرىء هذا الكتاب وصح) ليشتري بأكثر من ثمنه»[3]، وإذا صح ذلك، فإن أبا الفرج الأصبهاني كان في سعة من العذر حين هجاه بقوله[4]:

لعنَ اللَّهُ كُلَّ عِلْمٍ ونَحْوٍ وعَرُوضٍ يَجِيءُ من سِيْرَافِ

ومن هذا العبث ما يروى أن السري الرفَّاء الموصلي الشاعر، الذي كان يحترف الوراقة في أول عهده، فكان ينسخ ديوان شعر كشاجم، وكان به مغرى، ويدس في ما كان يكتبه من أحسن شعر الخالديَّيْن، لعداوة كانت بينه وبينهما، ليزيد من حجم ما ينسخه، وينفق سوقه، ويكيد بذلك للخالديين ويشنع بهما[5].

---

(1) السابق 15/78.
(2) ياقوت 2/224.
(3) ياقوت 3/105.
(4) السابق والصفحة.
(5) السابق 4/227.

وقد ذكر الخطيب البغدادي بعضاً من هؤلاء الوراقين والوضاعين المختلقين، من مثل ابن الخفَّاف محمد بن الحسين بن أبي بكر، الذي وصفه بأنه: «غير ثقة، لا أشك أنه كان يركب الأحاديث ويضعها على من يرويها عنه، ويختلق أسماء وأنساباً عجيبة لقوم حدَّث عنهم، وعندي من تلك الأباطيل أشياء»[1]، وقد أقرَّ ابن الخفَّاف بوضعه تلك الأباطيل، يقول الخطيب البغدادي: «قال لي ابن الخفَّاف: احترق مرة سوق باب الطاق، فاحترق من كتبي ألف وثمانون مَنّاً كلها من سماعي»[2] وكان الخطيب يرى أنَّ أهل الكوفة وخراسان أكثر وضعاً للأحاديث من غيرهم، على خلاف أهل بغداد، قال: «أما أهل الكوفة وأهل خراسان أيضاً فلهم من الأحاديث الموضوعة والأسانيد المصنوعة نسخ كثيرة، وقلما يوجد بحمد الله في محدثي بغداد ما يوجد في غيرهم من الاشتهار بوضع الحديث والكذب في الرواية»[3].

وعرف عن الوراقين أيضاً المبالغات في دَسِّ ما لا يصدق من الأخبار والنوادر كحكايات السخاء والكرم التي اشتهرت عن أجواد العرب، وعن البرامكة، من ذلك ما قيل: «حضر أبو العيناء يوماً مجلس بعض الوزراء، فتفاوضوا حديث البرامكة وكرمهم، وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء، وكان قد بالغ في وصفهم، وما كانوا عليه من البذل والإفضال: قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إياهم، وإنما هذا تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين، فقال له أبو العيناء: فلِمَ لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير»[4]، وجاء مثل هذا الخبر عن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، قال وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم ممن ذكر في حكايات الأجواد: «إنما هذا كذب مختلق من الوراقين والمؤرخين، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر، للسخاء، والبذل، وتبذير الأموال، فقال

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 2/250.
(2) السابق والصفحة.
(3) البغدادي: تاريخ بغداد 1/44.
(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص 708.

خضير[1]: يا خوند، ولأي شيء ما يكذبون عليك؟»[2].

رقابة الدولة على الورَّاقين:

وربما رأى الحكام في بعض الكتب والعلوم خطراً على الفكر العام، وخشية الفتنة والانحراف عن الدين، ولذلك كانوا يمنعون من تداول وانتشار كتب الفلسفة والكلام والجدل، فكانوا يحمعون الوراقين ويحلفونهم ألاَّ يبيعوا أو ينسخوا هذه الكتب، ويروي ابن الأثير في سنة 279 هـ/ 892 م أنه: «حُلِّف الوراقون ألاَّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة»[3]، وكذلك لما قُتِل الحلاَّج: «أحْضِرَ الوراقون وأحْلِفوا ألاَّ يبيعوا شيئاً من كتب الحلاج ولا يشتروها»[4].

الغــزل بالورَّاقيــــن:

ولا تخلو حرفة من فتيان جميلين يتعشقهم بعض الماجنين من الشعراء، وقد وقفنا على أبيات للغزل بالوراقين، من ذلك بيتان للصفدي في مليح وراق[5]:

أحِــبُّ ورَّاقــاً رآهُ عــاذلــي　　　فقــال هــذا فِتْنَــةُ العُشَّــاقِ
ولم يُحاوِلْ في الغَرَامِ شَططا　　　من طلبَ الوَصْلَ من الورَّاقِ

ومثله قول يوسف بن لولو بدر الدين الدمشقي[6]:

خليليَّ جَدَّ الوَجْدُ واتصلَ الأسَى　　　وضاقتْ على المُشْتاقِ في قَصْدِهِ السُبْلُ

---

(1) أشهر مساخر العادل وصاحب البستان المشهور عند الربوة بدمشق.
(2) المقري: نفح الطيب 1/464 ـ 465.
(3) ابن الأثير: الكامل 7/150.
(4) ابن مسكويه: تجارب الأمم 5/82، ابن الجوزي: المنتظم 5/142.
(5) الصفدي: تذكرة الصفدي ص 5.
(6) المنهل الصافي 8/464.

وقد أصبحَ القلبُ المُعَنَّى كما ترى مُعَنَّى بورَّاقٍ وما عنده وصْلُ

وقد ورَّى بـ (الوصل) عن الدرج من الكاغد المعروف بالفرخة أيضاً.

ومما يتصل بهذا خبر سعد الوراق في الرها، وقد عَلِقَ غلاماً نصرانياً يبدو أنه كان وراقاً لديه، قال ياقوت: «كان دكانه مجلس كل أديب وكان حسن الأدب والفهم يعمل شعراً رقيقاً، وأَلِفَ دكانه غلام نصراني تأدب، فما لبث سعد أنْ أُولِعَ به، ولما ترهب الغلام تبعه إلى الدير، ومات على بابه جنوناً»[1].

الوراقون أصحاب الخلاعة والمجـون:

ومثلما كان في الوراقين أهل خير وتقى وصلاح، فقد كان منهم أهل فسق ومجون وخمرة وطرب، وقد كان منهم من يتستر بالتقى والوعظ والقراءة، وهو ماجن خليع أشر، ومن هؤلاء أبو بكر عتيق بن محمد الوراق التيمي الشاعر، حكى ابن رشيق أنه رآه في الجامع يقرأ الرقائق والمواعظ، ويبكي تخَشُّعاً، ثم جاءه عشية ذلك اليوم في بيته، فوجده في يده طنبور وعن يمينه غلام مليح، فقال له: ما أبعد بين حالتيك في مجلسيك، فقال: ذلك بيت الله وهذا بيتي، أصنع في كل منهما ما يليق بصاحبه. وأورد له ابن شاكر قطعاً من شعره، منها قوله[2]:

كلمـا أذنـبَ أبـدى وجهُـهُ حُجَّـةً فهـو مَلِـيٌّ بـالحُجَـجْ
كيـفَ لا يُفْـرِطُ فـي إجْـرامِـهِ مَنْ متى شاءَ من الذَّنْبِ خَرَجْ

ومن الوراقين الذين عُرِفُوا بالمجون وإدمان الخمر بكر بن خارجة الكوفي، كان: «ضَيِّق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة، وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ، وكان طيِّب الشعر مليحاً مطبوعاً ماجناً، قال محمد بن الحجاج: رأيت بكر بن خارجة يُبَكِّر كل يوم بقنينتين من الشراب إلى خراب من خرابات الحيرة، فلا يزال يشرب فيه على صوت هدهد كان يأوي ذلك الخراب،

(1) ياقوت: معجم الأدباء 2/22 ـ 26.

(2) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/37.

إلى أن يسكر ثم ينصرف، وكان يتعشق ذلك الهدهد»[1]. وحين حرم بعض أمراء الكوفة بيع الخمر في الحيرة، وكسر أواني نبيذهم، كَبُرَ ذلك على بكر بن خارجة، وقد رأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق، فبكى طويلاً، وقال يتحسر على الخمر المصبوبة[2]:

يا لقومي لِمَا جَنَى السلطانُ ... لا يكونَنَّ لِما أهانَ الهَوانُ
قهوةٌ في التُّرابِ من حَلَبِ الكَرْ ... مِ عُقارٌ كأنَّها الزَّعْفَرانُ
قهوةٌ في مكانِ سوءٍ لقد صا ... دَفَ سعدَ السعودِ ذاكَ المكانُ
من كُمَيْتٍ يُبْدي المِزَاجُ لُؤْ ... لؤَ نظمٌ والفصلُ منها جُمَانُ
فإذا ما اصطحبْتُها صفَرتْ في ... القِدْرِ تختالُها هي الجُرذانُ
كيف صبري عن بعضِ نفسي وهلْ ... يَصْبِرُ عن بعضِ نفسِهِ الإنسانُ

ولبكر بن خارجة هذا غزل بغلام نصراني، من ذلك قوله[3]:

وشادنٍ قلبي بهِ معمودُ ... شيمتُهُ الهجرانُ والصدودُ
زِنَّارُهُ في خصرهِ معقودُ ... كأنَّهُ من كَبِدي مقْدودُ

قال دعبل: يعلم الله أني ما حسدت أحداً قط، ما حسدت بكراً على هذين البيتين.

ومن الوراقين المُجّان الخُلَعاء المستهترين بالمُرْد والتطرُّح في الحانات والديار، عمرو بن عبد الملك الورَّاق (توفي حوالي سنة 198 هـ/ 814 م)، وله شعر كثير في المجون ووصف الخمر والغزل بالغلمان، من ذلك قوله[4]:

ومُدامَةٍ كَرْخِيَّةٍ ... حمراءَ من ماءِ العِنَبْ
عاقَرْتُها في فِتْيَةٍ ... ليسوا على دينِ العَرَبْ

(1) الأصبهاني: الأغاني 20/ 87 ـ 88.
(2) الأصبهاني: 20/88.
(3) السابق 20/87.
(4) الشابشتي: الديارات ص 74 ـ 75.

فـي معشـرٍ مهـروا المُجَـا | نـةَ فـي اللَّـذاذةِ والطَّـرَبْ
جعلـوا المُجـانَـةَ سُتْـرَةً | للعـاذليـنَ علـى الـرِّيَـبْ
تمضـي الصَّـلاةُ عليهـمُ | والسُّمْرُ منهمْ في العَصَبْ
وإذا مضـتْ صلـواتُهـمْ | صَلَّـوا جُمَادى في رَجَبْ

وكان عمرو هذا من أصحاب أبي نواس والفضل الرقاشي، كان معاقراً للخمر متغزلاً بالغلمان، قال ذاكراً دير حنَّا إلى جانب تكريت، وفي أبياته هذه صورة لحياته ومجونه[1]:

أرى قلبـيَ قـد حنَّـا | إلـى دَيْـرِ مـريْحَنَّـا
إلـى غيطـانِـهِ الفيـحِ | إلـى بِـركَتِـهِ الغَنَّـا
إلـى ظَبْـيٍ مـن الإنْـسِ | يصيـدُ الإنْـسَ والجِنَّـا
إلـى غُصْـنٍ مـن الآسِ | بـهِ قلبـيَ قـد جُنَّـا
إلـى أحسـن خَلْـقِ اللـ | ـهِ إنْ قَـدَّسَ أو غَنَّـى
فلمـا انبلـجَ الصُّبْـحُ | بـزلْنـا بيننـا دِنَّـا
ولمَّـا دارتِ الكـأسُ | أدرْنـا بيننـا لَحْنَـا
ولمَّـا هجَـعَ السُّمَّـا | رُ نِمْنـا وتعـانقْنَـا

ومن الوراقين المجَّان الخلعاء محمود بن حسن الورَّاق البغدادي، ويبدو أنه تاب في أخريات حياته، وأكثر القول في الزهد والآداب والحكم[2]، أما حياته الماجنة فقد وصف الشابشتي طرفاً منها، فقد كان بينه وبين أبي الشبل البرجمي أحد المتطرحين في الحانات والديارات مودة، وكانا لا يفترقان، ذكر الشبل قال: «صرت أنا ومحمود الوراق إلى قطربل، فدعونا الخمار فقلنا: إئتنا ببنت عشر قد أنضجها الهجير، فجاءنا بها فقلنا: اسقنا، فسقانا، فقلنا: اشرب واسقنا، فقال: أنا مسلم، وكان يهودياً قد أسلم، فقال لي محمود: يوم يكون

---

(1) ياقوت: معجم البلدان 701/2.
(2) السمعاني: الأنساب ص 58.

الخَمَّار عندهم مسلماً متحرجاً، وهم عند الخمَّار كُفَّار، أترى الله فيهم حاجة»[1]، ونقل السمعاني أن محموداً هذا كان يتجر أيضاً ببيع الرقيق، ومما يروى عن تعاطيه النخاسة، ما قيل: «إن المعتصم طلب جارية لمحمود الوراق بسبعة آلاف دينار، فامتنع محمود من بيعها، فلما مات محمود، اشتُريتْ للمعتصم من ميراث محمود بسبعمائة دينار، فلما وصلت إليه، قال: كيف رأيت، تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبع مئة، قالت: أجل، إذا كان الخليفة ينظر بشهواته المواريث فإن سبعين ديناراً كثيرة في ثمني، فضلاً عن سبع مئة، فأخجلته»[2]، توفي محمود الوراق في خلافة المعتصم سنة (230 هـ/ 845 م).

الوراقون مؤلفو الأسمار والخرافات:

كان من الوراقين علماء عُرِفوا بتآليفهم الرصينة، وهؤلاء غير مقصودين هنا، ولكن هناك فريق من الوراقين نظروا للربح الوفير بطرق هينة يسيرة، فأقبلوا على الاتجار بكتب الأسمار والخرافات وقصص الجن وعشق الجنيات للإنس والقصص على لسان الحيوان، وأحاديث السمر، وأخبار العُشَّاق والمحبين والمتظرفين والمتظرفات، ومن القصص الخيالية قصص الأسفار والرحلات، وما في البلدان النائية من الخوارق والغرائب، وما في تلك البلدان الغريبة من عجائب النبات والأشجار والأودية والجبال، والبحار المظلمة والبحيرات والأنهار، وقد أشار المسعودي إلى طرف من أعمال الوراقين هذه[3].

وكتب الأسمار والخرافات مرغوبة مشتهاة يقبل عليها الناس في كل زمان ومكان، وخاصة في أيام الخلفاء العباسيين، ولا سيما في أيام المقتدر، فصنَّف الوراقون فيها كتباً، وكان ممن عرف بهذا النوع من التأليف وراق يعرف بابن دلاَّن، واسمه أحمد بن محمد بن دلاَّن، وآخر يعرف بابن عطَّار وجماعته،

---

(1) الشابشتي: الديارات ص 20، وانظر حكاية مشابهة في الأغاني 13/ 24.

(2) السمعاني: الأنساب ص 58.

(3) المسعودي: مروج الذهب 1/ 137.

ومنهم من كان يعمل الخرافات والأسمار على لسان الحيوان وغيره من مثل سهل بن هارون، وعلي بن داود، والعَتَّابي، وأحمد بن طاهر[1]. وعمدت طائفة أخرى من الوراقين إلى التعريب والنقل عن الأمم الأخرى، فنقلوا من كتب الفرس والروم والهنود، وألفوا كتباً في الأسمار والخرافات عن تلك الأمم، من ذلك ما ذكره ابن النديم من أن ابن عبدوس الجهشياري، ألف كتاباً اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المُصَنَّفَة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام، يحتوي على خمسين ورقة وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر[2].

وقد ألف كثير من المؤلفين كتباً في الأسمار والخرافات والأساطير على ألسنة الناس والطير والبهائم، قبل ابن عبدوس وبعده، ومن هؤلاء المؤلفين جماعة منهم: عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون، وعلي بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم[3].

وقد ذكر ابن النديم جمهرة كبيرة من الكتب في أسمار الفرس والهند والروم وما لهم من خرافات، وأسماء العشاق في الجاهلية والإسلام، وما ألف في أخبارهم من كتب، وأسماء الحبائب والمتظرفات وأسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر، وأسماء عشاق الإنس للجن، وعشاق الجن للإنس، والكتب المؤلفة في عجائب البحر، وغيرها[4]، وقد كانت هذه الكتب مادة وافية ثمينة للوراقين مؤلفي الأسمار والخرافات، يغرفون منها كيف شاؤوا وينشرونها بين الناس.

(1) ابن النديم: الفهرست ص 428.
(2) السابق ص 423.
(3) السابق ص 364.
(4) السابق ص 363 ـ 364.

وقد ذكر ابن النديم مجموعة كبيرة من كتب الخرافات والأسمار وأحاديث البطالين ونوادر المغفلين وغيرهم، وهذه الكتب الكثيرة لا يُعرف مؤلفوها، ولا شك أن لهؤلاء الوراقين المتاجرين بكتب الأسمار والخرافات يداً في تأليف هذه الكتب وترويجها، على أن هناك بعض المؤلفين عُرفت أسماؤهم وشهروا بهذا الضرب من التأليف، نكتفي بذكر اثنين منهم هما:

لقيط بن بكير المحاربي الكوفي من الرواة للعلم المصنفين للكتب، ألف كتاب (السمر)، وكتاب (الحُرَّاب واللصوص)، وكتاب (أخبار الجنّ)، وكان سيء الخلق شاعراً، عاش إلى سنة تسعين ومئة للهجرة[1].

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي عالم الأنساب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها، له: (كتاب الكهان) و (كتاب الجنّ) و (كتاب أخبار الجن وأشعارهم) و (كتاب العجائب الأربعة)، وله أيضاً: (كتاب السمر) و (كتاب الأحاديث) و (كتاب عجائب البحر)[2]، توفي سنة ست ومائتين (821 م).

جمهرة من أعلام الوراقين:

الوراقون جمهرة كبيرة اتخذت الوراقة حرفة وهم من مختلف الطبقات، ففيهم العلماء والنحاة واللغويون والإخباريون والشعراء والقضاة والكتبيون، وفيهم الأعراب وأصحاب النوادر والمولدون ودلالو الكتب وغيرهم. ونذكر ههنا أبرز من وقفنا على أسمائهم وتراجمهم، موزعين على العصور، فمنهم:

1 ـ أبو مالك عمرو بن كركرة مولى بني سعد، (توفي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي) كان من الأعراب يعلم في البادية ويورق في الحضر، ويقال إنه كان يحفظ لغات العرب[3]، قال أبو الطيب: كان ابن مناذر يقول: كان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة، وأبو عبيدة في نصفها،

(1) السابق ص 106.
(2) السابق ص 108 ـ 109.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 66، ياقوت: معجم الأدباء 16/131 ـ 132.

وأبو زيد في ثلثها، وأبو مالك فيها كلها، وإنما عنى توسعهم في الرواية والفُتْيا، لأن الأصمعي كان يُضَيِّق ولا يُجَوِّز إلاَّ أصح اللغات، ومع ذلك لا يجيب في القرآن والحديث[1]، لأبي مالك كتاب (خلق الإنسان) وكتاب (الخيل) وكتاب (النوادر)[2].

2 ـ مساور الوراق: مساور بن سوار بن عبد الحميد الكوفي (المتوفى سنة 150 هـ/ 767 م).

مولى بني عَدْوَان، كان وراقاً ينسخ الكتب، وهو محدث وشاعر له ديوان شعر في خمسين ورقة، وكان يلتقي بحماد عجرد وأبي حنيفة وغيرهما[3]، ومن أخباره مع أبي حنيفة: قيل إنه سمع لغط أصحاب أبي حنيفة وصياحهم، فقال يصف حالهم وولعهم بالقياس[4]:

كُنَّا من الدينِ قبلَ اليومِ في سَعَةٍ حتَّى بُلينا بأصحابِ المقاييسِ
قومٌ إذا اجتمعوا ضَجُّوا كأَنَّهُمُ ثعالِبٌ نبحتْ بينَ النَّواويسِ

فشقَّ ذلك على أبي حنيفة وأصحابه، وتوعدوه، فقال أبياتاً يترضَّاهم بها[5]:

إذا ما الناسُ يوماً قايسونا بآبدةٍ من الفُتْيا ظريفهْ
أتيناهُمْ بمقياسٍ ظريفٍ مُصيبٍ من قِياسِ أبي حنيفهْ

فبلغ الشعر أبا حنيفة فرضي، قال مساور: «ثم دُعينا إلى وليمة بالكوفة،

---

(1) عبد الواحد اللغوي: مراتب النحويين ص 41، السيوطي: بغية الوعاة 2/232.
(2) السيوطي: المزهر 1/445، الأزهري: تهذيب اللغة 1/12، سزكين: تاريخ التراث العربي مجلد 2 ج 1/138.
(3) الأصبهاني: الأغاني 18/148 ـ 153، ابن حجر: تهذيب التهذيب 10/103، ابن النديم: الفهرست ص 23.
(4) النواويس: جمع ناووس، صندوق من خشب ونحوه يضع فيه النصارى جثة الميت، والناووس أيضاً: مقبرة النصارى (المعجم الوسيط: نوس).
(5) الأصبهاني: الأغاني 16/167 ـ 169.

في يوم شديد الحر، فلم أجد لرجلي موضعاً من الزحام، وإذا أبو حنيفة في صدر البيت، فلما رآني قال لي: يا مساور، إليَّ يا مساور، فجئته، فإذا مكان واسع وقال لي: اجلس، فجلست، فقلت في نفسي: نفعتني أبياتي اليوم، قال: وكان إذا رآني بعد ذلك يقول لي: ههنا ههنا، ويوسع لي إلى جنبه، ويقول: هذا من أهل الأدب والفهم»[1].

ويبدو أن حرفة مساور هذا لم تكن تدر عليه رزقاً وافراً، ولذلك سأل ابن ليلى أن يشغله في جملة قوم كتبهم لعيسى بن موسى، فلم يفعل، فقال يُعَرِّض بفعلة ابن ليلى، ويبين حاله وصلاحه:

أراكَ تشيـر بـأهـلِ الصـلا ... حِ فهل لك في الشاعرِ المسلمِ

كثيـرِ العيـالِ قليـلِ السـؤالِ ... عَـفٍّ مطـاعِمـهُ مُعْـدَمِ

يُقيـمُ الصـلاةَ ويـؤتـي الـزَّكـا ... ةَ وقد حلقَ العامَ في الموسِمِ

وأصبـحَ واللـهِ فـي قـومِـهِ ... وأمسـى وليسَ بـذي دِرْهَـمِ

فولاَّه عيسى بن موسى عملاً، ودفع إليه عهده، فانكسر عليه الخراج، فدُفِعَ إلى بَطين صاحب عذاب عيسى ليستأديه[2].

3 ـ عمرو الورَّاق: عمرو (عمر) بن عبدالملك الوراق (المتوفى حوالي سنة 198 هـ/ 814 م) مولى بني عنزة، أصله من البصرة ثم قدم بغداد وعرف أبا نواس والفضل الرقاشي، وكان له شعر في حرب الأمين والمأمون، وله ديوان يقع في خمسين ورقة[3]. كان ماجناً خليعاً له شعر كثير في الغزل بالغلمان وذكر الأديرة، من ذلك شعره في ذكر دير مار حنَّا إلى جانب تكريت، يصور ما

---

(1) الأصبهاني 16/167 ـ 169.

(2) السابق والصفحة.

(3) ابن الجراح: من اسمه عمرو من الشعراء ص 50 ـ 51، المرزباني: معجم الشعراء ص 218، ويعرف أيضاً بعمرو بن المبارك بن عبدالملك، وربما كان على سبيل الخلط بينه وبين عمرو بن المبارك الخزاعي الشاعر الكوفي، ينظر: ابن الجراح: من اسمه عمرو من الشعراء ص 58، وسزكين مجلد 2، 4/81.

فيه من مجلس الشراب والأنس[1]:

أرى قلبـــي قـــد حنَّـــا إلـــى ديـــرِ مـــريحَنَّـــا
إلـــى غيطـــانـــهِ الفيـــحِ إلـــى بـــركتـــه الغَنَّـــا
إلـــى ظبـــى مـــن الأنـــسِ يصيـــدُ الإنـــسَ والجِنَّـــا
إلـــى غصـــنٍ مـــن الآسِ بـــهِ قلبـــي قـــد جُنَّـــا
إلـــى أحســـن خلـــقِ اللـ ـــهِ إنْ قـــدَّسَ أو غنَّـــا
فلمـــا انبلـــجَ الصُّبْـــحُ بـــزلْنـــا بيننـــا دنَّـــا
ولمَّـــا دارتِ الكـــأسُ أدرْنـــا بيننـــا لَحْنـــا
ولمَّـــا هجـــعَ السُّمَّـــارُ نمنـــا وتعـــانقنـــا

4 ـ سهل بن إبراهيم الوراق: شاعر من أهل القرن الثاني، من أدباء القيروان، قال في حصار سوسة حين حاصرها الخوارج[2]:

إنَّ الخوارجَ صَدَّها عن سوسةٍ مِنَّـا طِعـانُ السُّمْـرِ والإقـدامُ
وجِـلادُ أسْيـافٍ تطـايَـرُ دونَهـا في النَّقْعِ دونَ المُحْصَناتِ الهامُ

5 ـ محمد بن أبي الليث الخوارزمي، كان يورق قبل دخوله مصر في سنة 205 هـ/ 820 م[3].

6 ـ عِـلاَّن الشعـوبـي: عـلان بـن حسـن الـوراق (كـان حيّـاً قبـل سنـة 218 هـ/ 833 م)، أصله من الفرس، وكان شعوبياً متعصباً، وكان شاعراً راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات، منقطعاً إلى البرامكة، ينسخ الكتب في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة، عمل كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها[4]، وله أيضاً كتاب فضائل كنانة، وكتاب

(1) ياقوت: معجم البلدان 2/701.
(2) ياقوت: معجم البلدان (سوسة) 3/282، ومعجم الأدباء 11/267.
(3) الكندي: الولاة والقضاة ص 449.
(4) ابن النديم: الفهرست ص 153 ـ 154.

النمر بن قاسط، وكتاب نسب تغلب بن وائل، وكتاب فضائل ربيعة، وكتاب المنافرة[1].

وذكر محمد بن أبي الأزهر قال: «كان في جوارنا بباب الشام فتى يعرف بالفيرزان، وكان يورق في دكان علان الشعوبي، وأورد خبراً دلَّ به على أنَّ علاّناً كان ورَّاقاً له دكان يبيع فيه الكتب وينسخ»[2]. وروى الجهشياري خبراً في كتابه الوزراء والكتاب فيه دلالة على وراقة علان، وفيه أيضاً دلالة على أخلاق علاّن وطبيعته، قال: كان بعض أصحاب أحمد بن أبي خالد الأحول قد وصف له علاناً الشعوبي الوراق، فأمر بإحضاره،، وبأن يستكتب له، فأقام في داره، فدخلها أحمد بن أبي خالد يوماً، فقام إليه جميع من فيها، غير علان الوراق، فإنه لم يقم له، فقال أحمد: ما أسوأ أدب هذا الوراق، وسمعه علان، فقال: كيف أُنْسَبُ أنا إلى سوء الأدب ومنِّي تُتَعَلَمُ الآداب وأنا معدنها؟ ولماذا أردت مني القيام لك ولم آتك مستميحاً لك ولا راغباً إليك ولا طالباً منك، وإنما رغبت إليَّ في أنْ آتيك فأكتب عندك، فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الأجرة، وقد كنت بغير هذا منك أولى، ثم حلف أيماناً مؤكدة ألا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله تعالى[3].

7 ـ ثابت بن ثابت بن عبدالعزيز، أبو محمد اللغوي، كان وراق أبي عبيد القاسم بن سلاّم (المتوفى 224 هـ/ 839 م)[4].

8 ـ محمود الورَّاق: محمود بن حسن الوراق (المتوفى سنة 230 هـ/ 845 م)، كان من المجان، ثم تاب وأكثر القول في الزهد والآداب والحكم[5]، وكان يتجر مع الوراقة ببيع الرقيق، ويبدو أنه بدأ حياته في حرفة

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 5/ 66 ـ 68.
(2) ابن النديم: الفهرست 1/ 105، ياقوت 5/ 105، ابن حجر: لسان الميزان 4/ 187، البغدادي: هدية العارفين 1/ 666.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 12/ 192 ـ 193.
(4) السيوطي: بغية الوعاة 1/ 481.
(5) السمعاني: الأنساب ص 58.

الوراقة، ثم انتقل إلى النخاسة، ثم ختم عمره بالتوبة والزهد ونظم الحكم والآداب تكفيراً عن لهوه ومجونه، ومن شعره في الحكمة قوله[1]:

كبــر الكبيــر عــن الأدبْ ... أدبُ الكبيــرِ مــن التعــبْ
حتــى متــى وإلــى متــى ... هــذا التمــادي فــي اللعِــبْ
والــرزقُ إنْ لــم تــأتِــهِ ... لأتــاك عفــواً مــن كثــبْ
إنْ نمــتَ عنــهُ لــم ينــمْ ... حتَّــى يحــركُــه السبــبْ

9 ـ محمد بن أبي الليث الأصم: كان ورَّاقاً على باب الواقدي، وكان فقيهاً بمذهب الكوفيين، ولي القضاء بمصر من قبل أبي اسحاق المعتصم (سنة 226 هـ/ 840 م)[2].

10 ـ أحمد بن أحمد المعروف بابن أخي الشافعي، كان يورق لابن عبدوس الجهشياري (المتوفى سنة 331 هـ/ 943 م) مؤلف كتاب الوزراء والكتاب[3].

11 ـ أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم (توفي سنة 232 هـ/ 846 م) عالم بالعربية والحديث، كان مقيماً ببغداد، واشتغل نسَّاخاً أول أمره، قال الخطيب: «صاحب النحو والغريب واللغة، سمع أبا عبيدة والأصمعي، ومنه الزبير بن بكار وابن مكرم، وكان أول أمره يورق لإسماعيل بن صبيح»[4]، وكان صاحب كتب مصححة قد لقي بها العلماء وضبط ما ضمنها، أمره إسماعيل بن صبيح أن ينسخ كتب أبي عبيدة أيام الرشيد ببغداد، وجعله في داره، وأغلق عليه الباب، وحدث أبو مسحل عبدالوهاب قال: كنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم فيدفع لنا الكتاب والورق الأبيض من عنده، ويسألنا نسخه وتعجيله، ويوافقنا في الوقت الذي نرد إليه، فكنا نفعل ذلك[5].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 13/ 88.
(2) الكندي: الولاة والقضاة ص 449.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 2/ 137.
(4) السيوطي: بغية الوعاة 2/ 206.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 5/ 421، الأنباري: نزهة الألباء ص 219.

12 ـ أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول (المتوفى سنة 259 هـ/ 873 م)، كان عالماً بالعربية أديباً ثقة، حدث عن ابن الأعرابي وعنه نفطويه[1]، قال ياقوت: «كان غزير العلم واسع الفهم جيد الرواية حسن الدراية، وكان وراق حنين بن إسحاق المتطبب في منقولاته لعلوم الأوائل»[2]، كان يورق بالأجرة، وكان قليل الحظ من الناس، وجمع دواوين مائة وعشرين شاعراً[3]، وذكره الزبيدي في طبقة المبرد وثعلب[4]، وصنف من الكتب: كتاب الدواهي، وكتاب الأشباه، وكتاب الأمثال، وكتاب فعل وأفعل، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه[5].

13 ـ أبو عبدالله الوراق المعروف بحوار: كان وراق داود بن علي بن خلف الفقيه الأصبهاني[6].

14 ـ عبدالله بن أبي سعد (المتوفى سنة 274 هـ/ 887 م): كان إخبارياً نسَّابة راوية للشعر، وهو أحد الوراقين المعروفين بالأدب وسعة الحفظ والرواية، نقل عنه أبو الفرج الأصبهاني بعض أحاديثه ومسموعاته، له من الكتب: كتاب العربية، وكتاب الإيمان والدعاء والدواهي، وكتاب المدينة وأخبارها، وكتاب الشعراء، وكتاب الألقاب[7].

15 ـ أبو علي الحسين بن عبدالله بن شاكر السمرقندي الوراق (المتوفى سنة 282 هـ/ 896 م): كان وراق أبي سليمان داود بن علي بن خلف الفقيه الأصبهاني[8].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 2/ 185.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 18/ 125.
(3) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص 228.
(4) السابق والصفحة، والسيوطي: بغية الوعاة 1/ 81 ـ 82.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 2/ 185.
(6) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 8/ 375.
(7) ياقوت: معجم الأدباء 2/ 38، 5/ 188، ابن النديم: الفهرست ص 158.
(8) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 8/ 58 ـ 59، 375.

16 ـ سذاب الوراق (توفي في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي): سمي باسم النبات المعروف بالفيجن وله ورق كالصعتر، كان وراقاً ظريفاً، اجتاز به يوماً المبرد وهو على باب داره، فقام إليه وسأله أن يسره بدخول منزله ومساعدته على ما حضر، فقال له المبرد: ما عندك؟ فقال: يا سيدي، عندي أنت وعليه أنا، يعني اللحم المبرد، فضحك منه وأجابه(1).

17 ـ إسماعيل بن أحمد بن الزجاجي، وإبراهيم بن محمد الشاشي: كانا وراقي المبرد(2).

18 ـ خيران الوراق (كان حياً في نهاية القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع الميلادي): أحد الدلالين المقوِّمين للكتب، قال الزبيدي: «لما مات أحمد بن ثعلب، خلف كتباً جليلة، فأوصى إلى علي بن محمد الكوفي، أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطربلي، فقال الزجاج للقاسم بن عبدالله: هذه كتب جليلة فلا تفوتنَّك، فأحضر خيران الوراق، فقوَّم ما كان يساوي عشرة دنانير: ثلاثة، فبلغت أقل من ثلاث مئة دينار، فأخذها القاسم بها»(3).

19 ـ أبو موسى الحامض، سليمان بن محمد بن أحمد (المتوفى سنة 305 هـ/ 918 م): نحوي من العلماء باللغة والشعر، من أهل بغداد، من تلاميذ ثعلب، كان ضيق الصدر سيء الخلق فلقب بالحامض، وكان وراقاً يوصف بصحة الخط وحسن المذهب في الضبط، له تصانيف منها: كتاب الأمالي، وكتاب السبق والنضال، وكتاب النبات، وكتاب الوحوش، وكتاب غريب الحديث(4).

---

(1) الثعالبي: النهاية في التعريض والكناية ص 39.

(2) ابن النديم: الفهرست ص 89.

(3) ياقوت: معجم الأدباء 2/144 ـ 145، القفطي: إنباه الرواة 1/148، الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص 149 ـ 150.

(4) ابن النديم: الفهرست ص 117، الأنباري: نزهة الألباء ص 306، القفطي: إنباه الرواة 2/21.

20 ـ سلمة بن عاصم أبو محمد النحوي (توفي سنة 310 هـ/ 922 م): نحوي لغوي صحب الفراء وروى عنه كتبه كلها، وكان سلمة بن عاصم وأبو نصر بن جهم وراقي الفراء[1]، ولسلمة تصانيف منها: كتاب معاني القرآن، وكتاب غريب الحديث[2].

21 ـ إسحاق بن الجنيد البزاز البصري الوراق اللغوي، كان وراق ابن دريد[3] وعلي بن أحمد الدريدي وراق ابن دريد أيضاً، وإليه صارت كتب ابن دريد بعد وفاته[4].

22 ـ محمد بن عبدالله بن محمد الكرماني الوراق (المتوفى سنة 329 هـ/ 940 م): عالم باللغة والنحو، كان يورق بالأجرة، وكان: «مليح الخط صحيح النقل يرغب الناس في خطه»[5]، قرأ على ثعلب، له تصانيف منها: «الوجيز» في النحو، و (الجامع) في اللغة، وكانت بينه وبين ابن دريد مناقضة[6].

23 ـ أبو العباس محمد بن يعقوب الأموي الأصم (المتوفى 346 هـ/ 957 م): كان من أكابر علماء خراسان ومحدثيهم، وكان يورق ويأكل من كسب يده، ويكره أن يأخذ شيئاً عن التحديث[7].

24 ـ أحمد بن محمد القرشي (المتوفى 350 هـ/ 961 م): من وراقي

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 14/149 ـ 150، ياقوت: معجم الأدباء 20/12.
(2) ابن النديم: الفهرست 1/67، ياقوت: معجم الأدباء 11/242 ـ 243، الصفدي: الوافي بالوفيات 13/110، السيوطي: بغية الوعاة ص 260.
(3) القفطي: إنباه الرواة 1/196، الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص 202، السيوطي: بغية الوعاة 1/438.
(4) ياقوت: معجم الأدباء 5/81.
(5) ابن النديم: الفهرست ص 118، ياقوت: معجم الأدباء 18/213.
(6) الصفدي: الوافي بالوفيات 3/329، ياقوت: معجم الأدباء 7/19، السيوطي: بغية الوعاة ص 60.
(7) ابن الجوزي: المنتظم 6/386.

العلماء صاحب الخط المشهور، كما وصفه ابن عساكر[1].

25 ـ السري الرقّاء الموصلي (المتوفى 362 هـ/ 972 م): كان يتعاطى رفو الملابس ثم: «لما جاد شعره انتقل من حرفة الرفو إلى حرفة الأدب، واشتغل بالوراقة»[2]، ترجم له الثعالبي في اليتيمة ترجمة طويلة ضافية استغرقت سبعاً وخمسين صفحة، وأثنى على شعره وروائع فنونه من وصف وغزل ومديح وهجاء[3]، وقال الخطيب البغدادي: «آذاه الخالديان أذى شديداً، وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره»[4]. ولذلك فقد ناصب الخالديين الموصليين العداوة، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره، وجعل يورق وينسخ ديوان شعر أبي الفتح كشاجم، وكان يدس في ما يكتبه في شعره أحسن شعر الخالديين ليزيد حجم ما ينسخه وينفق سوقه، ويكون سعره غالياً، ويشنع بذلك على الخالديين ويغض منهما[5].

26 ـ أحمد بن محمد بن الحسن الخلال (المتوفى سنة 365 هـ/ 976 م): وراق وصفه ياقوت بقوله: «صاحب الخط المليح الرائق، والضبط المتقن الفائق»[6].

27 ـ القاضي أبو سعيد السيرافي، الحسن بن عبدالله (المتوفى سنة 368 هـ/ 979 م): كان زاهداً ورعاً لا يأكل إلا من كسب يده، فكان: «لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم، إلاّ بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم، تكون مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه»[7]، للسيرافي مصنفات منها: صنعة الشعر والبلاغة، وشرح ديوان

---

(1) ابن عساكر: التاريخ الكبير 2/52.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 4/227.
(3) الثعالبي: يتيمة الدهر 1/450 ـ 507.
(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 9/194.
(5) الثعالبي: اليتيمة 1/450 ـ 451.
(6) ياقوت: معجم الأدباء 4/264.
(7) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/342، ياقوت: معجم الأدباء 8/146 ـ 147.

امرىء القيس[1].

28 ـ أبو الحسن محمد بن عبدالله الوراق البغدادي (المتوفى سنة 381 هـ/ 991 م): كان يورق في بغداد، وصنف في النحو كتباً حساناً[2].

29 ـ أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني (المتوفى سنة 384 هـ/ 994 م): يعرف بالإخشيدي وبالوراق، أديب نحوي لغوي متكلم فقيه أصولي مفسر فلكي منطقي، أصله من سُرَّ مَنْ رأى وولد ببغداد، وأخذ عن ابن السراج وابن دريد والزجاج، قضى حياته في الدرس والتدريس، وكان إماماً في الفقه والتفسير والأدب والعربية، وشيخاً من شيوخ المعتزلة، من طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي، أثنى عليه أبو حيان التوحيدي بقوله: «لم يُرَ مثله قط علماً بالنحو وغزارة في الكلام وبصراً بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحاً للمشكل، مع تألُّه وتنزُّه ويقين وفصاحة وعفافة ونزاهة[3]: للرماني تصانيف كثيرة، منها: الجامع في التفسير، والمبتدأ في النحو، ومعاني الحروف، والاشتقاق، ورسالة في إعجاز القرآن، والحدود في النحو، وشرح الصفات، وغيرها كثير، وقيل: له قريب من مئة مصنف.

30 ـ محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم الوراق (المتوفى سنة 385 هـ/ 995 م): أشهر الوراقين، كان أبوه وراقاً مثرياً في بغداد وكان حانوته لبيع ونسخ الكتب، وكان يرتاده العلماء لقراءة كتبه والاستفادة من معلوماته الأدبية، ومحمد بن إسحاق أديب مشارك في أنواع العلوم، ومن تصانيفه كتاب الفهرست وكتاب التشبيهات، ويدل كتابه الفهرست على سعة علمه وكثرة اطلاعه على الكتب في شتى فروع المعرفة، ويعد كتابه أول عمل شامل في فهرسة الكتب والتعريف بها في العصر الوسيط[4].

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 3/ 86.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/ 303.

(3) ياقوت: معجم الأدباء 5/ 280 ـ 282.

(4) ياقوت: معجم الأدباء 18/ 17، الصفدي: الوافي بالوفيات 2/ 197، ابن حجر: ميزان=

31 ـ أبو إسحاق إبراهيم بن صالح تلميذ الجوهري (توفي الجوهري سنة 393 هـ/ 1003 م) قال ياقوت: إنه لما مات الجوهري، بعد أن سُمِعَ منه كتاب الصحاح إلى باب الضاد المعجمة، بقي بقية الكتاب مسودة غير منقحة ولا مبيضة، فبيَّضه أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق تلميذ الجوهري بعد موته، فغلط فيه في عدة مواضع غلطاً فاحشاً[1].

32 ـ علي بن الحسين بن علي العبسي المعروف بابن كوجك الوراق (المتوفى سنة 394 هـ/ 1004 م): كان أديباً فاضلاً يورق بمصر، وصنَّف كتباً منها: كتاب الطنبوريين، وأعز المطالب إلى أعلى المراتب في الزهد، وأقام بالشام والساحل ومدح سيف الدولة لما فتح الحدث، وكان أبوه الحسين بن علي من أهل الأدب والشعر[2].

33 ـ أبو محمد عبيدالله بن أبي الجوع (المتوفى سنة 395 هـ/ 1004 م): الأديب الوراق المصري الكاتب، وصفه الصفدي فقال: «كان محققاً للنحو واللغة والبلاغة وقول الشعر، جيد الخط مليح الضبط ومات بمصر»[3]، وأثنى عليه ابن خلكان بقوله: «كان شاعراً حلواً مقبولاً، ونسخه في غاية الجودة، وكان ينسخ كل خمسين ورقة بدينار، وخطه مرغوب فيه»[4].

34 ـ حمزة بن علي بن يعقوب الغلبوني الوراق: استخلفه مالك بن سعيد قاضي مصر سنة (398 هـ/ 1008 م)[5].

35 ـ أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد (المتوفى سنة 400 هـ/

= الاعتدال 5/ 72 ـ 73، حاجي خليفة: كشف الظنون ص 1303، البغدادي: هدية العارفين 2/ 55.

(1) ياقوت: معجم الأدباء 2/ 69، القفطي: إنباه الرواة 1/ 196، 3/ 363.

(2) ياقوت: معجم الأدباء 13/ 157 ـ 160، البغدادي: إيضاح المكنون 1/ 100، 2/ 312، وهدية العارفين 1/ 686.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص 343، السيوطي: بغية الوعاة 2/ 54.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص 726.

(5) أحمد بن عبد الرحمن: ذيل كتاب الولاة والقضاة ص 609، رفع الإصر ص 42.

1009 م): هو كما يقول ياقوت أديب متفنن في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام، وإنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، فرد الدنيا لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومُكْنَة، واسع الدراية والرواية، ولكنه مع ذلك كان سخيف اللسان قليل الرضى، يتشكى صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه(1)، وهو الذي وصف الوراقة بأنها حرفة الشؤم، له كتب منها: كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسات، وكتاب مثالب الوزيرين، وكتاب الإمتاع والمؤانسة، وكتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي(2).

36 ـ أبو عبدالله الحسن بن حامد بن علي البغدادي الحنبلي الوراق (المتوفى سنة 403 هـ/ 1012 م): فقيه أصولي متكلم، أفتى ودرَّس عند السلطان والعامة، وصفه الخطيب البغدادي بقوله: «مدرس أصحاب أحمد وفقيههم في زمانه، وكان له المنصفات العظيمة، منها كتاب الجامع في أربع مئة جزء يشتمل على اختلاف الفقهاء، وله مصنفات في أصول السنة، وأصول الفقه، وكان معظماً في النفوس، مقدماً عند السلطان والعامة»(3)، وتوفي راجعاً من مكة بقرب واقصة(4).

37 ـ المحسن بن الحسين بن علي بن كوجك (المتوفى سنة 416 هـ/ 1025 م): أديب وراق جيد الخط، وصف ياقوت خطه بقوله: «معروف مرغوب فيه، يشبه خط الطبري»(5).

38 ـ أبو بكر عتيق بن محمد التيمي الوراق الشاعر (المتوفى بعد سنة 463 هـ/ 1102 م): من خلعاء القرَّاء الوعاظ المتسترين بالوراقة، حكى ابن

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 5/380 ـ 381.
(2) السابق 5/288.
(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/303.
(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء 11/45 ـ 46، ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص 224، والمنتظم 7/263، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/33.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 17/89.

رشيق أنه رآه في الجامع يقرأ الرقائق والمواعظ ويبكي تخشُّعاً، ثم جاءه عشية ذلك اليوم في بيته فوجده في يده طنبور وعن يمينه غلام مليح، فقال له: ما أبعد بين حالتيك في مجلسيك، فقال: ذلك بيت الله، وهذا بيتي أصنع في كل منهما ما يليق بصاحبه، واستشهد ابن شاكر الكتبي بقطع من شعره(1).

39 ـ أبو الحسن محمد بن هبة الله بن أبي الحسن الوراق النحوي (المتوفى سنة 470 هـ/ 1079 م): شيخ العربية ببغداد، قال السمعاني: «تفرد بعلم النحو، وانتهى إليه علم العربية في زمانه، وكان له في القراءات وعلوم القرآن باع طويل»(2) وهو سبط أبي سعيد السيرافي.

40 ـ محمد بن أحمد عبد الباقي المعروف بابن الخاضبة (المتوفى 489 هـ/ 1096 م): محدث، عمل في الوراقة، قال: «كنت أورق للناس وأنفق على الأهل»(3)، له مصنفات منها: أجزاء وأمالٍ في الحديث(4).

41 ـ عبدالله بن صارة الشنتريني (المتوفى سنة 517هـ/ 1123 م): من شعراء الأندلس، توفي في المرية، اتخذ الوراقة حرفة، وكان متذمراً منها، قال في ذم الوراقة(5):

أما الوِرَاقَةُ فهي أنْكَدُ حِرْفَةٍ ... أوْرَاقُها وثِمارُها الحِرْمانُ

شَبَّهْتُ صاحِبَها بصاحِبِ إبْرَةٍ ... تكسو العُرَاةَ وجِسْمُها عُريانُ

42 ـ علي بن عبدالله بن موسى بن طاهر الغفاري السرقسطي (المتوفى سنة 535 هـ/ 1140 م): كان عارفاً بالنحو واللغة والأدب، بارع الخط حسن الوراقة، جيد الشعر، قال ابن عبدالملك: «كان لغوياً أديباً ذا حظ صالح من رواية الأدب، وتجول في أقطار الأندلس، واستقر بأخْرَةٍ في وادي آش، وأقرأ

---

(1) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/ 37.
(2) الأنباري: نزهة الألباء ص 438، السيوطي: بغية الوعاة 1/ 255 ـ 256.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 6/ 336.
(4) البغدادي: هدية العارفين 2/ 77.
(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 321، ابن خاقان: قلائد العقيان ص 260.

بها، وذُبِحَ بها سنة خمس أو ست وثلاثين وخمس مائة[1].

43 ـ سعد الوراق ابن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الخطيري البغدادي (المتوفى سنة 568 هـ/ 1172 م): أبو المعالي المعروف بالوراق وبدلال الكتب، أديب شاعر، كان دكانه مجلس كل أديب، وكان حسن الأدب والفهم، يعمل شعراً رقيقاً[2]، له مصنفات منها: زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف شعراء العصر، ولُمَح المُلَح، وديوان شعر، ومختصر صفوة الصفوة في الحكم، والإعجاز في الأحاجي والألغاز، وغيرها[3].

44 ـ جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط (المتوفى سنة 573 هـ/ 1177 م وقيل بعد ذلك): وصفه ياقوت بقوله: «كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب»[4]. لمع في قول الشعر بالعربية والفارسية، وهو يزاوج بين هاتين اللغتين أحياناً في القصيدة الواحدة، له من الكتب: غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة، وكتاب حدائق السحر ودقائق الشعر، وكتاب مناهج الفكر ومباهج العبر، قال في مقدمته واصفاً حاله ومهنته: «وبعد فإني لم أزل قبل أن يبلغ عمري الإبدار، ويصدني التكليف عن ركوب مطا الخطر والإيراد والإصدار، متخذاً الوراقة صناعة وبضاعة، معتمداً عليها في إخلاف ما أتلفه الإتقان والصناعة، حتى سبقت في معرفتها من كان وجيهاً، ورجائي في عوائد موائدها من ظل زماناً نفسه يرتجيها، وكنت قد وكلت بمراجعة الكتب قلباً، وشغفت بها كلفاً وحباً»[5].

---

(1) السيوطي: بغية الوعاة 2/172 ـ 173.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 2/23.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء 12/283، ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/254 ـ 255، ياقوت: معجم الأدباء 11/194 ـ 195، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي 5/13 ـ 14.
(4) ياقوت: معجم الأدباء 19/29 ـ 36، السيوطي: بغية الوعاة 1/226.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 7/91 ـ 95، العوفي: لب اللباب 1/80، الأصفهاني: خريدة=

45 ـ أحمد بن أبي الفضل بن أبي القاسم الوراق الدارقزّي المحولي (المتوفى سنة 578 هـ/ 1182 م): فقيه يعرف بابن غريبة، ولاّه الوزير ابن هبيرة رفع المظالم، وانقطع في آخر عمره بالمحوَّل، إلى أن فُلِجَ ومات[1].

46 ـ ياقوت الحموي (المتوفى سنة 626 هـ/ 1229 م): ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، أديب مؤرخ لغوي عالم بتقويم البلدان، ولد ببلاد الروم، كان مولى لعسكر الحموي، الذي أعتقه، فنسخ الكتب بالأجرة، وتعاطى تجارة الكتب، وسافر في البلدان وتوسعت ثقافته بالأسفار بين الشام والعراق وخراسان وخوارزم ومصر، وأقام بظاهر حلب في الخان، ثم عاد إلى بغداد، وفي آخر حياته أوقف كتبه على مسجد الزيدي بدرب دينار ببغداد، من تصانيفه: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، ومعجم البلدان، والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب، وأخبار المتنبي، وله ديوان شعر أيضاً[2].

47 ـ عمر بن محمد بن الحسن الوراق المصري الفائزي (المتوفى سنة 695 هـ/ 1296 م): أديب كاتب شاعر غزير الإنتاج، كان كاتباً لوالي مصر الأمير يوسف بن سباسلار، وكان أشقر أزرق، وفي ذلك يقول[3]:

ومـن رآنـي والحمـار مـركبـي ... وزرقتي للروم عرق قد ضربْ
قـال وقـد أبصـر وجهـي مقبـلاً ... لا فارس الخيل ولا وجه العربْ

وقد ذكر صناعته في الوراقة في شعره، وذكر سيرته التي لم يرض عنها،

= القصر ص 70، السيوطي: بغية الوعاة ص 97، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي 5/142.

(1) ابن العماد: شذرات الذهب 4/264.

(2) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة 8/187، ابن العماد: شذرات الذهب 5/121 ـ 122، اليافعي: مرآة الجنان 4/59 ـ 63، حاجي خليفة: كشف الظنون في مواضع كثيرة، البغدادي: هدية العارفين 2/513.

(3) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/135.

في قوله[1]:

يا خجلتي وصحائفي سود غدت وصحائفُ الأبرارِ في إشراقِ
وموبِّخٍ لي في القيامةِ قائلٍ أكذا تكونُ صحائفُ الورَّاقِ

توفي بالقاهرة وقد جاوز التسعين عاماً، من آثاره نظم درة الغواص للحريري له ديوان شعر في سبعة أجزاء كبار، اختار الصفدي (المتوفى سنة 764 هـ/ 1362 م) من هذه الأجزاء مجموعة سمَّاها (لُمَح السراج)[2].

48 ـ عبد الرحمن بن موسى بن عمر الناسخ المناديلي (المتوفى سنة 715 هـ/ 1315 م): كان وراقاً ودلال كتب، حسن الخط، نسخ كثيراً من الدواوين[3].

49 ـ أحمد بن يوسف بن أبي الزهر الحلبي الطرائفي (المتوفى سنة 753 هـ/ 1351 م): ورَّاق دمشقي، كان له حانوت بباب جيرون[4].

50 ـ ابن شاكر الكتبي (المتوفى سنة 764 هـ/ 1363 م): محمد بن شاكر بن أحمد الداراني الأصل الدمشقي الشافعي، مؤرخ أديب، تعاطى تجارة الكتب وأفاد من الوراقة غنى، يقول ابن حجر: «كان فقيراً جداً، ثم تعاطى التجارة في الكتب فرزق منها مالاً طائلاً»[5]، له تصانيف منها: فوات الوفيات، وعيون التواريخ، وروضة الأزهار وحديقة الأشعار على حروف القوافي[6].

(1) ابن حجة الحموي: خزانة الأدب ص 244 ـ 245.
(2) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/107 ـ 111، السيوطي: بغية الوعاة ص 363، حاجي خليفة: كشف الظنون ص 741، 792.
(3) ابن حجر: الدرر الكامنة ص 359.
(4) ابن حجر: الدرر الكامنة ص 368.
(5) السابق 3/451.
(6) السابق والصفحة، ابن العماد: شذرات الذهب 6/203، حاجي خليفة: كشف الظنون ص 923، 1185، 1292، 2019، العزاوي: التعريف بالمؤرخين ص 100.

51 ـ أحمد بن إبراهيم الكتبي الصالحي الحنفي (المتوفى سنة 795 هـ/ 1393 م): وراق كتبي، كان مشاركاً في الفنون[1].

52 ـ علي بن عبدالله بن أحمد العلوي (المتوفى سنة 1198 هـ/ 1784 م): أديب وراق ولد بمصر، شرح قصيدة ابن زريق البغدادي، وسمى الشرح (إشارات التحقيق الفيضية إلى خبايا القصيدة الزريقية)[2].

وبعد فقد كانت الوراقة صورة من صور النشاط الفكري والعلمي في الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة، وكان للوراقين الأثر الفعَّال في تنشيط الحركة العلمية وتيسيرها، وتطوير الكتاب والافتتان في إخراجه وتجليده وتذهيبه، وبذلك ازدهرت الفنون المتعلقة بالكتاب من الرسم والزخرفة والتلوين، وقد خلف لنا العلماء والوراقون ذخيرة ثرية ضخمة من الكتب التي عمرت بها المكتبات في شتى الآداب والفنون، وما زالت المكتبات العربية والإسلامية والعالمية عامرة بما خلف الأجداد من نفائس المخطوطات ونوادرها، على الرغم مما تعرضت له من الكوارث والخطوب.

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب 6/104.

(2) الجبرتي: عجائب الآثار 2/96 ـ 97.

الفصــل الرابــع

الترجمــة والمترجمــون

الترجمة والمترجمون

الترجمة لغـــة:

الترجمة كلمة عربية صريحة لا شك في عربيتها، وهي تفسير الكلام بلسان آخر، ففي الصحاح: «يقال قد ترجم كلامه إذا فسَّره بلسان آخر، ومنه التَرْجَمان، والجمع التراجم، يقال: تَرْجُمان وتُرْجُمان، والترجمة النقل من لغة إلى أخرى»[1]. وفي اللسان: «التُرْجُمان والتَرْجُمان: المفسر للسان»[2]، والترجمة أيضاً البيان والوضوح، وفي متن اللغة: «ترجم كلامه: بيَّنه وأوضحه، وترجم الكتاب وترجم عنه: فسَّر بلسان آخر، والتُرْجُمان والتَرْجَمان والتَرْجُمان: الناقل الكلام من لغة لأخرى، والمسفِّر للسان»[3]، والتاء في الكلمة أصلي، ووزنها (تفعلان)، قال ابن قتيبة: إن الترجمة تفعلة من الرجم[4]، والتُرْجُمان: المُترْجِم، والجمع تَراجِم وتَراجِمة، وترجمة فلان: سيرته وحياته[5]، وترجمة الكتاب فاتحته، فللترجمة جملة معان هي: الإيضاح والتفسير، والترجمة ذكر السيرة الشخصية، والترجمة النقل من لغة إلى أخرى، والترجمان: هو المفسر أيضاً، يقول ابن النديم عن كتاب كليلة ودمنة: «فسَّرة

---

(1) الصحاح: ترجم.
(2) اللسان: ترجم.
(3) متن اللغة. ترجم.
(4) تاج العروس: ترجم.
(5) المعجم الوسيط: ترجم.

عبد الله بن المقفع وغيره»[1]، فالتفسير هنا يعني الترجمة، والكلمتان بمعنى واحد، وقد استقلت (الترجمة) بأخرة بمعنى خاص بها.

الترجمة عند العرب:

وقد عرف العرب الترجمة والترجمان منذ وقت مبكر، يقول الشاعر[2]:

إنَّ الثمـــانيـــنَ وبُلِّغْتَهـــا قد أحوجت سمعي إلى تُرْجُمان

فالترجمان الشخص الذي يفسر ويوضح، وقد اكتسبت الكلمة معنى أكثر تحديداً بسبب تقدم الحضارة، وكثرة الاختلاط والتعامل مع الشعوب المجاورة، فصار معناها ينصرف إلى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، ومن هذا قول المتنبي[3]:

مغاني الشِّعبِ طيْباً في المغَاني بمنـزلـةِ الـربيـعِ مـن الـزَّمـانِ
ولكــنَّ الفتــى العــربــيَّ فيهــا غريبُ الوجْه واليد واللسانِ
مـلاعِـبُ جِنَّـةٍ لـو سـارَ فيهـا سُليْمــانٌ لســارَ بتَــرْجُمــانِ

ويقول العكبري في تفسير البيت الأخير: «إن الترجمان هو الذي يفسر كلام غيره بلسانه، وهو الذي يعرِّف بغير لسانه، أي أنه يقوم بالترجمة من لسان وإلى لسان»، والعكبري يستخدم كلمتي التفسير والتعريف، ومعنى هذا أن المترجم يقوم بتوضيح وتفسير معنى ما يترجمه من غير لبس أو إبهام، وقد استعار الإنجليز كلمة (الترجمان) العربية وأدخلوها في مفردات لغتهم فقالوا (Dragoman)[4].

لقد عرف العرب الترجمة منذ وقت مبكر قبل الإسلام، فقد كانوا يفدون

(1) الفهرست ص 132.
(2) البيت لعوف بن محلم الخزاعي، طبقات ابن المعتز ص 190، معجم الأدباء 142/16.
(3) ديوان المتنبي شرح العكبري ص .
(4) محمد عوض محمد: فن الترجمة ص 7.

على أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، وكان في بلاطاتهم مترجمون من الفارسية إلى العربية، ومن العربية إلى الفارسية ومن اللاتينية إلى العربية، ومن العربية إلى اللاتينية، وكان من العرب من يجيد الفارسية، ومنهم من يجيد اللاتينية والسريانية (الآرامية) والعبرية.

وإذا ابتعدنا في الزمان، نجد أنَّ أقدم المترجمات إلى اللغة العربية هي: النقوش البابلية، وألواح الحثِّيين، ونقوش تل العمارنة، وألواح مدينة نينوى، وحجر رشيد، ومن المفيد هنا أن نلقي الضوء على كل من هذه الترجمات.

الترجمة في عصور ما قبل الإسلام:

1 ـ بابل في عهد حمورابي: (Babylon):

بابل مدينة قديمة على الفرات في بلاد ما بين النهرين، على بعد تسعين كيلومتراً جنوبي بغداد، ومعنى بابل في اللغة السامية القديمة (باب إيلو) أي: باب الإله، وقد حكم حمورابي حوالي سنة 2100 قبل الميلاد، ولم تشتهر بابل وتبلغ مكانتها المرموقة، إلا بعد أن جعلها حمورابي عاصمة له، وأصبح إلهها (مردك) الذي يقرن بالإله (بعل)، إلهاً معروفاً في الشرق الأدنى القديم، كما أثْرَتْ المدينة بفضل التجارة، وقد دمرها الآشوريون في عهد ملكهم سنحاريب، ثم أعيد بناؤها حيث بلغت أوج ازدهارها في دولة بابل الثانية، وجرى بذخها وفخامتها مجرى الأساطير، منذ أيام نبوخذ نصر (توفي سنة 562 ق. م)، فكانت حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع، عرفها العبرانيون (حيث قاسوا فيها الأسر في عهد نبوخذ نصر)، كما عرفت بين الإغريق مكاناً للمسرات، كان استيلاء قورش العظيم عليها (سنة 538 ق. م) إيذاناً بانتهاء عظمتها، وتحول أكثر سكانها وتجارتها بعد فتوح الإسكندر إلى مدينة سلوقية.

وأشهر ما خلف البابليون، شريعة حمورابي (Code of Hammurabi) وهي مدونة على مسلة من الديوريت اسطوانية الشكل اكتشفت في (سوس) عام 1901 ـ 1902 م محفوظة في متحف اللوفر، في أعلى هذه المسلّة نقش بارز

يمثل الإله شمس سيد العدالة، يملي شريعته على حمورابي، الذي يظهر واقفاً في وضع خشوعي، للدلالة على أن هذا التشريع الملكي هو من كلام الله، أما الشريعة، فهي محفورة على اسطوانة وتحتوي على 282 مادة موزعة على 34 عموداً، وتُقرأ أحرفها المسمارية من أعلى ومن أسفل، وتشكل هذه الشريعة مجموعة من الأحكام، درجت عليها الاجتهادات القضائية السابقة، بحيث يمكن للقضاة أن يستنيروا بها، مع إفساح المجال لتطبيق الأعراف المحلية، ويمتاز هذا التشريع بالنص الواضح الدقيق على صعيد المبادىء القانونية، وقد دُوِّن باللغة الأكادية، ويكوِّن صرحاً عظيماً للحضارة البابلية.

كان لدى حمورابي مجموعة من النسَّاخين الذين يترجمون المراسيم الصادرة إلى مختلف اللغات، وكان من جملة أعمال هؤلاء المترجمين تصنيف قوائم من الكلمات في مختلف اللغات، إذ أن بعض هذه المعاجم حفظ على رُقُم طينية مسمارية في مختلف المواقع الأثرية التي تنتسب إلى فترات تاريخية مختلفة[1].

2 ـ الحثِّيون: (The Hittites):

الحثيون شعب أجنبي استوطن الأناضول منذ الأزمنة القديمة وامتدت سيطرته إلى سورية الشمالية حيث الشعوب السامية والحورية، واتخذ الحثِّيون (حتوشا) عاصمة لهم، وتقع بالقرب من بوغازكوي (بوغازكال) الحالية.

ظهر اسم الحثيين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وكان ملكهم (بامبا) خصماً لنرام سين ملك أكاد (نحو 2300 ق. م)، وحوالي العام 1900 ق. م أقام بعض المستوطنين من التجار الآشوريين في القرى المجاورة لنهر هاليس، ولا سيما في (كانش) (كل تبه)، ودونوا لوحات كبدوقية الشهيرة.

وفي ما بين العامين 1619 و1526 ق. م، فتح الملك الحثِّي مرشلش الأول حلب، وقام بعدة غزوات على بابل، وبلغ التوسع الحثِّي أوْجَهُ أيام الملك

---

(1) معجم الحضارات السامية ص 364 ـ 366، الموسوعة العربية الميسَّرة 1/296، يوجين أ. نيدا: نحو علم الترجمة ص 37.

سوبيلوليوما (1382 ـ 1341 ق. م) الذي احتل شمالي سورية، وقام من ثمّ نزاع بين الحثيين والفراعنة، ولكنه انتهى عام 1271 ق. م باقتسام سورية، وحوالي العام 130 ق. م تمكنت آشور من انتزاع ميتاني من سيطرة الحثِّيين[1].

والحضارة الحثِّية متميزة عن حضارة وادي الرافدين، وتبدو مظاهرها في الديانة والأساطير، وفي الصور البدائية للديانة تبرز الأفكار الخاصة بعبادة الأرواح، وتقديس الينابيع والأشجار والجبال، وكان إله العاصفة (تيشوب) أشهر الآلهة، ويمثل عادة بشكل رجل يقف على ثور ويمسك الصاعقة، ثم اقتبس الحثِّيون آلهة أجنبية عندما احتك بهم السومريون والمصريون والآشوريون، أما قوانينهم فكانت مستقلة عن قانون البابليين، اكتشف جزء منها يرجع إلى القرن الرابع عشر ق. م وكانت لغة الحثيين على صلة بمجموعة اللغات الهندية ـ الأوربية، وهناك عدة لغات تتمثل في كتاباتهم[2].

وفي عام 1812 اكتشف في مدينة حماة بسورية حجر فيه كتابة هيروغليفية، وبعد خمسين عاماً عثر على أحجار فيها نقوش مماثلة للحجر الأول، وشوهد حجر آخر مماثل في جدار مسجد في حلب، كما عثر على أجزاء من هذه الكتابة الهيروغليفية على صخرة ضخمة منقوشة في (إيفريز) في جبال طوروس بالأناضول، وفي غيرها من الأماكن في تركيا. وقد أجريت حفريات في مدينة (بوغازي كوي) عام 1906 م وعثر علماء الآثار الألمان على حوالي عشرة آلاف من الألواح المنقوشة، وكان معظمها مكتوباً باللغة الحثِّية (وهي الكتابة المسمارية المعشقة)، وقد استطاع علماء الآثار فك رموز هذه الألواح التي تدل على حضارة الحثِّيين، وكان مركزها حول مدينة (بوغازي كوي) التي كان الحثِّيون يسمونها (حتوساس)[3].

---

(1) معجم الحضارات السامية ص 343، الموسوعة العربية الميسرة 1/746.

(2) الموسوعة العربية الميسرة 1/746.

(3) موسوعة المعرفة مجلد 2 ص 209، معجم الحضارات السامية ص 342، الموسوعة العربية الميسرة 2/746، أسعد حكيم: علم الترجمة ص 26.

3 ـ ألواح تل العمارنة: (Tell al- Amarn):

إن أقدم الآثار التي وصلت وترجمت هي ألواح تل العمارنة في مصر، وهي ترجع إلى عهد أخناتون في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، لقد حفظت آثار المصريين القدماء معلومات كثيرة عن أمور العالم القديم، فقد كان للمصريين اتصالات بجيرانهم، وكانت لهم بعثات تحمل لهم الهدايا وتتسلم بضائع متعددة من بخور ومعادن وغلات متنوعة، وبسبب من هذه الاتصالات كان هناك ترجمات وتبادل في اللغات.

وألواح تل العمارنة من الخزف المحروق، وكان يكتب على الألواح وهي طرية ثم تحرق في فرن حتى تصبح جامدة كالقرميد، فتمكث زمناً طويلاً، ولم تكن الكتابة على هذه الألواح بالحروف الهيروغليفية المعروفة لدى المصريين، بل كانت مكتوبة بالخط المسماري المعروف في بابل، ووجد منها نحو ست مائة لوحة في تل العمارنة بمديرية المنيا في الموضع الذي كانت فيه مدينة أخت آتون التي أسسها أخناتون لتكون عاصمة، والمرجح أن معظم هذه اللوحات كان في أول الأمر في مدينة طيبة، ثم نقلها معه أخناتون إلى عاصمته الجديدة، ومن المرجح أيضاً أنه اتخذ له داراً لحفظ الوثائق أودع فيها هذه المجموعة من اللوحات[1].

وهذه الألواح عبارة عن رسائل تقع في الفترة ما بين سنة **1370** و **1348** قبل الميلاد، وقد ورد فيها ذكر الحثِّيين عدة مرات، ويصفون بأنهم أهل مملكة قوية مستقلة، ومنها رسالة كتبت من قبل ملك الحثِّيين (سوبليوليوماس) في مناسبة ارتقاء الملك (أخناتون) عرش مصر[2].

لقد عثر المنقبون عن الآثار في تل العمارنة سنة **1886** م على هذه الآثار، بما فيها الصور المنقوشة على جدران معبد الكرنك، ومعبد (الرمسيوم)، ووجد لوح حثِّي في بوغاز كوي (بوغاز كال) في الأناضول سنة **1324** هـ/ **1906** م،

(1) محمد عوض: فن الترجمة ص 6 ـ 7.
(2) موسوعة المعرفة 2/209.

وفي هذه الألواح معاهدة أبرمت بين (خاتوسيليس الثالث) ملك الحثِّيين، وبين (رمسيس الثاني) فرعون مصر سنة 1278 ق. م، وتعتبر هذه المعاهدة أقدم معاهدة مكتوبة عرفت في التاريخ بين دولتين، وهذه المعاهدة وثيقة في القانون الدولي يرجع عهدها إلى ثلاثة آلاف سنة[1].

4 ـ ألواح مدينة نينوى: (Nineveh):

نينوى عاصمة مملكة آشور تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، كانت هذه المدينة موجودة منذ الآلف الثالث قبل الميلاد، وبلغت أوج عظمتها في زمن سنحاريب (705 ـ 681 ق. م) الذي بنى فيها قصراً وسوَّر المدينة وزوَّدها بالأقنية. وقد دُمِّرت المدينة عام 612 ق. م في مرحلة انهيار الدولة الآشورية، وقد هلَّل أنبياء إسرائيل لسقوطها.

وقد كشفت الحفريات التي جرت منذ العام 1842 م، عن أطلال القصر والسور ومكتبة آشور بنيبال المسمارية، كان موضع المدينة مجهولاً حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تبين في آخر القرن المذكور أن نينوى تقع تحت تلَّي كيونجيك والنبي يونس، وتأكد ذلك عام 1847 م بالعثور على جدران قصر سنحاريب، وكان هذا القصر يحتوي على أكثر من ألفي نقش نافر، وحوالي ثمانين غرفة، من بينها مكتبة آشور بنيبال (668 ـ 626 ق. م) المحتوية على آلاف اللوحات المسمارية.

وفي التنقيب الذي أجري سنة 1852 م، عثر على قصر آشور بانيبال المحتوي على مشاهد القنص الشهيرة الموجودة الآن في المتحف البريطاني، ثم تتابعت التنقيبات الأثرية في كيونجيك وكشفت عن معبد للإله نابور ومعبد لإشتار وقصر آشوري يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، ووجد تحت الطبقة الآشورية خمس طبقات تعود إلى بداية العصور التاريخية، عثر فيها على أوانٍ من الفخار المطلي واسطوانات تعود إلى الألف الرابع ق. م، وعلى رأس من

---

(1) معجم الحضارات السامية ص 616، الموسوعة العربية الميسرة 1/541، موسوعة المعرفة 2/209.

البرونز يرقى إلى عصر أكّاد (نحو 2400 ق. م)، لعله يمثل الملك سرجون الأكادي. وكشف في تل النبي يونس عن قصر آشوري يرجح أنه من زمن أسرحدون (680 ـ 669 ق. م)، وعثر بين التلّين على مذبح هلّنستي للإله هرمس.

إن حضارة آشور قديمة قد سبقت الامبراطوريتين الإغريقية والرومانية، وقد ازدهرت حتى قبل بناء الأهرام في مصر، وقد شهد وادي الرافدين حضارة عظيمة تمثلت في القصور والمدائن الرائعة والمكتبات الضخمة والثقافة العالية، وكانت مقترنة بأسماء بابل والسامرة وآشور، وقد كانت نينوى عاصمة ملك آشور العظيم سنحاريب في إبّان قوة آشور فيما بين عامي 705 ـ 681 ق. م، وقد اكتشف علماء الآثار أروع فنون العمارة والنقوش في الحضارة الآشورية، وكان أهم هذه الكشوف هي المكتبة الملكية للملك (آشور بنيبال) حفيد (سنحاريب)، فقد عُثر فيها على آلاف من الواح الصلصال والاسطوانات التي عليها كتابات مسمارية، وقد نهد العلماء لفك رموز هذه الكتابة، ووفقوا في ذلك عام 1857 م، وبذلك أمكن قراءة الكتابة البابلية والآشورية، وقد جاء ذكر مكتبة آشور بنيبال في الإنجيل، وترتبط بها قصة النبي يونس بن متّى ذي النون صاحب الحوت من أنبياء بني إسرائيل الذي جاءت سورة في القرآن باسمه هي سورة يونس، كما جاء ذكره في عدة سور من القرآن الكريم هي سورة: الأنبياء والقلم والنساء والأنعام والصافات[1].

5 ـ حجر رشيد:

رشيد مدينة بمصر تقع على النيل قريباً من مصب فرع رشيد، عاصمة مركز رشيد بمحافظة البحيرة، بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، تأسست في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكان لها أهمية تجارية، وقد عثر فيها على حجر عرف باسم (حجر رشيد) وهو من البازلت، يحمل نصاً مكتوباً بثلاث

(1) موسوعة المعرفة 1/177 ـ 179، معجم الحضارات السامية ص 874 ـ 876، الموسوعة العربية الميسرة 2/1870 ـ 1871.

لغات هي: الهيروغليفية والديموطيقية (وهي الكتابة المصرية الشائعة) واليونانية، وهي عبارة عن شكر الكهنة للملك بطليموس الخامس (حكم سنة 203 ـ 180 ق. م) على عطاياه التي قدمها للمعابد، عثر عليه جنود نابليون سنة 1799 م قريباً من قلعة سانت جوليان قرب رشيد، واستولى عليه البريطانيون سنة 1851 م، ويوجد الآن في المتحف البريطاني، وكان العثور عليه إيذاناً بفك رموز اللغة الهيروغليفية، وهي أول كتابة استخدمت في مصر، بمساعدة اللغة اليونانية التي كانت مقروءة حينئذ، وقد حاول قراءته كثير من العلماء، وكان بمعية نابليون 175 عالماً، كان أنجحهم في قراءة الحجر العالم شمبليون[1].

الترجمة عند العرب قبل الإسلام:

لقد كان العرب الجاهليون على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم، فضلاً عن حضارتهم العريقة، وقد كانت الصلات قائمة بين العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود، وكان من مظاهر ذلك إمارة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام، اللتان أتاحتا لثقافة الفرس والروم أن تدخل الجزيرة وتمتزج بثقافة العرب، وقد أتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يفيدون من خبرات الأمم الأخرى وعلومهم، فمن ذلك: الأسواق والمواسم التي كانت تقام في أنحاء مختلفة من الجزيرة، كانت الأسواق ملتقى العرب على اختلاف منازلهم وثقافاتهم، يقصدها التجار ـ من العرب والعجم ـ من تجار الفرس والروم والهند والصين، فيكون الأخذ والعطاء وتبادل المتاع، ومن البدهي أن تلتقي الثقافات والعقول، فيفيد بعض من بعض من الخبرة والصناعة والعلم واللسان، وكذلك العادات والتقاليد، وقد ذكر محمد بن حبيب: أن كثيراً من تجار الأمم المحيطة ببلاد العرب كانوا ينتقلون إلى الجزيرة، كما تفعل تجار فارس والروم حينما توافي بسوق المشقر، يقطعون إليها البحر ببياعاتها[2]. وقال أبو علي المرزوقي: «ثم يرتحلون منها (من صحار) إلى دبا، وكانت إحدى فرض العرب

---

(1) الموسوعة العربية الميسرة 1/869، موسوعة المعرفة 2/387.

(2) محمد بن حبيب: المحبر ص 263 وما بعدها.

يجتمع بها تجار الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب، فيشترون بها بيوع العرب»[1].

والعرب أنفسهم كانوا يسافرون إلى بلاد الروم والفرس والأحباش، منهم التجار الذين يحملون بضائعهم إلى أقاصي البلاد، ومن أولئك تجار قريش، كهاشم وكان متْجَرُه إلى بلاد الشام وقد مات بغزَّة، وعبد شمس ومتجره إلى الحبشة، وعبد المطلب ومتجره إلى اليمن، ونوفل ومتجره إلى العراق، وهؤلاء هم أصحاب الإيلاف من قريش[2].

وكان من العرب من يتعرض لعطاء الملوك، كالشعراء ورؤساء القبائل، وذوي الفصاحة المتصلين بالملوك المنادمين لهم، وما ذكر النابغة الذبياني وحسان بن ثابت في مجالس المناذرة والغساسنة بمنكر، وقد عرفت منادمة الربيع بن زياد للنعمان بن المنذر، وقصة وفد بني عامر وبلاء لبيد في مجلس النعمان[3]، وإن صحت رواية وفود العرب على كسرى وخطبهم في ذلك فرحلتهم تشمل مجموعات كبيرة من العرب، غير مقتصرة على الأفراد، وكان من العرب من ساح في الأرض طلباً للهداية والعلم، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، الذي شك في الأوثان ورحل يطلب دين إبراهيم، حتى بلغ الموصل وجال في الشام[4]، والحارث بن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن[5]، وغير هؤلاء كثير.

وكان من أسباب التمازج الحضاري في المجتمع الجاهلي أيضاً، الجاليات الأجنبية التي كانت تفد إلى الجزيرة فتمكث فيها زماناً، وقد يتخذ بعضها الجزيرة موطناً ومقاماً، وطبيعي أن هؤلاء من جنسيات وأديان مختلفة، وعقليات وثقافات متباينة، فمنهم النصراني واليهودي والمجوسي، ومنهم

---

(1) المرزوقي: الأزمنة والأمكنة 2/162.
(2) ابن حبيب: المحبر ص 162، ابن هشام: السيرة النبوية 1/47.
(3) الأصفهاني: الأغاني 1/92.
(4) ابن هشام: السيرة النبوية 1/26، الأصفهاني: الأغاني 3/26 ط دار الكتب المصرية.
(5) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 74.

الرومي والحبشي والفارسي والهندي[1]. ومن هؤلاء من جاء مبشراً بدين كالنصارى الذين أقاموا البيع والصوامع والأديرة، في المدن والقرى، ومنهم من جاء طالباً الربح والتجارة، أو العمل والكسب، أو التجسس على العرب في ديارهم[2]. ولا شك أن كثيراً من هؤلاء كان مكسبه عن طريق نشر اللهو والمجون في الحانات، حيث الخمر والغناء والرقص.

ومن تلك الصلات، وذلك التمازج البشري بين العرب والأقوام الأخرى، أفاد العرب وكسبوا ثقافتين: الأولى ورثوها عن أسلافهم، والثانية اقتبسوها من الأمم المجاورة، وقد استطاع المؤلفون المسلمون، على بعد الشقة، أن يحفظوا للمتأخرين جوانب من معارف الجاهلية وعلومهم، كما حفظ الشعر الكثير من تلك المعارف.

كان عرب الحيرة اللخميون على صلة بالفرس وبعرب الجزيرة، وكان منهم من يتقن الفارسية، من مثل عدي بن زيد العبادي، الذي كان مترجماً للفرس، يقول ابن خلدون: «إن عدي بن زيد كان من تراجمه (ابرويز)، وأن أباه زيداً كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس»[3]، وكذلك كان عرب الشام الغسانيون على صلة بالثقافة اليونانية، وكانوا هم الصلة بين العرب واليونان، وقد نقلوا الثقافة اليونانية إلى العرب. ولما أشرف الإسلام بنوره على الجزيرة العربية، وفتح الله للمسلمين فارس والروم، تسربت حضارت هاتين الدولتين إلى العرب والمسلمين من خلال ضروب الاتصال، ومنها الترجمة.

الترجمة في زمن النبي ﷺ:

كان الرسول ﷺ يرسل الرسل إلى ملوك الأمم وأمراء الجزيرة حاملين رسائله، وكانت هذه الرسائل بالعربية، ويترجمها التراجمة من الفرس والروم

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية (مكة)، وفي المحبر ص 306 ـ 308 ذكر لأبناء الحبشيات، وفي أسد الغابة ذكر للروم والروميات، انظر مثلاً 1/212، 4/232، 5/194.

(2) Oleary: Arabia before Mohammad p. 39.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 2/ .

إلى لغتهم، روى ابن هشام قال: حدثني من أثق به عن أبي بكر الهذلي فقال: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية، فقال: (أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمة وكافَّة، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحوَّاريون على عيسى بن مريم...) فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ملك الروم، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعيَّاد ابني الجُلُندي الأزديين، ملكي عُمان، وبعث سُليط بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، إلى ثمامة بن أثال، وهَوْذَة بن عليِّ الحنفيين، ملكي اليمامة، وبعث العَلاء بن الحَضْرَمي إلى المُنْذِر بن ساوي العَبْدي، ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شِمْر الغسَّاني، ملك تخوم الشام. وقال ابن هشام: بعث شجاعَ بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغسَّاني، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي، إلى الحارث بن عبد كُلال الحميري، ملك اليمن[1]. ولا شك أن هذه الكتب التي أرسلت إلى الفرس والروم والحبشة واليمن، كان هناك من يترجمها إلى لغتهم، ويرجع الرسل فيفهمون ممن يترجم لهم لغة هؤلاء الملوك.

وفي زمن النبي ﷺ كانت الحاجة إلى من يعرف لغات الأمم الأخرى، وخاصة العبرية والسريانية، حتى لا تحرف مقاصد الدين وكتب الرسول، وخاصة أن اليهود كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة، والسريان على صلة بالمسلمين، ولذلك كان النبي ﷺ يحث أصحابه على تعلم لغات الأمم المجاورة، فقد رُوي عن زيد بن ثابت أنه قال: «أتي بي إلى النبي ﷺ مقدَمَهُ المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله ﷺ، فأعجبه ذلك، فقال: (يا

(1) ابن هشام: السيرة النبوية 2/606 ـ 607.

زيد، تعلَّم لي كتاب يهود، فأني والله ما آمن يهود على كتابي)[1]، فتعلمته، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه»[2]، وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال: «قال لي رسول الله ﷺ: (أتحسن السريانية، فإنها تأتيني كتب)، قلت: لا، قال: (فتعلَّمَها)، فتعلمتها في سبعة عشر يوماً». وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله ﷺ: (إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية ـ أو قال: السريانية ـ)، فقلت: نعم، فتعلمتها في سبع عشرة ليلة»[3].

ولا يستبعد أن يكون هناك من المسلمين من كان يجيد بعضاً من لغات الأمم، كالعبرية والرومية والفارسية والحبشية، فقد كان التجار العرب الذين يذهبون إلى تخوم الجزيرة أو خارجها لهم خبرة بلغات الأقوام الذين يتجرون معهم، وهناك من تعلم إحدى هذه اللغات على يدي أهل تلك اللغة، وقد قيل إن عبدالله بن عمرو بن العاص تعلَّم السريانية على يدي رجل نبطي من اليرموك يقال له (سرح) أو (سرج)[4].

الترجمة في العصر الأموي:

المعروف أن معاوية بن أبي سفيان كان محباً لسماع أخبار الأمم والملوك وسيرهم، وكان له من يروي الأخبار، مثل عمرو بن شرية الجرهمي، وكان له من ينسخون الكتب المترجمة عن الأمم الأخرى، ويُروى أن ملك الصين كان قد أهدى لمعاوية كتاباً تُرجم بعدئذ[5].

---

(1) أي لا أثق باليهود يكتبون لي كتبي بالعبرانية.
(2) الكاندهلوي: حياة الصحابة 3/687.
(3) السابق والصفحة.
(4) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، مخطوط،
(5) القاري لطف الله: بدايات الترجمة في العهد الأموي، ضمن أبحاث المؤتمر السنوي السادس ـ جامعة حلب ص 285 ـ 300.

ويلمع في هذا العصر اسم خالد بن يزيد بن معاوية (ت سنة 85 هـ/ 704 م) على أنه رائد الترجمة والمعني بكتب الطب والكيمياء والهيئة، والساعي إلى ترجمتها إلى العربية، والأخبار التي تقدمها المصادر عن خالد بن يزيد تصوره رجلاً فذّاً، فهو أول شخصية عربية تبحث في العلوم العقلية، وهو رجل متميز في الأسرة الأموية، وقد استرعى انتباه الكتاب والدارسين من القدامى والمحدثين، يترجم له ابن النديم عن محمد بن إسحاق يقول: «الذي عنى بإخراج كتب القدماء في الصنعة، خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خطيباً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وكان جواداً، يقال إنه قيل له: لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذاك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختُزِلَتْ دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أنْ أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوِجُ أحداً، عرفني يوماً أو عرفته، إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة، ويقال: والله أعلم، إنه صح له عمل الصناعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى، رأيت منه نحو خمس مائة ورقة، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة[1].

وكان خالد يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله هِمَّة ومحبة للعلوم، وخطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصَّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة[2]، ويقول صاعد الأندلسي: «وكان خالد بن يزيد بصيراً بالطب والكيمياء، وله رسائل وأشعار بارعة، دالة على معرفته فيها»[3]، ويقول ابن

---

(1) الفهرست ط طهران ص 419.

(2) ابن النديم: الفهرست ص 303.

(3) طبقات الأمم ص 63، ابن عبدربه: العقد الفريد 2/83، ابن منظور: مختار الأغاني 3/417.

كثير: وكان خالد عالماً شاعراً، وينسب إليه شيء من علم الكيمياء، وكانت له معرفة بشيء من علوم الطبيعة[1]. وكان لخالد بن يزيد الأمير الحكيم (فردوس الحكمة في علم الكيمياء)، منظومة في قواف مختلفة، وعدد أبياتها (2315) ألفان وثلاث مائة وخمسة عشر بيتاً[2]، وكان خالد يوصف بالعلم، وقيل عنه: قد علم علم العرب والعجم، وكان يقول: كنت معيناً بالكتب، وما أنا من العلماء ولا من الجُهَّال[3].

كل هذه المصادر تشيد بخالد بن يزيد وتقرر اشتغاله بالعلوم ورعايته لحركة الترجمة، وكذلك أشاد الكتَّاب المحدثون في مراجعهم بخالد بن يزيد، يقول جونز دي بور: وكان خالد بن يزيد قد اشتغل بالكيمياء بإرشاد راهب نصراني، وإنه أمر بترجمة كتب في الكيمياء من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي[4]، ولم يشذ من القدماء والمحدثين في ذكر فضل خالد بن يزيد في اكتساب العلوم وترجمتها إلا ابن خلدون من القدماء، وعمر فروخ من المحدثين، يقول ابن خلدون: «وربما نسبوا بعض المذاهب والأقاويل فيها لخالد بن يزيد بن معاوية، ربيب مروان بن الحكم، ومن المعلوم البيِّن أن خالداً من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى، مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم، اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن»[5].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 9/80.
(2) حاجي خليفة: كشف الظنون 2/1254.
(3) ابن قتيبة: المعارف ص 352.
(4) Jones De Boer: The History of Philosophy, p 17.
وانظر: كرد علي: خطط الشام 4/23، زغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص 378 ـ 379.
(5) المقدمة: ص 505.

وذهب هذا المذهب من المحدثين عمر فروخ الذي يقول: «ليس لدينا دليل على أن خالد بن يزيد قد ألَّف كتباً في الكيمياء أو غيرها، أو أمر بنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، أو كان له عمل في الكيمياء، وذلك لأن العمل في الكيمياء يقتضي الإلمام بمعارف كثيرة لم تكن متوفرة لخالد بن يزيد ولا لغيره من العرب، في ذلك الطور الباكر من حياة العرب السياسية»[1].

ورأي ابن خلدون وعمر فروخ كلاهما مردود بما جاء في المصادر التي سبقت والمراجع الكثيرة التي لم نذكر إلا بعضاً منها، وكلها أجمعت على سبق خالد بن يزيد إلى الأمر بترجمة العلوم وبذل المال في سبيل ذلك، وإلى التأليف في العلوم، ويكفي أن نؤكد قول ابن النديم وغيره: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله هِمَّة ومحبة للعلوم، وهو الذي أمر بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»[2].

ويأتي إسهام الخليفة عمر بن عبدالعزيز في العصر الأموي مع إسهام خالد بن يزيد، في تشجيع الترجمة والمترجمين ونقل العلوم، وفي هذا يقول أحمد أمين: «وإذا عدونا هذين (يعني خالداً وعمر) لم نجد كبير أثر للأمويين في تشجيع الحركة الفلسفية. . . كالذي نجده عند العباسيين مثلاً»[3]، ومن إسهامات الخليفة عمر بن عبدالعزيز في هذا المضمار أن أمر الطبيب ماسرجويه بترجمة كناش في الطب لأهرن القس من السريانية إلى العربية، ويوضح ابن النديم ذلك بقوله: «ماسرجويه الطبيب البصري كان إسرائيلياً في زمن عمر بن عبدالعزيز، وكان عالماً بالطب، وهو الذي تولى لعمر بن عبدالعزيز ترجمة

---

(1) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي ص 194، وكرر ذلك في كتابه: عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص 97 ـ 98، وتاريخ العلوم عند العرب ص 42.

(2) الفهرست ص 242، والسيوطي: صون المنطق ص 9.

(3) فجر الإسلام ص 164 ـ 165.

كتاب أهرن في الطب، وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة»[1].

ولم يُعرف من الخلفاء الأمويين بعد عمر بن عبدالعزيز، من اهتم أو عُني بأمر العلم والترجمة، وقد توقفت هذه الحركة حتى مجيء العباسيين الذين أعطوها دفعاً واهتماماً كبيرين.

الترجمة في العصر العباسي في القرن الثاني الهجري:

1 ـ زمن المنصور: (136 ـ 158 هـ/ 753 ـ 774 م):

لقد تميز هذا القرن بنشاط حركة الترجمة وازدهارها، على يدي خليفتين اهتما بالعلم والعلماء هما: المنصور والرشيد، وإن كانت جهودهما لم تبلغ ما بلغته الترجمة في القرن الثالث على يدي المأمون.

عُرف عن المنصور[2] ميله إلى علم النجوم، وقد شجع المترجمين على ترجمة الكتب التي تبحث في علم النجوم، وأولاها من عنايته ورعايته، قال المسعودي يصف أمر المنصور في هذا: «وكان المنصور أول خليفة قرَّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نوبخت المجوسي المنجم، وأسلم على يديه، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الإسطرلابي المنجم»[3]، وترجمت في زمن المنصور كتب أرسطو في المنطق، يقول المسعودي أيضاً: «وكان المنصور أول خليفة ترجمت له كتب أرسطوطاليس من المنطقيات وغيرها»[4].

---

(1) الفهرست ص 142 ـ 143، وانظر ـ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 112 ـ 113، القفطي: تاريخ الحكماء ص 324.

(2) أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ولد سنة 95 هـ/ 713 م بأرض الشام، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة 136 هـ/ 753 م وتوفي سنة 158 هـ/ 774 م.

(3) مروج الذهب: 4/ 241 ـ 242.

(4) السابق والصفحة.

كانت عناية المنصور بالعلم والعلماء نابعة من ميله إلى العلم، فقد كانت له عناية وبراعة في الفقه ورواية الحديث والفلسفة والأدب والنجوم، يعزز هذا ما ذكره صاعد الأندلسي في قوله: «إن الخليفة المنصور كان أول من عنى من خلفاء بني العباس بالعلوم، فكان مع براعته في الفقه وتقدمه في علم الفلسفة، وخاصة في علم صناعة النجوم كلفاً بها وبأهلها»[1].

وترجمت في زمن المنصور كتب عدة، على قدر كبير من الأهمية، من ذلك:

1 ـ كتاب كليلة ودمنة، الذي ترجمه من الفارسية عبدالله بن المقفع، ويُعَرِّف به صاعد الأندلسي في قوله: «ومما وصل إلينا من علومهم (أي الهنود) في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس كتاب (كليلة ودمنة) الذي جلبه برزويه الحكيم الفارسي من الهند إلى أنو شروان بن قباذ بن فيروز، ملك الفرس، وترجمه له من الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه في الإسلام عبدالله بن المقفع الخطيب من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وهو كتاب عظيم الفائدة شريف الغرض جليل المنفعة»[2].

2 ـ كتاب السند هند، وهو في علم النجوم، وفيه يقول صاعد الأندلسي: «في سنة ست وخمسين ومائة قدم على الخليفة المنصور رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بـ(السند هندي) في حركات النجوم... فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتاباً تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون بالسند هند الكبير، فكان أهل ذلك الزمان يعملون به حتى أيام الخليفة المأمون»[3].

3 ـ وكتب أرسطو في المنطق، وهي: كتاب (قاطوغورياس)، وكتاب

---

(1) طبقات الأمم ص 63 ـ 64، وانظر أيضاً ـ الدميري: حياة الحيوان 1/75، 84، وابن كثير: البداية والنهاية 9/126، وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 246.

(2) طبقات الأمم ص 17.

(3) طبقات الأمم ص 66، القفطي: تاريخ الحكماء ص 270.

(باري ارمنياس)، وكتاب (أنالوطيقا)، وترجمها عبدالله بن المقفع[1].

4 ـ وكتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب إقليدس، ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان، وهو في مبادىء الهندسة[2].

5 ـ وكتاب الأثماطيقي، وغيرها من الكتب في النجوم والحساب والطب والفلسفة، ويذكر عن المنصور أنه قد نظر في العلم وروى الحديث، وكثرت علوم الناس ورواياتهم في أيامه[3].

وقد لمع مجموعة من المترجمين في زمن المنصور، منهم: عبدالله بن المقفع، وهو من أوائل المترجمين في هذا العصر الذي ترجم كتب المنطق، وأبو يحيى البطريق، وقد أمره المنصور بنقل أشياء من الكتب القديمة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس[4]، ونقل كذلك كتاب المقالات الأربع لبطليموس في التنجيم[5]، وابنه يحيى بن البطريق الذي ترجم كتاب أرسطو، وهو كتاب السياسة في التدبير والرياسة، وكان كما يصفه ابن جلجل: أميناً على الترجمة حسن التأدية للمعاني وترجم كثيراً من كتب الأوائل[6]، والطبيب جورجيس بن جبرائيل بن بختشيوع النسطوري، استدعاه المنصور وأحسن إليه، ونقل الكتب الطبية إلى العربية[7]، ومن النقلة في هذا العصر أيضاً الحجاج بن يوسف بن مطر، وهو الذي نقل أصول الهندسة الإقليدس، وقد نقل هذا الكتاب نقلين،

---

(1) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 65، القفطي: تاريخ الحكماء ص 220.

(2) ينظر فيه ـ ابن خلدون: المقدمة ص 485 ـ 486، فيليب حتي: صانعو التاريخ العربي ص 123.

(3) ينظر اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم ص 23، ابن خلدون: المقدمة ص 479 ـ 480.

(4) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2/174، حاجي خليفة: كشف الظنون 2/682.

(5) ابن النديم: الفهرست ص 273، 293.

(6) طبقات الأطباء والحكماء ص 67، وينظر فيه أيضاً القفطي: تاريخ الحكماء ص 379، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/174.

(7) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/171.

الأول ويُعرف بالهاروني (نسبة إلى هارون الرشيد)، والثاني ويُعرف بالمأموني (نسبة إلى المأمون)، وعليه يُعَوَّل[1]، وقد ترجم هؤلاء النَّقَلة من اللغات: اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية إلى العربية.

وهكذا كان زمن المنصور زمن ازدهار العلم والترجمة، إلا أن هذه الحركة العلمية المزدهرة لم تتصل في زمن الخليفتين الذين أعقبا المنصور وهما المهدي (158 ـ 169 هـ/ 774 ـ 785 م) والهادي (169 ـ 170 هـ/ 785 ـ 786 م)، فلم يعرف عنهما اهتماماً بالعلم والعلماء إلا فيما ندر، ولكن هذا الفتور الذي دام اثنتي عشرة سنة أعقبه ازدهار آخر في زمن الخليفة هارون الرشيد.

2 ـ الترجمة زمن هارون الرشيد: (170 ـ 193 هـ/ 786 ـ 808 م)

وإذا كانت الترجمة قد أصابها الفتور في زمن المهدي والهادي، فإنها في زمن الرشيد قد عادت إلى قوتها وازدهارها وزادت نماء وعطاء، ذلك أن الرشيد نفسه كان على قدر كبير من العلم والمعرفة، ومعنياً بالعلم وراعياً للعلماء، يقول الدميري: «وكانت للرشيد معرفة جيدة بالعلوم»[2]، ويقول ابن دحية الكلبي: «وكان الرشيد من أهل العلم متضلعاً في الأدب ويزور العلماء»[3]، ومن اهتمام الرشيد بالعلم أنه كان يرحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزائن المصريين كما ينص على ذلك السيوطي[4]. وقد أحاط الرشيد نفسه بجمهرة من العلماء والمترجمين ورعاهم وأغدق عليهم، وبذلك ينوه آدم متز في أثناء حديثه عن ابن عبَّاد وزير بني بويه بالري، يقول: «وكان من الأدباء ومن المعنيين بأهل الأدب، وقد شبهه مادحوه بهارون الرشيد، ذلك لأنه أشبه بالرشيد بأن جمع حوله أحسن

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 252، 265، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/ 172.

(2) حياة الحيوان 1/ 76.

(3) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص 36.

(4) حسن المحاضرة 2/ 26، وتاريخ الخلفاء ص 115، وينظر كذلك: ابن العماد: شذرات الذهب 1/ 334 ـ 335، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 109.

أهل اللسن»[1].

وقد نشطت حركة التأليف والترجمة في عصر الرشيد، كما ازدهرت الحضارة ازدهاراً كبيراً حتى سُمِّي عصره بحق بالعصر الذهبي، ومما ساعد على ازدهار حركة التأليف والترجمة تصنيع الورق وانتشاره في هذا الوقت، فقد رخص ثمنه وخف حمله وتيسرت الكتابة فيه، بعد أن كانت الكتابة في قراطيس البردي وفي الجلود، يقول القلقشندي: «لما ولي الرشيد الخلافة كثر الورق وفشا عمله بين الناس، وأمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق بإنه متى مُحي منه فسد، وإن كُشط ظهر كشطه، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب وبعد، واستمر الناس على ذلك إلى الآن»[2].

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية أيضاً تأليفاً وترجمة، ما كان يغدقه الرشيد على العلماء من هبات وجوائز، وخاصة أولئك الذين ينقلون العلوم اليونانية، ومن مآثره أيضاً أنه أرسل الرسل إلى بلاد الروم لشراء الكتب اليونانية، ومما عزز حركة الترجمة في هذا العصر كذلك نشاط بعض الأسر العلمية في دفع حركة الترجمة وإثرائها، من ذلك نشاط يحيى بن خالد البرمكي أنه قد سعى في تعريب بعض الكتب الفارسية واليونانية، مثل كتاب كليلة ودمنة، وكتاب المجسطي[3]، وكان يحيى قد أرسل إلى ملك الروم الهدايا ليحصل على الكتب اليونانية، وقد وفق في الحصول على بعض تلك الكتب، والمعروف عن يحيى أنه كان يحب الحكمة والكلام والنظر، وفي أيامه كثر المتكلمون وجادلوا وناظروا ووضعوا الكتب[4]. لقد ساعد البرامكة في نقل الذخائر النفيسة من الرومية واليونانية والفارسية والهندية إلى العربية، وقد أعادوا ترجمة بعض

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/172.
(2) صبح الأعشى 2/475 ـ 476.
(3) السيوطي: صون المنطق ص 6 ـ 9، البغدادي: خزانة الأدب 3/232.
(4) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم ص 25، ابن قتيبة: عيون الأخبار 2/20، المسعودي: مروج الذهب: 3/279.

الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم، بحيث تكون أكثر دقة واتقاناً، مثل كتاب المجسطي لبطليموس الذي كان قد ترجم في زمن المنصور ثم أعادوا ترجمته في هذا العصر[1]، وكذلك أسهمت في الحركة العلمية أسرة بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع، وكانوا يترجمون من الاغريقية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية، ثم صارت بعد ذلك من الإغرقية إلى العربية مباشرة[2].

لقد كان عصر الرشيد والمنصور من قبله، قد مهدا الطريق إلى انتشار الترجمة وقيامها على أسس متينة راسخة، مما هيَّأ لعصر المأمون أن ينهض بالترجمة وتبلغ أوج نضجها وازدهارها وانتشارها، وكان لكل عصر من هذه العصور بما فيها العصر الأموي، دوره ومكانته وإسهاماته التي لا تبخس، وقد أسهم رجال العصر خلفاء وعلماء في إرسال البعثات للحصول على المخطوطات ورعاية العلماء والمترجمين والبذل بسخاء في سبيل ذلك.

3 ـ الترجمة في زمن المأمون: (198 ـ 218 هـ/ 813 ـ 833م)

عصر المأمون هو عصر العلم والتأليف والترجمة، والازدهار الثقافي والحضاري، فقد كانت العصور الأولى الأموية والعباسية في حقيقتها مقدمات وإرهاصات لهذه الحركة العلمية، وقد بلغت الحركة العلمية أوجها في عصر المأمون وكان المأمون نفسه عالماً محباً للفلسفة والعلوم، يرعى العلماء ويجلهم ويبذل في سبيل العلم والعلماء أموالاً سخية، كان ذا شغف بالعلم وثقافة واسعة، وصفه ابن دحية الكلبي بقوله: «والمأمون العالم المحدث النحوي اللغوي. . . وكان يجلس مع العلماء والمتعلمين في مجلسه من أول النهار إلى آخره، يتناظرون بين يديه، فيرشدهم ويمدهم بالأموال والكتب، ويتفقدهم إذا

---

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص 112، محمد برانق: البرامكة في ظل الخلفاء ص 105، عبدالحميد العبادي: صور وبحوث في التاريخ الإسلامي ص 128.

(2) أوليري: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ص 207 ـ 208، وأوليري: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ص 228 ـ 229، جرجي زيدان: التاريخ العام 1/ 117.

غابوا عنه، ويزورهم في بيوتهم، مع كثرة العطاء والرغبة في حسن الثناء. . »[1]. وأشاد ابن النديم بمكانة المأمون العلمية، وذكر له بعض المؤلفات، قال: «وكان المأمون أعلم الخلفاء بالفقه والكلام، وكان دون أخيه محمد بن زبيدة في الفصاحة، وله من الكتب: رسالته في حجج مناقب الخلفاء بعد النبي ﷺ، ورسالته في اعلام النبوة»[2]، وقد لفتت ثقافة المأمون واهتماماته العلمية القدماء والمحدثين، حتى لقبه أحد الدارسين المحدثين بأغسطس العرب، يقول تايلور: «إن مجد الرشيد قد فقد رونقه بسبب ولده المأمون الذين يمكننا أن نصف عصره بعصر أغسطس العرب»[3].

وقد كان هذا القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) من أعظم العصور حيوية بالنسبة للترجمة، وكان أغلب المترجمين من النساطرة المسيحيين، ممن اتقنوا اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية والعربية، وكانت الترجمة أول الأمر من الإغريقية إلى السريانية ثم إلى العربية، ثم صارت من الإغريقية إلى العربية مباشرة[4]، وكانت الترجمات السريانية تعد للتلاميذ النصارى والأصدقاء خاصة، وأما الترجمات العربية، فهي تُعَدُّ للخلفاء والوزراء والذوات النابهين من العرب الذين أحبوا الثقافة ولهم ميول علمية[5].

وإذا كان القرن الثالث هو قرن الترجمة الذهبي، فإن الفضل في ذلك يعود إلى المأمون شخصياً، وقد ارتبطت هذه الحركة باسمه وبعصره، أما ما تلاه من عصور الخلفاء العباسيين، فلم يكن للترجمة شأن كبير، وإذا استثنينا عهد

---

(1) ابن دحية الكلبي: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص 46 ـ 48، وينظر ـ الحنبلي: شذرات الذهب 2/39، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 235.

(2) الفهرست ص 116.

(3) Taylor: The History of Mohammedanism and its Sects, p 258.

وينظر ـ خدا بخش: الحضارة الإسلامية ص 162 ـ 165.

(4) Arnold: The Legacy of Islam, p 316.

(5) ستودارد لوثروب: حاضر العالم الإسلامي 1/106، الجميلي: حركة الترجمة ص 100، العلوجي: تاريخ الطب العراقي ص 19.

المتوكل (232 ـ247 هـ/ 847 ـ 862 م) الذي كان له اهتمام نسبي بالترجمة والعلوم، فإن عهد من تلا المأمون من الخلفاء، وهما المعتصم (218 ـ 227 هـ/ 833 ـ 842م)، والواثق (277 ـ 232هـ/ 842 ـ 847 م)، فلم يكن للترجمة في عصرهما شأن يذكر، فقد انصرف هذان الخليفتان عن العلم والعلماء، ولم يكن لهما الاستعداد العلمي والثقافي والعقلي الذي كان لدى المأمون، وقد عُدَّ عصر المأمون حداً فاصلاً بين مرحلتين، مرحلة التكوين، ومرحلة الانحدار، وقد تنبه القدماء لذلك، وسجل السيوطي هذه الملاحظة بقوله: «وكان يقال لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة، فالفاتحة السفاح، والواسطة المأمون، والخاتمة المعتضد»[1]، ومعنى هذا أن عصر المأمون هو عصر النضج العلمي ونقل العلوم، وقد ذهب إلى مثل هذا المستشرق أوليري الذي يقول: «ففي حكم المأمون حيث تركز عمل الترجمة في مدرسة أسست حديثاً في بغداد، وبُذل جهد دائب لجعل المادة الضرورية للبحث الفلسفي والعلمي في متناول الطالب الذي يتكلم العربية»[2].

والملاحظ أن الترجمة في العصر العباسي الأول قام بها مترجمون من غير المسلمين ـ من أهل الكتاب ـ، فلما كان العصر العباسي الثاني، ازدهرت الترجمة في القرن الثالث، وبرز العرب والمسلمون وأبدعوا في هذا المضمار، وكان في طليعة أولئك العلماء والمترجمين العالم الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (توفي حوالي سنة 252 هـ/ 866 م)[3]، والطبيب البارع حنين بن إسحاق العبادي (194 ـ 260 هـ/ 809 ـ 873 م)، وقد كان كل منهما ضليعاً متمكناً من اللغات: العربية واليونانية والسريانية والفارسية، وإذا كان هذان العالمان يجيدان لغات عدة، فإن هناك من المترجمين في هذا العصر من برع في لغة أجنبية واحدة ينقل منها إلى العربية، من أولئك المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية: عمر بن الفرخان الطبري، وسلم صاحب بيت الحكمة، وسهل بن

(1) تاريخ الخلفاء ص 121.

(2) Arabic Thought, p 105.

(3) المقابسات ص 85.

هارون، وعرف من المترجمين من اللغة اليونانية إلى العربية: حنين بن إسحاق العبادي، ويعقوب بن إسحاق الكندي، ومن المترجمين من اللغة السريانية إلى العربية إسحاق بن حنين، وحُبيش بن الحسن الأعسم وغيرهم(1).

لقد تميز عصر المأمون هذا بمنجزات علمية كبيرة، فقد ترجمت إلى العربية أمَّات(2) الكتب اليونانية في مجال الفلسفة والفلك والطب والرياضيات والجغرافية، وغير ذلك، وقد كان لبيت الحكمة في هذا العصر أثر وخطر في ازدهار الترجمة والحركة العلمية بعامة، ولذلك يصح أن يقال إن القرن الثالث هو عصر الترجمة والمترجمين(3)، وقد ترجمت في هذا العصر كتب كثيرة في مختلف العلوم، من فلك وطب وفلسفة، ففي الفلك نقل المجسطي لبطليموس، وكان هذا الكتاب قد ترجم أولاً في عهد المنصور، ثم ترجم ثانية في عهد هارون الرشيد، وبإشراف يحيى بن خالد البرمكي، فلما جاء المأمون أمر بإصلاح هذا الكتاب وترجم مرة أخرى ترجمة أجود من الأولى، وعرفت الترجمة الأولى التي في زمن الرشيد باسم (الهارونية)، والثانية التي في زمن المأمون باسم (المأمونية)(4). وفي مجال الطب نقلت كتب أبقراط وجالينوس، وفي المنطق نقلت كتب أرسطو أيضاً، ونقلت كذلك بعض محاورات أفلاطون وجوامع جالينوس على المحاورات، وبعض كتب أفلاطون في السياسة(5).

كانت جهود المأمون ومن معه من المعنيين بالعلوم ونقلها إلى العربية، من الوزراء وأصحاب اليسار، في الحصول على كتب العلوم من بلاد الروم

(1) Arbuthnot: Arabic Authors, pp. 90 - 91. and see: Gilman, Arthur: The Saracens from the Earliest Times to the fall of Baghdad, pp. 388 - 389.
(2) أمَّات: لغير العاقل هنا، أفصح من أمهات التي للعاقل.
(3) ماكس مايرهوف: من الاسكندرية إلى بغداد، ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ـ عبد الرحمن بدوي ص 57 ـ 58، وينظر الجميلي: حركة الترجمة ص 104 ـ 105.
(4) ينظر سيديو: تاريخ العرب العام ص 387 ـ 388.
(5) محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام 1/87، 88، 92.

خاصة، قد كللت بالنجاح، فمعروف أن المأمون كان يراسل ملك الروم، وكتب إليه يسأله الإذن في إرسال مجموعة من كتب العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم، فأجاب ملك الروم إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة من المترجمين، منهم: الحجاج بن مطر وابن البطريق وسَلم صاحب بيت الحكمة، وغيرهم، فاختاروا مما وجدوا، فلما حملوه إلى المأمون أمرهم بنقله فنُقِل[1]. وكذلك فعل أصحاب اليسار من المعنيين بالعلم فأرسلوا وفوداً من النصارى إلى الامبراطورية الرومانية الشرقية للبحث عن الكتب والمؤلفات النفيسة، وتكللت جهودهم بالنجاح، فحصلوا على كتب مهمة نقلوها إلى العربية[2].

لقد كان المأمون شغوفاً بالعلم وحريصاً على نقل العلوم، ولم يكن اهتمامه قاصراً على حقل بعينه، بل شمل كل مجالاته، ولعل اهتمامه بعلم الفلك كان غالباً، ولذلك كانت عنايته بكتاب المجسطي وإعادة ترجمته، ومن ثم أمر العلماء أن يقيموا مرصداً فلكياً لقياس الكواكب ومعرفة أحوالها، كما فعل بطليموس، وقد تحدث صاعد الأندلسي عن اهتمام المأمون بعلم الفلك وجهوده في ذلك فقال: «ولما أفضت الخلافة إلى عبدالله المأمون، وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به هِمَّته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف علماء وقته على كتاب المجسطي، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه... جمع المأمون علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا بها أحوالها، كما صنع بطليموس ومن كان قبله، ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بمدينة الشمَّاسية[3] من بلاد دمشق من أرض الشام، سنة أربع عشرة ومائتين، فوقفوا

(1) ابن النديم: الفهرست ص 243، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/143.

(2) جوزيف هل: الحضارة العربية ص 107.

(3) الشمَّاسية: محلة في دمشق، والشماسية أيضاً في مدينة بغداد مجاورة لدار الروم، وإليها ينسب باب الشماسية، وسميت الشماسية نسبة إلى شمَّاسي النصارى. ياقوت: معجم البلدان (الشماسية).

على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها وخروج مركزها ووضع أوجها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقي الكواكب من السيارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين (سنة 833 م)، فقيدوا ما انتهوا إليه وسموه الرصد المأموني، والذي تولى ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره، وخالد بن عبد الملك المروزي، وسند بن علي، والعباس بن سعيد الجوهري، وألف كل واحد منهم في ذلك زيجاً منسوباً إليه موجوداً في أيدي الناس إلى اليوم[1]، فكانت أرصادهم أول أرصاد كانت في مملكة الإسلام»[2]، وقد عمل محمد بن إبراهيم الفزاري كتاباً يسميه المنجمون (السند هند الكبير)، وكان يُعْمَل به في ذلك الزمن إلى أيام المأمون، فاختصره أبو جعفر بن موسى الخوارزمي وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام[3].

ومن العلوم التي أولاها المأمون عنايته فازدهرت في عهده، الفلسفة، وعلى الرغم مما كان يشعر به عامة المسلمين من نفور وبغض لعلوم الفلسفة، لظنهم أنها تتعارض مع الدين، فإن المأمون كان حريصاً على نقل كتب الفلسفة اليونانية والاشتغال بها، وهناك جملة أسباب حفزت المأمون على طلب هذا العلم، منها سبب ظني خرافي ليس له سند من المنطق، وهو ما ذكره ابن النديم: «أحد الأسباب في ذلك أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً بالحمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد مُلِئتُ له هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطوطاليس، فسررت به، وقلت:

---

(1) أي إلى زمن المؤلف صاعد الأندلسي المتوفى سنة 462 هـ/ 1069 م.

(2) طبقات الأمم ص 67، وينظر في هذا المرصد أيضاً: تاريخ الحكماء ص 270 ـ 271، والأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 187، والقلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة 1/ 209، وابن خلدون: المقدمة ص 487 ـ 488.

(3) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 65 ـ 66، وينظر البيروني: تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ص 201.

أيها الحكيم أسألك، قال: سَلْ، قلت: ما الحُسْنُ؟ قال: ما حَسُنَ في العقل، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. . . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب»[1]، يعني كتب اليونان، وإذا صحت هذه الرواية فإن المأمون ما كان ليرى مثل هذا المنام لو لم يكن مشغول الذهن بعلوم الفلسفة، ولم تكن الفلسفة بعيدة عن أذهان المسلمين، فقد عرفوها في زمن مبكر، منذ زمن المنصور والرشيد، بل هناك من يذهب إلى أن المسلمين عرفوا الفلسفة من العالم القديم الذي فتحه المسلمون، حيث كان العلم اليوناني منتشراً في إيران قبل العهد الإسلامي[2]، وقد عرف المسلمون أفلاطون وأرسطو، وترجمت بعض الكتب الفلسفية زمن المنصور والرشيد، وكان المأمون على اطلاع بما ترجم من الكتب، وبما كان يحدثه العلماء في مجالسه، والفلسفة سلاح في المناظرة والجدل، وكان المأمون يميل إلى الجدل والمناظرة، وكانت تقام المناظرات في حضرته، وكان الجدل والمناظرة من سلاح المعتزلة، وقد تبنى المأمون أفكار المعتزلة ورعاها وفرضها على الناس فرضاً، ووجدوا في الفلسفة ما يؤيد حججهم ويعزز آراءهم، وإلى ذلك ذهب بعض الباحثين، منهم فيليب حِتِّي الذي يقول: «ولما كان المأمون يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين أحكام العقل، انصرف إلى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطلاع فيها على ما يؤيد آراءه»[3]، ويوضح عبدالعزيز برهام هذه المسألة أكثر فيقول: «لقد وصل النفوذ الإغريقي أقصاه في عهد المأمون، كان المأمون ينصر طائفة المعتزلة التي تقول باتفاق النصوص الدينية مع أحكام العقل، وكان لذلك يدعو إلى التحرر الفكري ويحاول أن يجد أدلة تؤيد هذه النظرية في المراجع الفلسفية الإغريقية، وقد استولت هذه المسألة على جميع مشاعره، حتى ليقال إنه كان يحلم بها، وإنه

---

(1) الفهرست ص 243.

(2) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص 76، علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 1/10ـ71.

(3) العرب: تاريخ موجز ص 118 ـ 119.

رأى أرسطو في منامه يقول له إنه لا يوجد خلاف حقيقي بين الدين والعقل»[1].

ولم يقتصر اهتمام المأمون على الفلك والفلسفة، بل شمل بقية العلوم ومنها الطب، فقد شجع المترجمين لترجمة الكتب الطبية وبذل لهم الأموال بسخاء، وفي زمن المأمون هذا نبغ حنين بن إسحاق الذي كان له باع كبير في الترجمة، فنقل ما استطاع من كتب أبقراط وجالينوس إلى العربية والسريانية، وكذلك فعل غيره من المترجمين[2].

وهكذا نجد أن عصر المأمون كان عصر العلم والترجمة والتأليف والأدب، وبلغت الحياة العلمية أوج ازدهارها، وأتيح للمسلمين في هذا العصر ما لم يُتَح لهم في العصور السابقة واللاحقة، فقد كان المأمون مستنيراً أكرم العلماء وقربهم وحضر مجالسهم وشارك في مناظراتهم، وقد نقلت في هذا العصر علون اليونان والرومان والفرس والهند والصين، وصار مركز الخلافة حاضرة العلم في ذلك الزمان، فبالإضافة إلى علوم العرب الموروثة من تاريخهم ولغتهم ودينهم، فإنهم حازوا كذلك علوم الشرق والغرب، وصارت بغداد خاصة حاضرة العلم والعلماء ومركز الحضارة في العالم، ولمن يكن هناك حضارة تنافسها أو تدانيها، ففي الوقت الذي كان المسلمون يبذلون المال بسخاء لاستقدام الكتب من الشرق والغرب، كان ملوك الروم وبطارقتهم يخشون من كتب الفلسفة ويمنعون الناس عنها، وكانوا يخافون أن تقع هذه الكتب بأيدي النصارى فيقرأونها، ويكون ذلك ـ كما يظنون ـ سبباً في هلاك دينهم وتبديد جماعتهم، قال السيوطي ذاكراً سبب إخراج الكتب من أرض الروم إلى بلاد الإسلام: «وكان ملك الروم قد خاف على الروم إن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية، وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم، فجمع الكتب في موضع وبنى عليه بناء حتى لا يوصل إليها»، فلما علم بذلك خالد بن يحيى، أرسل إلى ملك الروم يلتمس منه تلك الكتب،

---

(1) الفكر الإسلامي الحر وآثاره في النهضة العلمية الأوربية ص 30 ـ 31، والجميلي: حركة الترجمة ص 112 ـ 113.

(2) ابن جعفر الطبيب المصري: الكتاب النافع ورقة 4.

وصانعه بالهدايا والرسائل، وقال له: حاجتي الكتب التي تحت البناء، يرسلها إليَّ أخرج منها بعض ما أحتاج وأردها إليه، «فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحاً، وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان، وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربي أنه لا يخلو من حاجة، وقد أفصح بحاجته، وهي أخفُّ الحوائج عليَّ، وقد رأيت رأياً فاسمعوه، فإن رضيتموه أمضيته، وإن رأيتم خلافه تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا، فقالوا: وما هو؟ قال: حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما أحبَّ ويردها، قالوا: فما رأيك؟ قال: قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلنا إلا أنه خاف إن وقعت في أيدي النصارى وقرأوها كان سبباً لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم، وأنا أرى أن أبعث إليه وأسأله أن لا يردها، يبتلون بها ونسلم نحن من شرها، فإني لا آمن أن يكون بعدي من يجترىء على إخراجها للناس فيقعوا فيما خيف عليهم، فقالوا: نعم الرأي رأيت أيها الملك فامضه، فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد»[1]. كان هذا في زمن الرشيد، وقد زاد الأمر لدى المسلمين ازدهاراً في زمن المأمون، وزاد أمر العلم سوءاً وظلاماً لدى الروم.

وبعد وفاة المأمون، جاء إلى الخلافة المعتصم ثم الواثق، ولم يشهد عصر هذين الخليفتين حركة علمية أو تشجيعاً للعلماء والمترجمين حتى تستمر الحركة مزدهرة، ومعنى هذا أن نشاط الترجمة كان ضئيلاً، وحقاً إن الحضارة لا تموت بموت الأفراد، ولكنها تزدهر في حياة الحكام العلماء والباذلين في سبيل العلم والعلماء، وإذا كانت خلافة المعتصم المعروف بميوله العسكرية، والواثق المعروف بانصرافه عن العلم والفلسفة، قد أصاب الترجمة فيهما ركوداً وانحساراً، فإن هذه الحركة تنشط وتتنفس في زمن المتوكل ـ وأن لم تبلغ ما بلغته زمن المأمون ـ فقد جدد المتوكل نشاط المكتبة والترجمة في بغداد (حوالي سنة 241 هـ/ 856 م)، من ذلك أن المتوكل مدَّ حنين بن إسحاق بالمال فانطلق حنين يجوب الآفاق للبحث عن المخطوطات، وتجول في بلاد ما بين النهرين

(1) صون المنطق ص 6 ـ 9، وينظر أيضاً البغدادي: خزانة الأدب 3/232، حاجي خليفة: كشف الظنون 2/1508.

وسوريا وفلسطين ومصر حتى وصل إلى الإسكندرية وعاد إلى بغداد، محملاً بما وجده من الكتب لينقلها إلى العربية[1].

وإذا كان المأمون قد عرف بعلمه وثقافته ورعايته العلم والعلماء، فإن المتوكل لم يعرف بالعلم، ولكنه عَوَّض عن ذلك برعايته العلماء وبذله وسخائه في سبيل العلم، فقد أغدق على المترجمين أموالاً كثيرة، من ذلك أنه أهدى إلى حنين بن إسحاق (ت 264 هـ/ 877 م) ثلاث دور من دوره، وحمل إليها كل ما يحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب والستائر الأنيقة، وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً قدره خمسة عشر ألف درهم، بالإضافة إلى خدم من الروم، وأسبغ على أهله الأموال والخلع والإقطاعات[2].

وقد أسهم الوزراء في دفع حركة الترجمة في هذا العصر وما تلاه، بما كانوا يغدقون على المترجمين من أموال كثيرة، وكان بعض المترجمين يهدون ترجماتهم وبعض مؤلفاتهم إلى الوزراء، من ذلك أن قسطا بن لوقا أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين، كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[3]، وكان إسحاق بن حنين منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[4]، وكان ثابت بن قرَّة منقطعاً إلى إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد، وقد ألَّف له مقالة في الهندسة[5].

وكان هناك أفراد وأسر شغفوا بالعلم وتنافسوا في حماية الترجمة وتشجيع المترجمين، من مثل علي بن يحيى المنجم صاحب خزانة بيت الحكمة، وأحمد بن المدبر[6]، ومن الأسر التي رعت العلم والترجمة أسرة بني موسى بن

---

(1) Arnold: The Legecy of Islam (Science and Medicine) by max mayerhof, p. 318.

(2) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص 270، وينظر شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ص 131.

(3) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 330.

(4) السابق ص 274.

(5) السابق ص 300.

(6) السابق ص 283، القفطي: تاريخ الحكماء ص 132.

شاكر[1]، وهم: محمد والحسن وأحمد، وكان محمد والحسن مولعين بالهندسة، وأولع أحمد بعلم الحيل (الميكانيكا)، وكان لهم مرصد أقاموه على نهر دجلة، وكانوا يغدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين، منهم حنين بن إسحاق، وابن أخته حُبَيْش، وثابت بن قُرَّة، ويقال إن الرواتب كانت تبلغ خمسمائة دينار كل شهر[2]، وقد أثمر هذا التشجيع والإنفاق على الكتب والمترجمين، فأقبل العلماء والمترجمون على الكتب يترجمونها أو يلخصونها أو يشرحونها، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة مجموعة كبيرة بلغت المئات من الكتب والرسائل المترجمة والمؤلفة في هذا العصر.

4 ـ الترجمة في القرن الرابع:

وإذا كانت القرون السابقة قد اقترنت فيها الترجمة بالخلفاء ورعايتهم للعلم والعلماء، فأن هذا القرن هو قرن النكوص السياسي، فلم يكن هناك خليفة له حول وصول ليرعى العلم ويحظى مجلسه بالعلماء، ولكن لمعت بعض الأسر العلمية التي رعت حركة الترجمة والتأليف، وعوضت عن خمول الخلفاء وهوانهم.

لقد تميز هذا القرن الرابع بميزتين متناقضتين لم تكونا في القرون السابقة، الأولى ميزة السقوط والتدهور السياسي والاجتماعي، والثانية الازدهار العلمي في مجالي الترجمة والتأليف، فأما الحياة السياسية فكان فسادها ظاهراً، فقد خبا سلطان الخلافة في بغداد وسيطر رجال القصر ونسائه على الخلفاء المستضعفين، وصاروا يتحكمون بهم ويعبثون بمقدرات الخلافة، وساموهم ضروب الذل والهوان، وتفككت الدولة واضطرب حبل الأمن، واستقلت الأطراف البعيدة، وطمع الطامعون في السلطة، فاستقلوا بالحكم، وعبثوا بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، وعمّت الفوضى وساد الاضطراب، وفي هذا

(1) ينظر فيهم ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص 260، ابن النديم: الفهرست ص 392، القفطي: تاريخ الحكماء ص 315 ـ 441.
(2) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص 260.

يقول القفطي: «واستولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه»[1]، ولم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر، فقد أصبح الترك والنساء والجند هم الذين يُصَرِّفون أمور الدولة، وعمَّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزن لعهد الخليفة المتقي يُؤَمِّن لصاً فاتكاً هو حمدي، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر، ويستظهر ابن تغري بردى أن هذا اللص هو الذي سمي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الدنف، وقصته في ألف ليلة وليلة مشهورة»[2]، وقد بلغت الحالة من السوء أن صارت الأمور بيد النساء، فقد غلبت النساء على الحكم، فكنَّ كثيراً ما يصرفْنَه بحسب أهوائهن، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة، حتى يقال إن المستعين مات وفي خزائن الدولة خمس مئة ألف دينار، على حين كان في خزائن أمه ألف ألف دينار كاملة[3]، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال إن قُوَّاد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار، فلم يجدها في خزائن الدولة، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ حتى يفدي نفسه به من القتل، فأنكرت أن يكون عندها مال، وخُلع ابنها وقُتل بعد أيام، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف، وملأه العجب حين وجد في خزانة لها ألف ألف من الدنانير، غير جواهر قدرت قيمتها بألفي ألف دينار، ولما رأى وصيف ذلك قال: قبحها الله، عَرَّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها[4].

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ص 181.
(2) النجوم الزاهرة: 3/281، شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ص 25.
(3) الطبري: 9/284.
(4) الطبري: 9/395، النجوم الزاهرة 3/193.

أما شَغَب أم المقتدر، وهي أم ولد رومية، فكانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة، وكانت تستعين بقهرمانتها (ثمل)، وأقعدتها في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة[1]، وأثرت شغب حتى كان دخلها في العام من غلاَّت ضياعها ألف ألف دينار[2]، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها فاستخلصت ثمل منها ألف ألف دينار[3]، وكأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تتملكه أي وصيفة كما يقول شوقي ضيف[4].

وقد انفصلت الولايات في هذا العصر عن سلطان الخلافة، فأصبحت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي البويهيين، وصارت خراسان في يد السامانيين، وطبَرِسْتان وجُرْجان في يد الديلم، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي الحمدانيين، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر الجنَّابي القرمطي، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وأفريقية في يد القائم بأمر الله بن المهدي الفاطمي، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي، ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد، واستولى عليها البويهيون وخلعوا الخليفة المكتفي وولوا المطيع لله، وأصبحوا هم الذين يولون الوزراء والقضاء والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوف سلطان إسمي وأن يُدعى له على المنابر، وخُفِّضت نفقاته، وقُرِّرتْ له نفقة طفيفة[5].

وعلى النقيض من هذا كله كانت الحياة العقلية، إذ نجد كفتها ترجح وينهد مجموعة من العلماء المؤلفين والمترجمين فيصبغون الحياة العقلية بصبغة علمية وأدبية راقية ومزدهرة، وقد كثر التأليف والتصنيف في هذا القرن، وخاصة

(1) عريب: صلة تاريخ الطبري ص 50، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 3/193.
(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 3/239.
(3) عريب: تكملة تاريخ الطبري ص 31.
(4) العصر العباسي الثاني ص 24.
(5) السابق ص 26.

في العلوم الدينية واللغوية، أكثر من عنايتهم بالعلوم الرياضية والفلسفية، وفي هذا القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) أخذت الحركة العلمية في النضج، وصارت الترجمات مقرونة بالتعليقات والشروح، وبدأت المؤلفات في هذه المواضيع تظهر بصورة دراسات قصيرة في موضوعات محددة، ثم بشكل مؤلفات جامعة، فيها اقتباس واجتهاد وتحليل ونقد وتنظيم وتبويب واستنباط[1]، وإذا كانت القرون السابقة قد تميزت بنقل العلوم، فإن هذا القرن قد تميز بدراسة ما تُرجم، والتأليف في الموضوعات المترجمة والاجتهاد فيها والشرح والتعليق والاستنباط، وقد استوعب علماء هذا القرن كل العلوم النقلية والعقلية، فجمعوا بين تراث العرب والمسلمين، وتراث الأمم التي نقلوا عنها.

على أن حركة الترجمة في هذا القرن ظلت قوية مزدهرة، ففي مجال الفلسفة ترجموا أهم المصنفات اليونانية، من ذلك كتاب الجمهورية لأفلاطون والنواميس وطيماوس، وترجموا مؤلفات أرسطو في شروح تلامذته كثاوفرسطس الذي له كتاب ما بعد الطبيعة، مقالة نقلها أبو زكريا يحيى بن عدي[2]، والإسكندر الأفروديسي[3]، وقد ترجمت بعض شروحهما، ومن شراح مدرسة الإسكندرية فرفوريوس[4]، ويحيى النحوي[5]، وقد ترجم كثير من شروحهم إلى العربية وتداولها العلماء المسلمون، وقامت حولها المناقشات والتعليقات في هذا القرن الرابع[6]، ويلاحظ أن أكثر الكتب المترجمة في هذا القرن عن اليونانية هي كتب أرسطو أو المعزوة إليه، وكذلك مختصرات لها أو تفسيرات وشروح عليها[7].

---

(1) كمال اليازجي: معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ص 67 ـ 68.
(2) ابن النديم: الفهرست ص 252، القفطي: تاريخ الحكماء ص 106.
(3) القفطي: تاريخ الحكماء ص 54 ـ 55.
(4) ابن النديم: الفهرست ص 253، القفطي: تاريخ الحكماء ص 256 ـ 257.
(5) ابن النديم: الفهرست ص 254 ـ 255، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/3، 12، البيهقي: تتمة صوان الحكمة ص 23 ـ 25.
(6) أحمد أمين: ظهر الإسلام 2/127، جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 2/230.
(7) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص 37 ـ 38.

وتجذب جهود إسحاق بن حنين الأنظار في هذا العصر في ترجمة الكتب الفلسفية، وقد فاقت جهوده جهود أبيه حنين بن إسحاق الذي ترجم إلى السريانية والعربية كتب الطب والفلسفة[1]، وقد لمع في هذا القرن جمهرة من العلماء والنقلة أبرزهم:

متى بن يونس الذي عنى بترجمة آثار أرسطو في المنطق وغير المنطق، وقد ترجم له كتاب الشعر، وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين في عصره، وله مناظرة في المنطق والنحو مع السيرافي سنة 320هـ ذكرها ياقوت[2]. ولمع الخوارزمي محمد بن موسى الذي ابتكر علم الجبر وله شروح على كتاب إقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس في الجغرافية، وله في ذلك كتاب صورة الأرض، وقد برع الخوارزمي في الرياضيات والفلك، ومعه حبش الحاسب تلميذه في مرصد المأمون الذي له جداول فلكية مهمة، ومن الفلكيين النابهين في هذا العصر أيضاً أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني وله كتاب (أصول الفلك)، له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية، وله تأثير كبير على الأوربيين حتى عصر كوبر نيكوس[3]، وله كتب في الاسطرلاب. ومن الفلكيين الذين لهم شهرة واسعة أبو معشر الفلكي البخلي (ت 272 هـ/ 885 م) وله تأثير كبير في العرب ومسيحيي العصور الوسطى، وله كتب كثيرة ترجمت إلى اللغة اللاتينية[4]، ومن فلكيي هذا العصر النابهين الفضل بن حاتم النيرتزي (ت 310 هـ)، وكان متقدماً في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/200، البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص 18، ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/185، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 266، وينظر الجميلي: حركة الترجمة ص 130.

(2) إرشاد الأريب 8/180.

(3) الدومييلي: العلم عند العرب ص 167، وتنظر ترجمة الفرغاني في الفهرست ص 403، وتاريخ الحكماء ص 286.

(4) الدومييلي: العلم عند العرب ص 269، وتنظر ترجمة أبي معشر الفلكي في الفهرست ص 400، تاريخ الحكماء ص 152.

وله شروح على أصول إقليدس، وشروح على كتاب بطليموس في الفلك وزيج على مذهب الهند وكتابها (السند هند)، وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها، ومن الفلكيين النابهين أيضاً محمد بن جابر بن سنان البتَّاني (ت 317 هـ) «ولا يُعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها»، وكان له مرصد في الرَّقة على نهر الفرات، وله زيج جليل ضمَّنه أرصاد النيِّرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما في كتاب المجسطي لبطليموس، وتُرجم زيجه إلى اللاتينية، ولنلينو مقالة عنه في دائرة المعارف الإسلامية يبين فيها أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه[1].

أما في العلوم الطبية التي كانت حينئذ تشمل الصيدلة والكيمياء فقد نبغ مجموعة من الأطباء النابهين منهم سنان بن ثابت بن قرَّة الذي أسلم على يد القاهر وقد عاش حتى سنة 331 هـ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة 304 هـ، وبنى في سنة 306 هـ مارستانين كبيرين أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتي دينار في كل شهر، والثاني لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار، ومارستاناً آخر للوزير ابن الفرات سنة 311 هـ، ولبجكم حاكم بغداد سنة 329 هـ على الشاطىء الغربي لدجلة، وقد كثر المتطببون في هذا العصر حتى بلغ سنة 319 هـ في بغداد ثمانمائة رجل ونيِّفاً وستين سوى من كان في خدمة السلطان[2]. وأشهر أطباء المسلمين في هذا العصر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت 320 هـ) اشتغل بالعلوم الرياضية والكيمياء والطب وعمل في بيمارستان بغداد وتنقل في مدن إيران وخراسان وألف كتباً كثيرة تُرجم بعضها إلى اللاتينية وصار حجة في الطب حتى القرن السابع عشر، وله شهرة كبيرة في أوربا ولدى المستشرقين الذين عنوا بآثاره، ونُشر في باريس فهرس كتبه سنة 1933 م الذي ذكره البيروني وعرف منه أنه خلف 56 كتاباً في الطب و 33 كتاباً في الطبيعيات و 17 كتاباً في الفلسفة و 10 كتب في الرياضيات و 6 كتب في

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ص 136.
(2) ترجمة سنان بن ثابت في الفهرست ص 394، تاريخ الحكماء ص 300، عيون الأنباء ص 300، النجوم الزاهرة 3/193، 279.

الميتافيزيقيا و 8 كتب في المنطق و 14 كتاباً في علم الكلام و 23 كتاباً في الكيمياء، وأكبر كتبه في الطب كتابه (الحاوي) وهو دائرة معارف كبيرة تُرجمت أجزاء منه إلى اللاتينية، وكتابه (المنصوري)، الذي أهداه إلى المنصور بن إسحاق الأمير الساماني في خراسان، وترجم إلى اللاتينية، ومما يؤخذ عليه اتهامه بالزندقة، وقيل إنه تابع ابن الراوندي في إلحاده[1].

أما في الفلسفة فأكبر فيلسوف عربي مسلم في هذا العصر هو يعقوب بن إسحاق الكندي الذي لُقِّب فيلسوف العرب لأنه عربي أصيل من كندة نشأ في البصرة وأقام في بغداد ونشأ على الاعتزال ولذلك أفل نجمه فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل، ويبدو أنه عاش حتى أواخر القرن السادس من القرن الثالث، وخلف رسائل كثيرة بلغت المائتين والأربعين رسالة في العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب، وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثَّر في شعوبها تأثيراً عميقاً[2].

وكان آخر فيلسوف له أثر كبير في هذا العصر هو الفارابي أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان (ت 339 هـ)، ولد في فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر، ويقال إنه من أصل فارسي، رحل إلى بغداد وبرع في الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، وقد استطاع أن يوفق بين الدين والعقل، وقد عُدَّ الفارابي فيلسوف المسلمين، وقد اهتم بالمنطق وما يؤدي إليه من استنباطات كلية، مما جعله يعنى بشرح كتب المنطق عند أرسطو وتفضيل مسائله، وكان يميل في مباحثه إلى التصوف، وأشهر كتبه (آراء أهل المدينة الفاضلة)، ويصرح فيه بأن الحاكم ينبغي أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية، متجنباً

(1) ينظر في ترجمته وكتبه الفهرست ص 518، تاريخ الحكماء ص 271، دائرة المعارف الإسلامية (الرازي).

(2) ابن النديم: الفهرست ص 371، القفطي: تاريخ الحكماء ص 366، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص 285، دائرة المعارف الإسلامية (الكندي)، الدوميلي: العلم عند العرب ص 149، 153.

اللذات الجنسية، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها، فإذا كان خيِّراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة، وإذا كان شريراً فاسقاً انهارت المدينة وفسد الحكم فيها فساداً شديداً.

وفلسفة الفارابي فلسفة إسلامية عقلية، استمدت من روحانيات الإسلام، ومن نظريات العقل، ومن أفكار الفلاسفة، وخاصة أرسطو وأفلاطون، وقد مزج بين هذه العناصر جميعاً، واستخلص منها فلسفة إسلامية وسيطة[1].

وهكذا كانت حركة الترجمة والتأليف في هذا العصر مزدهرة، وقد ظهرت في الحياة الإسلامية حركة علمية جديدة طابعها إسلامي، ونبغ فيها علماء جمعوا بين العلوم الإسلامية النقلية وبين العلوم العقلية الدخيلة، وصارت لهم شخصيتهم الإسلامية المستقلة، وكان من أبرز هؤلاء العلماء الفارابي وابن سينا ومن على شاكلتهم.

---

(1) ينظر في ترجمته ابن النديم: الفهرست ص 382، القفطي: تاريخ الحكماء ص 277، ابن أبي أصيبعة ص 603، دائرة المعارف الإسلامية (الفارابي).

الفصـــل الخامـــس

خزائـن الكتـب والمكتبـات

خزائن الكتب والمكتبات

الخزائن الأولى: (بيت الحكمة)

لا شك أن أول كتاب عرفه المسلمون وحملوه معهم في فتوحاتهم، هو القرآن الكريم، ولقد شهد المسلمون ـ في فتوحهم ـ لدى الأمم المجاورة كتباً مخطوطة، فما أعاروها اهتماماً أول الأمر، ولكنهم حين بدأوا يعتنون بالتفسير والحديث والشعر والخطب والأمثال والحكم، شعروا بالحاجة إلى التدوين ونسخ الكتب وحفظها في أماكن عرفت فيما بعد بـ (بيت الحكمة) أو (خزانة الحكمة)، فكانت الكتب التي يجلبها الفاتحون من الأمم المجاورة، والكتب التي يؤلفها العلماء المسلمون، تحفظ في هذه البيوت أو الخزائن ليصار إلى الرجوع إليها والإفادة منها والنقل عنها. وأول ذكر لبيت الحكمة يرد مرتبطاً بمعاوية بن أبي سفيان ومنسوباً إليه، ففي المناظرة التي كانت بين عثمان بن سعيد الدارمي (ت 280 هـ/ 893 م)، وبين بشر المريسي (ت 218 هـ/ 883 م)، يقول الدارمي: «وادَّعى المعارض أيضاً أنه سمع أبا الصلت يذكر أنه كان لمعاوية بن أبي سفيان بيت يسمى بيت الحكمة، فكلما وجد حديثاً ألقاه فيه، ثم رويت بعد»[1]، ومعروف أن معاوية كان مهتماً بسماع الأحاديث وسير الملوك وأخبار الماضين وتدوينه والاحتفاظ والانتفاع بها، فمما عرف عنه أنه: «كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، ويحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبار الحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكِّلوا بحفظها

---

(1) الدارمي: رد الدارمي على المريسي ص 135، يوسف العش: دور الكتب العربية ص 43.

وقراءتها»[1]، وكان معاوية قد استقدم عُبيد بن شَرِيَّة الجرهمي (ت 67 هـ/ 686 م)، وهو أول من صنَّف الكتب من العرب، فكان معاوية يسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم، فيحدثه، فأمر معاوية بتدوين أخباره، فأملى كتابين، أولهما كتاب (الملوك وأخبار الماضين)، والثاني كتاب (الأمثال)[2].

ويلمع في العصر الأموي نجم خالد بن يزيد بن معاوية، وهو أول شخصية مرموقة اهتمت بالكتب والعلم والعلماء، وأنشأ أول مكتبة عامة في الإسلام[3]، لقد ورث خالد بن يزيد مكتبة جده معاوية، ولم يعرف عن أحد من خلفاء الأمويين حباً للكتب يوازي أو يقارب حب خالد بن يزيد وولعه بالكتب، فقد أولاها عناية كبيرة، ويروى عنه أنه قال في هذا: «ما أنا من العلماء ولا من الجهَّال، ولم أصنع سوى أن جمعت الكتب»[4]، وإذا صح هذا القول لخالد عن نفسه، فإن فيه كثيراً من التواضع ونكران الذات، فالمعروف عن خالد أنه كان بصيراً بالعلوم منصرفاً إلى التأليف، وكان كما يصفه صاعد الأندلسي: «بصيراً بالطب والكيمياء، وله في الكيمياء رسائل وأشعار بارعة دالة على معرفته وبراعته فيها»[5]، وقد شكك ابن خلدون في تمكن خالد من معرفة العلوم والصنائع بحجة أنه من جيل كانت البداوة إليه أقرب[6] كما شكك بعض الباحثين المحدثين مثل البروفيسور روسكا[7]. وفي النصوص القديمة ما يدل على عناية خالد بن يزيد بالكيمياء وممارسته لها، وإن كان ذلك لا يعني علمه الواسع بالكيمياء وتأليف الكتب العلمية الكبيرة فيها[8] ومما يعزز ذلك ما رواه المدائني قال: «قدم محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص الشام غازياً، فدخل

(1) المسعودي: مروج الذهب 2/ 72.
(2) ابن النديم: الفهرست ص 89، ياقوت: إرشاد الأريب 5/ 10.
(3) كرنكو: مادة (كتابخانة) في الموسوعة الإسلامية، الأصل الإنجليزي 2/ 1105.
(4) ابن حجر: تهذيب التهذيب 3/ 129، ابن عساكر 5/ 117، ياقوت: إرشاد 4/ 165.
(5) طبقات الأمم ص 99.
(6) المقدمة 1/ 977 ـ 978.
(7) الكيميائي خالد بن يزيد، عن يوسف العش: دور الكتب العربية ص 46.
(8) العسكري: الأوائل ص 190، ابن النديم: الفهرست ص 354.

على عمته آمنة امرأة خالد، فقال خالد: ما يقدم أحد من الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة، فقال محمد: وما يمنعهم وقد قدموا المدينة على النواضح[1] (يعني مروان الأول)، فنكحوا أمك، وسلبوك ملكك، وفرغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب وطلب ما لا يقدر عليه، يعني الكيمياء»[2]، ولا شك أن خالد بن يزيد قد استعان ببعض تراجمة العلوم ليترجموا له كتباً في الكيمياء، يقول ابن النديم: «وهو أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»[3]، ويذكر من هؤلاء التراجمة اصطفان القديم الذي «نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها»[4]، وكان اهتمام خالد بالكيمياء أول محاولة لترجمة العلوم، قيل: «وعندما خطر ببال خالد الصنعة، أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصَّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»[5].

ونخرج من هذا إلى أن هذه الكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد، والكتب التي كان يعنى بها من العلوم العربية والدينية، وهي كتب التفسير والحديث والشعر والأخبار، كل هذه الكتب العقلية والنقلية، والكتب التي ورثها عن جده معاوية، كانت النواة لخزانة خالد بن يزيد التي نوه بها باسم (بيت الحكمة)، وهي أول خزانة كتب عامة في الإسلام[6].

وبعد خالد بن يزيد لا نجد ذكراً لبيت الحكمة أو خزانة الكتب، إلا في

(1) الإبل.
(2) الأصفهاني: الأغاني 16/86، البلاذري: أنساب الأشراف 4 ب/ 65.
(3) الفهرست ص 354.
(4) ابن النديم: الفهرست ص 244.
(5) ابن النديم: الفهرست ص 242، الصفدي: شرح لامية العرب 1/46، القلقشندي: صبح الأعشى 1/420.
(6) كرنكو: السابق 2/1105.

زمن الوليد بن عبدالملك (ت 96 هـ/ 714 م)، حيث يذكر أن لمكتبته خازناً وناسخاً، ولكل منهما لقب محدد، فقد لقب سعد بـ (المصاحفي)، وعند الحديث عن مولاه قيل: (زياد مولى سعد صاحب المصاحف) تلميذ ابن عباس (ت 68 هـ/ 687 م)، ويذكر ابن النديم خالد بن أبي الهياج، وهو خازن الكتب بقوله: «أول من كتب المصاحف في الصدر الأول، ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج، رأيت مصحفاً بخطه، وكان سعد نصبه لكتْب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك»[1]، ومعنى هذا أنه كان في مكتبة الوليد ناسخ وخازن، وهناك مصاحف وكتب مجلدة، وكلمة مصاحف تنصرف أولاً إلى القرآن الكريم، ولا يمنع أن تنصرف أيضاً للكتب المجلدة من غير القرآن الكريم، ويعزز هذا الفرض ما ذكره ابن عبدالبر عن الكتب التي ضمت إلى مكتبة الوليد، يقول: «من جملة ما وجد في الأندلس اثنان وعشرون مصحفاً محلاة، كلها من التوراة، ومصحف آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة، فحُمل ذلك إلى الوليد، وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت»[2].

ولا نجد بعد ذلك ذكراً واضحاً لخزائن الكتب والمكتبات، إلا ما يذكر عن مكتبة الوليد الثاني (ت 125 هـ/ 742 م)، فبعد وفاته حُمِلَت الدفاتر التي كانت تحتويها مكتبته على دواب عديدة، وهي الدفاتر التي تضم في معظمها أحاديث وروايات ابن شهاب الزهري[3]، ومن هذا يتبين أن المكتبات الأموية كانت تحتوي على كتب في الحديث والشعر والأخبار والتاريخ والنجوم والطب والكيمياء، وبعض الكتب الفلسفية، وكان فيها أمناء ونُسَّاخ، وكان بعض المترجمين قد ترجموا كتباً في الطب، من ذلك أن ماسرجويه السرياني تولى ترجمة كتاب (أهْرُن القس) في الطب لعمر بن عبدالعزيز «وهو كناش فاضل من

(1) الفهرست ص 6، حاجي خليفة: كشف الظنون 1/466.
(2) ابن عبد البر: القصد والأمم ص 34.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 117، 245، 305، ابن سعد: الطبقات 2/136، نالينو: عالم الفلك ص 1243، يوسف العش: السابق ص 51.

أفضل الكنانيش القديمة»[1].

في العصر العباسي:

أ ـ زمن المنصور:

لقد عرف عن المنصور ميله وولعه بعلم النجوم، بالإضافة إلى العلوم الأخرى، يقول صاعد الأندلسي: «كان المنصور مع براعته في الفقه، كلفاً بعلم الفلسفة، وخاصة علم النجوم»[2]، وقد كلَّف المترجمين أن يترجموا له كتباً في الطب والفلسفة والفلك، فقد كلَّف الطبيب جرجس بن جبرائيل الذي حضر إلى بغداد سنة 148 هـ/ 765 م للإشراف على علاجه، كلفه أن يترجم له كتباً طبية[3]، وكذلك فعل ابن البطريق الذي ترجم له بعض المؤلفات القديمة[4]، ولشدة حرص المنصور على احتياز كتب العلوم، فقد كتب إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب العلوم لترجمتها، فبعث إليه بكتاب (إقليدس) وبعض كتب الطبيعيات[5]، وقد ترجمت للمنصور كتب من اللغات الفارسية والفهلوية واليونانية والسريانية، منها كتاب (كليلة ودمنة)، وكتاب (السند هند)، وكتب أرسطو في المنطقيات، وترجم له كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (الارثماطيقي)، وكتاب (إقليدس) وغيرها[6].

وكانت عناية المنصور بالعلوم العربية، من الفقه والحديث ورواية الأخبار

---

(1) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 157، القفطي: تاريخ الحكماء ص 324، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 192.
(2) صاعد الأندلسي ص 99، حاجي خليفة 1/ 26.
(3) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء 1/ 123، ابن العبري ص 413، ابن النديم ص 244، العمري: مسالك الأبصار ص 90،3422.
(4) ابن النديم ص 244، ابن أبي أصيبعة 1/ 203.
(5) ابن خلدون: المقدمة ص 401.
(6) المسعودي: مروج الذهب 8/291، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 156، صاعد الأندلسي ص 102، القفطي ص 270 ـ 272.

والتاريخ، لا تقل عن عنايته بالعلوم الطبيعية المترجمة، من ذلك أنه أمر محمد بن إسحاق (ت 151 هـ/ 768 م) أن يؤلف كتاباً في التاريخ لابنه المهدي منذ آدم حتى زمن المنصور، فألف ابن إسحاق الكتاب، فلما وجده المنصور طويلاً، أمر باختصاره، وأودع الكتاب الأصلي في مكتبة المنصور[1]، وكذلك ألف عبد الجبار بن عدي للمنصور كتاباً في آداب الحروب[2]، وصنف المفضل الضبي بأمر المنصور كتاب (المفضليات) الذي كان قصائد يؤدب بها المهدي[3]، كل هذه الكتب وغيرها حوتها مكتبة المنصور التي آلت من ثم إلى بيت الحكمة أو دار الحكمة.

ب ـ زمن الرشيد:

وانتقلت مكتبة المنصور وما أضيف إليها زمن المهدي إلى الخليفة هارون الرشيد، وقد أثريت خزانة بيت الحكمة زمن الرشيد إذ جاءتها دفعة كبيرة من الكتب بعد فتح هرقلة وأقاليم بيزنطية أخرى سنة 190 هـ/ 805 م، يقول ابن أبي أصيبعة: «وجلب إلى بيت الحكمة مما وُجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون»[4]، وكان الرشيد قد أوكل إلى يوحنا بن ماسويه مهمة ترجمة هذه الكتب الرومية، ورتب له كُتَّاباً حذَّاقاً يكتبون بين يديه[5]، وقد صار لبيت الحكمة مكان خاص متميز، وقد اقترنت فيه حركة الترجمة بالمراصد الفلكية، وبخزانة الكتب التي حفظت فيه، ونُظم لها مترجمون ونُسَّاخ وكُتَّاب مهرة، وكان من جملة النساخ الذين كان يكتب للرشيد والبرامكة الشاعر عِلَّان الشعوبي[6].

ج ـ زمن المأمون:

إن زمن المأمون هو زمن ازدهار بيت الحكمة وتوسعه ورسوخه، وقد كان

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 221.
(2) ابن النديم ص 314.
(3) الأنباري: نزهة الألباء ص 67.
(4) طبقات الأطباء 1/ 175، القفطي ص 380، صاعد الأندلسي ص 50.
(5) القفطي ص 380.
(6) ابن النديم ص 105.

المأمون رجل علم وأدب اهتم بقراءة الكتب ومجالسة العلماء، وتحصيل ما عندهم من علوم، يصف المؤرخون القدماء المأمون بأنه كان إماماً في كل فن من العلوم العربية والفلسفة والنحو والشعر والحديث والطب وعلوم الأوائل والنجوم والأرصاد[1]، وقد كان همُّ المأمون أن يزود بيت الحكمة بكتب الفلسفة والعلوم لترجمتها والإفادة منها، فدأب على مراسلة امبراطور الروم وإرسال البعثات إلى بلاد الروم لاجتلاب الكتب، يقول صاعد: «داخل المأمون ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب افلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة»[2]، وأرسل إلى ملك الروم بعثة فيها الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة، فاستجاب ملك الروم إلى طلب المأمون بعد امتناع، فاختاروا مما وجدوا من الكتب، فحملت إلى المأمون، فأمرهم بنقلها إلى العربية، فنقلت[3]، واستقدم المأمون من قبرص خزانة كتب اليونان، يصف ابن نباتة كيفية حصوله على هذه الخزانة، قال: «ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرس، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد أبداً، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، كلهم أشاروا بعدم الموافقة، إلا مطراناً واحداً، فإنه قال: الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها. فأرسلها إليه، واغتبط المأمون بها»[4]، والروايات كثيرة في مراسلة المأمون ملوك الروم ودأبه للحصول عليها، وكلها تؤكد أن المأمون اقتنى

(1) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 1505، 93/1، 94 ب، صاعد الأندلسي ص 100، ابن العبري ص 236، حاجي خليفة 1/26.

(2) صاعد الأندلسي ص 100، ابن العبري ص 236، حاجي خليفة 1/26.

(3) ابن النديم ص 243، ابن أبي أصيبعة 1/186.

(4) ابن نباتة: سرح العيون ص 130، الصفدي: شرح لامية العرب 1/46.

مجموعة كبيرة من الكتب وأمر بترجمتها، وكانت ذخيرة نفيسة قيمة من ذخائر بيت الحكمة.

ويمكن أن نتعرف على بعض محتويات خزانة بيت الحكمة[1]، فبالإضافة إلى الكتب التي ورثها المأمون عن أبيه الرشيد وجده المنصور، فإن الكتب التي استقدمها المأمون من بلاد الروم، قد حفظت أصولها وترجماتها، وأصبحت من مقتنيات بيت الحكمة، ومن هذه الترجمات ترجمة يوحنا بن البطريق لكتب أرسطو[2]، وكذلك ترجمته لكتب بقراط، وكذلك فعل حنين بن إسحاق وغيره[3]، وترجم الحجاج بن مطر مؤلفات في الرياضيات ومنها المجسطي[4]، وكان قد ترجم للرشيد أصول الهندسة لإقليدس، ثم أعاد ترجمتها للمأمون، وعرفت هذه الترجمة الأخيرة باسم (النقل المأموني)[5]، وترجم يوحنا بن البطريق أمين الترجمة في بيت الحكمة كتاب (السماء والعالم) لأرسطو، وصححه حنين بن إسحاق، لأن يوحنا لم يكن يجيد العربية[6]، وبالإضافة إلى الكتب المترجمة، فإن خزانة بيت الحكمة حوت كتباً كثيرة مما ألف للمأمون في هذا العصر، فقد كان هناك مجموعة من العلماء يؤلفون للمأمون خاصة، وكانت صلتهم وثيقة ببيت الحكمة، مثل سهل بن هارون ومحمد بن موسى الخوارزمي ـ الذي اختصر كتاب (السند هند الكبير)[7] ـ وعمر بن الفَرُّخان الذي ألف كتباً في النجوم وتفسير بعض كتب اليونان، فقد ألف: تفسير الأربع مقالات لبطليموس، وكتاب (اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط

---

(1) راجع في بيت الحكمة: كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة في العراق ص 105 ـ 112، يوسف العش: دور الكتب العربية ص 58 ـ 88، فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين ص 100 ـ 101.

(2) القفطي ص 379، ابن العبري ص 239.

(3) السابق نفسه والصفحة.

(4) ابن النديم ص 244.

(5) السابق ص 265.

(6) ابن النديم ص 246، 250، ابن أبي أصيبعة 1/205.

(7) صاعد الأندلسي: ص 102، القفطي ص 270.

الكواكب)[1]، وألف يوحنا بن ماسويه: (رسائل ومختصرات موجهة إلى المأمون)، وألف جبريائل بن بختيشوع للمأمون رسالة في الأطعمة والأشربة، ومقالة في تركيب العطور[2].

وفي مجال الدراسات الأدبية والتاريخية ألفت للمأمون: (حكايات ملوك الفرس)، وألف الأصمعي (تارخ ملوك بني هود وغيرهم)، وألف سهل بن هارون كتاب (ثَعْلة وعَفْرة)، يعارض به كتاب (كليلة ودمنة)، وألف الفرَّاء للمأمون كتاباً في النحو، وألف الهرثمي الشعراني كتاب (الفنون الحربية) المسمى بالحيل[3].

وهكذا نجد أن (بيت الحكمة) كان خزانة كتب، ومركزاً للترجمة والتأليف، ومركزاً للأبحاث ورصد النجوم، وأن الكتب التي حواها هذا البيت لها جملة مصادر، أولها الكتب القديمة التي وصلت عن طريق الوراثة والاقتناء، وهي كتب عربية ويونانية وفارسية وسريانية، وثانيها الكتب التي ترجمت عن تلك اللغات الأجنبية، وثالثها الكتب التي ألفت للمأمون ولغيره من الخلفاء وغير الخلفاء، ورابعها الكتب التي نسخها النسَّاخ الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة من أمثال علاَّن بن الحسن الشعوبي وغيره[4].

وكان لتشجيع المأمون ورعايته أن أقبل العلماء على بيت الحكمة ينهلون منه ويؤلفون في ظلاله وينالون من هباته وكرمه، وفي نصوص التراث ما يعزز هذا ويدعمه، يقول صاعد الأندلسي: إن المأمون «حض الناس على قراءة الكتب المترجمة وشجعهم على دراستها. . . فتنافس أولو النباهة في دراستها،

---

(1) ابن النديم ص 273، القفطي ص 242، صاعد الأندلسي ص 2.
(2) يوسف العش ص 66 ـ 67.
(3) ينظر في هذه الكتب: المسعودي: مروج الذهب 1/129، الأصبهاني: سني ملوك الأرض ص 9، الأنباري: نزهة الألباء ص 127 ـ 128، ياقوت: إرشاد الأريب 8/277، ابن النديم: الفهرست ص 314.
(4) كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة ص 110 ـ 111، يوسف العش: دور الكتب العربية ص 67.

لما كانوا يرون من إحصائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها، فينالون عنده المنازل»[1]، وقد ذُكرت أسماء كثير من العلماء الذين كانوا يختلفون إلى بيت الحكمة في زمن المأمون وبعده في القرنين الثالث والرابع، ومن أولئك عمر بن شبة (ت 262 هـ/ 875 م)[2]، وصالح بن الوجيه[3]، وابن النديم[4]، وغيرهم.

صاحب بيت الحكمة:

صاحب بيت الحكمة أو خازن المكتبة هو المسؤول عنها، وعن إدارتها، وحفظ الكتب فيها، وتنظيم أمور البيت، وأول شخصية تذكر على أنه صاحب بيت الحكمة هو سهل بن هارون (ت 215 هـ/ 830 م)[5]، ويذكر معه سعيد بن هارون (أو ابن هريم)[6]، ولعله كان معاوناً لسهل، ووصف بـ (صاحب بيت الحكمة) أشخاص آخرون منهم: سلم أو سلمان الحرَّاني، وكان يعمل في بيت الحكمة مع سهل بن هارون[7]، وذكر سلم هذا مع الوفد الذي يذهب إلى بلاد الروم اختيار الكتب القديمة، ولعله كان صاحب بيت الحكمة زمن الرشيد[8]، ولعل سلمان هذا كان يعرف اليونانية بالإضافة إلى الفارسية، فقد شرح ليحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد كتاب المجسطي[9] وترجم بعض الكتب الفارسية[10].

---

(1) صاعد الأندلسي ص 100، ابن العبري ص 236، حاجي خليفة 1/27، يوسف العش ص 68.

(2) ابن النديم ص 5.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 10/391.

(4) الفهرست ص 19, 5.

(5) ابن نباتة: سرح العيون ص 130.

(6) ابن النديم ص 120، 125.

(7) ابن النديم ص 120.

(8) ابن النديم ص 243، ابن أبي أصيبعة 1/186.

(9) القفطي ص 97 ـ 98.

(10) ابن النديم ص 120.

وترد أسماء بعض الفلكيين الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة، أو مسؤولين عن أقسام منها، من أولئك محمد بن موسى الخوارزمي، وأبو جعفر أحد فلكيي المأمون[1]، ويحيى بن أبي منصور[2]، وممن كانوا يعملون مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة أبناء موسى بن شاكر[3]، ويذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن المرصد الفلكي الذي ترد الإشارة إليه في المصادر، كان في بيت الحكمة[4]، والمعروف أن بيت الحكمة أنشأ مرصداً فلكياً في بغداد في منطقة الشماسية (سنة 214 هـ/ 829 م)، وعمل فيه فريق من المنجمين (الفلكيين)[5]، ومن المنجمين الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة زمن المأمون: سند بن علي اليهودي منجم المأمون[6]، والعباس بن سعيد الجوهري المنجم الذي فوَّضه المأمون بتعيين من يراهم من المنجمين الأكفياء في خدمته[7]، فاختار العباس بن سعيد سنداً السابق ذكره، ويذكر سند بن سعيد كيف جرى تعيينه وأدخل إلى المأمون بالهيئة والرسم المخصوص، قال: «عندما قرر العباس أن يصلني بالمأمون، أمر أن يُقطع لي أقبية ويُرتاد لي منطقة مذهبة، ففُرِغ من جميع ذلك من تلك الليلة، وأدْخل بي إلى المأمون، وأمرني بملازمته، وأجرى لي أنزالاً ورزقاً»[8]، ومعنى هذا أن سكن المنجمين وطعامهم وكسوتهم كان في بيت الحكمة، وهذا أمر بدهي حتى يكون هؤلاء بإمرة الخليفة يدعوهم متى احتاج إلى مشورتهم، وهناك قرائن أخرى تدل على ما كان يُهَيِّئُه المأمون وغيره من الخلفاء للعلماء، من ذلك أن المأمون حين أمر

---

(1) ابن العبري ص 237.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 4/318.

(3) القفطي ص 441، ابن العبري ص 264.

(4) فيليب حتي: تاريخ العرب ص 273، 410، بروكلمان 1/202، أسعد طلس: النظامية ص 15.

(5) ابن النديم ص 248، صاعد الأندلسي ص 103، القفطي ص 219، 242، 271، 357.

(6) ابن النديم ص 275.

(7) أحمد بن يوسف: كتاب المكافأة ص 141.

(8) السابق نفسه ص 141.

الفرّاء يحيى بن زياد (ت 207 هـ/ 822 م): «أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، وأمر أن يُفْرَد في حجرة من حجر الدار، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه، حتى لا يتعلق قلبه، ولا تتشوق نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصيَّر له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين»[1]، وفي زمن المتوكل عُيِّن حُنَين بن إسحاق أميناً للترجمة، فأمر المتوكل: «بإصلاح ثلاث دور من دوره التي لم يسكن حنين منذ نشأ في مثلها، ولا رأى لأحد من أهل صناعته مثلها، وحمل إليها سائر ما كان إليه محتاجاً»[2].

أهداف بيت الحكمة:

وقد صار بيت الحكمة، بعد أن توسعت مهامه، وكثر رواده، ونشطت أعماله، صار مجمعاً علمياً، وخزانة كتب، ومرصداً فلكياً، وموئلاً للمناظرات والمجادلات، وقد اتضح أن مهمة بيت الحكمة لا تقتصر على شأن واحد، وإنما تكفل بمهام كثيرة منها: جمع الكتب وترجمتها وشرحها والتأليف في موضوعها، وإقامة فريق من المنجمين إقامة دائمة في بيت الحكمة ليكونوا قريباً من الخليفة يجيبون عن تساؤلاته في التنبؤ وما تقول النجوم، بالإضافة إلى اجتماع العلماء وعقد المناظرات والمجادلات التي نشأت في ذلك الوقت، ومن ذلك قضية القول بخلق القرآن، وربما كان الخليفة المأمون يحضر تلك المجادلات والمناظرات، يقول ابن تغري بردي: «وفي سنة 209 هـ (824 م) قرَّب المأمون أهل الكلام وأمرهم بالمناظرة بحضرته، وصار ينظر فيما يدل عليه العقل، وجالسه بشر بن غياث المريسي وثمامة بن الأشرس، وهؤلاء الجلوس»[3]، وأين تكون هذه المناظرات العلمية إن لم تكن في بيت الحكمة موئل العلماء ومجتمعهم.

(1) البغدادي: تاريخ بغداد 14/ 150.
(2) ابن أبي أصيبعة 1/ 196.
(3) النجوم الزاهرة 2/ 187.

نهاية بيت الحكمة:

بدأ اسم بيت الحكمة يتضاءل ويكاد يختفي بعد وفاة المأمون ومجيء المعتصم، وانتقال مركز الخلافة إلى سامراء، ولم يعد يذكر بيت الحكمة إلا باسم خزانة كتب المأمون، أو مكتبة المأمون، فقد ذهبت صفته العلمية وخبا ضوؤه بعد أن كان يحفل بالعلماء والمترجمين والمنجمين، وحتى هذه الخزانة أو المكتبة لم يعد لها ذكر في مصادر التراث بعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[1].

ما سُمِّي ببيت الحكمة من خزائن الكتب الأخرى:

وهناك خزائن أخرى سميت ببيت الحكمة أو خزانة الحكمة، منها:

1 ـ خزانة الحكمة لعلي بن يحيى بن أبي منصور المنجم (ت 275 هـ/ 888 م):

كان يعمل في بيت الحكمة للمأمون، وكان أديباً شاعراً، راوية الأخبار والأشعار، أخذ الأدب وصنعة الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، ونادم الخليفة جعفر المتوكل، وكان من خاصة ندمائه، وحظي لديه ولدى الخلفاء من بعده إلى أيام المعتمد[2]، وكان ابن المنجم هذا قد مال إلى الطب، فنقل للمأمون منه كتباً كثيرة[3]، وألف له حنين بن إسحاق رسالة ذكر فيها مؤلفات جالينوس المترجمة إلى العربية، وترجم له كذلك كتاب (عدد المقاييس)[4].

وكان لعلي بن يحيى المنجم مكتبة هيأها وفتح أبوابها للعلماء ينهلون منها، وقد يقيمون فيها وتجرى عليهم جرايات، شبيهة ببيت حكمة المأمون،

(1) ابن النديم ص 5، 19، الخطيب البغدادي 10/391.
(2) الخطيب البغدادي 12/121 ـ 122.
(3) ابن أبي أصيبعة 1/205.
(4) القفطي ص 132.

ويصف ياقوت خزانة ابن المنجم هذه وكيف أنشأها يقول: «كان بكَرْكَر من نواحي القُفْص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل، فيه خزانة كتب عظيمة يسميها (خزانة الحكمة)، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها، ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم، والعناية مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى، فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له الخزانة، فمضى ورآها، فهاله أمرها، فأقام بها، وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم، وأعرق فيه حتى ألحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً»[1].

2 ـ خزانة الحكمة للفتح بن خاقان:

كان الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج (ت 247 هـ/ 861 م) من أبناء الملوك من أصل فارسي، وكان ذكياً فطناً حسن الأدب، أولع بحب الكتاب فلم يفارقه، حتى ليقال إنه كان يحضر مجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كُمّه أو خُفّه، وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه، ويفعل ذلك حتى في الخلاء[2]، وقد شُهر ثلاثة بالشغف بالكتب والقراءة، قال أبو هفّان: «ثلاثة لم أرَ قط ولا سمعت أحبَّ إليهم من الكتب والعلوم، الفتح بن خاقان، والجاحظ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي»[3]، كان الفتح بن خاقان كبير المنزلة لدى المتوكل وقد اتخذه أخاً، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله، استوزره وجعل له إمارة الشام على أن يُنيب عنه، وقُتل الفتح مع المتوكل قتلاً بالسيوف[4].

(1) ياقوت: إرشاد 5/ 467.

(2) ابن النديم ص 116.

(3) ياقوت: إرشاد 16/ 75، القفطي ص 3، الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 139 ـ 140، الشريف المرتضى: أمالي المرتضى 1/ 138.

(4) ابن النديم ص 116.

كان الفتح بن خاقان يجالس العلماء، ويحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة، وكان يشجع المؤلفين وينفق عليهم، ألف له محمد بن حبيب كتاب (القبائل الكبير والأيام) في نحو أربعين جزءاً، كل جزء مئتا ورقة وأكثر[1]، وألف له الجاحظ كتاب (التاج في أخلاق الملوك)[2]، وكتاب (مناقب الترك وعامة جند الخلافة)[3]، وألف له محمد بن حارث الثعلبي (التغلبي) كتاب (أخلاق «أو أخبار» الملوك)[4].

أما خزانته المعروفة بـ (خزانة الحكمة)، فقد كلف الفتحُ عليَّ بن يحيى المنجم أن يجمع له خزانة قيِّمة، فعمل له علي بن يحيى: «خزانة حكمة نقل إليها من كتبه ومما استكتبه الفتح أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة فقط»[5]، وهي خزانة: «لم يرد أعظم منها كثرة وحسناً»[6].

3 ـ خزائن أخرى شبه عامة (دور العلم والخزائن الملحقة بالمدارس):

أ ـ دار العلم في الموصل:

أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشحَّام (ت 323 هـ/ 934 م)، وكان بصيراً بالنجوم عالماً مطلعاً على علوم الأوائل[7]، تضم هذه الخزانة كتباً من جميع صنوف المعرفة، منها كتب الحكمة والفلك، وجعلها وقفاً على كل طالب علم، تفتح كل يوم، وتقدم للغرباء المال والورق والإقامة في بيوت مخصصة للغرباء والمحتاجين، وخُصص فيها مكان

---

(1) ابن النديم ص 107، 116، 148.
(2) نشره أحمد زكي في مصر سنة 1914 م، وقيل: إن الكتاب منسوب للجاحظ.
(3) نشر ضمن مجموعة رسائل الجاحظ في مصر 1324 هـ.
(4) كوركيس عواد: خزائن العراق ص 81 .
(5) ابن النديم ص 143، ابن خلكان: وفيات، في ترجمة علي بن يحيى، ياقوت: إرشاد 459/16.
(6) ابن النديم ص 116، ياقوت: إرشاد 117/6، ابن شاكر: فوات الوفيات 123/2.
(7) ياقوت: إرشاد / 419، البغدادي: تاريخ بغداد 211/7.

للتدريس[1]، وكان أبو القاسم جعفر بن محمد يجلس فيها ويُمْلي على الناس من مصنفاته (مثل الباهر في الأخبار) ويملي من شعره ومن شعر غيره، ويملي من حفظه في موضوعات في الفقه والحكايات والنوادر، وغير ذلك[2].

ب ـ دار العلم الفاطمية:

أنشئت دار العلم في القاهرة بأمر الحاكم بأمر الله سنة 395 هـ/ 1004 م، وقد مرت بها أحداث وعصفت بها الأهواء، فقد كانت أول إنشائها على مذهب أهل السنة، ثم تحولت بعد عام 410 هـ/ 1020 م لتكون مركزاً للدعوة الإسماعيلية ضد أهل السنة، ثم أغلقت عام 513 هـ/ 1119 م لنشوء اتجاه مناهض لمذهب الدولة الديني، ثم أُعيد فتحها عام 517 هـ/ 1123 م لتسود فيها الدعوة الإسماعيلية وحدها، ثم عند دخول صلاح الدين إلى القاهرة، كانت نهاية دار العلم سنة 567 هـ/ 1171 م[3].

كان أهل مصر على المذهب المالكي، وجاء الحاكم بأمر الله سنة 375 هـ/ 985 م ليفرض سلطته بعقلية طائفية ممزوجة بالأهواء الشاذة[4]، لقد سميت الدار أولاً بـ (دار الحكمة)، ثم غُيِّر اسمها فسميت (دار العلم)[5]، وقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ببناء هذه الدار بجوار القصر الغربي خلف خان مسرور[6]، وفُتح فيه منفذ على باب التبانين، وأولى الحاكم اهتمامه لبناء هذه الدار، واحتفظ ببناء خاص[7]، وفُرشت وزُخرفت وعُلقت ستائر على جميع أبوابها وممراتها[8]، وأقيمت فيها مكتبة نقلت كتبها من خزانة الخليفة الخاصة،

---

(1) ياقوت: إرشاد 2/ 420.
(2) ياقوت: السابق والصفحة.
(3) ينظر في تفصيل ذلك: يوسف العش: دور الكتب العربية ص 105.
(4) الموسوعة الإسلامية 2/ 238 ـ 239.
(5) الذهبي: دول الإسلام 1/ 186.
(6) القلقشندي: صبح الأعشى 3/ 366.
(7) الكندي: الولاة والقضاة ص 602، المقريزي: الخطط 1/ 458.
(8) الكندي ص 602، المقريزي 1/ 458.

التي تُعتبر من أعظم الخزائن المشهورة في الإسلام[1]، وفيها كتب كثيرة نفيسة من جميع العلوم والآداب[2]، وبعضها بخطوط منسوبة لأمهر الخطاطين، وقد فتحت دار العلم أبوابها للناس من جميع الطبقات، ويُسِّر العمل فيها بحيث توافرت وسائل البحث لطلاب العلم، فزُوِّدوا بالورق والحبر والأقلام[3]، وقد صارت ملتقى العلماء من القراء والفقهاء والفلكيين والنحويين واللغويين والأطباء، وربما أقام بعضهم فيها[4]، وقد قام على خدمة المكتبة القُوَّام والخدم والفراشون والبوابون[5].

وقد عيَّن الحاكم عالمين من شيوخ أهل السنة، وأوكل إليهما أمر الدار، هما: أبو بكر الأنطاكي[6] وأبو أسامة جنادة بن محمد بن الحسين الأسدي الهروي، وهو أحد كبار اللغويين في زمانه، وقد كانت إقامتهما في دار الحكمة[7]، ولكن سرعان ما غيَّر الحاكم رأيه فحكم على الشيخين بالقتل سنة 399 هـ/ 1009 م، أما مصروفات الدار ونفقاتها فقد نقل المقريزي تقريراً مفصلاً لمخصصات دار الحكمة أو دار العلم، موزعة على الوجه الآتي[8]:

10 دنانير لشراء حصر القش وغيرها من الحصر.

90 ديناراً لشراء الورق اللازم للنسخ.

48 ديناراً لراتب الخازن.

12 ديناراً لماء الشرب.

15 ديناراً لراتب الفراش.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 1/ 466.
(2) المقريزي: الخطط 1/ 458.
(3) السابق نفسه.
(4) المقريزي 1/ 458.
(5) يحيى بن سعيد: تاريخ ص 188.
(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 2/ 105 ـ 106.
(7) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11/ 314.
(8) المقريزي 1/ 429، وانظر يوسف العش ص 116.

12 ديناراً لشراء الورق والحبر والأقلام لمن يطالع فيها.
1 دينار واحد لإصلاح الستائر.
12 ديناراً للتجليد.
5 دنانير لشراء سجاد للشتاء.
4 دنانير لشراء أغطية للشتاء.

إن دار العلم هذه أُنشئت على غرار بيت الحكمة في زمن المأمون لتكون ملتقى العلماء والأدباء ليبحثوا ويتناظروا في الموضوعات العلمية، ثم غلب عليها نشر المذهب الإسماعيلي، وتوالت عليها الأحداث، حتى كانت نهايتها حين دخل صلاح الدين مصر، وأزال حكم الفاطميين سنة 567 هـ/ 1171 م، وبعد هذا التاريخ لم يعد لدار العلم ذكر يذكر.

ج ـ دار العلم لسابور في بغداد:

أسسها سابور بن أردشير (ت 416 هـ/ 1025 م) وزير بها الدولة، كان كاتباً ذا ثقافة أدبية واسعة، يحب العلم والعلماء، وكان شيعياً من أصل فارسي، وعده الشريف الرضى أن يزوجه ابنته[1]. أنشأ سابور مكتبة في بغداد في حي الكرخ بين برجين قديمين عرفت بمحلة بين السورين[2]، وكان أكثر أهل هذا الحي من الشيعة، ولذلك وقع اختياره على هذه المنطقة، اشترى سابور سنة 381 هـ/ 991 م داراً وعمرها وأمر بتبليطها بالرخام وطلائها بالكلس وسماها دار العلم، ووقفها على أهله، ونقل إليها كتباً من أفضل ما نسخ أشهر الخطاطين وكبار العلماء، وبلغت الكتب عشرة آلاف وأربع مئة مجلد، منها مئة نسخة من المصاحف بخطوط من أسرة بني مقلة، وصارت كتبها تزداد بفضل هبات العلماء، وصار العلماء يؤمونها، فأصبحت مثابة للعلم والعلماء والأدباء، يقصدها كبار العلماء في ذلك العصر[3]، وقد عمل سبط بن الجوزي فهرساً لهذه

---

(1) القلقشندي 14/ 97.
(2) ياقوت: معجم البلدان 1/ 799.
(3) ابن الجوزي: المنتظم 7/ 172، ابن الأثير: الكامل 9/ 71.

الخزانة ذكر فيه العلوم التي احتوتها، جاء في مقدمة الفهرس: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ثبت جمعه سابور بن أردشير، فيه كتب القرآن الكريم وعلومه وتفسيره وقراءاته، والفقه والعبادات والفرائض، والفقه على المذاهب، والتوحيد والجدل والخلاف وفيه مصنفات آل البيت عليهم السلام، وعلم الأنساب واللغة والحكم والأمثال العربية، والعروض والقوافي، وفيه كتب عن الشعراء المخضرمين والمحدثين والطرائف والأخبار، والرسائل وكتب الطب والتنجيم والحكمة والهندسة، وغيرها من العلوم... جزى الله سابور بن أردشير على نيته الطيبة ولقاه ثوات ما بناه وأنشأه، ومن بدل شيئاً مما اشترطه فعليه لعنة الله، وله عذابه الأليم»[1].

ويظهر من موضوعات الخزانة غلبة الكتب الأدبية والشرعية على الكتب العلمية والعملية، مع وجود علوم الطب والفلك والحكمة والهندسة. ويُذكر مجموعة من الأشخاص الذين تولوا الإشراف على المكتبة، الإشراف العام المعني بإدارة أموال المكتبة باعتبارها وقفاً، والإشراف الفني الذي يخص الخازنين ومعاونيهم المهتمين بالخدمة المكتبية، ومن هؤلاء الشريف أبو الحسين محمد بن الحسين بن أبي شيبة، وأبو عبدالله محمد بن أحمد الحسني البطحاني، وأبو عبدالله الحسين بن هارون الضبي قاضي بغداد[2]، وبعد وفاة سابور أشرف على دار العلم الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت 436 هـ/ 1044 م) أخو الشريف الرضي[3]، ويذكر ابن الجوزي الشيخ محمد بن موسى الخوارزمي (ت 403 هـ/ 1012 م) شيخ مدرسة الأحناف مشرفاً على المكتبة، كان قد عينه سابور[4]، ومن خزنة دار العلم كذلك أبو

(1) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11/185، كوركيس عواد ص 140 ـ 145، يوسف العش ص 135.
(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 14/33.
(3) ياقوت: إرشاد 6/359.
(4) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 13/247، القرشي: الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية 2/135.

أحمد عبد السلام بن الحسين البصري الملقب بالواجكا (ت 405 هـ/ 1014 م)، كان عالماً باللغة والأدب عارفاً بالقراءات، محدثاً يحفظ الشعر، كان فاضلاً صديقاً لأبي العلاء المعري، ذكره في كتابه رسالة الغفران[1]، ويُذكر من خزنة كتب دار العلم أيضاً، أبو منصور محمد بن علي بن إسحاق بن يوسف الكاتب (ت 418 هـ/ 1027 م)، وقد ذكره المعري في رسالة الغفران أيضاً[2]، وآخر خازن مذكور لدار العلم يوسف بن يعقوب بن سليمان الاسفراييني (ت 488 هـ/ 1095 م)، الذي صار فيما بعد خازناً لمكتبة المدرسة النظامية.

كانت هذه الدار وقفاً، ولها موارد خصصت للإنفاق عليها، من ذلك بناءان في الكرخ، ولها موارد كثيرة تصرف على ضيافة النزلاء، وتدفع منها أجور الموظفين، وكلفة وصيانة المكتبة، ويذكر أن دار العلم لسابور هذه هي أول مدرسة موقوفة في الإسلام[3]، وكان لهذه الدار فضل كبير على العلم والعلماء، فقد احتضنت واستضافت طلاب العلم والعلماء، وهيَّأت لهم كل أسباب الإقامة والضيافة والتزود بالعلم والاستنساخ[4]، ويُذكر من بين نزلاء هذه الدار أبو العلاء المعري، الذي ذكر في إحدى رسائله إلى أهل بلده المعرة إعجابه الشديد في الإقامة بدار العلم، وقد أثنى عليها وأشاد بها، وأسف لأنَّ الوقت لم يتح له الإقامة فيها طويلاً[5]، كان أبو العلاء معجباً بهذه الدار، وقد استمتع بالإقامة فيها وهو يناظر خازنيها من العلماء، وتمنى أن يمكث فيها طيلة حياته[6]، وقد ذكرها بإعجاب وإجلال في شعره وكتبه[7]، وقد ذكرت هذه الدار وشاعت سيرتها في أحاديث العلماء والأدباء وأشادوا بها وبما كان يعقد فيها من

(1) المعري: رسالة الغفران ص 184، ابن خلكان 3/422.

(2) رسالة الغفران ص 73، الخطيب البغدادي 6/203.

(3) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، مخطوط سنة 383 هـ، يوسف العش ص 143.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 2/2، 51.

(5) رسائل أبي العلاء المعري ص 34.

(6) السابق ص 46 ـ 47.

(7) الميمني: أبو العلاء وما إليه ص 103.

محاضرات ومناظرات ولقاء العلماء والتزود بالعلم مع الضيافة.

وكانت نهاية دار العلم هذه سنة 451 هـ/ 1059 م عندما دخل طغرل بك بغداد في هذه السنة مع الخليفة، وهاجم الغوغاء في حي الكرخ لأنه كان موئل الشيعة، فنهبوه وأشعلوا الحرائق فيه[1]، وكانت دار العلم من جملة ما احترق، ولا يُعلم إن كان إحراقها مقصوداً أم حدث مصادفة، وأخمد الحريق، وطُرد الدهماء الذين كانوا ينهبونها، وصار عميد الملك الكُندري وزير طغرل بك ينتقي بنفسه أفضل الكتب التي نجت من الحريق، ثم يرسلها إلى بلده في خراسان[2]، وهكذا انتهى عهد أول خزانة ودار علم موقوفة في الإسلام، قدمت للعلم والعلماء خدمات ولها فضائل جُلّى.

د ـ خزانة المدرسة النظامية في بغداد[3]:

أسسها نظام الملك، أحد رجال الدولة السلجوقية، وهو أبو الحسن علي بن إسحاق الطوسي (408 ـ 485 هـ/ 1018 ـ 1092 م)، وقد عُرف بذكائه ونشاطه وشغفه بالعلوم ومجالسة العلماء، وبعد وفاة الملك السلجوقي ألب أرسلان سنة 465 هـ/ 1072 م كان نظام الملك هو الحاكم الحقيقي، ولم يكن ملكشاه سوى ملك إسمي، وقد قُتل ملكشاه سنة 485 هـ/ 1092 م، وربما حامت الشبهة في مقتله على يد نظام الملك[4].

لقد أمر نظام الملك بتشييد مدرسة على ضفاف دجلة، قرب قصر الخليفة

---

(1) العيني: عقد الجمان 16/161.

(2) ابن الأثير: الكامل 10/5، ابن الجوزي: المنتظم 8/205، 216، ياقوت: معجم البلدان (بين السورين)، كوركيس عواد ص 144 ـ 145.

(3) ينظر فيها: كوركيس عواد: خزائن الكتب ص 145 ـ 151، يوسف العش: دور الكتب ص 194 ـ 200، مصطفى جواد: المدرسة النظامية ببغداد، موقعها، (مجلة المعلم الجديد) 8، سنة 1942 ص 112 ـ 119، ماكنسون: كبريات المكتبات ص 293، كرنكو: (كتبخانة) الموسوعة الإسلامية 151.

(4) الموسوعة الإسلامية 3/997 ـ 1000.

سنة 457 هـ/ 1064 م، واستغرق بناؤها سنتين، فأنجزت سنة 459 هـ، وقد خُصص في هذه المدرسة الكبيرة بناء خاص للمكتبة التي عرفت حيناً باسم (دار الكتب)، وقد حظيت باهتمام نظام الملك نفسه، وكتب فيها كراسة في الحديث النبوي عند زيارته الأولى لها سنة 479 هـ/ 1086 م[1].

وقد تولى مهمة خازن الكتب مجموعة من العلماء والأدباء المشهورين، أبرزهم: أبو يوسف الأسفراييني، يعقوب بن سليمان بن داود (ت 488 هـ/ 1090 م)، وهو أول خازن في المدرسة النظامية، كان الأسفراييني فقيهاً أديباً شاعراً خطاطاً[2]، وبعد وفاة الأسفراييني صار مكانه الأبيوردي، أبو مظفر محمد بن أحمد الشاعر الأديب الذي أقام في بغداد عشرين عاماً[3]، ثم رحل إلى خراسان وصحب السلطان محمد بن ملكشاه، وصار من كبار موظفي السلطان. ومن خزنة المكتبة النظامية أيضاً الخطيب التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الأديب المؤلف المشهور، الذي كان يعلم الأدب في المدرسة النظامية، فالإضافة إلى الإشراف على خزانة الكتب، وقد بقي فيها حتى وفاته سنة 502 هـ/ 1108 م[4]، وذكر خازن آخر وأخير هو أكرم الدين أبو سهيل خازن دار الكتب النظامية، كان معاصراً للعماد الأصفهاني[5].

وهناك بعض المشرفين بدرجة أقل من درجة خازن، يعاونون أمين المكتبة في عمله، من أولئك:

أبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيدالله الدباس، ذكره ابن الساعي بقوله: «كان شاباً جميلاً فاضلاً، ذا فضل وافر ومعرفة بالأدب وعلم الكلام، وكان حنبلي المذهب أولاً، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه، وأقام مشرفاً

(1) يوسف العش: دور الكتب ص 195.
(2) السبكي: طبقات الشافعية 4/29، بروكلمان 1/351.
(3) ياقوت: إرشاد 4/346.
(4) ياقوت: إرشاد 7/286، ابن خلكان: وفيات الأعيان 2/346.
(5) علي ظافر الأزدي: بدائع البدائه ص 223.

على المكتبة النظامية، وبقي في هذه الوظيفة حتى وفاته سنة 601 هـ»[1].

وقد شبّ حريق في خزائن كتب هذه المدرسة سنة 510 هـ/ 1116 م، ذكر ذلك ابن الأثير في قوله: «في هذه السنة وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، فاحترقت الأخشاب التي بها، واتصل الحريق إلى درب السلسلة، وتطاير الشرر إلى باب المراتب فاحترقت منه عدة دور، واحترقت خزائن كتب النظامية وسلمت الكتب، لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها»[2].

وفي سنة 589 هـ/ 1193 م شيد الخليفة العباسي الناصر لدين الله بناء خاصاً لخدمة المكتبة[3]، وزوده بمجموعات كبيرة من كتبه الخاصة جاوزت الآلاف، قال ابن الأثير: «أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها»[4]، ويقول ابن تغري بردي إن الخليفة الناصر نقل لهذه المكتبة عشرة آلاف مجلد بالخط المنسوب وخطوط أخرى[5].

ومما سبق يتبين أن للمكتبة النظامية عهدين، الأول عهد تأسيسها من قبل نظام الملك، والثاني عهد تجديدها من قبل الناصر لدين الله، حيث جُدد بناؤها وزادت كتبها حيث بلغت الآلاف من الكتب المنتقاة من خزانة الخليفة الخاصة[6]، وهي الكتب التي اختارها أبو الرشيد مُبَشِّر بن أحمد بن علي الرازي المتوفى سنة 589 هـ/ 1193 م[7].

---

(1) ابن الساعي: الجامع المختصر ص 160.
(2) ابن الأثير: الكامل 10/366 ـ 367، ابن كثير: البداية والنهاية 12/179، ابن الجوزي: المنتظم 9/184.
(3) ابن الأثير: الكامل 12/67، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 6/132، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 308.
(4) ابن الأثير: الكامل 12/67، ابن كثير: البداية والنهاية 13/6.
(5) النجوم الزاهرة 6/132.
(6) ابن الأثير 1/67، ابن كثير 9/75.
(7) القفطي: تاريخ الحكماء ص 269.

قامت المدرسة في عهديها القديم والجديد على المذهب الشافعي، وهو مذهب مؤسسها نظام الملك، ولذلك اشترط فيمن يتولى خزنة كتبها أن يكون شافعياً، لذلك كان أبو جعفر الدباس عمر بن أبي بكر حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي حتى يقبل مشرفاً على المكتبة النظامية(1)، وقد عُرف من المشتغلين بالمدرسة النظامية بعض الأمناء أو المشرفين في عهدها الثاني، منهم: عبد القادر بن داود بن أبي ناصر الواسطي المتوفى سنة 619 هـ/ 1222 م(2)، وعلي بن عبدالله بن علي، كان مشرفاً على النظامية وتعلم الفقه ثم صار قاضياً في الكوفة ثم عاد إلى النظامية، حتى توفي سنة 630 هـ/ 1232 م(3)، وكان علاء الدين أبو الحارث أرسلان بن داود الأتراري (ت 702 هـ/ 1302 م) معيداً فيها، ثم تولى خزانة كتبها، وكان أبو الحارث فقيهاً أديباً درَّس النحو فيها(4)، ومن خزنة الكتب في النظامية فخر الدين أبو محمد جعفر بن مكي الحاجب، سكن النظامية، وكان أديباً توفي بعد عام 729 هـ/ 1328 م(5).

وقد نالت هذه المكتبة رعاية الخلفاء والعلماء، فزودوها بالكتب، ووقف بعض العلماء كتبهم للمكتبة، من أولئك: محمد بن محمود بن الحسن محب الدين ابن النجار (ت 643 هـ/ 1245 م) الذي وقف كتبه بالنظامية، وابن النجار هذا هو مؤلف كتاب التاريخ الذي ذيَّل به على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وقد جمع كتباً كثيرة خلال تجواله في البلاد الإسلامية(6)، وكذلك وقف ابن الساعي تاج الدين علي بن أنجب كتبه في النظامية، وابن الساعي فقيه قارىء محدث مؤرخ شاعر توفي سنة 674 هـ/ 1275 م(7)، وكذلك وقف الحافظ

(1) ابن الأثير 10/366.
(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 2/382.
(3) الصفدي: الوافي بالوفيات 21/122.
(4) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب ورقة 11.
(5) السابق ورقة 167.
(6) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/264، بروكلمان 1/360.
(7) الأسنوي: طبقات الشافعية 122، يوسف العش ص 200.

الفقيه محمد بن علي الأزدي الطبري كتبه على النظامية، وكانت وفاته سنة 518 هـ/ 1124 م[1].

وهكذا كان للمدرسة النظامية أثرها في ازدهار الثقافة والعلوم العربية والإسلامية وقد حظيت بعناية الخلفاء والعلماء على مدى العصور.

هـ ـ دار العلم في طرابلس[2]:

أنشأها جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد، صاحب مدينة طرابلس وقاضيها (ت 492 هـ/ 1098 م)، وذلك سنة 472 هـ/ 1080 م[3]، وينتسب أبو الحسن هذا إلى أسرة بني عمَّار الذين استولوا على المدينة في منتصف القرن الخامس.

كانت دار العلم هذه غنية بالكتب، بل من أغنى المكتبات الإسلامية، قيل: إنها كانت أجمل وأغنى مكتبة في عصرها، وإنها احتوت على ثلاثة آلاف ألف كتاب (ثلاثة ملايين)[4]، كان من بينها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم، وعشرون ألف نسخة من التفاسير، وعمل بها مئة وثمانون كاتباً، منهم ثلاثون كانوا يقيمون بها ليلاً ونهاراً، وقد هيَّأ لها حكام بني عمَّار كل أسباب التزويد بالكتب، فكان لها وكلاء متجولون يرحلون في البلدان لشراء أفضل الكتب، وقد ازدهرت طرابلس في عهد بني عمَّار بالعلوم، وزارها العلماء من سائر البلدان، وقدموا خدماتهم للمشرفين عليها[5].

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام 4/229.

(2) ينظر فيها: كرد علي: خطط الشام 6/67، 197، محب الدين الخطيب: الحديقة 4/172، لامنس: الصليبيون ومكتبات طرابلس الشام، مجلة المشرق 1922 م، 107، 160، يوسف العش: دور الكتب ص 147 ـ 151.

(3) ابن العديم: الإنصاف والتحري 4/68.

(4) لعل في هذا الرقم مبالغة، وهناك رواية تقول إنه أكثر من مئة ألف مجلد، ينظر: يوسف العش ص 148.

(5) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك 1/38 مخطوط.

أما خزنة هذه الدار، فقد ذُكر منهم: الحسين بن بشر بن علي الطرابلسي المعروف بالقاضي، وصفه ابن أبي طي بقوله: كان صاحب دار العلم بطرابلس، كان أديباً، وصنَّف كتاباً في الخطب، يضاهي بها خطب ابن نباتة، وله مناظرة مع الخطيب البغدادي، ذكرها الكراجكي، وقال: حُكم له على الخطيب بالتقدم في العلم[1]، وذُكر خازن آخر لدار العلم هذه هو القاضي أبو الفضل بن أبي دوح، ويروى أن جلال الملك مؤسس دار العلم أمره أن يفرق الذهب على أهل الدار، أي المقيمين فيها من الطلاب والشيوخ[2]، وذكر هذه الحادثة الشاعر ابن الخياط الذي لم ينل حصته من الذهب، فأكرمه القاضي ابن أبي دوح من ماله الخاص[3].

ومما يؤسف له أن هذه الدار لم تدم طويلاً، فقد أحرقت سنة 503 هـ/ 1109 م بعد ثلاثين عاماً من تأسيسها، فقد حاصر الصليبيون طرابلس سنة 493 هـ/ 1099 م ودام حصارهم لها عشر سنوات، فلما دخلوها سنة 503 هـ أحرقوا من جملة ما أحرقوا دار العلم، وقيل إن أحد الكهنة فزع من كتب رآها، ووقع بصره على مجموعة جليلة من المصاحف، ولما أمسك مجلداً منها شك أنه نسخة من القرآن الكريم، فقارن بين عشرين نسخة منها، فاستنتج أنها نسخ من القرآن الكريم، وأن كل ما تحتوي عليه الدار إنما هو مصاحف، ولهذا أحرقها الصليبيون، ثم استولوا على جملة الكتب ونقلوها إلى بلادهم، ويقول المؤرخون: وبعد حصار المدينة عشر سنوات، استسلم سكان المدينة بعد وصول رسالة من الخليفة أمر فيها أن يبعثوا إليه بامرأة جميلة فقيرة، كان قد سمع بجمالها، بدلاً من إعلانه عن إرسال مساعداته ونجداته، فاستسلمت المدينة كلها وهي يائسة إلى العدو الذي غزاها واستولى عليها، ولم يتخذ لأجلها أي حيطة لحفظ الأموال أو الأرواح، بل هاجم هو ثرواتها ونهب بعض أماكنها[4].

---

(1) ابن حجر: لسان الميزان 2/ 275.
(2) بروكلمان: الملحق 1/ 448.
(3) ديوان ابن الخياط ص 74.
(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11/ 314، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 3/ 490.

وهكذا أحرق الغزاة المكتبة، واستولوا على بقية الكتب التي لم تلتهمها النيران، وطويت بذلك صفحة هذه الدار التي كانت من أجمل وأثرى المكتبات في العصر العباسي.

و ـ خزانة المدرسة المستنصرية[1]:

من المآثر الجليلة للخليفة المستنصر بالله (588 ـ 640 هـ/ 1192 ـ 1242 م) تشييده المدرسة المستنصرية، والمستنصر هو منصور (المستنصر بالله) بن محمد (الظاهر بأمر الله) ابن الناصر بن المستضيء الخليفة العباسي، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 623 هـ/ 1226 م، كان وافر العقل، وكان جده الناصر يسميه (القاضي)، كان حازماً عادلاً حسن السياسة، إلا أنه جاء بعد أيام تراجع الدولة، وفي عهده استولى المغول على كثير من البلاد، حتى كادوا يدخلون بغداد، فدُفعوا عنها، واستمر المستنصر إلى أن توفي بها[2].

لقد شيَّد المستنصر المدرسة المستنصرية لتكون مدرسة للمذاهب الأربعة، وتقع على شاطىء دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة[3]، قرب المدرسة النظامية، ودام العمل فيها ست سنوات، وأنجز بناؤها سنة 631 هـ/ 1233 م، وخصص الخليفة لبنائها أموالاً كثيرة سخية، وافتتحها في موكب مهيب يتبعه الوزراء وكبار الموظفين والحاشية[4].

كان المستنصر قارئاً محباً للكتب، مولعاً باقتنائها، يبذل في سبيل ذلك أموالاً سخية، له بصر بالخطوط، اقتنى الكتب التي بخط أشهر خطاطي العصر

---

(1) ينظر فيها: كوركيس عواد: خزائن الكتب ص 163 ـ 171، يوسف العش: دور الكتب ص 201 ـ 208، الفليب دي طرازي: خزائن الكتب ص 103 ـ 104، ماكنسون: أربع مكتبات كبرى في بغداد ص 297 ـ 298.

(2) تنظر ترجمته في: ابن الأثير: الكامل 12/177، ابن أبي الفداء: المختصر 3/171، المقريزي: السلوك 1/311، ابن خلدون: التاريخ 3/536.

(3) أبو الفداء: المختصر 3/179.

(4) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 55 ـ 56.

كابن مقلة وابن البواب، وقد أهدى للمكتبة أفضل الكتب المشهورة في عصره، يقول الأربلي: وجعل المستنصر فيها خزانة كتب، ونقل إليها من الربعات الشريفة والأصول، سوى ما نقل إليها بعد ذلك[1]، وبلغت كتب العلوم الدينية والأدبية ما حمله مئة وستون حمالاً[2]، وقيل مئتان وتسعون حمالاً، وقدر عدد مجلداتها بثمانية لآلاف مجلد، وفي رواية ثمانون ألف مجلد[3]، يضاف إلى ذلك الكتب التي أهداها كبار الموظفين ومحبو هذه المدرسة، والمتقربون إلى الخليفة[4].

وقد عُهد بخزانة الكتب وتنظيمها وفهرستها إلى الشيخ عبد العزيز بن دلف شيخ رباط الحريم الطاهري، الذي كان خازناً لعدة مكتبات في بغداد، وابن ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة الخليفة التي في داره، وأوكلت مراقبة سير العمل إلى شمس الدين علي بن الكتبي الخازن، وعماد الدين علي بن الدباس المشرف، وجمال الدين إبراهيم بن حذيفة المناول[5]، وقد زار الخليفة المكتبة سنة 640 هـ/ 1242 م ورأى إهمال القائمين عليها فأمر بحبسهم يومين[6].

وكانت خزانة المدرسة المستنصرية معلماً نيِّراً من معالم بغداد، يحرص من يقدم إليها من الأمراء أن يزور المكتبة ويطلع على كتبها، فقد زارها نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي سنة 634 هـ/ 1245 م، وتجول في أنحائها وأعجب بها[7]، وزارها محمود غازان التتري أمير بلاد فارس سنة 696 هـ/ 1296 م، وزارها قطب جيهان حَمْد بن عبدالرزاق، قاضي قضاة

(1) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 212.
(2) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 54، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 185، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 212.
(3) ابن عنبة العلوي: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص 195.
(4) يوسف العش ص 202.
(5) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 86.
(6) السابق ص 170.
(7) ابن الفوطي ص 89.

المماليك في سنة 698 هـ/ 1298 م، في وفد من علماء قزوين، وذكر ابن الفوطي مجموعة من الأمراء الذين زاروا المكتبة وأعجبوا بها، وكان ابن الفوطي خازناً لهذه المكتبة[1].

ووقف بعض العلماء كتبهم على المكتبة، أو كانوا ينسخون الكتب بخطوطهم ويوقفونها على المكتبة، كما فعل الطبيب الحكيم عيسى بن القسيس الحظيري الذي نسخ (القانون في الطب) لابن سينا بخطه[2]، وكذلك فعل الفقيه فخر الدين الحسن بن محمد الطَبْسي المعيد في المدرسة، فقد نسخ كتباً كثيرة بخطه وضبطه، واقتنى كتباً أخرى ووقفها على المدرسة، ونسخ الخطيب البغدادي كتابه (تاريخ بغداد) بخطه في تسعة عشر مجلداً، ووقفه على المكتبة[3]، ويذكر حاجي خليفة كتباً كثيرة حوتها خزانة المدرسة المستنصرية، من ضمنها مسند أحمد بخط ابن الجواليقي[4].

لقد كانت المستنصرية جامعة كبيرة لها أساتذة يدرسون المذاهب الأربعة الحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي، وكان لكل مذهب اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بالطب[5]، وتُلقى دروس الحديث في أيام السبت والاثنين والخميس[6]، وفي المكتبة ثلاثة موظفين، هم: الخازن ومعاون الخازن والمناول، وقد خصصت للعاملين بالمدرسة معايش يومية من الخبز واللحم، ورواتب شهرية، ذكرت على الوجه الآتي[7]:

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 14/ 106، كوركيس عواد ص 166.
(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 479.
(3) حاجي خليفة: كشف الظنون 1/ 288.
(4) حاجي خليفة 1/ 221.
(5) يوسف العش ص 205.
(6) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص 212.
(7) كوركيس عواد ص 165، يوسف العش ص 205.

	خبز بالرطل يومياً	لحم بالرطل يومياً	دينار بالشهر
المدرس	20	5	12
الخازن	10	4	12
المعيـــد	7	2	3
مساعد الخازن	5	2	3
المنـاول	4	1	2
الطالب	4	1	2 (و 10 قراريط)

وقد عمل في المكتبة مجموعة من العلماء، بين ناظر ومشرف وخازن، من أولئك: عفيف الدين عبد العزيز بن دلف الناسخ (ت 637 هـ/ 1229 م)، كان ناظراً زمن المستنصر، قال ابن الساعي: «وفوَّض إليه المستنصر أمر خزانة الكتب بمدرسته»[1]، وكان المشرف على الخزانة شيخ المدرسة محيي الدين محمد بن عبد الله بن محمد الواسطي العاقولي الفقيه (ت 768 هـ/ 1366 م)، حصَّل مشيخة المستنصرية والإفادة بها عن والده، والإشراف منها على خزانة الكتب[2]، ومن العلماء الذين تعاقبوا على الإشراف على خزانة الكتب: علي بن الحسن بن أنجب بن عثمان الساعي (ت 674 هـ/ 1274 م)[3] المؤرخ الفقيه، ومنهم الخطاط المشهور جمال الدين ياقوت المستعصمي (ت 698 هـ/ 1298 م)[4]، ومحيي الدين أبو حامد يحيى بن شمس الدين أبي المجد الخالدي شيخ ابن الفوطي[5]. ومن الخزنة عبد الرزاق بن أحمد بن الفوطي

---

(1) الحوادث الجامعة ص 54.

(2) ابن رافع السلمي: منتخب المختار ص 185، ابن العماد: شذرات الذهب 4/ 87.

(3) ابن العماد 5/ 343، ابن الساعي ص 386.

(4) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الألقاب ص 458 ـ 459.

(5) ابن الفوطي ص 184.

المؤرخ الأديب الذي أسر عند غزو التتر سنة 656 هـ/ 1258 م، وولي بعد إطلاق سراحه خزانة كتب المستنصرية[1]، وكان ابن الفوطي مؤلفاً بارعاً مكثراً، حتى قيل إن مؤلفاته بلغت (وَقْرَ بعير)، وكان يكتب في كل يوم أربع كراريس بخطه الفائق الرائق، ويكتب وهو نائم على ظهره[2]، وكُلف ابن الفوطي فيما بعد بخزانة كتب الرصد بمراغة بضع عشرة سنة، وكان بصيراً بالكتب النفيسة فيها، عارفاً بالمؤلفات التاريخية التي لا تحصى، ثم عاد إلى بغداد، فولي خزانة كتب المستنصرية، فبقي متولياً عليها إلى أن مات سنة 723 هـ/ 1323 م، ويقال إنه ليس في البلاد أكثر من هاتين الخزانتين اللتين باشرهما[3]، ويذكر من المناولين في المكتبة محمد بن سعيد الحدادي، صاحب ابن الساعي ووصيُّه، وابنه عبد الرحيم بن محمد المناول.

وكانت نهاية هذه الخزانة العظيمة عند استيلاء المغول على بغداد سنة 656 هـ/ 1258 م، وتدمير معالم العلم والعمران فيها، ويبدو أن جانباً كبيراً من هذه الخزانة قد نُقل من بغداد إلى مراغة عند استيلاء المغول على العراق، فقد ذكر ابن شاكر الكتبي وكذلك الصفدي في ترجمة نصير الدين الطوسي، أن نصير الدين: «كان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه... وابتنى بمراغة قُبَّة ورصداً عظيماً، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمَّع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد»[4]، أما ابن عنبة المتوفى سنة 828 هـ/ 1424 م فيقول في خزانة المستنصرية: «والظاهر أنه لم يبق منها شيء، والله الباقي»[5].

---

(1) ابن شاكر: فوات الوفيات 1/ 272 ـ 273، ابن كثير: البداية والنهاية 14/ 106.

(2) ابن شاكر: فوات 1/ 273.

(3) الذهبي: تذكرة الحفاظ 4/ 275.

(4) ابن شاكر: فوات الوفيات 2/ 149، الصفدي: الوافي بالوفيات 1/ 179.

(5) ابن عنبة: عمدة الطالب ص 82.

4 ـ خزائن الخلفاء والأمراء:

خزانة الراضي:

عرف الخليفة الراضي[1] الذي ولي الخلافة سنة 322 هـ/ 943 م بميوله الأدبية، وكان ـ كما يقول الصولي ـ : «أعلم الناس بالشعر، فكنت أتنخَّل له الألفاظ، وأختار علوي الكلام»[2]، وكانت له خزانة كتب منذ صباه، وقبل أن يصبح خليفة، ذكر الصولي أنه كان يؤدب الراضي وأخاه هارون، وقال: «دخلت إليهما فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين، إلا أنهما خاليان من العلوم، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك، وكان الراضي أذكاهما وأحرصهما على الأدب، فحبَّبت العلم إليهما واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، فتنافسا في ذلك، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه، وقرآ عليَّ الأخبار والأشعار»[3]، وكانت تلك نواة مكتبة الراضي، ثم لما ولي الخلافة اتسعت هذه الخزانة، وزوِّدت بنفائس الكتب، وقد ذكر الصولي كيف نمت وأثريت خزانة الراضي بحيث صار فيها وراقون ومجلدون، وذلك في رواية حول اختلاف قراءة بيت من الشعر للشاعر نهشل بن حري، فطلب الديوان في الخزانة فلم يجده، قال الصولي للراضي يحرضه على اقتناء خزانة كتب كبيرة: «وهذا أيضاً عجب، يتحدث الناس بأن سيدنا، مع جلالة علمه وعلو نعمته، عمل خزانة كتب كما عمل متقدمو الخلفاء، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد، قال: فما الحيلة وقد شُغلنا بغيرها؟ قلت: كتب عبيدك لك، فتبتدىء في عمل الأشعار من الخزانة، تبدأ بمضر ثم ربيعة، ثم اليمن، فما لم يكن فيها حمله عبيدك من كتبهم، وما كان سماعاً لعبيدك أو شيئاً لا يعتاضون منه، نسخه ورَّاقوك الذين تجري عليهم، وجلَّده مجلدو الخزانة، فسكت

---

(1) ترجمته في: ابن الأثير: الكامل 89/8، ابن كثير: البداية والنهاية 196/11، البغدادي: تاريخ بغداد 142/2.

(2) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، من كتاب الأوراق ص 191.

(3) السابق ص 24 ـ 25.

كالمفكر، فقلت له: إن الذين قلته ليس لشيء أجتلبه، إنما هو حيف على كتبي، ولكني آنف أن يتحدث الناس بشيء يفعله سيدنا لا يكون في نهاية الجلالة، فقال: ويحك، فإذا جاء ما يُشغل كيف نصنع؟ قلت: يجعل سيدنا هذه الخزانة للأميرين[1]، ويقتصر على ما يريد النظر فيه. قال: أما هذا فنعم. فأمر بإخراج الكتب إليه يوماً يوماً، وأجلسنا فميزناها وقسمها بين يديه، وبين إبنيه، واقتصر على ما أراد، ووهب لنا الباقي، فاقتسمناه، وكان أكثره ما يباع وزناً»[2].

لا شك أن خزانة الراضي قد ضمت نفائس الكتب، ومن تلك النفائس كتاب ورد من ملك الروم إلى الراضي، وصفه ابن الجوزي في حوادث سنة 326 هـ/ 937 م، بأنه مكتوب بالرومية بالذهب، والترجمة بالعربية بالفضة، يطلب منه الهدنة، ومعه هدايا هي أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر، وقضبان فضة وثياب ومناديل، وأشياء كثيرة فاخرة، فقبل الراضي الهدايا، وأذن بهدنة سنة[3]، وكانت وفاة الراضي سنة 329 هـ/ 940 م.

خزانة كتب سيف الدولة الحمداني:

سيف الدولة الحمداني، علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي الربعي 303 ـ 356 هـ/ 915 ـ 967 م[4]، أنشأ خزانة كتب في حلب، جمع فيها نفائس الكتب، وكان سيف الدولة مولعاً بالكتب، محباً للشعر، يبذل ماله وأهله من العلماء والشعراء، ولذلك اجتمع في بابه من العلماء والأدباء والشعراء ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء.

لقد تولى إدارة المكتبة الخالديان الشاعران، وكان فيها عشرة آلاف

---

(1) هما ولدا الراضي: أبو جعفر وأبو الفضل عبدالله، ولم يليا الخلافة.

(2) الصولي: أخبار الراضي والمتقي ص 39 ـ 40، كوركيس عواد ص 116.

(3) المنتظم 6/293، والخبر في ابن الأثير 8/264، وابن كثير 11/188، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 3/262 ـ 263.

(4) ترجمته في: الثعالبي: يتيمة الدهر 1/8 ـ 22، ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/364، ابن العديم: زبدة الحلب 1/111 ـ 152.

مجلد، وقفها سيف الدولة وغيره، وممن كلف بحفظ الكتب فيها ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب أبو الحسن الحلبي العالم الشيعي، وكان لغوياً كبيراً، وكان قد وضع كتاباً تعرَّض فيه لابتداء الدعوة الإسماعيلية وكشف عوارها وفساد دعوتهم، فأرسل إلى صاحب مصر الفاطمي الذي أمر بقتله، فصُلب بيد الإسماعيلية في حدود سنة 460 هـ/ 1067 م[1]، وأحرقت الإسماعيلية خزانة الكتب هذه انتقاماً من ثابت بن أسلم، وربما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة[2].

خزانة المستنصر الأموي في قرطبة:

هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبدالله، خليفة أموي أندلسي ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه سنة 350 هـ/ 961 م[3]، وكان أبوه عبد الرحمن الناصر أول خليفة في الأندلس انصرف إلى العلم وقرب العلماء، وطالع كتب العلوم والآداب وجمعها في خزائنه، فقد كان يبعث الرسل لشراء الكتب والنفائس والذخائر، من ذلك أنه بعث العباس بن ناصح الثقفي إلى بغداد بالأموال، فاشترى له كل غريب[4]، وطلب عبدالرحمن الناصر من رومانس قيصر القسطنطينية أستاذاً يعلم أتباعاً له ليصبحوا مترجمين في دواوين الدولة، فأرسل له القيصر راهباً حاذقاً اسمه نقولا للقيام بتلك المهمة[5].

وقد ورث المستنصر بالله الحكم الثاني (ولي سنة 350 ـ 366 هـ/ 961 ـ 976 م) عن أبيه عبد الرحمن الناصر حب العلم والأدب والقراءة واقتناء الذخائر والكتب، فقد كان الحكم عالماً كبيراً، بل كان أعلم خلفاء الأندلس

---

(1) الذهبي: المنتقى من تاريخ الإسلام 1219، ابن قاضي شهبة: طبقات النحاة ص 237.
(2) كرد علي: خطط الشام 6/191، فيليب دي طرازي: خزائن الكتب ص 122، يوسف العش: دور الكتب ص 160.
(3) ترجمته في: ابن الأثير 8/224، ابن خلدون 4/144، المقري: نفح الطيب 1/180، أزهار الرياض 2/286 ـ 294، ابن سعيد الأندلسي: المغرب 1/181.
(4) محمد الغساني: رحلة الوزير في افتكاك الأسير ص 20، دي طرازي ص 245.
(5) نوفل نوفل: زبدة الصحائف في أصول المعارف ص 45.

من بني أمية، وقد حرص أبوه على تعليمه وتهذيبه، فاستحضر له صفوة العلماء من الشرق والغرب، ومن أولئك العلماء أبو علي القالي، وقيل إن لذة الحكم الثاني في الحياة كانت مطالعة الكتب ومجالسة العلماء ومذاكرتهم في شتى العلوم، وكان ذا غرام بالمعارف كثير القراءة والتعليق على ما يقرأ، وقلما وُجِد كتاب في خزانته إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، وكان يكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، مع تعليقات نفيسة تدل على سعة علمه وصحة اطلاعه، وقد ازدهرت الحركة العلمية في عهده، وكثرت تآليف العلماء في كل فن، وترجم بعضها إلى اللغة الإسبانية أو اللاتينية، وكان بلاطه عامراً بالأدباء والعلماء ورجال الصناعة والفن[1].

وقد أثرى الحكم الثاني خزانته بكل نادر ونفيس، فكان يرسل التجار لشراء الكتب من شتى الأقطار، وكان ينفق بسخاء في اقتناء الكتب، من ذلك أنه أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة من كتاب الأغاني، قبل أن يخرجه إلى العراق، وكان في خزانته جمهرة من النساخ والمجلدين والخزنة، جعلوا من هذه الخزانة أروع خزانة كتب عرفتها ديار الأندلس.

وقد حوت خزانة المستنصر بالله كتباً كثيرة، اختلف المؤرخون في عددها، فجعلها بعضهم أربعمائة ألف مجلد، وجعلها آخرون أكثر من ذلك، وقد قوَّم الذهبي قيمة كتب الحكم بقوله: «ولعل كتبه كانت تساوي أربعمائة ألف دينار»[2]، وقد ذكر ابن خلدون أن أسماء دواوين الشعر في تلك المكتبة كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة، وأثبت وليم درابر في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) أن مكتبة خلفاء بني أمية في قرطبة اشتملت على ستمائة ألف مجلد، وكان فهرس أسماء تلك الكتب يتألف من أربعة وأربعين مجلداً[3].

---

(1) كامل الكيلاني: نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص 225.

(2) المقري: نفح الطيب 1/182، 186.

(3) دي طرازي ص 245.

وقد ازدهرت الحياة العلمية في عهد المستنصر الثاني، وتنافس الوزراء والوجهاء في اقتناء الكتب، فأنشأوا المكتبات في جميع أنحاء المملكة، وأحصي عدد دور الكتب في الأندلس فبلغ سبعين مكتبة عامة في غرناطة، فضلاً عن المكاتب الخاصة، وكان في كل مكتبة معاهد للترجمة والنساخة والمطالعة، وقد شاع نسخ الكتب وعملت فيه النساء فضلاً عن الرجال، فقد روى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة، قال: «كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها»[1]، وصار اقتناء الكتب عند الأندلسيين من علائم التأنق ومقتضيات الوجاهة[2].

وكان مصير هذه الخزانة العظيمة الرائعة، مصير الأندلس الذي لعبت به أهواء الحكام، فتشتتوا واقتسموا الدولة، وسموا أنفسهم (ملوك الطوائف)، وكثرت الفتن والحروب، وضاع ملكهم ودخل في حوزة الإسبان، وكان مصير خزائن الكتب أن أحرق الاسبان جانباً منها على جاري عادة رجال الفتح في تلك الأيام[3].

خزانة العزيز بالله الفاطمي:

أنشأها العزيز بالله نزار بن معد (المعز لدين الله) بن المنصور العبيدي، صاحب مصر والمغرب (344 ـ 386 هـ/ 955 ـ 996 م)[4] في مصر، وكان قد اتخذ وزيراً نابهاً من الكُتَّاب الحُسَّاب، هو يعقوب بن كلس، وفوَّض إليه النظر في جميع شؤون الدولة، فرتب الدواوين وقرَّب العلماء إلى الخليفة، وأجرى لهم الأرزاق، ثم رغب الخليفة في جمع المخطوطات، فاقتنى منها

(1) مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 2 ص 265، سنة 1922.
(2) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي 3/208.
(3) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٣/١١٣.
(4) ترجمته في: ابن خلكان 2/152، المقريزي: الخطط 2/284، ابن خلدون: التاريخ 4/51، ابن الأثير: 8/220، 9/40.

طائفة عظيمة، وخصص لها جانباً من قصره، ودعاها (خزانة الكتب)، ولم تلبث هذه الخزانة أن فاقت كل الخزائن الإسلامية في العالم في ذلك الحين[1].

وقد ذُكرت أعداد الكتب في مختلف العلوم والفنون، فقيل إنها بلغت مليوناً وستمائة ألف كتاب، في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء[2]، وفيها ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة، وستة آلاف وخمسمائة جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة، غير أدوات الهندسة والفلك[3]، ولعل في هذه الأعداد مبالغة، وقد يُراد بها مجموع ما في خزانة العزيز بالله وخزائن القصور الأخرى من قصور الأمراء.

لقد حوت هذه الخزانة مؤلفات نفيسة، فيها نسخ كثيرة من بعض المؤلفات، من ذلك أنه وُجد فيها ثلاثون نسخة من (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي، إحداها بخط الخليل نفسه، وعشرون نسخة من (تاريخ الطبري)، ومئة نسخة من (كتاب الجمهرة) لابن دريد، وقد ازدادت نسخ بعض الكتب حتى ليقال إنه بلغت نسخ تاريخ الطبري ألفاً ومائتين عند انقراض خلافة الفاطميين وقيام الدولة الأيوبية سنة 567 هـ/ 1171 م، هذا عدا المصاحف التي حوتها المكتبة، وعدا بعض القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من الخطاطين المشهورين، ومن الطرائف التي حوتها هذه المكتبة خارطة مرسومة بالذهب والفضة، فيها صورة أقاليم الأرض، وصفها مصطفى نجيب بقوله: «دخل هذه المكتبة أحد السياح، فرأى فيها مقطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها، وجميع المواطن المقدسة، مُبَيَّنة للناظر، ومكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وأنهارها وبحارها بالذهب، وغيرها بالفضة والحرير،

---

(1) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 261، دي طرازي: خزائن الكتب ص 177.

(2) المقريزي: خطط 10/ 408.

(3) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي 3/ 208 ـ 209.

فقال السائح: يكفيني من عجائبك هذا»[1].

وكان العزيز بالله يُعنى عناية كبيرة بخزانته، يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين، وقد رتب لها قَيِّماً يتولى شؤونها، وكان يجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه، وممن تولى ذلك أبو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة 390 هـ/ 999 م[2].

وكان مصير هذه الخزانة العظيمة، مصير غيرها من الخزائن التي عصفت بها الفتن والمحن، فقد أحرق بعضها، ورُمي بعضها الآخر في النيل، وبيع قسم منها عند وصول الأكراد في أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)[3].

خزانة كتب نوح الساماني في بخارى:

هو الأمير نوح بن منصور الساماني أبو القاسم الملقب بالرضى (353 ـ 387 هـ/ 964 ـ 997 م) أمير ما وراء النهر وسلطان بخارى[4]، كان محباً للعلم، وقد قرَّب الحكماء والأدباء والشعراء، وقيل إنه أول من اقترح نظم (الشاهنامة) في اللغة الفارسية، عهد في ذلك إلى شاعره (الدقيقي)، الذي نظم بعضها ثم قتل، فأشار محمود الغزنوي سلطان بخارى إلى الفردوسي شاعر الفرس أن يتم نظم الشاهنامة، ففعل ونسبت إليه[5].

لقد أنشأ الأمير نوح الساماني خزانة كتب كبيرة، وقد زارها الشيخ الرئيس ابن سينا (370 ـ 428 هـ 980 ـ 1036 م)، وكان الأمير نوح قد مرض، فعالجه ابن سينا وأبرأه، وقد اطلع ابن سينا في هذه الخزانة على كتب الطب، ومكث فيها، ووصف الخزانة بقوله: «دخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل

---

(1) مصطفى نجيب: حماة الإسلام ص 106، دي طرازي ص 178.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/338.

(3) دي طرازي ص 179.

(4) ترجمته في: ابن الأثير 8/223، 9/34، 37، 44، ابن خلدون 4/352، ابن كثير 11/323، ابن تغري بردي 4/198.

(5) دي طرازي: خزائن الكتب ص 170 ـ 171 ولم يذكر مصدره.

بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي بيت آخر كتب الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد، فطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد».

وكانت نهاية هذه الخزانة العظيمة الرائعة أن احترقت والتهمتها النيران[1]، وقيل إن ابن سينا احتال على إحراقها لينفرد بمعرفة ما درسه من كتبها[2]، وهذا أمر لا يصدق، ولا يتوقع أن يصدر من عالم كبير كابن سينا، ولا بد أن يكون الخبر من تلفيق خصومه ومناوئيه.

خزانة الناصر لدين الله العباسي:

هو أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد، أبو العباس الناصر لدين الله (553 ـ 622 هـ/ 1158 ـ 1225 م)[3]، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 575 هـ/ 1180 م، وبقي في الحكم مدة طويلة بلغت حوالي سبع وأربعين سنة، وقد كان قوياً حازماً أعاد للخلافة هيبتها بعد أن دبَّ فيها الضعف والانحلال.

وكان للناصر خزانة كتب كبيرة، فيها كتب كثيرة من مختلف العلوم والفنون، ومما يُستدل على ضخامة هذه الخزانة، أنه أخرج منها كتباً لثلاث خزائن هي: خزانة دار المسناة، وخزانة الرباط الخاتوني السلجوقي، وخزانة المدرسة النظامية، وكلها ببغداد، وقد أوضح ذلك القفطي في ترجمة مبشر بن أحمد بن الرشيد الحاسب الملقب بالبرهان، قال إنه: «تميز في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد وقرب منه، واعتمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 2/ 336.
(2) الزيات: تاريخ الأدب العربي ص 333 ـ 334، دي طرازي ص 171.
(3) ترجمته في: ابن الأثير 11/ 173، ١٢/ ١٦٨، الديار بكري: تاريخ الخميس 2/ 366، المقريزي: السلوك 1/ 217.

الخاتوني السلجوقي، وبالمدرسة النظامية، وبدار المسناة، فإنه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها»[1]، ودار المسناة هذه بناها الخليفة الناصر لدين الله على ضفة دجلة اليسرى، ووقف عليها خزانة كتب، ونقل الكتب إليها وإلى غيرها من الخزائن، من خزانته بالدار الخليفية، وإن الخليفة اعتمد أبا الرشيد مبشر بن أحمد بن علي الرازي البغدادي الحاسب الملقب بالبرهان، في اختيار الكتب المنقولة إلى خزانة دار المسناة[2]، أما الخزانة الثالثة وهي خزانة الرباط الخاتوني التي وقفها الخليفة وأخرج لها كتباً كثيرة من خزانته، فهي في تربة زوجته سلجوقة خاتون، بباب البصرة من الجانب الغربي ببغداد، وكانت سلجوقة خاتون زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، فلما توفي عنها تزوجها الخليفة، وكان يحبها، فلما توفيت سنة 584 هـ/ 1188 م، بنى على قبرها تربة، وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة[3]، وقد اختار الخليفة الناصر لدين الله كتب هذه الخزانة، من خزانته بالدار الخليفية، وأنه اعتمد في اختيارها على ابن الرشيد مبشر بن أحمد الحاسب الملقب بالبرهان (توفي الحاسب سنة 589 هـ/ 1193 م)، ومن خزنة هذه الخزانة أيضاً، أبو محمد عبد العزيز بن دلف البغدادي المعروف بالخازن والناسخ (ت 637 هـ/ 1239 م)، ومن كتب هذه الخزانة كتاب الدول في التاريخ، لعلي بن فضال القيرواني المتوفى سنة 479 هـ/ 1086 م، وهو كتاب كبير رآه ياقوت، قال: «رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلداً، ويعوزه شيء آخر»[4].

وقد وقف بعض العلماء كتبهم على هذه الخزانة، من ذلك خمسمائة مجلدة من كتب نجاح بن عبدالله الملقب نجم الدولة شرابي الخليفة الناصر لدين

(1) أخبار الحكماء ص 269.
(2) القفطي: أخبار الحكماء ص 269.
(3) ابن الأثير: تاريخ 12/16، والرملة محلة ببغداد في مشرعة الكرخ إلى دجلة، وهي في الجانب الغربي (ياقوت: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص 210).
(4) ياقوت: إرشاد الأريب 5/290.

الله، وقفها حين وفاته في تربة أم الخليفة، وكُتب عليها اسم الشرابي[1].

وكانت وفاة الخليفة الناصر لدين الله سنة 622 هـ/ 1225 م، وقد جرى على هذه الخزائن ما جرى على مثيلاتها من خزائن الخلافة العباسية.

خزانة المستنصر بالله العباسي:

المستنصر بالله هو منصور بن محمد (الظاهر بأمر الله) بن الناصر بن المستضيء 588 ـ 640 هـ/ 1192 ـ 1242 م، ولي بعد وفاة أبيه سنة 623 هـ/ 1226 م، وكان جده يسميه القاضي لوفرة عقله[2]، وللمستنصر بالله جهود كبيرة في الحضارة والعمران، ومآثر جليلة باقية على مدى الزمان، من ذلك تأسيسه المدرسة المستنصرية التي مر ذكرها، وكانت له خزانة خاصة غير خزانة المدرسة المستنصرية التي أنشأها ونقل إليها في يوم افتتاحها من كتبه الخاصة جملة صالحة من الكتب، ذكر تفصيل ذلك ابن الفوطي في قوله: «نقل إليها في هذا اليوم من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية، ما حملها مائة وستون حمالاً، وجُعلت في خزانة الكتب، وتقدم (أي أمر نصير الدين ابن الناقد نائب الوزارة) إلى الشيخ عبدالعزيز (ابن دلف الخازن) شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها[3]، وإلى العدل ضياء الدين أحمد، الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً، فحضرها واعتبرها، ورتبها أحسن ترتيب، مفصلاً لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها»[4]، ومن

---

(1) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 8/394 ـ 395، وينظر في هذه الخزانة، مصطفى جواد: دور العلم العراقية في العصور العباسية، مجلة عالم الغد، العدد 4، ص 14، وكوركيس عواد: خزائن الكتب ص 158 ـ 159.

(2) ترجمته في: الكامل 12/177، أبو الفداء: المختصر 3/171، الديار بكري: تاريخ الخميس 2/370، المقريزي: السلوك 1/311، ابن خلدون 3/536.

(3) إثبات الكتب: أي كتابة أسمائها في دفتر أو ثبت، والاعتبار يقابلها (الجَرْد) في زماننا، يقال: اعتبر الكتب أي فحصها واحداً واحداً، والجرد لفظ مولد لم يرد في معجمات اللغة، ينظر: خزائن الكتب ص 122.

(4) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 54.

نص ابن الفوطي هذا يتبين أن خزانة المستنصر بالله الخاصة كانت كبيرة وحافلة بمختلف العلوم، وكان فيها خازن هو العدل ضياء الدين الذي توفي سنة 640 هـ/ 1242 م، وكان هناك خازن آخر، هو القاضي أبو محمد عبدالله البادرائي، الذي رُتِّب مدرساً بالمدرسة النظامية وخُلع عليه، وأقر على خزن الكتب بخزانة الخليفة، وأذن له أن يدخل المدرسة بطرحة أسوة بالمدرسين[1].

وكانت وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة 640 هـ/ 1242 م.

خزانة المستعصم بالله العباسي:

هو عبدالله المستعصم بالله بن منصور (المستنصر) بن محمد (الطاهر) بن أحمد (الناصر)، من سلالة هارون الرشيد، آخر خلفاء الدولة العباسية 609 ـ 656 هـ/ 1212 ـ 1258 م، ولي الخلافة والدولة في تضعضع وانحلال، ولم يبق للخلفاء منها غير دار الملك ببغداد، وكان زمام الأمور بيد القواد والأمراء، واعتمد الخليفة على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي، الذي كاتب هولاكو ويسر له احتلال بغداد، وقتل الخليفة سنة 656 هـ/ 1258 م[2].

عُرف المستعصم بحبه العلم والكتب، فقد عمَّر أول توليه الخلافة خزانة كتب، وأمر أن يُختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره، وكانت الخزانة بإشراف الشيخ صدر الدين بن النيار، قد سلمها إليه في يوم مبايعته بالخلافة سنة 640 هـ/ 1242 م، قال ابن الفوطي: «تقدم الخليفة بإحضار شيخه العدل شمس الدين علي بن النيار، فحضر عنده وأكرمه، وسلم إليه خزانة الكتب التي لخاصته، وأمره بالترداد والملازمة»[3]، وكان الخليفة يحضر ويقضي فيها بعض وقته، فقد ذكر الشيخ صدر الدين قال: «دخلت مرة إلى خزانة الكتب على

(1) السابق ص 147 ـ 148.

(2) ترجمته في: ابن خلدون 3/536، والديار بكري: تاريخ الخميس 2/372، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/237، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 7/63.

(3) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 163.

عادتي، وفي كُمِّي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج، فطرحت المنديل وفيه الرقاع في موضعي، ثم قمت لبعض شأني، فلما عدت إلى الخزانة بعد ساعة، حللت الرقاع من المنديل حتى أتأملها وأقدم منها المهم، فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة بالإجابة إلى جميع ما فيها، فعلمت أن الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامي، فرأى المنديل وفيه الرقاع، ففتحها ووقع على جميعها»[1]. وكان الخليفة قد أنشأ آخر عهده خزانة أخرى جديدة وكان خازنها عبد المؤمن الأرموي، قال ابن الطقطقي: «وكان قد استجد في آخر أيامه خزانة كتب، ونقل إليها من نفائس الكتب، وسلم مفاتيحها إلى عبدالمؤمن الأرموي، فصار عبدالمؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد، وإذا خطر للخليفة الجلوس في خزانة الكتب جاء إليها وعدل عن الخزانة الأولى التي كانت مسلمة إلى الشيخ صدر الدين علي بن النيار»[2]، لقد كان للمستعصم خزانتان، الأولى القديمة وخازنها ابن النيار، والثانية الجديدة وخازنها عبدالمؤمن الأرموي، وكان الخليفة يقضي بعض أوقاته في الخزانة الجديدة، يجلس فيها في موضع مخصص له، وقد ذكر الأرموي حادثة جرت في الخزانة، وفيها ما ينم عن خلق الخليفة وسماحته، قال: «كنت مرة جالساً في حجرة صغيرة، وأنا أنسخ، وهناك مرتبة برسم الخليفة، إذا جاء إلى هناك جلس عليها، وقد بسطت عليها ملحفة لترد عنها الغبار، فجاء خويدم صغير ونام قريباً من المرتبة المذكورة، واستغرق في النوم، فتقلب حتى تلفف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة، ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند، قال: وأنا مشغول بالنسخ، فأحسست بوطء في الدهليز، فنظرت فإذا هو الخليفة وهو يستدعيني بالإشارة، ويخفف وطأه، فقمت إليه منزعجاً، وقبلت الأرض، فقال لي: هذا الخويدم الذي قد نام حتى تلفف في هذه الملحفة، وصارت رجلاه على المسند، متى هجمت عليه حتى يستيقظ ويعلم أني قد شاهدته على هذه الحال، تنفطر مرارته من الخوف، فأيقظه أنت برفق، فإني سأخرج إلى البستان ثم أعود. قال: وخرج الخليفة

---

(1) ابن الطقطقي: الفخري ص 384 ـ 385.

(2) السابق ص 383.

فدخلت إلى الخويدم، وأيقظته، فانتبه ثم أصلحنا المرتبة، ثم دخل الخليفة»[1].

ومن علائم اهتمام الخليفة المستعصم بالله بالكتب، أنه كان يزين جوانب خزائنه بالأشعار، فقد نقل ابن الفوطي في حوادث سنة 641 هـ/ 1243 م أن الخليفة: «أمر بعمل خزانة للكتب في داره، وكتب على جهاتها أشعار، منها ما نظمه صفي الدين عبد الله بن جميل، متقدم شعراء الديوان[2]:

أنشا الخليفةُ للعلوم خزانةً ... سارت بسيرة فضله أخبارُها

تجلو عروساً من غرائب حُسنها ... درُّ الفضائل والعلوم نثارُها

أهدى مناقبه لها مستعصمٌ ... بالله من لألائه أنوارُها

وقد ورد ذكر خزانتي المستعصم في غير كتاب من كتب التاريخ والبلدان، وعينوا موضعهما، من ذلك ما ذكره ابن عبدالحق البغدادي في كلامه على (منظرة الريحانيين) قال: «منظرة على السوق المشهورة المعروفة بالريحانيين في وسط بغداد، يباع فيها الرياحين والفواكه، ويتصل بسوق الصرف وغيره، وهذه المنظرة أحدثها المستظهر بالله، وهي متصلة بالدار التي كان يسكنها الخليفة، ومن ورائها بستان كبير متسع، وفيه خزانتان متقابلتان للكتب، أنشأهما الإمام الشهيد المستعصم بالله من وراء المنظرة، وهي بباب بدر، وهو أحد أبواب الخلافة، وكان أولاً يسمى بباب الخاصة، يدخل منه من سمت منزلته، ثم نسب بعد ذلك إلى بدر أحد خواص الخدم»[3].

وكان مصير هذه الخزائن العباسية النفيسة، الخراب والدمار والحرق والتغريق والنهب على يد المغول عند اجتياحهم بغداد، عاصمة الخلافة العباسية.

(1) ابن الطقطقي ص 384.
(2) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 184.
(3) عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع في أسماء البقاع 3/162 (دار الرياحين).

خزانة كتب أبي الفداء صاحب حماة:

هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة 672 ـ 732 هـ/ 1273 ـ 1331 م، مؤرخ جغرافي قرأ الأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب وعلم الهيأة، ونظم الشعر والموشحات[1]، كان من نوابغ أهل زمانه علماً وذكاء، حتى أطلق عليه قلب (عالم الملوك وملك العلماء)، كان يقرب إليه أهل العلم ويرتب لهم الجواري والأرزاق، وكان في خدمته نحو مائتي عالم وفقيه وأديب وفيلسوف وكاتب[2].

بني أبو الفداء جامعاً بظاهر حماة سمي بجامع الدهشة، وقف فيه كتباً قيل إنها ما اجتمعت لغيره في سائر الفنون، فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً[3]، وقد اجتمعت له طائفة من الكتب النفيسة المختلفة، ثم وقفها كلها على جامع الدهشة، وقد بلغت سبعة آلاف مجلدٍ[4]، وضعها بين أيدي الخاصة والعامة لينهلوا منها، وقيل إنه لما مرض فرّق كثيراً منها[5].

وكان مصير هذه الخزانة العظيمة مصير غيرها من الخزائن الإسلامية، فحين أغار تيمورلنك على بلاد الشام سنة 804 هـ/ 1401 م نهبها وأحرقها وأعمل السيف في أهلها، وأحرق ونهب المدينة، وقيل إنه باع كتبها بأبخس الأثمان[6].

---

(1) ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية 4/158، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة 1/371، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/16، النجوم الزاهرة 9/292.

(2) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 3/265.

(3) ابن حجة الحموي: ثمرات الأوراق 1/75.

(4) كرد علي: خطط الشام 6/193.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة 1/373.

(6) دائرة معارف القرن العشرين 8/57، هارولد لامب: تيمورلنك، الترجمة العربية ص 120 ـ 121، يوسف العش ص 275 ـ 276، دي طرازي ص 125 ـ 126.

خزائن كتب العلماء الخاصة:

لكل عالم كتبه الخاصة، وما كان ينسخه لنفسه، أو يشتريه أو يُهدى إليه من كتب، وكان لبعض العلماء مكتبات ثرية عامرة، وجاءت عنها معلومات وأوصاف في كتب التراث، وبعضهم الآخر - مع شهرتهم وحبهم للكتاب - لم تعرف لهم مكتبات عامرة، وكانت كتبهم قليلة ومحدودة، ولا شك أن لدى الأدباء المشهورين من أمثال الجاحظ وأبي حيان التوحيدي وياقوت الحموي وابن النديم، مكتبات عامرة، ولكن ليس لدينا وصف لها أو علم عنها، ولا ذكر واف عن محتوياتها، ولذلك سنقف عند خزائن كتب العلماء الذين جاءت عن خزائنهم معلومات وافية، واشتهروا بمكتباتهم العامرة، ذاكرين ذلك وفق التسلسل التاريخي لوفيات العلماء.

خزانة كتب الواقدي:

محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني، أبو عبدالله الواقدي (130 ـ 207 هـ/ 747 ـ 823 م)، من أقدم المؤرخين في الإسلام وأشهرهم، كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح والفقه والأحكام والأخبار، ومن حفَّاظ الحديث، وقد صنف كتباً كثيرة، انتقل إلى بغداد وولي القضاء للمأمون بعسكر المهدي[1].

كان للواقدي خزانة كتب عامرة، فيها كثير من الكتب النفيسة، بلغت مائة وعشرين وقرا[2]، ولما توفي الواقدي خلف كتباً كثيرة، قال ابن النديم: «قرأت بخط عتيق، قال: خلَّف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً، كل قمطر منها حمل رجلين، وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار، وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار»[3].

---

(1) ترجمته في: الذهبي: تذكرة الحفاظ 1/317، ابن خلكان 1/506، البغدادي: تاريخ بغداد 3/3 ـ 21، الذهبي: ميزان الاعتدال 3/110.

(2) البغدادي: تاريخ بغداد 3/5، ياقوت: إرشاد 7/57 ـ 58.

(3) الفهرست ص 98.

خزانة كتب ابن الزيات:

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر المعروف بابن الزيات (173 ـ 233 هـ/ 789 ـ 847 م)، وزير المعتصم والواثق العباسيين، عالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتاب والشعراء، كان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم[1].

كان لابن الزيات خزانة كتب عامرة، حافلة بمختلف العلوم والفنون، وكان له نقلة ونُسَّاخ ينسخون له، وترجم له العلماء والأطباء كتباً من اليونانية، وكان يغدق على النساخ والمترجمين في كل شهر ألفي دينار[2]، وفي الرواية التالية التي رواها الجاحظ دلالة على غنى خزانة ابن الزيات، وحرصه على الكتب النفيسة التي قرأها ووثقها العلماء، قال الجاحظ: «أردت الخروج إلى محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم، ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه قلت: لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفرَّا، فقال: والله ما أهديت لي شيئاً أحبَّ إليَّ منه، ورأيت في بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه، وأعلمه به قبل إحضاره، فقال له ابن الزيات: أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخط الفرَّاء، ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ، يعني نفسه، فقال ابن الزيات: هذه أجلُّ نسخة توجد وأعزها، فأحضرها إليه، فَسُرَّ بها ووقعت منه أجمل موقع»[3].

(1) ترجمته في: ابن خلكان 2/54 الطبري 11/27، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 2/342، البغدادي: خزانة الأدب 1/215 ـ 216، البديعي: هبة الأيام ص 76 ـ 82، كرد علي: أمراء البيان 1/278 ـ 306.

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/206.

(3) ابن خلكان: وفيات 1/549، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 12/196، الأنباري: نزهة الألباء ص 74 ـ 75، ياقوت: إرشاد 6/85 ـ 86.

خزانة كتب أبناء موسى بن شاكر:

موسى بن شاكر (ت 200 هـ/ 815 م) من منجمي المأمون، كان في شبابه من قطاع الطرق، وتاب فدخل في خدمة المأمون، وتعلم التنجيم وهيئة الأفلاك، ثم مات وأبناؤه صغار، فجعلوا في بيت الحكمة ونبغوا، وأبناؤه هم: محمد وأحمد والحسن[1]، وأكبرهم محمد بن موسى بن شاكر (259 هـ/ 873 م)، كان عالماً بالهندسة والحكمة والموسيقي والنجوم، وينسب لبني موسى (حيل بني موسى في الميكانيك)، وقد وُصف أبناء موسى بأنهم: «ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذل فيها الرغائب، وأتبعوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة»[2]، وقال القفطي كذلك: «وممن عُني بإخراج الكتب من بلاد الروم، محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم، وبذلوا في ذلك الرغائب، وأحضروا الغرائب منها، في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب وغيرها»[3]. ومعنى هذا أنهم حازوا كتباً كثيرة نفيسة، وإذا كنا لا نجد وصفاً وافياً لخزانتهم، وذكراً واضحاً لمحتوياتها، فمما لا شك بأنها حوت كتباً كثيرة من كتب الطب والهندسة والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم التي كانوا يعنون بها، وكان بنو المنجم بالإضافة إلى ولعهم بالعلوم واستقدام الكتب واقتنائها وحفظها وترجمتها من اليونانية والسريانية، فإنهم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، ويبذلون لهم الأموال، ومن أولئك النقلة حنين بن إسحاق، وحُبيش بن الحسن، وثابت بن قُرَّة وغيرهم، في الشهر خمسمائة دينار، للنقل والترجمة والملازمة،

(1) ترجمتهم في: ابن النديم: الفهرست ص 271، صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 55، القفطي: أخبار الحكماء ص 30 ـ 31، 315 ـ 316، 441 ـ 443، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/ 187، 205، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 264 ـ 265.

(2) ابن النديم: الفهرست ص 271، القفطي: أخبار الحكماء ص 315 ـ 316.

(3) القفطي ص 31.

وقد ألفت ونُقلت لهم كتب كثيرة[1].

خزانة كتب علي بن يحيى المنجم:

أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم (201 ـ 275 هـ/ 816 ـ 888 م)، اتصل بالمتوكل وكان من خواصه وندمائه والمتقدمين عنده، وخُص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد على الله، وكان شاعراً راوية علامة إخبارياً[2]، اتصل بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة كتب، قال ابن النديم: «وعمل له خزانة حكمة، نقل إليها من كتبه ومما استكتبه الفتح، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط»[3].

أنشأ ابن المنجم خزانة كبيرة، فتحها للناس يرشفون منها العلم، سماها (خزانة الحكمة)، قيل: «كان بكركر من نواحي القفص[4] ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة، يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم، والصيانة[5] مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى، فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له الخزانة، فمضى ورآها، فهاله أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم، وأعرق فيها حتى ألحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين وبالإسلام أيضاً»[6]، وقد صنَّف العلماء كتباً لابن المنجم، من ذلك كتاب ألفه ثابت بن قرَّة الحراني[7]، ونقل له

(1) القفطي ص 30 ـ 31، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/ 187.
(2) ترجمته في: ابن خلكان 1/ 356، المرزباني: معجم الشعراء ص 286، البكري: سمط اللآلي ص 525.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 143.
(4) قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد. مراصد الاطلاع 2/ 437.
(5) لعلها العناية.
(6) ياقوت: إرشاد 5/ 467، وقد مر ذكر هذه الخزانة مع خزائن بيت الحكمة.
(7) القفطي: أخبار الحكماء ص 117.

حنين بن إسحاق من كتب اليونان، منها فهرست كتب جالينوس، وكتاب المقاييس الذي نقله له اصطفن الراهب وإسحاق بن حنين[1]، مات ابن المنجم ودُفن في سر من رأى في آخر أيام المعتمد سنة 275 هـ/ 888 م.

خزانة إبراهيم بن إسحاق الحربي:

أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير الحربي (198 ـ 285 هـ/ 815 ـ 898 م)، أصله من مرو، واشتهر وتوفي ببغداد، من أعلام المحدثين الفقهاء الزهاد، صنَّف كتباً كثيرة، ونسخ كتباً كثيرة بخطه[2].

له خزانة كتب ذكرها ياقوت في ترجمته، ونقل قول الحربي نفسه، قال: «أضقت مرة حتى انتهى أمري في الإضاقة إلى عدم عيالي القوت، فقالت لي الزوجة: هب أني وإياك نصبر، فكيف نصنع بهاتين الصبيتين؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه، فضننت بذلك، وقلت: اقترضي لهما شيئاً. . .»[3]، وفي رواية ساقها الخطيب البغدادي تصور زهد إبراهيم الحربي مع شدة فقره وضنه بالكتب، وهو في مرضه الذي أشرف به على الموت، فعن أبي القاسم الجَبَّلي قال: اعتل إبراهيم الحربي علَّة حتى أشرف على الموت، فدخلت إليه يوماً فقال لي: يا أبا القاسم، أنا في أمر عظيم مع ابنتي، ثم قال لها: قومي اخرجي إلى عمك، فخرجت، فألقت على وجهها خمارها، فقال إبراهيم: هذا عمك كلميه، فقالت: يا عم، نحن في أمر عظيم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، الشهر والدهر ما لنا طعام إلا كسر يابسة وملح، وربما عدمنا الملح، وبالأمس قد وجَّه إليه المعتضد مع بدر ألف دينار، فلم يأخذها، ووجه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئاً، وهو عليل، فالتفت الحربي إليها وتبسم، فقال لها: يا بُنَيَّة، إنما خفت الفقر؟ قالت: نعم، فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية فنظرت، فإذا

(1) القفطي ص 132.

(2) ترجمته في: الذهبي: تذكرة الحفاظ 2/147، ياقوت: إرشاد 1/37، ابن الجوزي: صفة الصفوة 2/228، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 6/27، الأنباري: نزهة الألباء ص 276.

(3) ياقوت: إرشاد 1/37، 39.

كتب، فقال: هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي، إذا مُتُّ فوجهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير»[1]، وكانت وفاة الحربي ببغداد سنة 285 هـ/ 898 م.

خزانة كتب ثعلب:

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني المعروف بثعلب (200 ـ 291 هـ/ 816 ـ 914 م)، إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر محدثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة له تصانيف كثيرة، ونسخ كتباً كثيرة[2].

كانت له خزانة كتب كبيرة بيعت بعد وفاته، قال ياقوت نقلاً عن الزبيدي: «إن ثعلباً خلف كتباً جليلة، فأوصى إلى علي بن حمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطريلي، فقال الزجاج للقاسم بن عبيد: هذه كتب جليلة، فلا تفوتنك، فأحضر خيران الورَّاق، فقوَّم ما كان يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلاث مئة دينار، فأخذها القاسم بها»[3]، وهكذا بيعت هذه الخزانة النفيسة بخسارة بأقل من ثلث ثمنها، في حين أن السيوطي يصفها بأنها تساوي جملة[4]، وكانت وفاة ثعلب ببغداد سنة 291 هـ/ 903 م.

خزانة محمد بن الحسين

كانت خزانته في حديثة ـ حديثة دجلة ـ ويُعرف محمد بن الحسين هذا بابن أبي بعرة، ولا يُعرف عنه إلا أنه جمَّاعة للكتب، له خزانة حوت نوادر

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 6/33، ياقوت: إرشاد 1/40.
(2) ترجمته في: الأنباري: نزهة الألباء ص 263، الذهبي: تذكر الحفاظ 2/214، ابن يعلي: طبقات الحنابلة 1/83، ابن خلكان 1/30، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 5/204، القفطي: إنباه الرواة ص 138، السيوطي: بغية الوعاة ص 172.
(3) ياقوت: إرشاد 2/144 ـ 145.
(4) السيوطي: بغية الوعاة ص 173.

الكتب ونفائس الخطوط، وذكر ابن النديم هذا الرجل ووصف خزانته وصفاً مفصلاً فقال: «قال محمد بن إسحاق، كان بمدينة حديثة رجل يقال له محمد بن الحسين، ويُعرف بابن أبي بعرة، جمَّاعة للكتب، له خزانة لم أرَ لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة، فلقيت هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده، خائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان، وصكاك وقرطاس مصر، وورق صيني وورق تهامي، وجلود أدم، وورق خراساني، فيها تعليقات عن العرب، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم»[1].

ويذكر ابن النديم أن رجلاً كان مولعاً بجمع الخطوط القديمة، لما حضرته الوفاة خص محمد بن الحسين بهذه الخطوط النفيسة لصداقة بينهما، وأفضال ومجانسة المذهب، فقد كان كلاهما شيعياً، قال ابن النديم: «فرأيتها وقلبتها، فرأيت عجباً، إلا أن الزمان قد أخلقها، وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها، وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً إثر واحد، فذكر فيه خط من هو، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض، ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج، صاحب علي رضي الله عنه، ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبدالله بن حاني رحمه الله، ورأيت فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبخط غيره من كُتَّاب النبي ﷺ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة، مثل أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، والأصمعي، وابن الأعرابي، وسيبويه، والفراء، والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث، مثل سفيان بن عُيينة، وسفيان الثوري، والأوزاعي وغيرهم، ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته. وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين، ترجمتها هذه، فيها

(1) ابن النديم: الفهرست ص 40.

كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه، بخط يحيى بن يعمر، وتحت الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي، وتحته: هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه، فما سمعنا له خبراً، ولا رأيت منه غير المصحف، هذا على كثرة بحثي عنه»[1].

لم أقف على وفاة هذا الرجل، والمرجح أنه من رجال القرن الثالث الهجري/ السادس عشر الميلادي.

خزانة كتب الصولي:

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي الشطرنجي (ت 335 هـ/ 946 م)، من أكابر علماء الأدب، ولد ببغداد ونشأ بها، وكان نديماً للخلفاء، نادم المكتفي والمقتدر والراضي[2].

من الخزائن الكبيرة المرموقة خزانة أبي بكر الصولي، كان أحد جماعي الكتب، وكان الراضي قد وهبه بعضاً من خزانة كتبه، وقد ذكر خزانة الصولي غير واحد من المؤرخين، ذكرها ابن النديم وأثنى عليها في قوله: «إن لأبي بكر الصولي خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة رتبها فيها أجمل ترتيب، وكان يقول لأصحابه: كل ما في هذه الخزانة سماعي، وإذا أراد مراجعة كتاب منها قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني»[3]، ونظم هذا المعنى أبو سعيد العقيلي، قال[4]:

إنما الصولي شيخ   أعلم الناس خزانه

(1) ابن النديم ص 41.
(2) ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/508، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 3/296، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 3/427، الأنباري: نزهة الألباء ص 343، المرزباني: معجم الشعراء ص 465.
(3) ياقوت: إرشاد 7/136.
(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 3/432، الأنباري: نزهة الألباء ص 344، ابن الجوزي: المنتظم ص 218 ـ 219.

إن سـألنـاه بعلـم نبتغـي عنـه الإبـانـه
قـال يـا غلمـان هـاتـوا رزمـة العلـم فـلانـه

ووصفها الخطيب التبريزي نقلاً عن الأزهري قال: «سمعت أبا بكر بن شاذان يقول: رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوءاً بالكتب وهي مصفوفة، وجلودها مختلفة الألوان، كل صف من الكتب لون، فصف أحمر، وآخر أخضر، وآخر أصفر، وغير ذلك. قال: وكان الصولي يقول: هذه الكتب كلها سماعي»[1].

وقد كان مصير هذه الخزانة النفيسة النهب سنة 329 هـ/ 940 م، فقد قال الصولي نفسه: إن الديالم صاروا إلى دار ابن دانيال الترجمان، وهي ملاصقتي بقصر عيسى، فنهبوها، وصعدوا سطوحها فوجدوها كالمتصلة بسطوحي، وأنا غافل، ولي مجلس وعندي خلق من أصحاب الحديث وأهل الأدب، فوثبنا إليهم وكلمناهم، فما نفعنا شيئاً، وخرج حرمنا هاربات، ولم يتركوا لي شيئاً من ذخائر وغيرها، إلا أتوا عليها، وأخذوا لي نحو مائتي قطعة من الثياب، أكثرها من كُسى الخلفاء وخلفهم، وأخذوا من الزجاج الفاخر والصيني ما لا يضبطه عددي، ووجدوا قطيعة من دفاتر فنهبوها، وأخذوا كل ذخيرة لعيالي وثوب وجدوه لهم، وجعل من كان عندي يخرج، فيلقاه قوم منهم على بابي فيفتشه ويأخذ شيئاً إن وجد معه»[1]، وساءت حال الصولي بعد ذلك، فصار يتقوَّت بأثمان دفاتره[2]، وبعد ست سنوات توفي الصولي بالبصرة بعد أن ركبته الهموم والأحزان.

خزانة كتب ابن الفرات:

أبـو الحسـن محمـد بـن العبـاس بـن أحمـد بـن محمـد بـن الفـرات (319 ـ 384 هـ/ 931 ـ 994 م)، من حفاظ الحديث الثقات من أهل بغداد، كتب الكثير بخطه، وخطه حجة في صحة النقل وجودة الضبط[3].

---

(1) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقى لله ص 210.
(2) السابق ص 211..
(3) ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية 11/314، ابن الأثير: اللباب 2/99، والكامل في التاريخ حوادث سنة 384.

كانت له خزانة كبيرة أكثرها من نسخ يده، أثنى عليه الخطيب البغدادي، وذكر كثرة كتبه، وما كتبه بخطه، قال: «كان ثقة كتب الكثير، وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته، وبلغني أنه كان عنده عن علي بن محمد المصري وحده ألف جزء، وأنه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ»، وعن أبي القاسم الأزهري قال: «خلف ابن الفرات ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً، أكثرها بخطه، سوى ما سُرق من كتبه، وكانت له أيضاً سماعات كثيرة مع غيره لم ينسخها. . . ومكث يكتب الحديث من قبل ثلاثين وثلثمائة إلى أن مات»[1]، وكانت لابن الفرات جارية تعارضه بما يكتبه[2]، وكانت وفاة ابن الفرات ببغداد سنة 384 هـ/ 994 م.

خزانة ابن حاجب النعمان:

أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم بن بيان بن داود المعروف بابن حاجب النعمان (ت 351 هـ/ 962 م)، من أدباء بغداد، وأحد الكتاب الحذّاق بصناعة الكتابة وأمور الدواوين، وله كتب مصنفة في الهزل، كان أبوه حاجب النعمان أبي عبدالله الكاتب[3].

كان لإبن حاجب النعمان خزانة للكتب جيدة ذكرها ابن النديم وأثنى على صاحبها بقوله: «كان أبو الحسين أحد أفراد الزمان في الفضل والنبل ومعرفة كتابة الدواوين، وكان إليه في أيام معز الدولة ديوان السواد، ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خزانته، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين، وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة»[4].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 3/122 ـ 123، ابن الجوزي: المنتظم 7/176 ـ 177.

(2) المرجعان السابقان نفسهما.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 10/456.

(4) ابن النديم: الفهرست ص 134.

خزانة الشريف المرتضى:

الشريف الرضي والشريف المرتضى علمان بارزان في الشعر والأدب وعلوم العربية، وقد أنشأ الشريف الرضي (ت 406 هـ/ 1015 م) مدرسة أسماها (دار العلم)، وكان ينفق على تلامذتها من ماله الخاص، ويلقي فيها المحاضرات العلمية، وكان مع هذه المدرسة خزانة كتب حافلة عرفت بـ (خزانة العلم)، وقد نظمت تنظيماً حسناً[1]، ولكننا لم نظفر بوصف شاف لهذه الخزانة.

أما خزانة الشريف المرتضى، أبي القاسم علي بن الحسين الموسوي الحسيني (355 ـ 436 هـ/ 966 ـ 1044 م) نقيب الطالبيين ببغداد، فهي كبيرة حافلة بنفائس الكتب، فقد كان المرتضى مؤلفاً له مصنفات كثيرة، وكان محباً ومولعاً بالكتب، ولذلك ضمت خزانته ثمانين ألف مجلد من مصنفاته ومحفوظاته ومقروءاته[2]، وقال ابن عنبة العلوي عن كثرة كتب الشريف المرتضى: «رأيت في بعض التواريخ أن خزانته اشتملت على ثمانين ألف مجلد، ولم أسمع بمثل هذا إلا ما يحكى عن الصاحب بن عبَّاد، كتب إلى فخر الدولة بن بويه، وكان قد استدعاه للوزارة، فتعذر بأعذار منها أنه قال: إني رجل طويل الذيل، وإن كتبي تحتاج إلى سبعمائة بعير»[3]، وقيل إن كتب الصاحب بلغت مائة ألف وأربعين ألف مجلدة[4]، ونقل الخوانساري عن الثعالبي أن خزانة المرتضى قُوِّمت بثلاثين ألف دينار، بعد أن أهدى إلى الرؤساء والوزراء منها شطراً عظيماً[5].

(1) كوركيس عواد ص 231، وينظر دار العلم فيما سبق.
(2) ترجمته في: الخوانساري: روضات الجنان ص 383، ياقوت: إرشاد 5/ 173 ـ 179، ابن خلكان 1/ 336، الذهبي: ميزان الاعتدال 2/ 223، ابن حجر: لسان الميزان 4/ 223، أغا بزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة 2/ 401.
(3) ابن عنبة: عمدة الطالب ص 195.
(4) السابق والصفحة.
(5) الخوانساري: روضات الجنان ص 384.

وكانت وفاة الشريف المرتضى ببغداد سنة 436 هـ/ 1044 م.

خزانة كتب غرس النعمة الصابي:

أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسِّن بن إبراهيم، الملقب بغرس النعمة الصابي (ت 480 هـ/ 1087 م) مؤرخ أديب مترسل، من أهل بغداد، كان مقدماً عند الخلفاء والملوك، له كتب في الأدب والتاريخ[1].

أنشأ غرس النعمة دار كتب في شارع ابن أبي عوف بالجانب الغربي من بغداد، جعلها وقفاً، وقد حوت نحو ألف كتاب في فنون العلوم[2]، وقيل: بل بلغت أربعة آلاف مجلد[3]، وكانت هذه الخزانة ملتقى العلماء وطلاب العلم، تقام فيها المحاضرات والمناظرات، وقد كان حرص غرس النعمة على العلم وعدم ذهابه، أن جعل خزانته هذه وقفاً، وقد ذكر ابن الجوزي ذلك فقال: إن الدار التي وقفها سابور الوزير بين السورين قد احترقت، ونُهب أكثر ما فيها، فبعثه الخوف على ذهاب العلم أن وقف هذه الكتب[4]، وكان غرس النعمة قد وظف للخزانة خازناً يُعرف بابن الأقساسي العلوي، ولكن هذا الخازن قد خان الأمانة وتلاعب بالكتب، وحك ذكر الوقف من الكتب وباعها، فقيل له: «إن بيع الكتب بعد وقفها محظور، فقال: قد صرفت ثمنها في الصدقات»[5].

توفي غرس النعمة ببغداد سنة 480 هـ/ 1087 م.

خزانة كتب عبد السلام القزويني:

أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني الحنفي (392 ـ 488 هـ/ 1002 ـ 1095 م) شيخ المعتزلة في عصره، أصله من

---

(1) ترجمته في: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 5/126، حاجي خليفة: كشف الظنون 2045.

(2) ابن الجوزي: المنتظم 8/216.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 12/134.

(4) ابن الجوزي: المنتظم 9/42 ـ 43.

(5) السابق والصفحة.

قزوين، وأقام بمصر أربعين سنة، وسكن طرابلس الشام، وتوفي ببغداد، وكان جليل القدر ظريفاً حسن العشرة، كان من معشِّري القرآن، كتب تفسيراً عظيماً وقفه على خزانة كتب مشهد أبي حنيفة، بلغت مجلداته ثلثمائة مجلدة[1].

كانت له خزانة كتب كبيرة في بغداد، وصفها محي الدين القرشي بقوله: «حصل كتباً لم يملك أحد مثلها، حصلها من مصر وغيرها، وبيعت كتبه في سنين، وزادت على أربعين ألف مجلد[2]، قال ابن النجار: وحدثني بعض أهل العلم أن أبا يوسف ورد بغداد ومعه عشرة جمال تحمل دفاتر، وأكثرها بالخطوط المنسوبة، ومن الأصول المخبورة في أنواع العلوم، وحدثني بعض أهل الحديث عنه قال: ملكت ستين تفسيراً»[3]. وقد جاءت أوصاف الكتب وبعض محتويات هذه الخزانة في رواية السبكي، في ترجمة عبدالسلام، قال: «كان قد اجتمع له من الكتب شيء كثير، وأنه سكن ببغداد، ثم سافر إلى الشام، ثم إلى مصر، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى بغداد، وهو يحصل في ذلك الكتب، وقيل إنه حصل غالبها من مصر في عام الغلاء المفرط، وكان يقول: ملكت نفيسين منهما، تفسير ابن جرير الطبري في أربعين مجلداً، وتفسير أبي القاسم البلخي[4]، وأبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم، وأبي مسلم بن بحر وغيرهم، وأهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها: غريب الحديث لإبراهيم الحربي، بخط أبي عمر بن حيويه في عشر مجلدات، فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد، ومنها شعر الكميت بن زيد بخط أبي منصور في ثلاثة عشر مجلداً، ومنها عهد القاضي عبدالجبار بخط الصاحب بن عبَّاد وإنشائه،

---

(1) ترجمته في: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 5/156، القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية 1/315، السيوطي: طبقات المفسرين ص 18، الذهبي: دول الإسلام 2/12، أبو شامة: كتاب الروضتين 1/28، لسان الميزان 4/11.

(2) لعلها أربعة آلاف مجلد كما عند الصفدي في الوافي بالوفيات.

(3) القرشي: الجواهر المضية 1/316.

(4) توفي سنة 319 هـ/ 931 م، ووصف حاجي خليفة الكتاب بأنه كبير في اثني عشر مجلداً لم يسبق إليه، كشف الظنون 1/441.

فيل: كان سبعمائة سطر، كل سطر في ورقة سمرقندي، وله غلاف آبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة، والرابع مصحف بخط بعض الكتّاب المجودين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلاف القرّاء بين سطوره بالحُمرة، وتفسير غريبه بالخُضرة، وإعرابه بالزُرقة، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني، وبالجملة كتابة مصحف على هذا الوجه بدعة مكروهة، وقيل دخل (عبدالسلام) إلى بغداد من مصر، ومعه عشرة جمال عليها كتب بالخطوط المنسوبة في فنون العلم»[1].

وكانت وفاة عبدالسلام القزويني هذا ببغداد سنة 488 هـ/ 1095 م.

خزانة كتب ابن التلميذ:

أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بابن التلميذ الطبيب البغدادي (465 ـ 560 هـ/ 1073 ـ 1165 م)، كان نصرانياً من أشهر أطباء زمانه، جمع بين علوم كثيرة، منها الطب والفلسفة والأدب والنحو والشعر والموسيقى، علت منزلته لدى الخلفاء، وكان ناظراً للبيمارستان العضدي، الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربي من بغداد، له كتب كثيرة في الطب والأدب[2].

كان لابن التلميذ خزانة كتب كبيرة، بعضها بخطه الجميل، فقد كان جيد الخط، يكتب خطاً منسوباً، أعجب ابن أبي أصيبعة حين رآه، يقول: «وقد رأيت كثيراً من خطه وهو في نهاية الحسن والصحة، وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي، متبحراً في اللغة العربية»[3].

---

(1) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 3/230.

(2) ترجمته في: ياقوت: إرشاد 7/243، ابن خلكان 2/191، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص 259 ـ 276، البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص 144، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 363.

(3) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/260.

كانت خزانة كتب ابن التلميذ كبيرة ونادرة، ولكن مصيرها كان محزناً، فقد آلت إلى الخراب والتبعثر، كما ذهبت أمواله وممتلكاته، أوضح ذلك ابن أبي أصيبعة، قال: «خلَّف نعماً كثيرة وأموالاً جزيلة، وكتباً لا نظير لها في الجودة، فورث جميع ذلك ولده، وبقي مدة، ثم إن ولد أمين الدولة خُنِق في دهليز داره، الثلث الأول من الليل، وأخذ ماله، ونُقلت كتبه على اثني عشر جملاً إلى دار المجد بن الصاحب»[1]، وكانت خزانته هذه في داره المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، في سوق العطر مما يلي بابه المجاور لباب الغربة في دار الخلافة المعظمة بالمشرعة النازلة إلى شاطىء دجلة[2]، وقد صارت كتب ابن التلميذ بعد أن نُهبت وصودرت إلى أبي الخير المسيحي النسطوري، طبيب الخليفة الناصر لدين الله، فقد كان الخليفة الناصر يكرم أبا الخير ويصله بالهبات الجزيلة، فأعطاه فيما أعطاه خزانة كتب الأجل أمين الدولة ابن التلميذ[3]، ثم صُرف بعد ذلك أبو الخير من الخدمة، وساءت أحواله، وهذه نهاية من يتعلقون بأذيال السلطان من العلماء في كل آن وزمان، ولا شك أن خزانة ابن التلميذ هذه كانت كنزاً نفيساً يحفل بنوادر الكتب من كل علم وفن، وقد نوه بها وأشاد المؤلفون الأقدمون[4].

خزانة كتب ابن الخشاب:

أبو محمد عبدالله بن أحمد بن الخشاب البغدادي (492 ـ 567 هـ/ 1099 ـ 1172 م)، كان نحوياً عالماً بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة، ولكنه كان مستهتراً في حياته، مبتذلاً في عيشه وملبسه، كثير المزاح يلعب الشطرنج مع العوام على قارعة الطريق، صنف كتباً

(1) السابق 1/264.
(2) السابق 1/260 ـ 262.
(3) السابق 1/302.
(4) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/276، ياقوت: إرشاد 7/244 ـ 245.

كثيرة ضاع أكثرها[1].

كان ابن الخشاب من محبي الكتب المولعين بجمعها، جمع كتباً كثيرة جداً، بعضها بخطه، وكان خطه جميلاً، وقف ابن الجوزي على ثبت خزانته، واطلع على كتبها الكثيرة، ووصفها بأنها كانت أحمالاً[2]، وكان من حرص ابن الخشاب على اقتناء الكتب أنه ربما مال إلى الغش، فقد قيل إنه إذا حضر سوف الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال إنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس، وكان من حرصه أنه إذا استعار كتاباً لا يرده، وإذا طالبه صاحبه به قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه[3]، وفي أخريات حياته وقف كتبه على أهل العلم، وهذه أفضل مكرماته، وكانت وفاة ابن الخشاب سنة 567 هـ/ 1171 م.

خزانة كتب ابن الدهان:

أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي الأنصاري المعروف بابن الدهان (494 ـ 569 هـ/ 1100 ـ 1173 م)، عالم باللغة والنحو والأدب، وصف بأنه كان سيبويه عصره[4]، مولده ونشأته في بغداد، انتقل إلى الموصل فأكرمه الوزير جمال الدين الأصفهاني، فأقام يقرىء الناس، له تصانيف كثيرة.

كانت خزانته عامرة، ولكنها ذهبت غرقاً وتلف أكثرها، فقد تعرضت بغداد سنة 545 هـ/ 1150 م لفيضان كبير، وصفه ابن الجوزي بقوله: «وزادت دجلة فبلغ الماء إلى باب المدرسة (النظامية)، ومنع الجواز من طريق الرباط، ودخلت السفن الأزقة»[5]. وقال ابن خلكان يذكر الغرق وما حل بهذه الخزانة، إن ابن الدهان: «ترك بغداد قاصداً جناب الوزير جمال الدين الأصفهاني

---

(1) ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/267، ياقوت: إرشاد 4/286، السيوطي: بغية الوعاة ص 276، القفطي: إنباه الرواة 2/99.

(2) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص 267.

(3) ياقوت: إرشاد 4/286 ـ 287، السيوطي: بغية الوعاة ص 277.

(4) ترجمته في: ياقوت: إرشاد 4/241، ابن خلكان 1/209، القفطي: إنباه الرواة 2/47، الصفدي: نكت الهميان ص 158.

(5) ابن الجوزي: المنتظم 10/142.

المعروف بالجواد، فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه، وأقام في كنفه مدة، وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد، فسَيَّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرفت، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً، وفاض الماء منها إلى داره، فتلفت الكتب بهذا السبب، زيادة على الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره، فلما حُملت إليه على تلك الصورة، أشاروا عليه أن يطيِّبَها بالبخور، ويصلح منها ما يمكن، فبخرها باللاذن[1]، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى، وكُفَّ بصره»[2].

توفي ابن الدهان بالموصل سنة 569 هـ/ 1173 م.

خزانة القاضي الفاضل في القاهرة:

عبد الرحيم بن علي بن سعيد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل (529 ـ 596 هـ/ 1135 ـ 1200 م)، ولد بعسقلان (بفلسطين) وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة، كان من وزراء السلطان صلاح الدين الأيوبي ومن مقربيه، ولم يخدم بعده أحداً، من أئمة الكتاب المترسلين، كان سريع الخاطر في الإنشاء كثير الرسائل، من أقوال صلاح الدين فيه: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل»[3].

كانت خزانة كتب القاضي الفاضل من أكبر وأجمل الخزائن وتُعرف بالفاضلية، أنشأها وأنشأ معها مدرسة بالقاهرة[4]، كان القاضي محباً للكتب شغوفاً باقتنائها، كوَّن خزانته على أنقاض خزائن دار العلم الفاطمية، فقد دخل الأيوبيون مصر سنة 567 هـ/ 1171 م بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وقضى على

---

(1) ضرب من العلوك.

(2) ابن خلكان 1/ 295، ياقوت: إرشاد 1/ 242، الصفدي: نكت الهميان ص 59.

(3) ترجمته في: ابن خلكان 1/ 284، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 6/ 156، أبو شامة: كتاب الروضتين 2/ 241، العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر 1/ 35.

(4) ينظر فيها: دي طرازي ص 183 ـ 184، يوسف العش ص 277 ـ 280.

دولة الفاطميين، وقد وُشي إلى السلطان الأيوبي بأن في (دار العلم) أسفاراً تشتمل على مذاهب الفاطميين وآرائهم، وأوهموه بأن في بقائها ضرراً على الإسلام والمسلمين، فأمر بإتلافها، وتفرق الجانب الأكبر من هذه الكتب أيدي سبأ، واستأذنه القاضي الفاضل أن يختار منها، فأذن له، فاختار مائة ألف مجلد، وجعلها في المدرسة الفاضلية، التي أنشأها هو سنة ثمانين وخمسمائة بدرب ملوخيا بالقاهرة[1]. وروى العماد الكاتب الذي كان معاصراً للقاضي الفاضل، أن صلاح الدين عهد بمهمة بيع الكتب للقاضي الفاضل، فسعد بهذا التكليف، واختار أفضل الكتب لنفسه دون أن يستأذن السلطان[2]، وأن قسماً كبيراً من الكتب بيع واشترك القاضي الفاضل في هذا البيع[3]، وقيل إن القاضي كان يتفحص دار الكتب الفاطمية فيأخذ أفضل ما فيها، وكلما أعجبه شيء قطع جلده ورماه في البركة لتبدو عند البيع بالية لا قيمة لها، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى هو تلك رخصية جداً على أنها مخرومة[4].

كانت منزلة القاضي الفاضل لدى صلاح الدين كبيرة، فقد وهبه بعد ذلك خزانة كتب مدينة آمد عندما سقطت سنة 579 هـ/ 1183 م، وانتقى منها ما شاء، وكان في تلك الخزانة ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد، فأخذ منها القاضي حمل سبعين أتان[5]، وهكذا استطاع القاضي أن يقتني أكبر مجموعة كتب عرفت لشخص في تاريخ الكتب والمكتبات، ولا يضاهيه في ذلك إلا الملوك، وقد قدَّر المؤرخون الأسفار التي حوتها خزانته، بين ثلاثين ألف مجلد، وألف ألف مجلد[6].

---

(1) ابن خلدون: العبر 4/79، علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة 1/87، دي طرازي ص 183.
(2) ابن خلدون 4/81 ـ 82.
(3) أبو شامة: كتاب الروضتين 1/200، 268، القلقشندي: صبح الأعشى 1/278.
(4) أبو شامة 1/200.
(5) أبو شامة 2/39.
(6) السابق 2/244، السبكي: طبقات الشافعية 4/235، المقريزي: الخطط 2/367.

ولم تكن قيمة خزانة كتب القاضي الفاضل بعظمتها وكثرتها فحسب، بل بنوعية الكتب التي فيها، فقد كان يختار أفضل النسخ بخطوط المؤلفين المشهورين، وعليها تمليكات، وكان يقتني أكثر من نسخة من الكتاب الواحد، من ذلك أنه كان في خزانته ثماني عشرة نسخة من كتاب الصحاح للجوهري[1]، وفي الرواية التالية دلالة على عنايته بالكتب ونوعيتها وكثرة نسخها، قيل: التمس منه ابنه مرة نسخة من (ديوان الحماسة) لأبي تمام، فاستحضر له من الحماسات خمساً وثلاثين نسخة، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان. . . حتى أتى على الجميع، وقال: ليس فيها ما يصلح للصبيان، وأمر الكتبي أن يشتري له نسخة بدينار[2]. وكان لا بد لهذه المكتبة العظيمة المتنامية من نسَّاخ ومجلدين، فكان لديه نساخ ومجلدون يعملون لحسابه، وآخرون يرسلهم للبحث عن الكتب في البلدان المختلفة[3].

وقد أسس القاضي الفاضل مدرسة، وألحق بها مكتبة وقفها للشافعية والمالكية بدرب ملوخيا، زودها من كتبه الخاصة، وكانت تضم مئة ألف مجلد، وحوت هذه المكتبة مؤلفات نفيسة نادرة، مثل (معجم الجامع) في اللغة لمحمد بن جعفر أبي عبدالله القزاز اللغوي (ت 412 هـ/ 1021 م)، وكتاب (الاستغناء) لمحمد بن علي الأدْفُوني (ت 388 هـ/ 998 م)، وهو تفسير للقرآن الكريم في مئة وعشرين جزءاً، وكتاب (محاسن الشريعة) لمحمد بن علي أبي بكر الصقلي (ت 365 هـ/ 975 م) في ثلاثة مجلدات[4].

وقد عُيِّن عبد الرحيم بن علي بن أحمد بن عبدالرحيم (ت 695 هـ/ 1295 م) خازناً في المكتبة الفاضلية، وهو حفيد القاضي الفاضل، وهو أديب وكاتب مكثر[5]، ويبدو أن نظام المدرسة كان يوفر إقامة وطعاماً للطلاب، كما

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب 4/ 325.
(2) المقريزي 2/ 367.
(3) المقريزي 2/ 387، ابن العماد 4/ 325.
(4) ابن خلكان 2/ 389.
(5) الصفدي: الوافي بالوفيات 18/ 72.

ظهر من خبر نهاية هذه المدرسة، فقد عمَّ الغلاء بمصر، ومسهم الضر، فصار الطلاب يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت[1]، ويفصل أبو شامة في وصف نهاية هذه المدرسة فيقول: لما وقع الغلاء بوادي النيل عام 694 هـ/ 1294 م في زمن الملك كتبغا المنصوري، مَسَّ الجوع طلبة المدرسة الفاضلية، فأخذوا يبيعون كل كتاب برغيف، وكان قد بيع منها ومن مكاتب أخرى قسم كبير على يد (ابن صورة) دلال الكتب (ت 607 هـ/ 1210 م)، وكان ابن صورة يجلس في دهليز داره، ويجتمع عنده يومي الأحد والأربعاء كبار العلماء والفضلاء، ويعرض عليهم الكتب التي تباع، وكانوا يقيمون عنده إلى انقضاء وقت السوق، وربما كانت تباع الكتب بالوزن[2].

ومما بقي من نفائس هذه المدرسة إلى زمن المقريزي (766 ـ 845 هـ/ 1364 ـ 1441 م) مصحف عثمان، وصفه المقريزي بقوله: «وفي مكتبة المدرسة الفاضلية إلى الآن، مصحف قرآن كبير القدر جداً، مكتوب بالخط الأول الكوفي، يسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، يقال إن القاضي الفاضل اشتراه بنَيِّف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيِّه، عليه مهابة وجلالة»[3].

خزانة كتب ابن الجوزي:

جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (508 ـ 597 هـ/ 1114 ـ 1201 م) نسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالِّ بغداد[4]، أبرز العلماء وأكثرهم تأليفاً، بلغت مؤلفاته نحواً من ثلاث مئة

---

(1) المقريزي 2/ 266.

(2) أبو شامة 1/ 268، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 149.

(3) المقريزي: الخطط 4/ 197.

(4) ترجمته في: ابن خلكان: وفيات 1/ 279، ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 28، أبو شامة: ذيل الروضتين ص 21، ابن الأثير: تاريخ 10/ 228، طاش كبري زادة: مفتاح السعادة 1/ 207.

مصنف في علوم العربية والتفسير والحديث والفقه والأصول والمناقب والوعظ والرياضيات والشعر والتاريخ والسير، وغير ذلك، قال حفيده سبط ابن الجوزي: «سمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيَّ هاتين ألفي مجلدة»[1]، وكذلك قيل عن كثرة كتابته: «كان يكتب في اليوم أربع كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين»[2]، كان ابن الجوزي شغوفاً بالقراءة منذ سن الطلب، كان يقرأ كل كتاب تصل إليه يده، وقد ذكر الكتب التي قرأها وما وصلت إليه يده من خزائن الكتب، وقد بلغت مطالعاته عشرين ألف مجلد، قال: «ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلداً، وفي ثبت كتب (مشهد) أبي حنيفة، وكتب الحُميدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب، وابن ناصر، وكتب محمد بن الخشاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعد في الطلب»[3].

وحصلت لابن الجوزي خزانة كتب كبيرة عامرة، من مصنفاته ومصنفات غيره، ولكن ابن الجوزي فُجِع بهذه الخزانة، كما فُجِع بعقوق ابنه، وكان مصير كتبه الضياع والتبعثر في حياة ابن الجوزي، فقد سطا عليها ابنه أبو القاسم وبعثرها وباعها بثمن بخس، قال سبط ابن الجوزي يصف ما حل بكتب جده: «ومن أولاده أبو القاسم علي. . . هو الذي أظهر مصنفات والده، وباعها بيع العبيد، ولما مضى والده إلى واسط، كانت كتبه في داره بدرب دينار[4]، فتحيَّل عليها بالليل والنهار، حتى أخذ منها ما أراد، وباعها ولا بثمن المداد، وكان أبوه قد هجره سنين، فلما امتُحن أبوه صار إلباً عليه للمعادين»[5]، وكان في

(1) مرآة الزمان 8/311، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢١.
(2) ابن العماد: شذرات الذهب 4/330.
(3) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص 366 ـ 367.
(4) من محلات بغداد القديمة، معجم البلدان (دينار).
(5) مرآة الزمان 8/325 ـ 326، وانظر الذيل على الروضتين ص 26، والبداية والنهاية 13/20.

جملة هذه الكتب نفائس منها: مصحف مليح الخط كثير الإذهاب، كان قد أهداه الخليفة المستضيء بالله إلى ابن الجوزي سنة 566 هـ/ 1170 م[1]، وكانت بعض كتب ابن الجوزي قد تعرضت للحرق، وبعضها الآخر صودر، قال ابن كثير: إن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي: «هو الذي كان وشى بابن الجوزي إلى الوزير ابن القصاب، حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزي، وخُتم على بقيتها»[2]، أما محنة ابن الجوزي التي نزلت به، وكانت سبباً في ذهاب كتبه، ففي سنة 590 هـ/ 1193 م وُشِيَ به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، في أمر اختلفوا فيه، قال أبو شامة: «وكان الزمان صيفاً، فبينا هو جالس في السرداب يكتب، جاءه من أسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله، فلما كان أول الليل حملوه في سفينة، وحدروه إلى واسط، خمسة أيام ما أكل طعاماً إلى واسط، وكان قد قارب ثمانين سنة، فأقام في دار (درب الديوان) وعلى بابه بواب، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط، ولما عاد إلى بغداد، كان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف، وكان يكتب إلى بغداد أشعاراً كثيرة»[3]، رحم الله ابن الجوزي على ما قدم من علم، وما كتب من حديث رسول الله ﷺ، وما ألف من كتب كثيرة، وما لقي من العقوق والعذاب، فقد قيل إنه لو جُمعت الكراريس التي كتبها، وحسبت مدة عمره، وقُسمت الكراريس على المدة، فكان ما خُص كل يوم تسع كراريس وهذا شيء كثير وكثير جداً، ويقال إنه أوصى أن تجمع براية أقلامه التي كتب بها الحديث النبوي، ويُسَخَّن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، فحصل منها شيء كثير، ونفذت وصيته، وكان في هذه البراية كفاية وزيادة[4]. وكانت وفاة ابن

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم 10/ 235.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 45.
(3) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص 6.
(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 395.

الجوزي ببغداد سنة 597 هـ/ 1200 م، رحمه الله وأحسن إليه.

خزانة كتب ابن حمدون:

تاج الدين أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون (ت 608 هـ/ 1211 م)، ينتسب إلى آل سيف الدولة بن حمدان، أحد العلماء الأدباء، ولي عدة ولايات منها النظر في البيمارستان العضدي، وكتابة السكة بالديوان العزيزي ببغداد[1].

كان من محبي الكتب المبالغين في اقتنائها، وقد حوى خزانة كتب كبيرة عظيمة الشأن، وكان سخياً محباً لنشر العلم، لا يبخل على طالب كتاب، متساهلاً في إعارة كتبه، قال ياقوت: «وكان مع اغتباطه بالكتب، ومنافسته ومناقشته فيها، جواداً بإعارتها، ولقد قال لي يوماً، وقد عجبت من مسارعته إلى إعارتها للطلبة: ما بخلت بإعارة كتاب قط، ولا أخذت عليه رهناً، ولا أعلم أنه مع ذلك فقد كتاباً في عارية قط، فقلت: الأعمال بالنيات، وخلوص نيتك في إعارتها لله، حفظها عليك»[2].

ومع طيبة هذا الرجل ومروءته، فقد افتقر وامتُحِن بكتبه، فاضطُرَّ إلى بيعها وقلبه يتقطع حسرات عليها، ترجم له ياقوت وذكر حاله وما حلّ به بقوله: «كان من المحبين للكتب واقتنائها، والمبالغين في تحصيلها وشرائها، وحصل له من أصولها المتقنة، وأمهاتها المعينة، ما لم يحصل لكثير أحد، ثم تقاعد به الدهر، وبطل به عن العمل، فرأيته يخرجها ويبيعها، وعيناه تذرفان بالدموع عليها، كالمفارق لأهله الأعزاء، والمفجوع بأحبابه الأودّاء، فقلت له: هوِّن عليك أدام الله أيامك، فإن الدهر ذو دول، وقد يصحب الزمان ويساعد، وترجع دولة العز وتعاود، فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود. فقال: حسبك يا بُني، هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها، وهب أن المال يتيسَّر، والأجل يتأخر، وهيهات، فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على

---

(1) أبو شامة: ذيل الروضتين ص 79.

(2) ياقوت: إرشاد 3/216.

الفراق، الذي ليس بعده تلاق، وأنشد بلسان الحال:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ومن لي بما قدمر في البؤس من عمري

وأدركته منيته ولم ينل أمنيته»[1]. وتوفي الحسن بن حمدون بمدائن كسرى، وحُمل إلى مقابر قريش فدفن بها سنة 608 هـ/ 1211 م.

خزانة كتب عبدالسلام الجيلي:

أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي (الكيلاني) البغدادي المعروف بالركن (548 ـ 611 هـ/ 1154 ـ 1214 م)[2]، فقيه حنبلي من علماء بغداد، ولي عدة ولايات، وبرع في علوم الأوائل من الفلسفة والفلك وغيرها، وحاز مكانة رفيعة في دولة الناصر لدين الله العباسي.

كانت له خزانة كتب عامرة حافلة بشتى العلوم، ولكنه لم ينعم بهذه الخزانة، وكانت وبالاً عليه، فسجن وأحرقت كتبه، يوضح ذلك القفطي ويبين محنته بقوله: «وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر، فثلبه أحدهم بأنه معطل، وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن، فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه، فوجد فيها الكثير من علوم القوم، وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد، يعرف بالرحبة، وأن تُحرق بحضور الجمع الجم منها، ففعل ذلك، وأحضر لها عبيدالله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية[3]، وجُعل له منبر صعد عليه، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة

---

(1) السابق 3/ 215 ـ 216.

(2) ترجمته في: ابن الأثير: تاريخ 12/ 117 سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 8/ 571، ابن العماد: شذرات الذهب 5/ 45، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/ 274.

(3) سمي بابن المارستانية لأن أباه وأمه كانا يخدمان المرضى بالمارستان العضدي على دجلة بالجانب الغربي من بغداد، وقد بنى ابن المارستانية هذا داراً بدرب الشاكرية ببغداد، وسماها (دار العلم)، وجعل فيها خزانة كتب وقفها على طلاب العلم، وعُيِّن ناظراً على المارستان العضدي، فلم تحمد سيرته، وقُبض عليه وسجن في المارستان=

ومن يقول بقولهم، وذكر الركن عبدالسلام هذا بشر، وكان يخرج الكتب التي له، كتاباً كتاباً، فيتكلم عليه، ويبالغ في ذمه وذم مصنفه، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار»[1]، ونقل القفطي عمن شهد واقعة الحرق فقال: «أخبرني الحكيم يوسف السبتي الإسرائيلي، قال: كنت ببغداد يومئذ تاجراً، وحضرت المحفل، وسمعت كلام ابن المارستانية، وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم، وهو يشير إلى الدائرة التي مثَّل بها الفلك، وهو يقول: وهذه الداهية الدهياء، والنازلة الصمَّاء، والمصيبة العمياء، وبعد إتمام كلامه خرَّقها وألقاها إلى النار. قال: استدللت على جهله وتعصبه، إذا لم يكن في الهيئة كفر، وإنما هي طريق إلى الإيمان، ومعرفة قدرة الله عزّ وجل، فيما أحكمه ودبَّره»[2].

لقد ذكر بعض المؤرخين خبر إحراق كتب الجيلي[3]، وقبَّح بعضهم سيرة الجيلي ورموه بالفسق والفجور، وقصة الحرق هذه تأتي في رواية أخرى، فيها تفصيل وترويع، أوردها ابن العماد الحنبلي، نقلاً عن مصادر قديمة، قال يذكر حال الجيلي: «وقد جرت عليه محنة في أيام الوزير ابن يونس، فإنه كبس دار عبدالسلام هذا، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة، ورسائل إخوان الصفاء، وكتب السحر والنارنجات[4] وعبادة السحر، واستدعى ابن يونس العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان، وكان ابن الجوزي معهم، وقُرِىء في بعضها

= مدة مع المجانين مسلسلاً، وبيعت دار العلم بما فيها، ثم أطلق بعد مدة وبقي يطبب الناس وصادف قبولاً، فأثرى وعاد إلى حال حسنة، وحصل كتباً كثيرة (الذيل على الروضتين ص 34، البداية والنهاية 13/35).

(1) القفطي: أخبار الحكماء ص 228 ـ 229.

(2) القفطي ص 229.

(3) ينظر في ذلك: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 8/344، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص 55، ابن الساعي: المختصر ص 120 ـ 121، الذهبي: تذكرة الحفاظ 4/135، ابن كثير: البداية والنهاية 13/54، ابن حجر: لسان الميزان 4/15.

(4) النارنجات والنيرنجات والنيرنجيات: لفظة فارسية معناها السحر والرقي وما يشبه ذلك، راجع: دوزي: تكملة المعجمات العربية 2/741، آدي شير: الألفاظ الفارسية المعربة ص 155.

مخاطبة زحل بقوله: أيها الكوكب المضيء المنير، أنت تدبر الأفلاك وتُحيي وتُميت، وأنت إلهنا، وفي حق المريخ، من هذا الجنس، وعبدالسلام حاضر، فقال ابن يونس: «هذا خطك؟ قال: نعم، قال: لمَ كتبته؟ قال: لأردَّ على قائله ومن يعتقده. فأمر بإحراق كتبه، فجلس قاضي القضاة والعلماء وابن الجوزي معهم، على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة، وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد، وخرج الناس من الجامع، فوقفوا على طبقاتهم، والكتب على سطح المسجد، وقام أبو بكر ابن المارستانية، فجعل يقرأ كتاباً كتاباً من مخاطبات الكواكب ونحوها، ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده وعبدالسلام حاضر، فتصيح العوام باللعن، فتعدى اللعن إلى الشيخ عبدالقادر، بل وإلى الإمام أحمد...»[1]. وسُجن عبدالسلام الجيلي، ولبث في السجن على اشتغاله بالفلسفة إلى أن أفرج عنه سنة 589 هـ/ 1193 م، وأُعيد عليه ما كان له بعد الذي ذهب، وعاش بعد ذلك عمراً طويلاً[2]، وكانت وفاة عبدالسلام الجيلي سنة 611 هـ/ 1214 م.

خزانة كتب ابن العلقمي:

مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي (ت 656 هـ/ 1258 م)، اشتغل ابن العلقمي في صباه بالأدب، كان في أيام المستعصم آخر خلفاء بني العباس، وولاّه المستعصم الوزارة أربعة عشر عاماً، ووثق به وألقى إليه زمام أموره، وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء، وقيل إنه غدر بالمستعصم عند دخول هولاكو بغداد ومالأه، وولي الوزارة مدة قصيرة ومات بعد ذلك[3].

عمل ابن العلقمي خزانة كتب كبيرة في داره، حوت أنواع العلوم،

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب 5/ 45 ـ 46.

(2) القفطي: أخبار الحكماء ص 229.

(3) ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية 13/212، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 208، ٣٣٦، الصفدي: الوافي بالوفيات 1/ 185، ابن العماد: شذرات الذهب 5/ 272، دائرة المعارف الإسلامية 1/ 241.

وفُتحت سنة 644 هـ/ 1246 م[1]، قال ابن كثير في وصف هذه المكتبة في حوادث هذه السنة: «فيها فُتِحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة، وكانت في نهاية الحسن، ووُضِع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير، وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حسان»[2]، وقد اشتملت هذه الخزانة على عشرة آلاف مجلد، من نفائس الكتب، فالإضافة إلى ما صنَّفه العلماء له من الكتب، فقد صنَّف له الصغاني اللغوي كتاب (العُباب)، وهو كتاب كبير في لغة العرب، وصنَّف له ابن أبي الحديد كتاب (شرح نهج البلاغة) الذي يشتمل على عشرين مجلداً[3]، وقد أهدى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى ابن العلقمي هدية من جملتها كتب نفيسة[4]، وقد أنشد الشعراء قصائد في ذكر هذه الخزانة، من ذلك قول العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد الذي ذكر بعض أشهر كتبها[5]:

رأيتُ الخزانة قد زُيِّنَتْ ... بكُتْبٍ لها المنظرُ الهائلُ
عقول الشيوخ بها أُلِّفت ... ومحصوله ذاك والحاصلُ
ولما مثلتُ بها قائماً ... وأعجبني الفضلُ والفاضلُ
تمثَّلتُ أسماءها منكمُ ... على النقل ما كذب الناقلُ
بها (مجمع البحر) لكنَّهُ ... من الجود ليس له ساحلُ
ومنها (المهذب) من فضلكم ... و (مغنٍ) ولكنه نائلُ
ومنها (الوسيطُ) بما ترتجيه ... وفيها (النهاية) و (الكاملُ)
وإن كان أعوزها (شاملٌ) ... فقد زانها جودك الشاملُ
وإن كان قد فاتها فائتٌ ... أبو الفضل في علمه كاملُ

---

(1) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 209.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية 13/172.
(3) ابن الطقطقي: الفخري ص 388 ـ 389.
(4) السابق ص 389.
(5) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 209 ـ 210.

وكانت وفاة ابن العلقمي ببغداد في جمادى الأولى سنة 656 هـ/ 1258 م، ودفن في مشهد موسى الكاظم.

خزانة كتب نصير الدين الطوسي:

أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي (ت 597 هـ/ 672 م)، كان فيلسوفاً علاَّمة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات، علت منزلته عند هولاكو، فكان يطيعه فيما يشير عليه[1]، ابتنى بمراغة بأذربيجان قُبَّة ورصداً عظيماً، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة، واجتمع فيها نحو أربعمائة ألف مجلد، وعين منجمين يرصدون الكواكب، وجعل لهم وظائف وأوقافاً تقوم بمعاشهم، وكان هولاكو يمده بالأموال، وقد وصف ابن العبري هذه الخزانة بقوله: «اتفق لي أن دخلت مكتبة مراغة بأذربيجان، فشاهدت فيها كتباً وقراطيس سريانية وعربية وفارسية، تشتمل على أخبار تستحق الاعتبار، فأثبتها في تاريخي هذا»[2]، وقد مرت الإشارة إلى مرصد مراغة هذا.

خزانة كتب الآمدي:

زين الدين علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر الآمدي (ت 714 هـ/ 1314 م)، كان من أكابر الحنابلة فقهاً وصلاحاً وصدقاً ومهابة، أصله من آمد (ديار بكر)، سكن بغداد وتوفي بها، وكان أعجوبة في الذكاء والفطنة، وقد عمي، ومع ذلك كان يعنى بالكتب ويتاجر بها، اشتهر بتعبير الرؤيا وإجادته عدة لغات، فقد كان يتكلم بالإضافة إلى العربية التركية والفارسية والمغولية والرومية[3]، وهو أول من صنع الحروف البارزة التي عرفت فيما بعد بطريقة

---

(1) ترجمته في: الصفدي: الوافي بالوفيات 1/179، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2/149، ابن العماد: شذرات الذهب 5/339، ابن كثير: البداية والنهاية 13/267، طاش كبري زادة: مفتاح السعادة 1/261.

(2) تاريخ ابن العبري ص 2، دي طرازي: خزائن الكتب ص 106.

(3) ترجمته في: الصفدي، نكت الهيمان ص 206، ابن حجر: الدرر الكامنة 3/2، ويقول=

(برايل)، كان كلما اشترى كتاباً أخذ ورقة وفتلها فصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء، لعدد ثمن الكتاب حساب الجُمَّل، ثم يلصقها على طرف جلد الكتاب ويجعل فوقها ورقة تثبتها، فإذا غاب عنه ثمنه مَسَّ الحروف الورقية فعرفه.

اقتنى الآمدي كتباً كثيرة جداً، ورغم عماه فقد كان يميزها ويعرف مواضعها وأسعارها، وخط كل كتاب وعدد سطوره وأوراقه وكل دقيقة فيه، قال الصفدي: «كان إذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده، نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطُلب منها الأول مثلاً أو الثاني أو الثالث، أو غير ذلك، أخرجه بعينه وأتى به، وكان يمس الكتاب أولاً ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة، فيكون الأمر كما قال، وإذا أمرَّ يده على الصفحة قال: عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً، وفيها بالقلم الغليظ كذا، وهذا الموضع كُتب به في الوجهة وفيها بالحُمرة هذا، وهذه المواضع كتبت بالحُمرة. وإن اتفق أنها كُتبت بخطين أو ثلاثة، قال: اختلف الخط من هنا إلى هنا، من غير إخلال بما يُمتحن به، ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وذلك أنه كان إذا اشترى كتاباً بشيء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة، وفتل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمَّل، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبَّد، فإذا شذَّ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه، مسَّ الموضع الذي علمه في ذلك الكتاب بيده، فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق فيه»[1]. وكانت وفاة هذا النابغة علي الآمدي ببغداد سنة 712 هـ/ 1312 م.

= أحمد زكي باشا: إن زين الدين الآمدي سبق (برايل) إلى اختراع طريقته في الكتابة بنحو ستمائة سنة، لأن برايل الفرنسي اخترع طريقته في نحو سنة 1850 م، ولد برايل سنة 1809 م، ومات سنة 1852 م، وكان كفيفاً، عمي في السنة الثالثة من عمره (مجلة المقتبس، المجلد السادس)، الزركلي: الأعلام 4/ 257.

(1) الصفدي: نكت الهيمان ص 207 ـ 208، ابن حجر: الدرر الكامنة 3/ 22.

خزانة كتب ابن الفوطي:

كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني المعروف بابن الفوطي الشيباني البغدادي (642 ـ 723 هـ/ 1244 ـ 1323 م) من ولد معن بن زائدة الشيباني، ولد ببغداد وأسر في واقعتها مع التتار، فخلصه نصير الدين الطوسي، مؤرخ ومؤلف عالي المكانة، وهو صاحب (الحوادث الجامعة) و (تلخيص مجمع الألقاب)، باشر خزانة الرصد بمراغة زهاء عشر سنوات، وعاد إلى بغداد، فصار خازن كتب المستنصرية زمناً، وأقام مدة طويلة في تبريز عند الوزير رشيد الدين الهمذاني، وقُتل رشيد الدين سنة 718 هـ، وأحرقت كتبه وكتب ابن الفوطي، فعاد إلى بغداد، فاستقر إلى أن توفي فيها[1].

كان لابن الفوطي بصر بالكتب، وحرص على اقتنائها، وقد أُتيح له أن يشرف على خزانة الرصد بمراغة التي تحتوي على أربعمائة ألف مجلد، واطلع على نفائس الكتب[2]، وظل بها بضع عشرة سنة، وظفر بها بكتب نفيسة، وحصل من التواريخ ما لا مزيد عليه[3]، وأشرف ابن الفوطي كذلك على خزانة كتب المستنصرية، وبقي فيها إلى أن توفي، كان ابن الفوطي شاعراً عالماً مؤرخاً كثير التأليف كثير النسخ، وامتاز بخط جميل موصوف، وأشاد به ابن حجر بقوله: «كان له نظم حسن وخط بديع جداً، قلت: مكلتُ بخطه خريدة القصر للعماد الكاتب في أربع مجلدات في قطع الكبير، وقدمتها لصاحب اليمن، فأثابني عليها ثواباً جزيلاً جداً، وكان له نظر في علوم الأوائل، وكان مع حسن خطه يكتب في اليوم أربع كراريس، قال الصفدي: أخبرني من رآه، ينام ويضع

---

(1) ترجمته في: ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 272/1، ابن العماد: شذرات الذهب 60/9، ابن حجر: الدرر الكامنة 364/2، ابن كثير: البداية والنهاية 106/14، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 260/9، ابن حجر: لسان الميزان 10/4، الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي، محاضرة نشرت في مجلة المجمع العربي 80/16، الزركلي: الأعلام 350/3.

(2) ابن حجر: الدرر الكامنة 464/2.

(3) ابن العماد: شذرات الذهب 60/6.

ظهره إلى الأرض ويكتب ويداه إلى جهة السقف»[1].

لقد جمع ابن الفوطي خزانة كتب كبيرة نفيسة، فيها ضروب من العلم، من كتب الحديث والفقه والتاريخ والتراجم والأدب، وكانت خزانته في بغداد، يؤمها العلماء وطلاب العلم، وقد ذكر في معجمه من كان يحضر مجلسه ويزور خزانته من العلماء وأعيان الناس، وزواره من أهل بغداد، ومن القادمين إليها[2].

وكانت وفاة ابن الفوطي ببغداد سنة 723 هـ/ 1323 م.

---

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة 2/365.
(2) الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي ص 9.

الفصل السادس

صناعة الكتب

تجليد الكتب، تذهيب الكتب
الصور والرسوم في الكتب

تجليـد الكتـــب

شكـــل الكتـــاب:

كيف كان شكل الكتاب في أول ظهوره عند الأمم القديمة؟ وكيف تطور واتخذ شكله الحالي الذي هو صفحات تضمه دفتان من الجلد أو الورق، هذا السؤال نحاول الإجابة عنه ضمن ما يأتي من صفحات.

لا شك أن الكتاب في أول ظهوره كان يختلف شكلاً وحجماً، وكان الإنسان القديم قد كتب كتابه الأول على الطين والحجر، وكان السومريون ـ سكان العراق القدماء ـ قد كتبوا على الألواح الطينية بأشكال وأحجام مختلفة، فدونوا بهذه الطريقة علومهم وتاريخهم، وكان النص يستغرق لوحاً أو عدة ألواح، فإذا كان النص طويلاً استخدموا عدة ألواح، وكانوا يرقمون الألواح بأرقام متسلسلة، كما ترقم صفحات الكتب اليوم[1]، وكان السومريون أول من دونوا الكتاب، وقد وصلت من آثارهم ألواح من الطور الصوري الأول، يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وألواح أخرى من الطور الخطي يعود تاريخها إلى ألفين وأربعمائة سنة قبل الميلاد، وهذه الألواح محفوظة في المتحف العراقي ببغداد[2]، وفي ذلك العصر ـ الألف الثالث قبل الميلاد ـ كان الإنسان في مصر الفرعونية يكتب على لفائف البردي[3].

---

(1) أدوارد كيرا: كتبوا على الطين، ترجمة محمود حسين أمين ص 33، ط 2 بغداد 1962.

(2) المتحف العراقي: الخزانة السومرية رقم 6.

(3) ينظر عن البردي وكيفية صنعه، سفندال: تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة صلاح الدين حلمي، القاهرة 1958، ص 302، محرم كمال: تاريخ=

كان المصري يصنع الكتاب على شكل ملف من صحائف البردي، بأحجام مختلفة يبلغ طول بعضها ستة إنجات، تلصق ببعضها فتكون على شكل شريط طويل، يلف ليصبح على شكل أسطوانة، أي الملف (Roll)، وتكون الصحيفة الأولى من هذا الملف، أكثر سمكاً من الصفحات الأخرى، لأنها تغطي الملف وتكون له بمثابة غلاف[1]، ثم تغير هذا الشكل وأصبح الكتاب ـ فيما بعد ـ مكوناً من صحائف مربعة أو أفقية أو عمودية، وهي الصورة المألوفة للكتاب المستعملة حتى الآن، وقد دعت الحاجة حينئذ إلى التغليف، حفظاً لصحائف الكتب من الضياع.

وبالإضافة إلى البردي فقد استعمل المصريون ألواحاً من الخشب المغطى بالجص لتدوين النصوص، وكذلك استعملوا ألواح العاج المغلفة بالشمع، وقد عُرفت أقدم هذه الألواح في مصر، ويعود تاريخها إلى سنة 250 ق. م[2].

أما الشعوب الأخرى، فقد استخدم كل شعب ما توافر له من مواد للكتابة، وما رآه مناسباً لتدوين أفكاره، فقد استخدم الصينيون ألواحاً خشبية، وما دامت هذه الألواح عرضة للتلف أو الحرق، فإنها لم تصل، وكذلك كتبوا على الحرير الذي عرفوه منذ وقت مبكر[3]، واستخدم اليونان والرومان ألواح الخشب المغلفة بالشمع، وكذلك لفائف البردي، ومن الرومان أخذت شعوب غرب أوربا استخدام لفائف البردي[4].

= الفن المصري القديم ص 209، ط دار الهلال، القاهرة 1937.

(1) Ency. Britannica, vol.3 p. 920.

وانظر: مرزوق: الحياة الفنية في مصر الإسلامية، مقالة تاريخ الحضارة المصرية (العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي) م 2، ص 604.

(2) سفندال: تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ص 8.

Mallowan: Twenty five years of mesopotamia Discovery, 1932- 1956. London British school of Archaeology in Iraq 1956 p. 54.

(3) سفندال: تاريخ الكتاب ص 8 ـ 9.

(4) Ency. Britannica, p. 920.

وعُرف الرَّق[1] في مرحلة تالية واستُخدم في الكتب الدينية المقدسة، وقد ساعدت المسيحية على انتشار الرَّق لحاجتها إلى كتابة نسخ من الكتاب المقدس، لترسلها إلى أنحاء الامبراطورية[2]، ولم يؤثر الرق على استعمال البردي، فقد بقي الاثنان مستعملين في شؤون الكتابة، ولكن استعمال الرق أدى إلى تغيير شكل الكتاب من اللفائف ـ حيث كانت تلصق الصفحات الواحدة بالأخرى ـ إلى ظهور شكل الكتاب الجديد الذي عُرف بالمُصْحف[3] (Codex) حيث صارت الصفحات ترتب واحدة بعد الأخرى، على شكل رزمة تربط من أحد جانبيها الأيمن أو الأيسر بحسب الجهة التي تبدأ فيها الكتابة، وقد تربط أحياناً من جانبها العلوي. وحين عُرف المصحف كان لا بد له من غلاف يمسكه ويحفظ صحائفه، خوفاً عليها من الضياع والتلف، وبذلك ظهر تغليف الكتاب أو تجليده، وكان شكل الكتاب في أول الأمر مستطيلاً قائماً[4].

ظهـــور التجليـــد:

يذهب المؤرخون إلى أن أول ظهور فن تغليف الكتب أو تجليدها، كان عند أقباط مصر، وفي أديرة الكنائس القبطية خاصة، لاهتمامهم بنسخ وتجليد الكتاب المقدس، وكان هذا الفن قد نال اهتماماً كبيراً لدى رهبان الأديرة، وقد عُرف عن أقباط مصر قبل الفتح الإسلامي، وإن أقدم ما وصل من أغلفة الكتب، كانت من صنع الأقباط، ويُعتبر فن التغليف القبطي الأصل الذي أُخذ عنه

(1) ينظر في الرق، يحيى الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية ص 255 ـ 261، والرَّق بفتح الراء: الجلد، وبكسر الراء: العبودية.

(2) Ency Britannica, Vol. 3 p. 922 .

(3) المُصْحَف والمِصْحَف (بضم الميم وكسرها) كلمة حبشية الأصل، وكان الأحباش قد سبقوا إلى معرفة تجليد الكتب، وفي اللسان (صحف) قال: المُصْحف والمِصْحف الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين، وانظر: Ency of Islam, vol. 3 p. 44.

(4) Emil Gratzl: Book Covers of persian Art, vol. v.p. 1921, Oxford, 1930.

التغليف في العالم الإسلامي، الذي بلغ فيما بعد ـ وخاصة في العصور الوسطى ـ غاية الاتقان والجمال[1].

مــادة الغــلاف:

كان أول مادة استخدمت في تغليف الكتاب هي ألواح الخشب، وبُذلت عناية كبيرة بزخرفة ألواح الخشب، فطعمت بالعاج تارة، وزُينت بصفائح الذهب والفضة المرصعة بالأحجار الكريمة تارة أخرى، وقد تُغلف بالقماش المطرز، وكانت هذه الأغلفة الثمينة عرضة للسرقة، ولذلك لم يصل منها إلا القليل المحفوظ في بعض المتاحف الإسلامية والأوربية، ومما وصل من ذلك، غلاف من الخشب يعود إلى القرن الرابع الميلادي، محفوظ في متحف برلين[2]، وهناك غلافان خشبيان منفصلان يعود تاريخهما إلى القرن الرابع الميلادي، محفوظان في مكتبة جستربتي[3].

وربما وجدوا أن ألواح الخشب ثقيلة، فاستعاضوا عنها في بعض الأحيان بلصق عدة أوراق من أوراق البردي حتى تكون سميكة قوية كالمقوى (الكارتون)، ثم غلف بالقماش أو بصفائح الذهب والفضة، ولكنهم وجدوا أن الألواح الخشبية أفضل، لأن أوراق البردي سهلة الانكسار، فعادوا إلى استعمال الألواح الخشبية، ثم استعاضوا عن تغليف الخشب بصفائح الذهب والفضة، بإكسائه بشرائح من الجلد، ومن الجلد أطلق على العملية اسم التجليد، وأصبح استعمال الجلد هو الأصل والبداية الفعلية لفن التجليد، الذي استمر على مدى الأزمان، حتى وصل إلى العصر الحاضر، دون تغيير كبير، وقد برع الأقباط في

---

(1) Sarre: Islamic Bookbindings, p. 18, Berlin, 1923.

وانظر محمد عبد العزيز مرزوق: الفن المصري الإسلامي ص 7 ـ 9، القاهرة 1952.

(2) Theodore Petersen: Early Islamic Bookbindings and their coptic Relations, ARS orientalis, Vol. 1 1959, p. 58. footnote, N.11.

(3) Petersen: Ibid, p. 42. footnote, N.1.

استخدام الزخرفة في تجليد الكتب[1]، وقد وصلت نماذج قليلة من أغلفة الكتب القبطية التي استخدموا فيها الجلود المزخرفة، تمثل لها بنموذجين، الأول كتاب في مجموعة مستر لايدن (Mr. Leeyden) في المتحف البريطاني يمثل جزءاً من غلاف كتاب الصلاة والتعاويذ، مؤرخ من القرن الخامس الميلادي (لوحة 1)[2]، وزين الغلاف بخطوط دقيقة وبسيطة على شكل دائرة تتوسط المتن، ويحيط بها إطار، وقد زودت جوانبه الثلاثة ـ عدا الجانب الرابع الأيمن ـ بإبزيمات عددها أربعة، وكانت هذه الإبزيمات تستخدم لإحكام غلق الكتاب. والغلاف الثاني في المتحف البريطاني أيضاً، وهو غلاف مخطوط كتاب مقدس هو (التوراة) يرجع تاريخه إلى ما بين القرنين السادس والسابع الميلاديين، زُيِّن الغلاف بأشكال هندسية تتوسط المتن، وإطار يتكون من خطوط مستقيمة تحيط بالمتن، وفيه سبعة أشرطة جلدية ملتصقة بالجانب الأيسر، أما الجانب الأيمن، ففيه بقايا حلقات معدنية تستخدم لإدخال الأشرطة الجلدية بها، لإحكام غلق الكتاب (لوحة 2)[3].

وقد كان لفن التجليد القبطي أثره في فنون شعوب الشرق الأوسط، فقد ساهم النساطرة في انتقال الفن القبطي إلى البلاد التي انتشروا فيها، ونقلوا هذا الفن إلى بلاد فارس والعراق والصين، واقتبس المانويون الذين كانوا في تركستان الشرقية، أسلوب التجليد القبطي، وكان المانويون يعنون بتجليد كتبهم المقدسة، وكانت كتبهم ذات جلود فضية ثمينة[4].

التجليد في الإسلام:

كان القرآن الكريم أول كتاب عرفه المسلمون، وكتب المسلمون

---

(1) Ency Britannica, Vol. 3 p. 129 .

(2) غلاف كتاب الصلاة قياسه 14 × 7، 21 راجع:
Petersen: Ibid, p. 60, footnote, 18 .

(3) الكتاب قياسه 5، 21 × 8، 21 سم، Petersen: Ibid, p. 59.

(4) Aga-oglu: Persian bookbindings of the fifteenth Century. Arbor. 1935, p. 1 .
وزكي محمد حسن: الصين وفنون الإسلام ص 25، ط القاهرة 1948.

المصاحف على الرقوق، ولم يستعملوا البردي في كتابة المصاحف، بل كانت المصاحف مكتوبة في الرقوق، وكانت بحاجة لحفظها بين لوحين من خشب، وبذلك عرفوا فن التجليد[1]، وفي أكبر الظن أن دفتي الخشب كانتا تكسيان بالجلد أو القماش، ولا تخلو من الزخرفة أو الزينة، وكان أسلوب التجليد الإسلامي وفق التقاليد الحبشية والقبطية السابقة للإسلام[2].

والمعروف أن القرآن الكريم حين جُمع في عهد أبي بكر، ثم في عهد عثمان بن عفان، كُتب على صحائف الرَّق، وكُتبت منه نسخة واحدة وضعت صحائفها بين دفتين لحفظها[3]، ثم أطلق على القرآن الكريم اسم (المصحف)، وابتعدوا عن تسميته بـ (السِّفْر)، لأن هذه التسمية كانت مستعملة عند اليهود[4]، وقد ذكر الجاحظ أن المصحف مأخوذ عن الحبشة، والمصحف هو الذي يحفظ الكتاب ويسهل استعماله ويصونه في تماسك وجمال، وقد نقله العرب عن الأحباش[5].

وكان لا بد أن يعتني المسلمون بتغليف المصحف، وكان المصحف معروفاً لدى النصارى في بلاد الشام واليمن، ومن غير المستبعد أن المسلمين رأوا الكتاب المقدس وأعجبوا بطريقة تغليفه، وكان تجليد الكتاب أو تغليفه معروفاً لدى أقباط مصر، وانتشرت الطريقة القبطية في العالم الإسلامي، ولم يلبث المسلمون أن أدخلوا على التجليد تحسينات وزخارف أدت إلى تطوير فن التجليد في الأمصار الإسلامية[6].

على أن الصورة الأولى للتجليد عند العرب والمسلمين هو وضع صفحات

(1) أو فن التسفير، كما يعرف في بلاد المغرب، أو التصحيف كما يطلق عليه في العراق.
(2) Arnold and Grohmann: The Islamic Book, p. 44, Paris 1929.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى 2/475.
(4) السيوطي: الاتقان في علم القرآن ص 135.
(5) رسائل الجاحظ ص 71، ط بريل 1907.
(6) زكي محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص 506، ط جامعة القاهرة 1956.

الكتاب بين لوحين من الخشب مثقوبين في مكانين متباعدين من ناحية القاعدة، ويمر بكل ثقب منهما خيط رفيع من ليف النخيل، يبدأ بأحد اللوحين ثم تخرز به صحف المخطوط، حتى ينفذ إلى اللوح الآخر من الناحية المقابلة فيعقد، وقد أخذ العرب هذه الطريقة البسيطة في التجليد عن الأحباش، يقول الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيضان: «إن الزنج قد فاخروا العرب بقولهم: وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا، منها الغالية وهي أطيب الطيب وأفخره وأكرمه، ومنها النعش وهو أستر للنساء وأصون للحرم، ومنها المصحف وهو أوقى لما فيه وأحصن له، وأبهى وأهيأ»[1].

وقد عرف الكتاب أو المصحف لدى المسلمين في بداية القرن السابع الميلادي، ويفترض كروهمان أن الكتاب كان يتكون من لوحين غير مصقولين، وضع بينهما أوراق سائبة، ويرى أن التجليد مر بمراحل ثلاث، الأولى: الطريقة البدائية التي تقوم على ربط متن الكتاب بالغلافين الخشبيين الخاليين من الكتابة، من غير استعمال الجلد، بل باستعمال خيوط أمعاء الحيوان، ثم استعملت ثانياً الطريقة الأفضل، بأن ألصق متن الكتاب بشريط من الجلد مثبت على اللوحين، ثم ثالثاً تقدمت مرحلة أخرى من صنع الكتاب، حيث غُطي اللوحان بغلاف من الجلد مزخرف، وبُطن من داخله بالحرير أو القماش[2].

واستمر التجليد في العصر الأموي على ما كان عليه في عصر الخلفاء الراشدين، وليس لدينا معلومات واضحة عن طبيعة التجليد في هذا العصر، ومن غير شك أن الرخاء الذي أصاب الدولة الأموية أدى إلى أن يشمل هذا الرخاء تجليد المصاحف التي كانت تصنع للخلفاء والموسرين، من حيث العناية بالزخرفة والتطعيم بالعاج أو التغليف بالقماش والجلد.

وما يقال عن العصر الأموي يقال عن العصر العباسي الأول، ولكن ما أن

---

(1) رسائل الجاحظ 1/202، ط الخانجي 1964، وانظر الحلوجي: المخطوط العربي ص 233 ـ 234.

(2) Arnold and Grohmann: The Islamic Book, p. 12.

يهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، حتى يشهد فن التجليد تطوراً كبيراً، وتصل معلومات ذات أهمية كبيرة، من ذلك وصول غلاف من القرآن الكريم من القرن الثاني الهجري، محفوظ في متحف برلين (لوحة 3 أ، ب)[1]، يتكون الغلاف من خشب الأرز المطعم بقطع من عاج وعظم وخشب، مختلفة الألوان، ومثبتة بمادة لاصقة، ويزدان سطحه بعقود قائمة على أعمدة، وقد ملئت باطن العقود والمسافات من فوقها بأشكال هندسية من مثلثات ومربعات ومعينات، وزُيِّن باطن عقدين من هذه العقود بزينة نباتية (ورقة بالميت)[2]، أما الوجه الداخلي فقد زُيِّن بأشكال هندسية، إذ تتوسط دائرة كبيرة الحجم ملئت أرضيتها بمربعات صغيرة، تحيط بها خطوط مستقيمة تشبه أسنان المشط، وقد أحيطت الدائرة بحشوات بعضها مربع الشكل وبعضها مستطيل، ملئت بأشكال هندسية ناتجة عن تقاطع خطوط نفذت بمهارة ودقة، وثُبِّتت قطع العظم بواسطة مسمار، وليس بمادة لاصقة[3].

وفي القرون اللاحقة شاع تغليف الخشب بشرائح من الجلود، وهذه المرحلة تعتبر بداية فن التجليد عند المسلمين، ومعروف أن استخدام الجلد في تغليف الكتب كان معروفاً عند الأقباط، وصاحب تزيين الكتاب بالجلد ظهور فن التذهيب، وكان التذهيب معروفاً منذ القديم، فقد استخدمه الفراعنة، فقد كانوا يصنعون صفائح رقيقة من الذهب تلصق على الأثاث، وتثبت بمسامير، وقد استخدم المسلمون التذهيب المائي في تذهيب الخزف، واستخدموا التذهيب المائي والورقي في زخرفة صفحات القرآن الكريم وأوائل السور، وقد عني المسلمون بتذهيب المصاحف وتجميل زخارف جلود المصاحف والكتب[4].

---

(1) قياسه 47 × 49،3 سم.

(2) Sarre: Islamic Bookbindings, PL.I .
زكي حسن: الفن الإسلامي في مصر 1/114.

(3) المرجع السابق نفسه، وانظر اعتماد القصيري: فن التجليد عند المسلمين ص 13 ـ 14.

(4) أحمد عطية: القاموس الإسلامي 1/453، مرزوق: الفن ازسلامي ص 129.

وقد خطا فن التجليد خطوة أخرى حين جعل المجلد الشرائح الملتصقة بالجوانب لينة، ليمكن طيها عندما يراد فتح الكتاب؛ إذ لم يكن من السهل استخدام الأغلفة الخشبية على شكل الصندوق بسبب صعوبة تقليب صفحات الكتاب، وقد وُضعت رزَّات قائمة عند حافات الكتاب كي تثنى عندما يراد غلق الكتاب (لوحة 4)[1].

لقد كانت عناية الخلفاء العباسيين بالعلوم والكتب كبيرة، وكان من أثر ذلك أن أنشأ الرشيد مجمعاً علمياً زوَّده بخزانة كتب عامرة، وعُرف هذا المجمع فيما بعد بـ (دار الحكمة) أو (بيت الحكمة)، وكان هذا البيت مجمعاً للعلماء والكتَّاب والأدباء والمترجمين، وقد نشط بيت الحكمة وازدهر في عهد المأمون، الذي راجت في عهده حركة الترجمة والتأليف، وكان لا بد أن يرافق ذلك رواج فن التجليد، وقد عُرف بعض المجلدين في زمن المأمون، وكان أبرزهم ابن أبي الحريش[2]، وقد ازدهرت في هذا العصر حركة جمع الكتب والعناية بها، فبالإضافة إلى بيت الحكمة كان للوزراء والأمراء مكتبات أو خزائن كتب[3]، ولا بد لهذه المكتبات من مجلدين يعنون بالمحافظة على الكتب من التلف والتمزق، ومن البدهي أن يعمل هؤلاء المجلدون على إجادة صناعتهم وتطويرها، وخاصة إن صناعة الجلود قد ازدهرت في هذا العصر، وكان لتطور صناعة الجلود أثر واضح في ازدهار صناعة التجليد، وقد شُهرت عدة أقطار في صناعة الجلود، من ذلك مصر التي عرفت بالجلود والأدم، فكان يرتفع منها، كما يقول المقدسي: «أديم جيد صبور على الماء ثخين ليِّن»[4]، وكانت اليمن مشهورة بدباغة الجلود منذ العصر الجاهلي، يقول الهمداني: «وصَعْدة بلد الدِّباغ في الجاهلية الجهلاء»[5]، وكانت الأدم تجلب من اليمن، فهي: «معدن

(1) Petersen: Early Islamic Bookbindings, vol. 1. p. 45.

(2) ابن النديم: الفهرست ص 12 ط طهران.

(3) السابق نفسه.

(4) أحسن التقاسيم ص 203، ط دي غويه، ليدن 1906 م.

(5) صفحة جزيرة العرب ص 113 نشرة ملر ط ليدن 1884 م.

العصائب والعقيق والأدم والرقيق»[1]، وكانت الطائف أيضاً: «بلد الدباغ، يدبغ بها الأهُب الطائفية المعروكة»[2]، وعُرفت عدن بجلود النمور التي كانت تجلب من أفريقية»[3]، ويقول المسعودي عن الزنج: «هم أصحاب جلود النمور الحمر، وهي لباسهم ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام»[4]، وكان لأهل بغداد اختصاص بالدارش (الجلد الأسود)، واللكاء (الجلد المصبوغ باللك)[5]، وكانت شرائح الجلد التي تجلد بها الكتب تدهن باللك ليكسبها اللمعان.

وازدهرت صناعة التجليد في مصر في عهد الفاطميين، فقد كان للعزيز بالله الفاطمي (356 ـ 362 هـ/ 966 ـ 973 م) خزانة كتب كبيرة، أنفق عليها أموالاً طائلة، وكذلك كان للحاكم بأمر الله (386 ـ 411 هـ/ 996 ـ 1020 م) خزانة كتب تعرف بدار الحكمة أو دار العلم، وتعتبر أعظم دار علم في القاهرة، يقول المقريزي: إن هذه الكتب كانت ذات تجليد بارع[6]، إلا أن معظمها ذهب أيام الشدة العظمى، فقد أصابت مصر مجاعة في عام 458 هـ/ 1066 م دامت سبع سنين، نُهبت فيها الكتب، وصنع العبيد من جلودها أحذية لهم، وتُركت الكتب في الصحراء تعلوها الرمال، على شكل تلال عرفت بتلال الكتب[7].

ومن نماذج هذه الفترة التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، جزء من غلاف (اللوحة 5 أ، ب)[8] من الجلد لونه بني

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 97، والأدم: جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ إذا كان عليه شعره أو صوفه أو وبره.

(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 120.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 97.

(4) مروج الذهب 3/2 ط باريس 61ـ1877 م.

(5) راجع فيه الجاحظ: التبصر بالتجارة ص 33، ولسان العرب 6/301، وكانت تستخرج مادة اللك من عصير السماق، وهي مادة حمضية شفافة، والمعروفة الآن بالورنيش، تكسب الصبغ اللمعان.

(6) الخطط 1/68 ط الأوربية.

(7) المقريزي: الخطط 1/68.

(8) قياسه 7،5 × 5،5 سم، تلف معظمه ولم يبق منه سوى جزء قليل اجتهد نيتمان =

غامق تتصل بـه قطعة من الجلد، يُظن أنها بقايا اللسان، يتوسط متن الجلد حشوة مستطيلة يزينها شريط متشابك، يكوِّن أشكالاً هندسية، ويحيط به إطار مليء بأوراق نباتية ذات ثلاثة فصوص، وزُيِّن اللسان كذلك بأشكال هندسية وزخارف تشبه زخارف الإطار، وتم تنفيذ هذه الزخارف بالطبع على الجلد بآلات ساخنة، ورجح كروهمان أن هذا الغلاف يعود إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين[1].

البطانــة:

كان المجلدون يبطنون أغلفة الكتب من الداخل بالبردي أو الرَّق أو الورق، ويرى كروهمان أن المسلمين تأثروا بالأقباط الذي يبطنون جلود كتبهم بالرق المزخرف[2]، وحين ازدهرت صناعة التجليد عند المسلمين صاروا يبطنون بالقماش أو الحرير، كما عُرف عن كتب أصحاب الحلاج، وكانت البطانة تحلَّى بزخارف تنفذ بواسطة الختم أو الضغط، حيث ترسم الزخارف على لوح خشبي. ثم يُطبع على الرَّق أو الورق، بالطريقة التي كانت تطبع بها الأنسجة نفسها[3]، وكانت تصاميم زخارف الغلاف الداخلي والبطانة تتخذ أشكالاً هندسية ونباتية، وقد يعمد المجلد إلى تخطيط المساحة أولاً، ثم يعمل الزخارف على أوراق منفصلة ثم قصها، ولصق كل جزء في مكانه من البطانة أو الغلاف الداخلي[4].

اللســـان Flap:

أما اللسان فقد عُرف منذ وقت مبكر، حيث كان معروفاً عند الأقباط في أديـرتهـم فـي مصـر، ونقلـه عنهـم المسلمـون، ونقلـه المسلمـون إلـى بـلاد

= (Nittmann) أن يستخلص شكله الكامل، ورسم له مخططاً، والغلاف محفوظ في المكتبة العامة بفيينا.

(1) Arnold and Grohmann: op. cit. p. 47.

(2) Grohmann: Islamic Book, p. 34.

(3) Grohmann: Islamic Book, p. 53.

(4) Ibid, p. 54.

الغرب[1]، وقد ذهب بعض المؤرخين إل أن اللسان ابتكار إسلامي[2]، ويقع اللسان في الغلاف القبطي في الجانب الأيسر، وكان على شكل قطعة مستطيلة، أما في الكتاب الإسلامي فيكون اللسان في الجانب الأيمن (انظر اللوحة 2)، ووظيفة اللسان هو حماية الكتاب، وكان يصنع عريضاً بحيث يصلح أن يكون ظرفاً للكتاب الذي يطبق فوقه[3]، ويستخدم اللسان أيضاً لكي يستدل به القارىء، ويجعله حداً فاصلاً بين ما قرأ من الكتاب وما لم يقرأه بعد[4].

ويلاحظ أن فن التجليد في مصر قد تطور تطوراً كبيراً في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وقد استعيض عن استعمال الخشب باستخدام أوراق البردي السميك، وذلك بلصق عدة صفحات بعضها ببعض، وتُكسى أوراق البردي بطبقة من الجلد، وقد استُخدم الورق كذلك في التغليف، وذلك بلصق عدة ورقات ببعضها وإكسائها بالجلد، أما شكل الكتاب فقد كان عمودياً، وأحياناً على شكل مربع، وظل الشكل الأفقي مستعملاً، وبالإضافة إلى ذلك زودت الكتب باللسان الذي يحفظ الكتاب ويحميه، وظهر في زخرفة الكتب السرَّة التي تتوسط متن الجلد، وتحيط بها أرضية خالية من الزخرفة، وفي الأركان الأربعة للمتن أجزاء من السرة (انظر اللوحة 6).

أما في الأندلس فقد كان التجليد متقدماً متطوراً، بفضل المسلمين الذين فتحوا البلاد، ويشيد المؤرخون بحذق أهل الأندلس في الوراقة، يقول المقدسي: إن أهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة[5]، وكان الفضل للخلفاء الذين اعتنوا بالكتب والمكتبات، والذين استقدموا أمهر المجلدين من بغداد

---

(1) تراث الإسلام 2/88.

(2) نخبة من العلماء: تاريخ الحضارة المصرية في العصر اليوناني والروماني والإسلامي مجلد 3، ص 604.

(3) ماكس هرتس: فهرس دليل الآثار ص 273.

(4) عبدالله كنون: صناعة تسفير الكتب وحلى الذهب، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 7، ص 1، مدريد 1959 م.

(5) أحسن التقاسيم ص 239.

وصقلية، بالإضافة إلى المجلدين الإسبان، وكان من بين الخلفاء المحبين للعلم والعلماء والكتب والمكتبات، الحكم المستنصر بالله (302 ـ 366 هـ/ 914 ـ 976 م)، وقد جمع في بلاطه في قرطبة حَذَقة المجلدين والنسَّاخين، وكان له من الكتب ما لم يكن لأحد مثله[1]، وكان في أشبيلية سوق خاص بالكتب، يختلف إليه رجال العلم والأدب، وبقربه سوق للوراقين[2]، وكانت الحرائق قد التهمت هذا التراث النفيس فلم تصل إلينا نماذج من الأغلفة.

وفي العراق كان فن التجليد متقدماً، بفضل اهتمام الخلفاء وكثرة المكتبات وخزائن الكتب، وما يستتبع ذلك من وراقة وتجليد وتذهيب، وكانت الكتب تجلد تجليداً فاخراً مترفاً، بالجلد الجيد، وتبطن بالحرير والديباج، ومن صور ذلك أن كتب أصحاب الحلاج (قتل سنة 209 هـ/ 922 م) كانت مجلدة بالجلد الجيد، ومبطنة بالديباج والحرير[3]، وقيل إن أصحاب الحلاج قلدوا المانوية في زخرفة كتبهم وتزيينها بالذهب والفضة، وفي عام 310 هـ/ 922 م أحرقت على باب العامة بغداد، صورة ماني وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب[4].

أما في اليمن فقد كان أهل عدن يعجبهم التجليد الحسن، ويبذلون فيه الأجر الوافر، وربما كان يُعطى على المصحف ديناران[5].

مصحف عثمان في المغرب:

لقد بلغ فن التجليد في المغرب مرحلة متقدمة متطورة، وكان لاهتمام

---

(1) المقري: نفح الطيب 362/1، وانظر خوليان ربيرا: المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا، مجلة معهد المخطوطات، ترجمة محمد محرز، م 4 ج 1، ص 86، سنة 1958 م.

(2) ربيرا: السابق م 5، ج 1، ص 75، ٦٨، مايو سنة 1959 م.

(3) القرطبي: صلة تاريخ الطبري ص 90، ط بريل 1897 م، ابن مسكويه: تجارب الأمم 79/5، ط مصر 1332 هـ.

(4) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ص 235 الترجمة العربية.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 43.

الخلفاء بالكتب وتجليدها وتحليتها أثر كبير في ذلك، ومن أكبر الدلائل على هذا اهتمام الخليفة عبد المؤمن بن علي، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب (حكم 524 ـ 558 هـ/ 1129 ـ 1162 م)، بتجليد مصحف عثمان، وهو أحد المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان إلى الأمصار[1]، والذي أهداه إليه أهل قرطبة، ويصف ابن صاحب الصلاة صنيع الخليفة عبد المؤمن وحرصه على تجليد وتحلية هذا المصحف: «وجمع الصُنَّاع والمتفننين، من سائر بلاد المغرب والأندلس، والمهندسين والصوَّاغين والنظامين والنقاشين والزواقين والمرصعين والنجارين والرسامين والمجلدين، وعرفاء البنائين، وصنع له أغشية بعضها من السندس، وبعضها من الذهب والفضة، وحلاَّه بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع»[2]، ويمضي ابن صاحب الصلاة في وصف الأحجار الكريمة، وأنها كانت مختلفة الألوان، فمنها الأحمر والأخضر والأصفر، وأن أحجار اليواقيت والجوهر والزمرد، كانت قد جلبت إلى الخليفة الأول الأمين المهدي، ثم ورثها أمير المؤمنين، فاستخدمها في تجميل المصحف، وكان أحد النظامين لهذا الجوهر بكر بن إبراهيم الأشبيلي الذي حدثه عن جوهرة في الغلاف، كانت في الأصل عند أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، ثم صارت في حيازة أمير المؤمنين. ومما يؤسف له أن هذا المصحف حُمل فيما بعد من قبل أحد أمراء الموحدين، ونُهب ولم يُعرف مستقره[3].

ويلاحظ في زخرفة الأغلفة الإسلامية ظهور ثلاثة اتجاهات، الأولى: متأثرة بالنزعة الطبيعية في تنفيذ الغلاف، وهي مستمدة من العمارة الإسلامية حيث تُحَلَّى واجهات القصور والمساجد بالآجر والفسيفساء، ومزدانة بالأعمدة، مع فتحات بين الأقواس والعقود، والاتجاه الثاني هو الطراز الهندسي الذي

---

(1) المقري: نفح الطيب 2/ 135.

(2) تاريخ المن بالإمامة 2/ 5.

(3) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة 2/ 5 وص 65 و 440، وانظر المقري: نفح الطيب 2/ 143.

يتكون من مربعات وأنجم سداسية أو ثمانية، وكذلك مثلثات ومستطيلات تكوِّن أشكالاً هندسية متقنة ورائعة، والاتجاه الثالث: هو الأسلوب البسيط الذي تقلُّ فيه الزخارف والحُلى، وقد عُني المجلدون المسلمون في العصور المتأخرة بالكتابة على الأغلفة، بخطوط متقنة محاطة بالزخارف والتذهيب.

أثر التجليد الإسلامي في أوربا:

لقد تأثر التجليد الأوربي بفن التجليد الإسلامي، وكان الفن الإسلامي قد قطع شوطاً كبيراً في التطور والنضج والإبداع الفني، في الوقت الذي كان التجليد في أوربا بدائياً، وكانت وسائل التأثير عن طريق حج بيت المقدس والتجارة، في أيام السلم، وعن طريق الحرب، وذلك حين استولى العرب على بعض الأقطار الأوربية، ثم حين غزا الأوربيون بعض أجزاء الشرق[1]، وكانت أوربا تنظر إلى الفن الإسلامي نظرة إعجاب، بسبب من صلة هذا الفن بالأراضي المسيحية المقدسة، ثم أصبح إعجابهم بعد ذلك بالفن الإسلامي لجماله الذاتي[2]، وقد اطلع الأوربيون على الفنون الإسلامية، ونقلوا بعض التحف الإسلامية إلى بلادهم، وحفظت تلك التحف في الكنائس، وخاصة تلك المنقولة من الديار المقدسة[3]، وكانت الزخارف النباتية والأشكال الهندسية والكتابات العربية التي تزين التحف، قد نزلت من نفوس الأوربيين منزلة الإعجاب والدهشة، حتى أنهم كانوا يظنون أن هذه الكتابات والحروف هي طلاسم لسليمان، أو لأتباع سليمان[4].

وقد عمل الأوربيون على دراسة قوانين الزخرفة الإسلامية، واقتبسوا فنون الزخرفة والتزيين، وأضافوا إليها مما يناسب ذوقهم، فأنتجوا تحفاً أوربية، ومن أبرز الفنانين الأوربيين الذين اقتبسوا من الزخرفة الإسلامية وتطبيقاتها، الفنان

(1) مرزوق: الفن الإسلامي ص 202.
(2) تراث الإسلام 2/92.
(3) تراث الإسلام 2/93.
(4) السابق نفسه.

ليوناردو دافينشي[1]، وقد اقتبس المجلدون الأوربيون نظام الغلاف الذي يصنع على شكل الصندوق، وهذا الضرب من التجليد كان معروفاً في مصر والقيروان.

وكانت أكثر البلدان التي تأثرت بفن التجليد الإسلامي هي إيطاليا، وخاصة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين)، وكانت مدينة البندقية معبراً لنقل الفنون الإسلامية إلى أقطار أوربا[2]، وكان من أثر الفن الإسلامي في إيطاليا، أن ظهرت معالم شرقية على الكتب المجلدة فيها إبّان القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)، وكانت مدينة البندقية ـ كما يقول كريستي ـ آخذة في أساليب الفن الإسلامي، تتشبَّع بها، وتشعها في الخارج[3]، وتعتبر تجليدات الدومانوتسي Aldo Manuce ـ الذي أسس حوالي سنة 1494 م مطبعة ودار للنشر في البندقية ـ المصنوعة غالباً من جلد الماعز، من أوائل التجليدات التي تبين ـ في فن التجليد ـ آثاراً واضحة للنفوذ الإسلامي[4].

وأفاد الأوربيون من أساليب الزخرفة والتذهيب في البلدان الإسلامية فاقتبسوا طريقة ملء الزخارف الغائرة الناتجة عن الضغط بماء الذهب، وكذلك التذهيب بصفائح رقيقة من الذهب، تلصق على الجلدة بآلة ساخنة، وكان للمسلمين الذين كانوا يعيشون في البندقية، أو الذين كانوا يفدون إليها، أثر في نقل هذا الفن من التزيين والزخرفة[5]، وكان استعمال اللسان في تجليد الكتب مما اقتبسه الأوربيون عن الفن الإسلامي[6]، ولا شك أن تأثير فن التجليد الإسلامي في فن التجليد الأوربي فيه أبلغ الدلالة على ما بلغه الفن الإسلامي من

---

(1) السابق 2/96.
(2) ديماند: الفنون الإسلامية ص 89، وتراث الإسلام 2/88.
(3) تراث الإسلام 2/88.
(4) سفندال: تاريخ الكتاب ص 131.
(5) تراث الإسلام 2/88 ـ 89.
(6) مرزوق: الفن الإسلامي ص 207.

نضج وازدهار، ولعل فيما وصل من أغلفة أوربية من عصر النهضة أكبر شاهد على صحة هذا الرأي.

من أعلام المجلدين:

ولقد وقعت إلينا بعض أسماء وأخبار المجلدين نذكر منهم بعض المشهورين، من ذلك: علي بن محمد الوراق، كان في بلاط المعز بن باديس، وكان يميل بخطه إلى أوضاع الكتابة البغدادية الراقية في عصره، مع اتقانه الرسم والتذهيب والتجليد، وكانت تعاصره في البلاط دُرَّة الكاتبة، وكان مما أنتجاه مصحف، عرف بـ(مصحف الحاضنة) على ورقته الأخيرة عبارة: (كتب هذا المصحف ورسمه وذهبه وجلده، علي بن أحمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله، على يد دُرَّة الكاتبة)[1]، ويلاحظ في هذا العصر أن المجلدين كانوا يجمعون بين صناعة التجليد والخط والتذهيب. ومن المجلدين في بلاد المعز بن باديس أيضاً خطاط ومجلد اسمه المنصور، كتب وذهَّب وجلَّد مصحفاً في جزأين[2].

وكان المؤرخ المشهور المقدسي البشاري شمس الدين محمد بن أحمد المتوفى سنة 375 هـ/ 985 م مجلداً في بلاد الشام، وقد أشار في كتابه أحسن التقاسيم إلى أنه كان مجلداً، وكان يُسَمَّى بذلك، من جملة الأسماء التي أطلقت عليه[3]، وروى المقدسي عن صنعته قال: «بعث إليَّ أمير عدن مصحفاً أجلده، فسألت عن الأشراص بالعطارين فلم يعرفوه»، وذكر أن أهل عدن كان يعجبهم التجليد الحسن ويبذلون فيه الأجرة الوافرة، وربما كان يُعطى على المصحف ديناران[4]، ومن المجلدين المذكورين الراوندي محمد بن علي بن سليمان

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية 1/344، تونس 1965 م.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص 99، ط القدس 1909.

(3) أحسن التقاسيم ص 100.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 43.

صاحب كتاب (راحة الصدور وآية السرور في تاريخ السلاجقة)، يقول: إنه كان ممن أتقن صناعة التجليد، وإنه كان يكسب قوته منها[1].

وذكر في مدينة حلب ودمشق مجموعة من المجلدين، منهم: محمد بن إبراهيم الكتبي (ت 852 هـ/ 1448 م)، كان أستاذاً في تجليد الكتب، وتضرب ببراعته الأمثال، وقد حزن أهل حلب عند وفاته، لانعدام من يحل محله في الإجادة والاتقان[2].

وكان في دمشق في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) سوق للوارقين ومجلدي الكتب، وكانوا يُراقَبون من قبل المحتسب لكي يتجنبوا الغش والسفتجة[3]، وكان سوق المجلدين يقع عند باب البريد في دمشق، ذكر ذلك أبو المبرد الدمشقي (ت 909 هـ/ 1503 م)[4]، ويذكر من مجلدي هذا العصر مظفر الدين بن محمود الحلبي الكتبي المعروف بالشيخ المظفر الكتبي المتوفى سنة 936 هـ/ 1529 م، الذي كان بارعاً في ترميم الكتب الرثة وإعادة تجليدها[5]، ويذكر كذلك عبدالله الأهدل (ت 1040 هـ/ 1630 م) من مجلدي الكتب البارعين[6].

كتب عن صناعة التجليد:

وقد حظيت صناعة التجليد بتأليف بعض الكتب، وقد عُرف منها ثلاثة كتب، وغاب عنا ما ألف من كتب أخرى، من ذلك كتاب مخطوط نفيس في

---

(1) راحة الصدور ص 44، ط الأوربية سنة 1922 م.
(2) محمد راغب الحلبي: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ص 852، ط الأولى 1344 م.
(3) السفتجة: حشو التجليد بالأوراق.
(4) نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق، عن حبيب زيات: مجلة المشرق ج ١ ص ٢٦، سنة 1939 م.
(5) محمد راغب الحلبي: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 5/ 478.
(6) المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ص ط مصر 1284 هـ.

بلاد المغرب، يعود زمنه إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري عن صناعة التجليد، هو كتاب: (عمدة الكتَّاب وعدة ذوي الألباب)، فيه شرح واف عن كيفية التجليد وأصوله، لم يُعرف مؤلفه، وفيه ما يدل على أنه وُضع للمعز بن باديس (398 ـ 454 هـ/ 1007 ـ 1062 م)، يتألف الكتاب من اثني عشر باباً، يشرح المؤلف في الباب الثاني عشر طريقة التجليد والمواد والآلات التي يحتاج إليها المجلد، ويبين كذلك طريقة نقش الجلد بالذهب[1].

وعُرف كتاب آخر عن التجليد هو: (كتاب التيسير في صناعة التسفير) للأشبيلي، وقد احتوى على عدة أبواب، يشرح فيها طرق التجليد والنقش التي كانت على عهده في بلاد المغرب، من ذلك استخدام الختم الذي يكون مربعاً أو مسدساً أو مثمناً أو دائرياً، يوضع في النار حتى يسخن، ثم يضغط به على الجلدة، ويذكر الأشبيلي أن على المجلد أن يرطب الجلد قبل البدء بعملية الختم، وذلك باستعمال الشحم أو زيت الجوز، وأن الزخارف التي تزين السرة، والسرة وسط الغلاف، كانت تستخدم في زخرفة أركان متن الجلدة، ثم تحاط الجلدة بعد ذلك بإطار[2].

أما الكتاب الثالث في صناعة التجليد فهو من القرن الحادي عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) عن صناعة التجليد في المغرب، والكتاب هو: (صناعة تسفير الكتب وحل الذهب)، للفقيه أبي العباس أحمد بن محمد السفياني، ألفه سنة 1029 هـ/ 1619 م، بيِّن فيه أساليب صناعة التجليد والمواد والآلات المستخدمة، وطريقة نقش الجلد وتزيينه، وطريقة صنع النقوش، والختم الذي يسميه (الترنجة)، وزخرفة اللسان، واستعمال الزخارف المفرغة والمخرمة، وطرق التذهيب والزخرفة، والكتابة على الجلد، وغير ذلك[3].

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص 99.
(2) نشر هذا الكتاب عبدالله كنون في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد م 7 ص 2، 6، 9.
(3) نشره ريكارد، في باريس سنة 1925 م.

نماذج مختارة من الأغلفة من بيئات وعصور مختلفة:

1 ـ غلاف من مراكش من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) محفوظ في مكتبة موركان (لوحة 7)[1]، يتألف هذا الغلاف من خمسة أجزاء: الجانب الأيمن، والكعب، والجانب الأيسر، والرابط، واللسان. وتختلف زخارف الجانب الأيمن عن زخارف الجانب الأيسر، ففي الجانب الأيمن أشكال هندسية وأشرطة دقيقة متشابكة تتخللها حبات لؤلؤ، وزينت بصفائح رقيقة من الفضة على هيئة أزهار، ألصقت بالجلد بآلة ساخنة، أما الجانب الأيسر، فقد ازدان متن الغلاف بنجمتين كل نجمة بثمانية رؤوس، والنجمتان متلاصقتان، وقد مُلئت أرضية النجمتين بزخارف دقيقة، وأحيطت النجمتان بإطار زُيِّنت أركانه بزخارف من جنس زخارف أرضية النجمتين، وتميز الإطار ببروز يظهر تصاميم الزوايا، وبروز الإطار ميزة مغربية في الأغلفة، تختلف عن نظام الأغلفة المصرية والفارسية، كما يقول أتنك هاوزن الذي درس هذا الغلاف[2]، أما الكعب الذي يربط بين دفتي الجلد، فقد بدا تالفاً، وليس فيه زخرفة، وهناك ظاهرة في جلود الكتب التي وصلت أن الكعوب فيها في الغالب تكون تالفة، وذلك بسبب ثقل الكتب الذي يقع عليها، وقد تلف قسم من الرابط، وما تبقى منه فتظهر فيه بعض الزخرفة، ويتصل بالرابط اللسان الذي تتوسطه سرة، ملئت أرضيتها بزخارف شبيهة بزخارف أرضية الجانب الأيمن والأيسر من الغلاف، وأحيط متن اللسان بإطار عريض فيه زخارف مضفورة.

2 ـ ووصل من بلاد الشام غلاف من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وهو غلاف كتاب مخطوط نسخ سنة 578 هـ/ 1182 م في مدينة دمشق، محفوظ في مكتبة برلين البروسية، وفي الغلاف تمزق، وقد فقد الجانب

---

(1) Eittinghausen: Near Eastern Bookcovers and their Influence on European Bindings. Ars orientalis, vol. 3, p. 122.

(2) Eittinghausen: Ibid, p. 122.
قياسه 17،4 × 13،6 سم.

الأيمن وبقي جانبه الأيسر (لوحة 8)[1]، صنع الغلاف من الورق السميك، وغلف بجلدة بنية اللون، يتوسط متن الجلدة سبع دوائر تتخللها حبات لؤلؤ، وسط مربع في زواياه الأربع زخارف تتوسطها ورقات بالميت، وتحيط بالمتن ثلاثة أشرطة فيها زخارف نباتية، وزُيِّن اللسان كذلك بزخارف مشابهة لزخارف الغلاف، وتمّ تنفيذ جميع زخارف الغلاف بطريقة الضغط.

3 ـ وغلاف آخر من بلاد الشام أيضاً من القرن الثامن، تم نسخه في دمشق سنة 738 هـ/ 1337 م، وهو محفوظ في مكتبة استانبول (لوحة 9)، في متن الغلاف سرة دائرية مزينة بأشكال هندسية، ويحيط بالدائرة نجمة ذات اثني عشر رأساً، وفي زوايا الغلاف زخارف، وزين الإطار بأوراق البالميت، وزين الرابط واللسان بزخارف شبيهة بزخارف متن الغلاف، وتمّ تنفيذ زخارف الغلاف بطريقة الختم[2].

4 ـ وغلاف كتاب من إيران من القرن التاسع، نسخ سنة 840 هـ/ 1436 م، في مدينة تبريز، محفوظ في المتحف التاريخي الإيراني (لوحة 10)، في وسط متن الغلاف سرة مفصصة، في وسطها زخارف من الرقش العربي (Arabesque)، ذات أزهار وأغصان وأوراق نباتية، وتتدلى من طرفي السرة العلوي والسفلي دلايتان فيهما زخارف مشابهة لزخارف السرة. وزوايا الغلاف الأربع مزينة بأربعة صفوف من الأشرطة المضفورة، ويحيط متن الغلاف إطار ذو أشكال هندسية. أما الرابط ففيه مستطيل مزين بأشكال هندسية، وعلى جانبيه سرتان لوزيتان تتدلى منهما دلايتان ملئت أرضيتهما بزخارف نباتية، وفي اللسان زخارف تمثل نصف سرة مزينة بزخارف، وتحيط بها زخارف نباتية دقيقة، يحيط بها إطار فيه زخارف متشابكة. وقد نفذت زخارف الغلاف بطريقة الضغط والختم الذهبي[3].

---

(1) Maxweis Weiler: Der Islamish Bucheinband, p. 92.

(2) Maxweis: Ibid, p. 120.

قياسه 26،2 × 17،4 سم.

(3) Aga- oglu: Ibid, p. 16.

=

5 ـ ووصل غلاف كتاب من أصفهان من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، نسخ الكتاب سنة 845 هـ/ 1441 م، وهو محفوظ في متحف طوب قابو سراي في استانبول (لوحة 11). في متن الغلاف سرة ملئت بمنظر يمثل أسداً يهاجم ثوراً، تحيط به زخارف نباتية وأزهار، وتتدلى من جانبي السرة دلايتان على شكل ورقة بالميت ذات ثلاثة فصوص، وفي جوانب الغلاف الأربعة أرباع السرة، ومزخرفة بالزخرفة النباتية نفسها، ويحيط بكل ذلك إطار فيه زخرفة على شكل ضفيرة، أما باطن الغلاف ففيه زخرفة من الرقش العربي، وتصميم الغلاف متأثر بأسلوب مدرسة هراة في رسم الطبيعة المحتوية على حيوانات، ونفذت زخارف المتن بطريقة القطع، وظهرت أرضية الجلد بلون أزرق[1].

6 ـ ووصل غلاف من إيران من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) لكتاب مخطوط، عُمل للشاه إسماعيل الصفوي، محفوظ في المتحف الوطني بطهران (لوحة 12)، نسخ بين سنتي 905 ـ 931 هـ/ 1499 ـ 1524 م، يتكون الغلاف من أرضية فيها زخارف على شكل خطوط نباتية متشابكة، ملئت أرضيتها بزخارف من الرقش العربي الدقيق، يحيط بالمتن إطار قسم إلى عدة حشوات تفصل بينها جامات بأربعة فصوص، فيها زخارف نباتية شبيهة بزخارف المتن، وزين الشريط الرابط بكتابة بخط الثلث، ونص الكتابة: (برسم كتبخانة السلطان الأعدل الأكرم أبو المظفر شاه إسماعيل بهادر خان الحسيني)، وقد تمّ تنفيذ زخارف الغلاف بطريقة القطع، فظهرت الزخارف مخرمة[2].

7 ـ ووصل غلاف كتاب من القرن العاشر الهجري (السادس عشر

= قياسه 26،5 × 17 سم.

(1) Aga- oglu: Ibid, p. 19.
قياسه 25،5 × 17،5 سم.

(2) Aga-oglu: Ibid, p. 19.
قياسه 26،5 × 39 سم. وانظر القصيري: فن التجليد ص 69.

الميلادي)، محفوظ في مكتبة جامعة استانبول (لوحة 13)، نسخ المخطوط سنة 905 هـ/ 1499 م، والغلاف من ورق الكارتون المغلف بجلدة ذات لون أسود مطرز بخيوط حريرية ذات لون أزرق وبنفسجي، تتوسط الغلاف سرة لوزية مفصصة، وعلى جانبيها دلايتان، وفي الأركان الأربعة للمتن أجزاء من السرة، وقد ملئت أرضية الجميع بزخارف من الرقش العربي (Arabesque)، ويحيط بالمتن إطار على شكل طيور محلقة قائمة على أرضية نباتية، أما الرابط فقد زين بكتابة كتبت بالخط الفارسي على أرضية نباتية، ونص الكتابة باللغة التركية، ما ترجمته: (غلاف منقوش بألوان نفيسة لا مثيل لها، لديوان يوم منظور وروح محبوسة)، وأما اللسان فقد زين بزخارف شبيهة بزخارف الغلاف يمثل نصف الغلاف[1].

(1) Op. cit. p. I. xII.

قياسه 26 × 16،5 سم.

تذهيب الكتب

فن التذهيب (Gilding) فن قديم، يرجع عهده إلى الفراعنة المصريين القدماء، فقد برع الفراعنة في هذا الفن، وصنعوا من الذهب صفائح رقيقة جداً، استخدموها في زخرفة التحف المصنوعة من الخشب[1]، ومن آثار الفراعنة التي ما زالت تحتفظ بصورها المذهبة نسخة (كتاب الموتى) المحفوظة الآن ضمن مجموعة الأرشيدوق راينر بمكتبة البرتينا بفيينا[2]، وعُرف التذهيب عند أقباط مصر قبل الإسلام، فقد زخرفوا أغلفة الكتب وزينوها بصفائح من الذهب، وقد اقتبس المسلمون هذا الفن عن الأقباط، وعملوا صفائح رقيقة من الذهب لصقوها وهي ساخنة على أغلفة الكتب المتخذة من الجلد، ثم صقلوها بعد ذلك[3]، وهناك طريقة أخرى للتذهيب استخدمها المسلمون، وهي استعمال (ماء الذهب) أو مداد الذهب ومداد الذهب كما يصفه القلقشندي: هو محلول مكون من برادة الذهب الممزوجة بالماء والصمغ وعصير الليمون، يرسمون بالفرشاة الزخارف بماء الذهب وينقشون الكتابات، ويملؤون الأجزاء الغائرة من أغلفة الكتب الناتجة عن الزخارف المضغوطة عليها، ويصف صاحب كتاب عمدة الكتَّاب طريقة تذهيب الجلود بقوله: «خذ من الذهب المشروب واطبقه على الغراء من يومه، ولا تؤخره أكثر من ذلك، وإن قاوم الذهب الالتصاق بالغِراء، فسخِّن الذهب على النار وانخر (لعلها انخل) عليها الشب، لئلا يغير

(1) في المتحف المصري بالقاهرة نماذج جميلة ومتقنة من هذا الفن.

(2) Grohmann: The Islamic Book, p. 14.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ص 223.

عليك البياض، فإذا أطبقته، اتركه يومين وأصقله، وتستعان على لصقه بنداوة الإصبح الوسطى»[1].

وقد تردد المسلمون أولاً وتحرجوا من كتابة القرآن الكريم بمداد الذهب، خوفاً من وقوع الأسراف، وطلباً للبساطة والتقشف، ولكن وبمرور الزمن صار بعض الخطاطين ينسخون بعض المصاحف بمداد الذهب، وكانت هذه المصاحف قليلة، وبقي أكثر نسخ المصاحف بالمداد العادي.

ولم يتحرج المسلمون من رسم فواصل السور، وفواصل الآيات، بماء الذهب، وكذلك في رسم بعض الزخارف في هوامش بعض صفحات المصحف، ثم شاع ذلك بمرور الزمن، وقد دأب المذَهِّبون على زخرفة الصفحتين الأولى والثانية من المصحف الشريف، وكذلك في الصفحة أو الصفحتين الأخيرتين منه، فأبدعوا في ذلك أيما إبداع، واستخدموا ماء الذهب مع الألوان المختلفة، وخاصة اللون الأزرق والفيروزي، وقد صارت هذه الصفحات من القرآن الكريم لوحات فنية، توافرت فيها كل عناصر الفن والإبداع، وقد كانت هناك فكرة كامنة وراء الزخرفة، وفيها ألوان متناسقة حسب الأشكال الزخرفية، وفيها توازن بين هذه الأشكال، وفيها انسجام بين تلك الألوان[2].

وأول خبر ترد فيه كتابة المصحف بالذهب، يذكره ابن النديم، من أن خالد بن أبي الهياج قد كتب في قبلة مسجد النبي ﷺ في المدينة، من (والشمس وضحاها) إلى آخر القرآن بالذهب، وقد رأى ابن النديم في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مصحفاً بخطه، وكان ابن أبي الهياج في زمن الوليد بن عبدالملك الذي حكم بين سنتي 86 ـ 96 هـ/ 705 ـ 714 م[3].

وقد كان التذهيب من مميزات فن الكتاب البيزنطي في العصور

---

(1) مجهول المؤلف: عمدة الكتاب، مخطوط، عن القصيري: فن التجليد، ص 36.
(2) مرزوق: الفنون الزخرفية ص 224.
(3) الفهرست ص 9 ـ 10.

الوسطى[1]، وقد استعمل التذهيب وشاع في المخطوطات العربية منذ وقت مبكر، ففي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يروي ابن إياس أن محفوظ بن إياس أمير مصر، دخل على الخليفة المتوكل (ت 247 هـ/ 861 م) فوجد في يده درجاً فيه بعض تعاليم دانيال، مكتوبة بالذهب[2]، وذكر ابن النديم أسماء مذهبين للمصاحف، منهم من كان قبل عصره، ومنهم من كان معاصراً له[3]، ويروى أن الخليفة المكتفي (ت 295 هـ/ 907 م) كانت عنده مدارج[4] مكتوبة بماء الذهب من شعر المعتمد بن عباد (ت 279 هـ/ 812 م)[5].

وكان المانوية يتقنون فن التذهيب، واستعملوه في كتبهم، ففي رمضان من سنة 311 هـ/ 923 م: «أحرق على باب العامة ببغداد صورة ماني، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضة، مما كان على المصاحف له قدر»[6]، وورد على الخليفة الراضي ببغداد سنة 326 هـ/ 927 م كتاب من ملك الروم يطلب منه الهدنة: «وكانت الكتابة بالرومية بالذهب، والترجمة بالعربية بالفضة»[7]، وهذه الشواهد وغيرها تدل على أن المسلمين قد عرفوا التذهيب واستعملوه في كتبهم ومراسلاتهم، في العصر العباسي.

وكان أول كتاب اهتم المسلمون بتذهيبه أو كتابته بماء الذهب، هو القرآن الكريم، وكانت عظمة القرآن الكريم وقدسيته في نفوس المسلمين، قد دفعت كثيراً من الفنانين للعناية بتذهيب المصاحف، وكان للتذهيب صلة وثيقة بكتابة المصاحف بالخط الجميل، ومن هنا نشأت العناية بهذا الفن، وبلغ مبلغاً رفيعاً

---

(1) سفندال: تاريخ الكتاب ص 49.

(2) تاريخ مصر 1/36، ط القاهرة 1311 هـ.

(3) الفهرست ص 14.

(4) أي لفائف: جمع مَدْرَج: وهو الكتاب الملفوف، أو الرقعة الملفوفة.

(5) الشابشتي: الديارات ص 65، والحلوجي: المخطوط العربي ص 225.

(6) ابن الجوزي: المنتظم 6/174، ويراد بالمصاحف الكتب المجلدة بين دفتي غلاف.

(7) ابن الجوزي: المنتظم 6/293.

من التطور والازدهار[1].

وقد وقف المسلمون في أول الأمر مترددين ومتحرجين من تزيين المصاحف وكتابتها بالذهب والفضة، فقد كره بعض الصحابة ذلك، ومنهم من رخصوا في تحلية المصاحف[2]، ولعل من كان متحرجاً من تزيين المصحف رأى أن في تزيينه: «تقليداً لعادة كانت متبعة عند اليهود والمسيحيين، فضلاً عن كونه يتنافى مع البساطة التقليدية للكتاب المقدس»[3].

وما إن أطل العصر العباسي، حتى شاع تزيين المصاحف وكتابتها بماء الذهب، وقد بدأ الخطاطون والمزخرفون أولاً بزخرفة بدايات السور، والصفحتين الأولى والثانية من المصحف، وفواصل السور، ثم صاروا يكتبون بعض المصاحف بماء الذهب، وقد اكتمل هذا الفن قبل نهاية القرن الثاني، ومن الدلائل الواضحة على ذلك، أن المأمون أهدى إلى مسجد مدينة مشهد مصحفاً مكتوباً بماء الذهب، على رَقٍّ أزرق داكن، وأن جزءاً من هذا المصحف قد وصل إلى سوق القسطنطينية خلال الحرب، واستطاع مارتن F.R. Martin أن يحصل على ورقة منه[4].

وما إن حل القرن الرابع الهجري حتى شاع وكثر تزيين وتذهيب المصاحف، وكذلك الكتب الأخرى، أما المصاحف، فقد وردت روايات تفصح عن شدة عناية المسلمين بتذهيبها، من ذلك ما رواه المقريزي من أن خزانة كتب العزيز بالله، أُخرِج منها أيام الشدة المستنصرية[5]: «ألفان وأربعمائة ختمة قرآن في ربعات، بخطوط منسوبة زائدة الحسن، محلاة بذهب وفضة

---

(1) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ص 69، وفنون الإسلام ص 160.

(2) السجستاني: المصاحف ص 150 ـ 152.

(3) Grohmann: The Islamic Book. 21.

(4) Grohmann: Ibid, p. 20.

(5) وهو الغلاء والمجاعة التي حلت بمصر زمن المستنصر بالله الفاطمي واستمرت سبع سنوات 457 ـ 464 هـ، وقيل إن رغيف الخبز بيع بخمسين ديناراً.

وغيرهما»[1]، ويقول المقريزي أيضاً إنه في سنة 403 هـ/ 1012 م: «أنزل من القصر إلى الجامع العتيق بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً، ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب»[2].

وقد بلغ الافتتان والإبداع الفني في القرن الخامس الهجري أوجه، من ذلك ما يُروى أن عبدالسلام بن بندار، أهدى إلى الوزير نظام الملك مصحفاً نفيساً كان يحتفظ به، وهو مكتوب: «بخط بعض الكتاب المجودين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلاف القُرَّاء بين سطوره بالحمرة، وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقة، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني»[3].

أما الكتب الأخرى من كتب الأدب واللغة ومراسلات الملوك والأمراء، فقد كان التذهيب فيها يتخذ طابع الزخارف والرسوم، وقلما كانت تكتب بمداد الذهب. وإذا كتبت بمداد الذهب فيكون ذلك في نطاق محدود، ولا يتجاوز كتابة رؤوس الموضوعات والعنوانات، وكانت الصفحات الأولى ـ الأولى والثانية خاصة ـ من المخطوطات ميداناً لفن المذهبين، يليها بعد ذلك الهوامش وبدايات الفصول والعنوانات، وبعض الزخارف في صفحات المخطوط، وقد يُذَهِّبون الصفحة الأخيرة لإيجاد نوع من التشابه والتقابل بينها وبين الصفحة الأولى من المخطوط[4].

وقد كان المصورون والمذهبون يعتزون بمهنتهم هذه ويفتخرون بها، لما لها من مكانة فنية عالية، يقول زكي محمد حسن: «وكان المصور الذي يتقن فن التذهيب يحرص على أن يُضاف اسمه إلى لفظ (مُذَهِّب)، كما أن المؤرخين كان

---

(1) المقريزي: الخطط 1/408.
(2) الخطط 2/250.
(3) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 3/230.
(4) الحلوجي: المخطوط العربي ص 229.

لا يفوتهم أن يتحدثوا عن جمعهم بين هذين الفنين الرفيعين»[1]، ولمكانة هذه الصناعة الكريمة في نفوس الناس، والعلماء خاصة، فقد: «أقبل كثير من العلماء والفقهاء والأمراء على تعلم فن التذهيب على أعلام الاختصاصيين فيه، وعُنى الأمراء والأغنياء بمدِّ المذهبين بما كانوا يحتاجون إليه في صناعتهم من المواد الثمينة، كالذهب وحجر اللازورد والورق الفاخر»[2].

وبدهي أنه لم يقتصر عمل المذهبين المسلمين على تذهيب صفحات المخطوطات، وإنما شمل تذهيب جلودها أيضاً، وقد بلغ هذا الفن من الجودة والإتقان والازدهار حداً أن تأثرت به الأمم الأوربية، وكان أول تأثير لهذا الفن في إيطاليا، ولذلك يقول سفندال: «وكان فن التذهيب أول الفنون التي تعلمها الإيطاليون قبل كل شيء من أساتذتهم المسلمين»[3].

وفي العصور المتأخرة، لقي فن التذهيب عناية فائقة بالغة من قبل الأتراك العثمانيين، فقد نبغ منهم مذهبون بلغوا بالفن أرقى درجات الجودة، وقد شهرت مجموعة من الفنانين المعروفين، نذكر منهم: أحمد بن حاج محمود آق سراي، في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وكان أحمد هذا من مدينة قونية، وقد زخرف وذهَّب مخطوطة في الطب تعرف بـ (تفاريح الأرواء Tevarih ul Erua) تاريخ نسخها سنة 840 هـ/ 1436 م[4]، وكان (كراميجي) رئيس المذهبين في قصر السلطان سليمان القانوني (927 ـ 974هـ/ 1520 ـ 1566 م)، ولمع نجم حسن شلبي الأحدب في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) الذي أسهم في تذهيب معظم ما كتبه الخطاط المشهور حافظ عثمان من مصاحف، وكان يوقع بعبارة (ذهبه الفقير حسن)[5]،

---

(1) فنون الإسلام ص 158.

(2) زكي حسن: الفنون الإيرانية في الإسلام ص 68، والكتاب في الفنون الإسلامية، مجلة الكتاب (المجلد الثاني) سنة 1946 م، ص 258.

(3) سفندال: تاريخ الكتاب ص 133.

(4) مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ص 224.

(5) مرزوق: السابق ص 225.

أما أبرز المذهبين في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) فقد كان علي اسكدار، أو كما يُعرف أحياناً أستاذ علي اسكداري، وقد اشتهر بأعماله في التذهيب وفي اللك أيضاً، وما زالت بعض أثاره محفوظة في متحف طوب قابو، من ذلك بعض المخطوطات وزخرفة وتذهيب جلود الكتب وصناديق الأقلام أو (المقلمات)[1]، وهكذا بلغ فن التذهيب عند العثمانيين الذروة في الجودة والاتقان والإبداع.

ويجدر بنا أن نقف عند بعض النماذج التي وصلت من العصور الإسلامية السالفة، وحفظت في المتاحف العربية والأوربية، من ذلك مُصحف كُتب في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بخط جميل ومداد ذهبي، وقد كتبت علامات الوقف باللون الأحمر والأزرق، وفيه زخارف فنية رائعة جمعت بين خط النسخ وزخارف التوريق باللونين الذهبي والأزرق، وكتبت عنوانات السور بالخط الكوفي، والمصحف محفوظ بمتحف المتروبوليتان (لوحة 14)[2].

وهناك ورقتان من مصحف سلجوقي من سنة 446 هـ/ 1054 م كتبتا بالخط الكوفي الإيراني، وفي إحدى الورقتين عنوان سورة مكتوب بالذهب وبألوان متعددة، والورقة الأخيرة مكتوبة بالذهب وبألوان متعددة، والورقة الأخرى مكتوبة بالذهب، وبعض الآيات مكتوبة بخط كوفي غاية في الجودة والاتقان (لوحة 15)[3].

ولم يكن التذهيب والتزيين قاصرين على المصاحف، بل جاوز ذلك إلى الكتب والمخطوطات المصورة، وقد اتخذ التذهيب والتزيين أشكالاً جميلة وصوراً رائعة، من ذلك أنهم كانوا يزينون مطالع أو خواتيم الفصول، أو

---

(1) السابق نفسه والصفحة.

(2) ديماند: الفنون الإسلامية ص 77 ـ 78، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط دار المعارف، مصر 1982 م.

(3) ديماند: السابق ص 79.

يرسمون إطاراً يحيط بالصورة، ومن خير الأمثلة على ذلك مخطوطة (مقامات الحريري) المؤرخة سنة 734 هـ/ 1334 م، وهي محفوظة بالمكتبة الأهلية بفيينا وفي المكتبة الوطنية بباريس (لوحة 16)[1].

ومن شيراز في أوائل العصر التيموري، وصلت صفحة مزدوجة من عنوان مخطوط (عجائب المخلوقات) للقزويني، وصفها ديماند بأن فيها رسم ملائكة، إيراني الأسلوب، والتنين الصيني، وطيور ملونة بدرجات مختلفة، من الذهبي والأبيض والأحمر والأخضر، ولها تحديدات باللون اوسود، وتبدو البراعة الفنية والإحساس الزخرفي الدقيق من زخارف الإطار ذات التفريعات النباتية الزرقاء، التي تضم داخلها حيوانات غريبة دقيقة، والزخارف النباتية مرسومة بلون ذهبي على أرضية زرقاء (لوحة 17)[2].

ومن العصر الصفوي من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، نجد نسخة من (المنظومات الخمسة) لنظامي، المحفوظة بالمتحف البريطاني، وتاريخها سنة 931 هـ/ 1524 م (لوحة 18)[3]، تتضح فيها الأرضية الزرقاء ومناطق صغيرة باللون الذهبي أو الأسود، والزخرفة مرسومة باللون الأبيض والأصفر والوردي والقرمزي والأحمر والأزرق والأخضر، ومما يمتاز به العصر الصفوي طريقة التذهيب بالضغط.

وفي متحف المتروبوليتان عدد من الأوراق المختلفة الألوان من مخطوطة (جلستان) للشاعر سعدي، عليها رسومات مذهبة، مع استعمال الفضة في حالات كثيرة رغبة في تباين الألوان وتعارضها، وقد زُيِّنت حافاتها بتفريعات مزهرة، ومناظر برية، وحيوانات وأشكال آدمية، رسمت جميعها باللون الذهبي الممزوج باللون الأخضر والأصفر (لوحة 19)[4].

---

(1) السابق نفسه ص 80.
(2) ديماند ص 82.
(3) ديماند ص 83.
(4) ديماند ص 84.

ومـن العصـر العثمـانـي طغـراء كبيـرة، وهـي شعـار تختـم بـه الأوامـر (الفـرمـانـات) السلطـانيـة، فـي عهـد سليمـان القـانـونـي (927 ـ 974 هـ/ 1520 ـ 1566 م)، ومن مميزات هذا الفن تلوين الزخارف بالذهب، وباللونين الأزرق والأسود، مع إضافة ألوان أخرى (لوحة 20)[1].

وهكذا نجد أن فن التذهيب قد بلغ من النضج والازدهار والاتقان مبلغاً حاز الإعجاب على مر العصور، حتى بلغ به أن أدهش الفنانين الأوربيين فاقتبسوه ونقلوه في تذهيب كتبهم، كما فعل الإيطاليون الذين نقلوا هذا الفن الإسلامي إلى الدول الأوربية الأخرى، وما زال هذا الفن في البلاد العربية والإسلامية في الوقت الحاضر، بالغاً مبلغه من الروعة والجمال.

---

(1) ديماند ص 85.

الصور والرسوم في الكتب

قبل الخوض في موضوع التصاوير والرسوم في الكتب، لا بد من الوقوف وقفة قصيرة عند حكم الإسلام من التصوير، أهو مباح أم محرم؟ فقد قال الفقهاء المسلمون إن الإسلام قد حرم التصوير، ولكننا نجد أن ما خلفه الكتّاب المسلمون من كتب في الطبيعة والأدب والتاريخ وشتى العلوم والفنون، وفي بعضها صور الطبيعة والحيوان والإنسان، وهذا يخالف مبدأ تحريم الإسلام للصور والرسوم، وخاصة الآدمية والحيوانية، ولا بد من تبيين موقف الإسلام من الصور مما جاء في كتاب الله وأحاديث الرسول وما أثر عن الصحابة.

لم يرد في كتاب الله ما يدل على تحريم التصوير أو إباحته، وقد جاء في سورة سبأ ما يدل على إباحته للنبي سليمان عليه السلام: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وحين فتح المسلمون مكة، أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء: «أن يأتي الكعبة ليمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى محيت الصور، وكان عمر هو الذي أخرجها، والظاهر أنه محا ما كان من الصور مدهوناً مثلاً، وأخرج ما كان مخروطاً»[2]، وفي كتاب الحج من صحيح

(1) سورة سبأ، الآيتان 12 ـ 13.

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري 7/38.

البخاري، عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيدهما الأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما علموا أنهما لم يستقسما بها قط، فدخل البيت فكَبَّر في نواحيه ولم يُصَلِّ»[1]. وجاء في الأحاديث النبوية كراهة التصاوير ولعن المصورين، من ذلك قوله ﷺ: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصوير)، وقوله: (إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون)، «يُعَذَّبون يوم القيامة ويقال لهم: احيوا ما خلقتم»[2]، وروى البخاري أيضاً في كتاب اللباس، أن عائشة قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سَهْوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ، تلوَّن وجهه وقال: يا عائشة، أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله، قالت: فقطعناه، فجعلنا منه وسادة أو وسادتين»[3]. وفي حديث أنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وفي سهوتي ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات[4] لي، فقال: ما هذا؟ قلت: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان، قال: فرس له جناحان؟ قلت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة، فضحك حتى بدت نواجذه»[5]. ويلاحظ أن كراهة التصوير للصور التي فيها روح من إنسان وحيوان وطير، أما ما عدا ذلك من صور الطبيعة والنبات وما ليس فيه روح، فليس بحرام[6]. ففي صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى ابن عباس يستفتيه، قال: «يا ابن عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع التصاوير، فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً، فربا الرجل ربوة

---

(1) صحيح البخاري 1/183.

(2) صحيح البخاري 7/167، 169.

(3) صحيح البخاري 4/30، السهوة: الرف أو الطاق، القرام: الستر، التماثيل: هنا الصور.

(4) لعب الأطفال من التماثيل الصغيرة.

(5) أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 82.

(6) صحيح مسلم 14/81.

شديدة، واصفَّر وجهه، فقال: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر، كل شيء ليس فيه روح»[1]. وهناك أحاديث أخرى تدخل في باب حثّ النبي ﷺ المسلمين على التقشف، وعدم الإقبال عما يشغل عن العبادة، ففي صحيح البخاري في كتاب اللباس، عن أنس قال: «كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي ﷺ: أميطي عني، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي»[2]. وفي خطبة لعلي بن أبي طالب في وصف النبي ﷺ: «ويكون الستر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول لإحدى زوجاته: غيِّبِيْهِ عني، فإني إذا نظرت إليه، ذكرت الدنيا وزخارفها»[3].

ومما تقدم يتضح أن كراهة التصور في الإسلام كانت بسبب ما يراد بها لأجل التقديس والعبادة، أي الأصنام، وما كانت تصنع لأجل الفن أو خدمة العلم، وإذا كان الإسلام قد نهى عن عبادة الأصنام، فمن الأولى أن ينهى عن صناعتها، ما دام الناس كانوا حديثي عهد بهذه العبادة، ويمكن القول إن الإسلام أباح التصوير ما دام بعيداً عن الوثنية، وعن شبهة منافسة الخالق، وفي هذا يقول زكي حسن: «إن كراهية التصوير ترجع إلى عصر النبي عليه السلام، وإن أساسها الفزع من الوثنية وعبادة الأصنام، والخوف من الرجوع إلى ما كان عليه معظم العرب في الجاهلية، وذلك فضلاً عن كراهية الترف في ذلك العصر الذي ساد فيه الزهد والتقشف والجهاد في سبيل الله»[4]، ومن معطيات التاريخ أن المسلمين في العصور الأولى لم يتشددوا ضد التصوير، لأنهم في صدر الإسلام استخدموا الوسائد والستائر وفيها الصور، ولبسوا الثياب المرقمة والمروط المرحلة، واستخدموا اللعب المصورة،

---

(1) صحيح البخاري 3/82، صحيح مسلم 14/93.

(2) صحيح البخاري 4/30.

(3) أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 16 تعليق زكي محمد حسن، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1942 م.

(4) أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 121، حسن الباشا: التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ص 14 ـ 15.

وأباحوا الارتزاق من صناعة تصوير ما ليس فيه روح.

ولكن هل التزم المسلمون بتحريم التصوير وابتعدوا عنه وكرهوه؟ أم تجاوزوا عن ذلك واستخدمه الخلفاء والموسرون منهم في قصورهم ومساجدهم ونقودهم، متجاوزين عن الكراهة والتحريم، إن واقع الحال يؤكد ميل المسلمين إلى الترخص والإباحة، فمنذ العصر الأموي نرى الرسوم والزخارف تنتشر في حياتهم الخاصة والعامة، فمنذ زمن عبد الملك بن مروان (حكم سنة 65 ـ 86 هـ/ 684 ـ 705 م) نجد الصور قد استخدمت في تزيين الثياب والأستار وجدران القصور والمساجد، فالفسيفساء كانت تزين الجدران الداخلية لقبة الصخرة، التي شيدت في زمن عبد الملك بن مروان سنة 72 هـ/ 691 م، ووجدت فيها صور نباتات وأشجار وأزهار، وفي فسيفساء الجامع الأموي بدمشق وجدت رسوم عمائر ومناظر طبيعية[1]. وإذا كانت فسيفساء جدران قبة الصخرة والجامع الأموي فيها مناظر طبيعية، وتخلو من صور الإنسان والحيوان، فإن القصور الأخرى قد تضمنت صوراً آدمية وحيوانية، من ذلك جدران قصير عمرة[2] حيث وجدت: «رسوم صيد واستحمام، ورسوم راقصات ونساء شبه عاريات، ورسوم رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الإغريق، وأخرى لبعض مراحل العمر المختلفة: الفتوة والرجولة والكهولة، ورسم لقبة السماء وبعض النجوم، فضلاً عن البروج المختلفة، ورسوم طيور وحيوانات وزخارف نباتية»[3]، وهناك صورتان إحداهما للخليفة على عرشه وحول رأسه هالة، وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان، ويحف به شخصان،

---

(1) زكي محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص 393 ـ 395، 560 ـ 562.

(2) قصير عمرة: قصر شيده الوليد بن عبد الملك بين عامي 87 ـ 97 هـ/ 705 ـ 715 م، ويقع على بعد 81 كم من عمان، اشتمل على عدة غرف وحمام، وزينت جدرانه وسقوفه بالصور الآدمية والحيوانية والزخارف والرموز المختلفة، وأغلب صور هذا القصر من عمل فنانين سوريين. (ديماند: الفنون الإسلامية ص 37، الموسوعة العربية الميسرة 2/1385).

(3) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص 45.

وعلى عقد المظلة عصابة من الكتابة الكوفية والصورة الأخرى هي الصورة التي تعرف باسم (صورة أعداء الإسلام)، وهي لستة من ملوك العالم القديم، يقفون بملابسهم الفاخرة في صفين، على رأسهم كسرى وقيصر والنجاشي[1]. ووجدت الصور والرسوم في قصور أخرى، من ذلك قصر هشام بن عبدالملك (105 ـ 125 هـ/ 724 ـ 743 م) في خربة المفجر على مقربة من أريحا بفلسطين، وفيه فسيفساء، وأشكال هندسية، وصور بنات وحيوانات مختلفة[2]، وهناك حمام ملحق بقصر خربة المفجر فيه صور بالفسيفساء تمثل شجرة ضخمة من أشجار الرمان، وإلى جانبها الأيسر غزالتان تجريان بين بعض النباتات، وإلى جانبها الأيمن أسد يفترس غزالاً[3]، ويبدو أن هناك ميلاً لتزيين الحمامات بالصور الطبيعية والحيوانية والآدمية، وكانوا يرون أن الصور في الحمامات لها فوائد صحية ونفسية، وقد جاء في أحد المصادر: أن الحمام يحلل القوى الثلاث في الإنسان، وهي: القوة النفسية، والقوة الحيوانية، والقوة الطبيعية، وأن النظر إلى الصور المختلفة يقوي هذه القوى الثلاث، فالنظر إلى صور المودة ومجالس الطرب يقوي القوة النفسية، وتأمل صور القتال والحرب والصيد يقوي القوة الحيوانية، ومشاهد الصور الطبيعية من بساتين وأشجار وأزهار وغيرها تقوي القوة الطبيعية، ومن ثم كانت زخرفة الحمامات بمختلف الصور مفيدة من حيث أنها تساعد المستحم على تقوية قواه الثلاث، واستعاضة ما فقد منها[4]، وقد شاع زخرفة الحمامات بالصور في العصر العباسي، مما

---

(1) أحمد تيمور: التصوير عند العرب، وفيه اللوحات 2،3،4، ورسوم تخطيطية لبعض نقوش جدران القصر، وينظر، الحلوجي: المخطوط العربي ص 186.

(2) زكي حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص 392، 560.

(3) زكي حسن: فنون الإسلام شكل 41، 649، أطلس الفنون الزخرفية ص 560، وشكل 950، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 47.

(4) شهاب الدين أحمد بن محمد الخيمي الكوكباني: حدائق التمام في الكلام على ما يتعلق بالحمام، مخطوط، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 10، علاء الدين الغزولي: مطالع البدور في منازل السرور 2/7 ـ 9، زكي حسن: الفنون الإيرانية ص 61، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 45.

حدا بالفقهاء أن ينهبوا إلى ما في ذلك من حرمة وأن يحثوا على إزالتها، من ذلك ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: «إن الإنسان إذا دخل الحمام، ورأى فيه صورة، فينبغي أن يحكها، فإن لم يقدر خرج»[1]، وعلى الرغم من كثرة ما حث الفقهاء على إزالة صور الحمامات فإن الناس كانوا يتبارون في تزيين الحمامات بالفسيفساء التي فيها الصور الطبيعية والآدمية والحيوانية، وقد شهر في دمشق حمام سيف الدين، الذي زخرفت جدرانه بالصور، وقد وصفه الشاعر عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمحّار، قال[2]:

وخـطَّ فيهـا كـل شخـص إذا لاحظتَـــه تحسَبَـــهُ ينطـــقُ
ومثـل الأشجـار فـي لـونهـا ولينهـــا لـــو أنهـــا تُـــورِقُ
أطيـارُهـا مـن فـوق أغصـانها بـــردِّهـــا تنطـــقُ أو تـــزعـــقُ
وهيئـــةُ المُلـــكِ وسلطـــانُـــه وجيشُـــهُ مـــن حـولِـهِ يحـدقُ
هـــذا بسيـــفٍ ولـــهُ عَبْسَـــةٌ وذا بقـــوسٍ وبـــه يعلَـــقُ

وفي العصر العباسي، زُيِّنت قصور العباسيين بالزخارف البارزة والمحفورة والصور، من ذلك ما وجد في بعض القصور في سامراء بقايا صور حائطية بالألوان المائية، تشمل: «صوراً لنساء يرقصن، ولحيوانات وأشخاص وطيور في مناظر صيد، ومناظر سمك يسبح في الماء، وفرسان ورهبان»[3]، وقد بنى المعتصم قصراً بالميدان، وجعل به إيواناً منقوشاً بالفسيفساء، وكان في صدره صورة العنقاء[4]

---

(1) أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 10 ـ 11.

(2) ديوان المحّار: مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكندرية، كرد علي: خطط الشام 4/122 ـ 123، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 9 ـ 10، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 46.

(3) زكي حسن: فنون الإسلام ص 59، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 142ـ 143.

(4) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، الباب العاشر، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 4.

وقد بلغ التصوير في العصر العباسي درجة كبيرة من النضج والازدهار، بحيث صار الفنانون يتبارون في الجودة والإبداع، وتمكن بعضهم من استخدام الظل والضوء في تجسيم الصورة وبيان أبعادها، من ذلك ما نقله المقريزي عن مهارة المصورين في القرن الخامس، من أن الحسن بن علي اليازوري (ت 450 هـ/ 1058 م)، وزير المستنصر الفاطمي: «أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز[1]، فقال ابن عزيز: أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط، فقال القصير: لكن أنا أصورها، فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة في الحائط، فقالوا: هذا أعجب، فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به، فصورا صورة راقصتين في صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين، هذه تُرى كأنها داخلة في الحائط، وتلك تُرى كأنها خارجة من الحائط»[2].

وعلى الرغم من ازدهار حركة التصوير في العصور العباسية، فإن هذه الحركة تعرضت لانتكاسة شديدة، ففي عصور متأخرة تجددت الدعوة إلى تحريم التصوير، وعدم إباحته، وقد ساد هذا الرأي فترة طويلة، وأخذت به بعض البيئات الإسلامية، وقد عبر عن هذا الرأي المتحرج الزهري في قوله: «النهي عن الصورة على العموم، وكذلك استعمال ما هي فيه، ودخول البيت الذي هي فيه، سواء كانت رقماً في ثوب أو غير رقم، وسواء كانت في حائط أو ثوب أو بساط، ممتهن وغير ممتهن»[3]، ويعزو بعض الباحثين أن سبب التشدد في عدم إباحة التصوير راجع إلى تأثير اليهود الذين دخل بعضهم في الإسلام)[4]، وعزاه بعضهم إلى تأثير الحركة الإيقونية في الدولة البيزنطية، التي نشأت في بداية الربع الثاني من القرن الثامن الميلادي، وعزاه بعضهم إلى خوف

(1) كان ابن عزيز أمهر رسامي العراق فاستدعاه الوزير اليازوردي لينافس القصير أبرع رسامي مصر.

(2) الخطط 2/318.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم 2/199، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 120.

(4) Greswell: Early Muslim Architecture, vol. 1, p. 271.

الساميين بطبيعتهم من التصوير[1]، ويرى حسن الباشا: «أن تشدد المسلمين في القرون الوسطى ضد التصوير، إنما يرجع إلى مبالغة المسيحيين بصفة عامة في استخدامه، لا سيما وأن التصوير كان يستخدم في ذلك الوقت بصفة أساسية في تجسيم المعتقدات الدينية المسيحية، مما دفع المسلمين إلى التشدد في حظره[2].

وقد أدى هذا الموقف بطبيعة الحال إلى تجاهل فن التصوير والحط من قيمته الفنية، وصارت نظرة المجتمع إلى التصوير والمصورين فيها حذر وسخط وازدراء، ولذلك لا نجد لهم ذكراً لدى المؤرخين، مثلما كان للشعراء والأدباء والعلماء، ومن هنا لم تؤلف كتب عن فن التصوير، ولم يعرف غير كتاب واحد ذكره المقريزي، وهو كتاب (ضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس)[3]، وكذلك لم يصل من أخبار المصورين شيء ذو بال، غير القليل الذي يرد عرضاً في ثنايا الكتب.

وكانت مكانة المصور أقل من مكانة الخطاط، وكذلك أقل من مكانة المُذَهِّب والمجلد، وكان المصور تابعاً للخطاط، فهو ينتظر أن يفرغ الناسخ أو الخطاط من كتابة المخطوط، ثم يبدأ هو بتوضيح النصوص بالتصاوير في حدود ما يتركه له من مساحة في صفحات المخطوط، وكانت مكانة الخطاط والمذهِّب رفيعة جليلة، لأنها متأتية من كونهما يكتبان ويذَهِّبان المصاحف، أما المصور فقد كانت نظرة تحريم التصوير تنعكس على مكانته، ومن هنا لا نجد في آثارهم الفنية ذكراً لأسمائهم أو توقيعاتهم، ولذلك ما كانت الصور في العصور الوسطى تنسب إلى منتجيها، لأن المصور نفسه لم يكن يضع اسمه على الصورة التي يرسمها.

---

(1) أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 134 ـ 138، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 16.

(2) التصوير الإسلامي في القرون الوسطى ص 17.

(3) المقريزي: الخطط 2/318.

ومما قعد بالمصورين وفنهم، أن التصوير لم يوظف في خدمة الدين، فلم يدخل في المساجد، ولم يسهم في تجميل المصاحف أو المؤلفات الدينية كالحديث والفقه، وأن الزخارف والفسيفساء في المساجد ـ كما هو الحال في المسجد الأموي ـ لم تشتمل على صور كائنات حية، وحقاً فقد جاءت بعض اللوحات القليلة، وفيها صور الأنبياء، وهذا أمر محظور في الإسلام، وجاءت بعض الصور تمثل الحوادث الدينية، كالإسراء والمعراج، إلا أن هذه الحالات لم تنل عناية مؤرخي الآداب والفنون لمخالفتها الاتجاه العام في التصوير الإسلامي، إن بعد التصوير عن الدين جعله فناً دنيوياً، يعنى بأمور الدنيا، وصار ميدانه الحياة، بما فيها من مناظر طبيعية وحوادث إنسانية، وكانت الطبيعة البحتة هي ميدان المصورين، حيث تستثنى الصور الآدمية والحيوانية، وهذا الاتجاه منسجم مع الفكر الديني في العصور الوسطى الذي لم يجد حرجاً في تصوير ما ليس فيه روح، وقد دعا الإسلام إلى التأمل في الطبيعة، وتدبر قدرة الله فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1]، ولعل الاتجاه إلى الاهتمام بالطبيعة متأثر من جانب آخر بالفنون الأجنبية، ولا سيما بالفن الصيني، الذي ظهر تأثيره منذ أن دخل التتار في إيران[2]، ويلاحظ في التصوير الإسلامي بعض المميزات العامة، من ذلك البعد عن تصوير الواقع وتقليده تقليداً حقيقياً، ولعل في ذلك تحاشي مضاهاة خلق الله، ولم يعن المصور الإسلامي بتصوير العناصر كما جاءت في الطبيعة، ولا بواقعيتها، وقد جاءت الصور خالية من التجسيم والعمق والمنطقية، وأدى ذلك إلى أن أصبحت الصورة ذات طابع زخرفي، وقد عمل الخيال في رسم الصورة بحيث صارت لا تتفق مع الواقع والعقل والحقيقة في رسم الأشخاص والحيوان والنبات والبيوت[3].

---

(1) [الغاشية: 17 ـ 20]

(2) حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 19.

(3) السابق ص 20.

وإذا كان التصوير في المباني والجدران قد بلغ درجة كبيرة من الدقة والروعة والإتقان، فمما لا شك فيه أن ينتقل هذا الفن إلى الكتب، فتحلى بالزخارف والرسوم، ويتطور هذا الفن بمرور الزمن، ولا سيما أن هذا الفن قد كان متقدماً عند الفرس، فمنذ أوائل القرن الثاني يذكر المسعودي أنه رأى عند بعض سادة الفرس بمدينة اصطخر سنة 303 هـ، كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم، وأخبار ملوكهم وأنبيائهم وساستهم: «مصوَّر فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً، منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان»[1]، وأن الصور كانت ملونة بالأحمر والأخضر ولون السماء، وبأنواع الأصباغ العجيبة، التي لا يوجد مثلها في هذا الوقت، والذهب والفضة المحلولين، ويقول: «وكان تاريخ هذا الكتاب، أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس، للنصف من جمادى الآخرة سنة 113 هـ، ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية»[2]، ومن صور التأثير الفارسي أيضاً، تأثير المانوية، فإنهم كانوا يعتنون بكتبهم عناية فائقة، ويزينونها بالصور الملونة والمذهبة، وكان ماني نفسه رساماً بارعاً، ويرى كروهمان أن المانويين كان لهم تأثير كبير على العرب في تزيين الكتب بالصور والرسوم، ويذهب (لوكوك) مبالغاً من أن رسومات المانوية كانت الأساس لكل الرسومات الإسلامية تقريباً[3].

إن أقدم ما وصلنا من المخطوطات المصورة في الإسلام، هو كتاب كليلة ودمنة، الذي ترجمه عبدالله بن المقفع في أيام أبي جعفر المنصور، حوالي سنة 132 هـ/ 750 م، وقد نبَّه ابن المقفع إلى ما فيه من صور توضيحية ووظيفتها في الكتاب، قال: «قد ينبغي للناظر في كتابنا هذا، ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه»، ومن أغراض الكتاب: «إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان، ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في

(1) التنبيه والإشراق ص 92.

(2) المسعودي: التنبيه والإشراف ص 93.

(3) Grohmann: Islamic Book, p. 2.

تلك الصور. . . وأن يكون على هذه الصفة، فيتخذه الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً»[1]، و (لوحة 21).

والتصاوير التي جاءت في المخطوطات الإسلامية، إما أن تكون تصاوير توضح نصوص الكتب العلمية، وإما أن تكون تصاوير لتزويق الكتب الأدبية، وتصاوير الكتب العلمية، هي تصاوير توضيحية لا مجال للإبداع الفني فيها، وهي رسوم كتب النبات والجغرافية والهندسة، ولا تحتوي في العادة على صور آدمية أو حيوانية، إلا فيما ندر، ومن أشهر الكتب العلمية المزوقة بالتصاوير (كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل) لإبن الرزاز الجزري، الذي ألفه سنة 603 هـ1206 م، بطلب من السلطان نور الدين محمد بن قرا أرسلان، أحد سلاطين بني أرتق في ديار بكر، ويشتمل الكتاب على وصف للآلات المختلفة من ضاغطة ورافعة وناقلة ومتحركة[2].

ومن الكتب العلمية التي وصلت وفيها نسخ موضحة بالتصاوير، ترجمة كتاب (الترياق) لجالينوس، وأهم نسخ هذا الكتاب مخطوط كشفه الأستاذ بشر فارس في المكتبة الأهلية بباريس، ويحتوي المخطوط على: (جوامع المقالة الأولى من كتاب جالينوس في المعجونات التي ذكر فيها معجون الدرياق خاصة، بتفسير يحيى النحوي الإسكندراني)، وقد كتب هذا المخطوط محمد بن عبد الواحد بن أبي الحسن بن أحمد، في ربيع الأول سنة 595 هـ (1169 م)[3]، وفي هذا المخطوط ثلاث عشرة صفحة مصورة لأشكال النبات، وجدول لرسوم الحيات، ومجموعة من الصور تمثل مشاهير الأطباء الأقدمين.

---

(1) كليلة ودمنة ص 73، ط المطبعة الأميرية، القاهرة.

(2) ينظر في هذا الكتاب وما على شاكلته، أحمد تيمور: التصوير عند العرب ص 42 ـ 43، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي 5/43 ـ 44.

(3) زكي حسن: مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي، مجلة سومر، المجلد 11، الجزء 1، ص 13 ـ 14، وشكل 3، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، شكل 856 ـ 860، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 96.

ومن الكتب العلمية المزوقة بالتصاوير، كتاب (منافع الحيوان) لابن بختيشوع، ومنه عدة نسخ، منها نسخة فارسية محفوظة في مجموعة مورجان في نيويورك، تضم 94 تصويرة، يرجع عهدها إلى زمن السلطان غازان خان، الذي حكم إيران سنة 694 ـ 703 هـ/ 1294 ـ 1303 م[1].

أما الكتب الأدبية، فيظهر فيها الطابع الفني أكثر تميزاً ووضوحاً، ذلك لأن المصور لم يكن يعنى بتوضيح النص، بل تنصرف عنايته إلى رسم صورة جميلة تتجلى فيها مهارته، فيضفي على الكتاب طابعاً فنياً رائعاً.

ومن أشهر الكتب الأدبية التي عني المصورون بتزويقها كتاب كليلة ودمنة (الذي مرّ ذكره)، وقد كتب أولاً باللغة السنسكريتينة في حوالي القرن الثالث الميلادي، وكان يشتمل على اثني عشر باباً، ثم نقل إلى البهلوية (الفهلوية) في القرن السادس الميلادي، وأضيف إليه ثلاثة أبواب، ثم نقله عبدالله بن المقفع إلى اللغة العربية في حوالي سنة 132 هـ/ 750 م، وزيد عليه ستة أبواب، فأصبح في صورته العربية يشتمل على واحد وعشرين باباً، وقد وصلت نسخ كثيرة من الكتاب باللغة العربية، مزوقة بالتصاوير، كما ذكر ابن المقفع في الكتاب نفسه، ومن أقدم النسخ المخطوطة نسخة محفوظة في المكتبة الأهلية في باريس، تشتمل على 98 تصويرة (لوحة 21)[2].

ومن الكتب الأدبية التي نالت عناية المصورين وزُودت بلوحات فنية جميلة، كتاب (مقامات الحريري)، لأبي محمد القاسم بن علي الحريري (ت 516 هـ/ 1122 م) الذي قدمه إلى الوزير أنو شروان بن خالد وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وزير الخليفة المسترشد بالله (ت 532 هـ/ 1137 م)، وقد وصلت بعض النسخ من المقامات المزوقة

---

(1) ديماند: الفنون الإسلامية ص 46، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 99 ـ 100.

(2) Gray: Fourteenth- Century Illustrations of the Kalilah and Dimnah, Ars. Islamica VII, 1940, p. 134 - 140.

وانظر، زكي حسن: مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي ص 20 ـ 21.

بالتصاوير (لوحة 22)، محفوظة في دور الكتب العالمية، من ذلك عدة نسخ محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، منها نسخة كتبت سنة 619 هـ/ 1323 م، وتحتوي على تسع وعشرين تصويرة، ونسخة أخرى كتبها يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي سنة 634 هـ/ 1237 م فيها تسع وتسعون تصويرة[1].

ومن الكتب المهمة التي نالت عناية المزوقين والمصورين كتاب (الشاهنامة) للفردوسي، الذي أتمّ نظمها سنة 400 هـ/ 1010 م، وأهداها للسلطان محمود الغزنوي وتتألف من أكثر من خمسين ألف بيت، تضمنت أساطير الفرس وتاريخهم وأخبار ملوكهم، من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، وللشاهنامة مكانة كبيرة عند الفرس، لأنها سجلت تاريخهم وأناشيد مجدهم وديوان لغتهم وأمجاد ملوكهم[2]، ومن الشاهنامة الفارسية نسخ كثيرة مزودة بالتصاوير محفوظة في مكتبات العالم (لوحة 23)، ومن أقدم هذه النسخ المؤرخة نسخة محفوظة في مكتبة طوبقابو سراي باستانبول، كتبها الحسن بن علي البهمني في سنة 731 هـ/ 1330 م، وتشتمل على خمس صفحات مزوقة و 69 تصويرة[3].

وكتاب المنظومات الخمس[4]، من الكتب التي نالت عناية المصورين وتزويقهم، والمنظومات الخمس للشاعر نظامي (535 ـ 599 هـ/ 1140 ـ 1202 م) من كبار مشهوري شعراء الفرس، وتتألف من خمس قصائد

---

(1) زكي حسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص 513 ـ 514، شكل 869، 870، مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي ص 17 ـ 18، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 106.

(2) الفتح بن علي البنداري: ترجمة الشاهنامة ص 71 ـ 77، عبدالوهاب عزام: مقدمة الترجمة.

(3) Binyon, Wilkinson and Gray: Persian Miniature Painting, No. 32, pls. 29- 30.

وانظر، زكي حسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص 526 ـ 527، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 110 ـ 111.

(4) في الأصل الفارسي وبقية المراجع: (المنظومات الخمسة).

أو منظومات، الأولى: مخزن الأسرار، وهي ذات طابع صوفي تهذيبي، والثانية: خسرو وشيرين، وهي قصة خرافية تتفق في بعض أجزائها مع الشاهنامة، والثالثة: ليلى والمجنون، التي تحكي قصة الحب بين قيس وليلى ، وهي أكثر المنظومات الخمس نجاحاً، والرابعة: إسكندر نامه، وهي ذات جزئين: إقبال نامه، وخرد نامه، وهي قصيدة فيها معلومات كثيرة، أشبه ما تكون بدائرة معارف، إذ تحكي مناقشة الإسكندر لأستاذه أرسطو حول معلومات كثيرة، والمنظومة الخامسة هي (هفت بيكر)، وتتحدث عن الملك الساساني بهرام جور، وقد أورد سبع قصص حكيت على لسان سبع بنات لملوك سبعة عشقن الأمير الفارسي، وتتصل كل من هذه القصص بأحد أيام الأسبوع السبعة، وأحد الكواكب السبعة، وأحد الألوان السبعة[1].

وللمنظومات الخمس نسخ كثيرة مزوقة بالتصاوير (لوحة 24)، وفي المتحف البريطاني نسخة مزدانة بالصور، وقد أرخت أحدى هذه التصاوير بسنة 900 هـ/ 1494 هـ، وفيها أسماء المصورين: ميرك، وعبدالرزاق، وبهزاد، وقاسم علي، وتوجد بعض هذه الأسماء على تسع عشرة تصويرة من هذه التصاوير التي تبلغ اثنتين وعشرين، وهناك نسخ أخرى من المنظومات في متحف المتروبوليتان بمدينة نيويورك[2].

ولم يقتصر تزويق المخطوطات الإسلامية في العصور الوسطى على الكتب العلمية والأدبية، بل امتد إلى المؤلفات التاريخية، ومن أهم الكتب التاريخية التي عني بها المصورون كتاب (جامع التواريخ) الذي ألفه الوزير رشيد الدين أو رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير (ت 716 هـ/ 1316 م) مؤرخ القصر المغولي في زمن السلطان غازان خان (495 ـ 704 هـ/ 1295 ـ 1304 م)، الذي صحبه في حملته على الشام، وقد عني رشيد الدين

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 114.

(2) زكي حسن: التصوير في الإسلام عند الفرس ص 36، أطلس الفنون ص 529 ـ 530. حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 115.

بالعلوم والفنون، ويتألف كتاب جامع التواريخ من مجلدين، يشتمل الأول على تاريخ المغول (القبائل المغولية والتركية)، وتاريخ جنكيز خان وأسلافه وخلفائه حتى غازان، ويشتمل المجلد الثاني على تاريخ العالم منذ آدم، وتاريخ ملوك الفرس القدامى، ثم تاريخ الإسلام حتى انقضاء الخلافة العباسية، وقد كتب رشيد الدين تاريخه باللغتين الفارسية والعربية.

وقد وصل من الكتاب عدة نسخ مخطوطة مزوقة بالتصاوير (لوحة 25)، وأشهر هذا النسخ أجزاء باللغة العربية محفوظة في مكتبة جامعة أدنبرة، ويرجع تاريخها إلى سنة 707 هـ/ 1306 م[1]، وبعضها محفوظ في الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، وتاريخ نسخها سنة 714 هـ/ 1314 م، وهناك أجزاء من نسخ أخرى في متحف طوبقابو سراي باستانبول، والمكتبة الأهلية بباريس[2].

وكتاب آخر من كتب التاريخ حظي باهتمام المصورين، هو كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) لأبي الريحان البيروني محمد بن أحمد (362 ـ 488 هـ/ 973 ـ 1048 م)، كانت ثقافة البيروني واسعة، منها عنايته بالرياضة والفلك والطب والتاريخ، وكانت له مراسلات مع ابن سينا، وألف كتابه هذا نتيجة لهذه المراسلات والدراسات، ويشتمل الكتاب فيما يشتمل على تاريخ الأديان، هناك عدد من نسخ الكتاب المخطوطة والمزدانة بالتصاوير، منها نسخة محفوظة في جامعة أدنبرة، نسخها ابن القطبي سنة 707 هـ/ 1307 م، وتضم هذه النسخة أربعاً وعشرين تصويرة، يمثل بعضها موضوعات إسلامية ومسيحية[3]، وهناك نسخة محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، نسخت في مصر

(1) ديماند: الفنون الإسلامية ص 45 ـ 46، زكي حسن: فنون الإسلام ص 167 ـ 170، أطلس الفنون الزخرفية، شكل 801.

(2) زكي حسن: الصين وفنون الإسلام ص 37، 38، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 11 ـ 12.

(3) Arnold and Grohmann: The Islamic Book, p. 67.

زكي حسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، شكل 798 ـ 800.

في القرن السابع عشر الميلادي، وتصاويرها تشبه تصاوير المخطوط السابق[1].

ومن كتب الأدب الفارسي التي حظيت باهتمام المصورين والمزوقين، مؤلفات سعدي الشيرازي شاعر الغزل الرقيق (580 ـ 792 هـ/ 1184 ـ 1292 م)، وأهم مؤلفات سعدي البستان (الحديقة) والجلستان (حديقة الورد).

ألف سعدي كتابه البستان سنة 655 هـ/ 1257 م، ويتألف من مجموعة قصائد في موضوعات خلقية (لوحة 26)، ومن أقدم المخطوطات المزوقة لهذا الكتاب نسخة كتبها سلطان علي الكاتب، من مشهوري الخطاطين الفرس في عصره، وذهبها ماري المذهب، وكتبت هذه النسخة للسلطان حسين ميرزا بيقرا في هراة سنة 893 هـ/ 1487 م، وتشتمل هذه النسخة على ست صور، تحمل أربع منها اسم بهزاد، وهذه المخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة[2].

أما كتاب الجلستان (حديقة الورد) فيتألف من مجموعة قصص بالنثر الفني، يتخلله بعض الأشعار، ألفه سعدي سنة 656 هـ/١٢٥٨ م، وهو يمثل الشعور القومي لدى الفرس، وقد وصلت بعض المخطوطات المزوقة والمصورة من الكتاب (لوحة 19)، منها نسخة محفوظة في مكتبة جستربتي بخط الخطاط جعفر بيسنقري، مؤرخة في سنة 830 هـ/ 1426 م في هراة، كتبها للأمير بيسنقر الذي كان قد استقدمه من تبريز وألحقه بمجمع فنون الكتاب بمدينة هراة، وفي هذه المخطوطة ثماني صور غاية في الجمال والإبداع[3].

إن الكتب المزدانة بالتصاوير في التراث الإسلامي كثيرة، ومن الصعب حصرها أو الوقوف عليها، ويكفينا ما قدمنا من نماذج دالة تعبر عن هذا التراث الضخم الجليل.

---

(1) زكي حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص 518، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 122.

(2) ديماند: الفنون الإسلامية ص 65، زكي حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص 108 ـ 112.

(3) ديماند: الفنون الإسلامية ص 65، حسن الباشا: التصوير الإسلامي ص 116 ـ 117.

الفصـل السابـع

آفـات الكتــب

آفـات الكتــب

إن التراث الإسلامي الضخم من المخطوطات يمثل أكبر ثروة عرفها العالم، ولكن هذا التراث العظيم لم يسلم من الرزايا والبلايا، فقد تعرض لآفات ونكبات كبيرة، بسبب الحروب والفتن والأحقاد والجهل، وبسبب العوارض الطبيعية من الزلازل والفيضانات، والرطوبة والعثة والقوارض وغيرها، وما دام العلم مودعاً في الرقوق والقراطيس والورق، فإنه عرضة للتلف السريع، ولذلك فإن الأمم التي خلدت آثارها أودعتها نقوشاً وتماثيل وكتابات على الحجر والآجر والنحاس، كما فعل البابليون واليونان والرومان والفراعنة، وكان أهم ما تعرض له هذا التراث من بلايا هو حرق الكتب من قبل الغزاة والفاتحين الجهلة، وذلك ما فعله التتر في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها، فأعملوا فيها السيف والحرق والدمار، وقتلوا من العلماء أربعة وعشرين ألفاً، ولم ينجُ منهم إلا اثنان، كما يذكر ابن بطوطة[1]، ويقول ابن الفوطي: إن هولاكو قضى على جميع آل العباس وذراريهم ونسائهم، وخرَّب بغداد، وأحرق مساجدها، ووضع السيف في سكانها شيوخاً وكهولاً وشباناً، وقُدِّر عدد القتلى منهم بأكثر من ثمانمائة ألف من مدينة بغداد وحدها، عدا من ألقي من الأطفال في الوحول أو من هلك جوعاً وخوفاً في الآبار والقنوات وسراديب الموتى[2]، وقد كان من ذلك تدمير وحرق خزائن دار الحكمة، والخزائن والذخائر العباسية

(1) دائرة معارف القرن العشرين 8/75.

(2) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين 1/107.

الثمينة التي كانت مكنوزة في قصور الخلفاء والأمراء وأثرياء الناس، فذهبت بذلك خزائن دار الحكمة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وغيرها من خزائن الكتب العامة والخاصة، فألقي بعضها في دجلة فسد مجراه، وجاز الناس على الكتب من جانب إلى جانب آخر، كأنها جسر معقود، وحرق القسم الآخر من الكتب، وبقيت النار مشتعلة فيها مدة طويلة[1].

ولم يقتصر الخراب والبلاء على الغزاة الأجانب، بل كان للفتن الطائفية والمذهبية الآثار السيئة والبلاء العظيم، ومن الخزائن ما ذهبت حرقاً وإتلافاً بيد أصحابها، لما أصابهم من يأس وإحباط وقنوط، أما البلاء الآخر فهو غرق الكتب أو غسلها بالماء أو دفنها أو إتلافها، وأما السرقة والنهب فأخف بلاء، لأن الكتاب ينتقل من مالك إلى آخر غصباً ونهباً. وسنقف عند بعض هذه البلايا والآفات، ذاكرين ما تعرضت له الخزائن والمكتبات من محن وشرور، متابعين ومسجلين ذلك وفق التسلسل الزمني.

حـرق الكتـب:

إن الحرق من أشد الآفات التي قضت على التراث المخطوط، وذهب بقسم كبير منه، ولم يسلم من خزائن الكتب إلا النزر اليسير، لقد كان الغزاة الفاتحون من أقسى الناس قلوباً، وبخاصة المغول، وما فعلوه من حرق المكتبات في البلاد الإسلامية التي تمكنوا منها واجتاحوها، ويضاف إلى هؤلاء ما كان من منازعات وتعصب الفرق المذهبية، ومناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة وإحراق كتبهم، وكذلك فعل الصليبيون الذين غزوا الشام، والاسبان الذين غزوا الأندلس، فأعملوا في الكتب الحرق والتدمير.

إن حرق الكتب يصاحب عملية التدمير والتخريب التي يقوم بها الملوك والقادة الغزاة في إتلاف كل أثر حضاري للعدو، وخاصة إذا كان الحاكمون من الجهلة القساة، ونذكر هنا أقدم الملوك الذين اتبعوا هذه العادة السيئة كنموذج

(1) دائرة معارف القرن العشرين 8/ 74.

للاستشهاد وليس للاستقصاء، ومن أقدم الملوك الذين أحرقوا آثار من تقدمهم لتخليد ذكر أنفسهم هو نبوخذ نصر (605 ـ 562 ق. م)، فقد أحرق في القرن السادس قبل الميلاد تواريخ من تقدمه، وكذلك فعل داريوش الأول ملك الفرس (521 ـ 485 ق. م)، حين اجتاح بلاد اليونان وأخضعها لسلطانه، فأحرق المكتبة الشهيرة في أثينا، وقيل إنه نقل كتبها إلى بلاد فارس، وكذلك فعل الاسكندر ذو القرنين (356 ـ 323 ق. م) بالفرس حين احتل عاصمتهم اصطخر، فقوّض أبنيتها وشوّه نقوشها، ثم استنسخ ما كان مجموعاً في الدواوين والخزائن ونقله إلى اللسانين اليوناني والقبطي، ولما فرغ من استنساخ ما انتقاه أحرق جميع الكتب الفارسية، وأخذ كتب علوم الطب والنجوم والطبائع، وبعث بالكتب والأموال والخزائن إلى مصر[1].

وأما بالنسبة للكتب العربية فأقدم ما وصل إلينا من حرق الكتب كتب عروة بن الزبير (ت 91 هـ/ 709 م) قال ابنه هشام بن عروة بن الزبير: أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له، ثم ندم وقال: لوددت أني كنت فديتها بأهلي ومالي»[2].

ومن الخزائن الأولى التي أحرقت خزانة أبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ/ 770 م)، فقد حرقها بيده تنسكاً وزهداً، ظناً منه أن ما فيها من الشعر والأخبار قد يدعو إلى رذيلة، كالغزل والهجاء والعصبية القبلية، قال أبو عبيدة: «أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات العربية وأيام العرب والشعر، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها»[3].

وممن احترقت كتبه وداره عبدالله بن لهيعة قاضي الديار المصرية سنة

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص 239، البيروني: الآثار الباقية ص 129، أنيس سلوم: في الكتب والمطالعة محاضرة ضمن محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق 263، دي طرازي: خزائن الكتب 3/968 ـ 969.

(2) ابن حجر: تهذيب التهذيب 7/183.

(3) ياقوت: معجم الأدباء 4/217، الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء 1/290، حاجي خليفة: كشف الظنون 1/52.

169 هـ/ 785، وبعث إليه الليث بن الفضل البيوردي أمير مصر بألف دينار تعويضاً عن خسارته الكبيرة[1].

ومن أوائل من أصيب بكتاب عزيز عليه هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170 أو 176 هـ/ 786 أو 792 م)، فقد اتفق أنه اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمه، وقالت: والله لأغيظنَّه، وإن غظته في المال لا يبالي، ولكني أراه مكبَّاً ليله ونهاره على هذا الكتاب، (كتاب العين) والله لأفجعنَّه به، فأحرقته، فلما علم اشتد أسفه، ولم يكن عند غيره نسخة منه، وكان الخليل قد مات، فأملى الليث بن نصر بن سيَّار تلميذ الخليل النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه، وقال لهم: مثِّلوا واجتهدوا، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس[2].

ومن الكتب التي أحرقت بأمر الدولة، كتب المانوية، ففي رمضان سنة 311 هـ (923 م): «أحرق علي باب العامة ـ أحد أبواب دار الخلافة ببغداد ـ صورة ماني وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على المصاحف له قدر»[3].

وأوصى ابن الجعابي أن تحرق كتبه، وكانت له مكتبة غنية فيها نفائس الكتب، وفيها أكثر من مائتي ألف حديث، فأحرقها بيده ولم يبقِ منها شيئاً ومات من ليلته سنة 355 هـ/ 965 م، وكان الدارقطني ليلتها في بيت الجعابي وقد شهد الحريق، وكان لدى ابن الجعابي كتب للناس منها مائة وخمسون جزءاً للحسين بن البواب فذهبت كلها في الحريق[4].

وأوصى السيرافي (385 هـ/ 995 م) ولده أن يحرق كتبه، وذلك لما دنا أجله استدعى ولده محمداً وقال له: «قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير

(1) تذكرة الحفاظ 1/220.
(2) السيوطي: بغية الوعاة 1/560.
(3) ابن الجوزي: المنتظم 6/174.
(4) تذكرة الحفاظ 3/130 ـ 132.

الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار»[1].

وقد نزلت بكتب أبي حيان التوحيدي (ت 400 هـ) مصيبة الحرق، وكانت المصيبة أشد من غيرها، لأن الحرق كان بيده، فقد ساءت أحوال أبي حيان، وأصابه اليأس والقنوط وسوء الظن بالناس، فأحرق كتبه، وقد سجل ذلك ياقوت بقوله: «وكان أبو حيان قد أحرق كتبه آخر عمره لقلة جدواها، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، ويعرِّفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك»[2]، وقد كان التوحيدي، على ذكائه وفطنته ودرايته: «يتشكى من زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه»[3].

ومن بلايا التعصب المذهبي حرق كتب الباطنية والمعتزلة والروافض، فمما جاء في كتاب إلى الخليفة القادر بالله ببغداد من السلطان محمود بن سبكتكين، أنه في سنة 420 هـ/ 1029 م حارب الباطنية والمعتزلة والروافض، فصلب منهم جماعة: «وحُوِّل من الكتب خمسون حملاً، ما خلا كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض، فإنها أحرقت تحت جذوع المُصَلِّين، إذ كانت أصول البدع»[4].

وفي بخارى احترقت خزانة الأمير نوح الساماني والتهمتها النيران، وقيل إن ابن سينا (370 ـ 428هـ) احتال على إحراقها ليتفرد بمعرفة ما درسه من كتبها، وذلك أن السلطان مرض فعالجه ابن سينا وأبرأه، ورخص له في دخول المكتبة والوقوف على كتبها الطبية النادرة[5]، وفي ظني أن هذا الحريق حدث بسبب ما، ولكن يُجَل ابن سينا عن هذا الاتهام غير المعقول وغير المقنع.

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 15/22.

(2) ياقوت: معجم الأدباء 5/386، السيوطي: بغية الوعاة ص 349.

(3) السيوطي: بغية الوعاة 2/190.

(4) ابن الجوزي: المنتظم 8/40، ياقوت: معجم الأدباء 2/315.

(5) الزيات: تاريخ الأدب العربي ص 333 ـ 334، دي طرازي 1/171.

واحترقت كتب محمد أبي جعفر الطوسي فقيه الإمامية في بغداد، وذلك لما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة في سنة (448 هـ/ 1056 م)، فاحترقت داره وكتبه في باب الكرخ، فانتقل على إثر ذلك إلى النجف، وبقي يدرس هناك إلى أن توفي سنة (460 هـ/ 1067 م)[1].

وأحرقت كتب ابن حزم الأندلسي، وكان شغوفاً بالكتب له مؤلفات ومقتنيات كثيرة، وقد شهر بكثرة مؤلفاته، يقال إنه ألف نحو أربعمائة مجلد، لا يُعرف الآن سوى واحد أو اثنين، وأخذ عليه الفقهاء بعض المآخذ، وأبلغوا المعتضد بن عبَّاد أمير أشبيلية ما ينقمون به عليه، فجمع المعتضد كتبه وأحرقها، وفي ذلك يقول ابن حزم:

دعـونـيَ مـن إحـراقِ رَقٍ وكـاغـدِ ... وقولوا بعلم كي يرى الناسُ كم يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس إذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينـزل إن أنـزل ويـدفـن فـي قبـري

وكانت وفاة ابن حزم سنة 456 هـ/ 1063 م[2].

وقد توالت الحرائق على الجامع الأموي فتلفت فيه النفائس من التحف والمصاحف والكتب، ففي سنة (461 هـ/ 1068 م) شبّ في الجامع حريق هائل بسبب فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة، فضربت دار مجاورة للجامع بالنار، واتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها، وربما احترق في هذه الحادثة المصحف العثماني القديم[3]، وبعد ترميم الجامع وإصلاحه احترق ثانية سنة (740 هـ/ 1339 م)، واتهم النصارى بهذا الحريق، فنُقِضتْ مأذنة عيسى وجُددتْ من أموالهم، وامتد الحريق حينذاك إلى الأبنية المجاورة للجامع فأتلف سوق اللبادين وسوق الوراقين، وبقيت الحرائق تتوالى على

(1) مجلة الرسالة سنة 6 ص 1548، دي طرازي: خزائن الكتب 3/ 995.
(2) المقري: نفح الطيب 2/ 141.
(3) كرد علي: خطط الشام 6/ 197.

الجامع على مرّ العصور[1].

وأحرقت خزانة (بيت الكتب) في الري، وذلك حين ورد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي سنة 548 هـ الري، أمر بإحراق كل ما تحويه من كتب الروافض وأهل البدع في علم الكلام، وكان في هذه الخزانة فهرس كتب في عشرة مجلدات اطلع عليه ياقوت الحموي[2].

واحترقت خزانة كتب سابور بن أردشير في عام 451 هـ/ 1059 م) في الكرخ ببغداد وكان سابور قد جعلها وقفاً، فاحترقت ونُهب بعض كتبه، وجاء عميد الملك الكندري فاختار من تلك الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد، ومائة مصحف بخطوط بني مقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها، فلما وقع الحريق أبعدهم عميد الملك وصار يختار ما أعجبه منها[3].

وكذلك ذهبت خزانة سيف الدولة حرقاً، وسبب ذلك أن أحد الذين تولوا إدارتها بعد عهد سيف الدولة، وهو أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب النحوي، كان قد وضع كتاباً تعرض فيه لابتداء دعوة الإسماعيلية وكشف عوارهم، فاستاؤوا وأحرقوا خزانة الكتب انتقاماً منه، وصلبوه سنة 460 هـ/ 1067 م[4].

وفي البصرة أحرقت دار الكتب التي أنشأها عضد الدولة، قال ابن الجوزي في حوادث سنة (483 هـ/ 1090 م)، إنه «في جمادى الأولى ورد البصرة رجل كان ينظر في علم النجوم يقال له (تليا)، واستغوى جماعة، وادَّعى أنه الإمام المهدي، وأحرق البصرة، فأحرقت دار كتب عملت قبل عضد الدولة (ت 372 هـ/ 982 م)، وهي أول دار كتب عُملت في الإسلام»[5]، وقال ابن

(1) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق 1/307، وينظر: دي طرازي 3/1001.
(2) ياقوت: معجم الأدباء 2/315.
(3) ابن الأثير: الكامل 10/3.
(4) دي طرازي 1/122، كرد علي: خطط الشام 6/191.
(5) ابن الجوزي: المنتظم 9/53.

الأثير: إن الذين استغواهم تليا أحرقوا عدة مواضع في البصرة، ومن جملة ما أحرقوا دارين للكتب، إحداهما وُقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه، فقال عضد الدولة: هذه مكرمة سُبقنا إليها، وهي أول دار وُقفت في الإسلام، والأخرى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان، كان بها نفائس الكتب وأعيانها»[1].

وفي سنة 499 هـ/ 1105 م، أُحرقت ونُهبت خزانة القاضي أبي الفرج بن أبي البقاء في البصرة، وذلك أن الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة لما استولى على البصرة، استناب بها مملوكاً كان لجده دبيس بن مزيد، اسمه التونتاش، وجعل معه مائة وعشرين فارساً، فاجتمعت ربيعة والمنتفق ومن انضم إليهم من العرب، وقصدوا البصرة في جمع كثير، فقاتلهم التونتاش فأسروه وانهزم أصحابه، ولم يقدر من بها على حفظها، فدخلوها بالسيف وأحرقوا الأسواق والدور الحسان، ونهبوا ما قدروا عليه، وأقاموا ينهبون ويحرقون اثنين وثلاثين يوماً، وتشرَّد أهله في السواد، ونُهِبت خزانة كتب كانت موقوفة، وقفها القاضي أبو الفرج بن أبي البقاء[2].

وأحرقت مكتبة طرابلس على أثر استيلاء الصليبيين سنة 503 هـ/ 1110 م، قيل: لما وقعت هذه المدينة في أيدي الصليبيين، دخل قسيس هذه الخزانة، فصادف أن أول غرفة دخلها كانت تحتوي على مصاحف، فوضع يده على عشرين نسخة منه بالتوالي، فلما وجدها كلها مصاحف أعلن أن هذه الدار لا تحتوي إلا على كتب مخالفة للحق، وبناء على هذا الحكم أحرقها الفرنج، فصارت رماداً، ولم ينج من الحريق إلا عدد قليل من الأجزاء التي تفرقت في البلاد[3].

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 10/ 122.
(2) ابن الأثير: الكامل 10/ 274.
(3) أحمد زكي: كتاب الحضارة الإسلامية ص 53 ـ 54، دي طرازي: خزائن الكتب 3/ 1004.

وكادت خزانة المدرسة النظامية أن تحرق، لولا أن تداركها العلماء، ففي سنة 510 هـ/ 1116 م، وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، فاحترقت الأخشاب التي بها، «واتصل الحريق إلى درب السلسلة، وتطاير الشرر إلى باب المراتب، فاحترقت منه عدة دور، واحترقت خزانة كتب النظامية، وسلمت الكتب، لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها»[1].

وأحرق التتر دار كتب ساوة على ما ذكر ياقوت، قال: «ساوة مدينة بين الري وهمذان، جاءها التتر فخرَّبوها وقتلوا كل من فيها، ولم يتركوا أحداً البتة، وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها، بلغني أنهم أحرقوها»[2].

ومما أُحرق بأمر السلطان خزانة ابن المرخم القاضي سديد الدين يحيى بن سعيد، صار أقضى القضاة في أيام المقتفي العباسي، وكان ـ كما يصفه المؤرخون ـ ظالماً جائراً مرتشياً، قتل سنة 555 هـ/ 1160 م، في أيام المستنجد، كانت خزانته عامرة بكتب الفلسفة والطب، صودرت منه في أيام المستنجد، وأحرق جانب منها، قال ابن الأثير: «وأخذت كتبه، فأحرق منها في الرحبة[3] ما كان من علوم الفلسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا، وكتب إخوان الصفا، وما يشاكلهما»[4].

وفي هذه السنة (سنة 555 هـ/ 1160 م) وبسبب من عنف الفتن المذهبية، تم إحراق مكتبة مسجد عقيل في نيسابور، فقد تقدم المؤيد (أي بَهْ) بإمساك أعيان نيسابور، لأنهم ـ كما قيل ـ رؤساء للحرامية والمفسدين، فأخذ يقتل المفسدين، فخربت نيسابور، وكان من جملة ما تخرَّب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لأهل العلم، واحتوى على خزائن كتب موقوفة، ثم قوَّض من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة، وأحرق ونهب عدة خزائن كتب، وضمت

(1) ابن الأثير: الكامل 10/366 ـ 367، والبداية والنهاية 12/179.
(2) ياقوت: معجم البلدان 5/21.
(3) أي رحبة جامع القصر المعروف اليوم بجامع سوق الغزل ببغداد.
(4) ابن الأثير: الكامل 10/170، ابن الجوزي: المنتظم 10/194.

تلك الخزائن كتباً وقفها أبو علي الجذامي المالقي النحوي في حياته، فأتلف المؤيد أي بَه كل ذلك وأجهز عليه[1].

ومن الخزائن الكبيرة والنفيسة التي أحرقت خزانة كتب العزيز بالله الفاطمي بمصر، وذلك عند دخول الأيوبيين مصر سنة 567 هـ/ 1171 م، فألقي بعضها في النار، وبعضها الآخر في النيل وتُرك بعضها في الصحراء، فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً، وطُرِح ما بقي منها عند وصول الأكراد للبيع، في أواسط القرن السادس[2].

وممن ابتلي بحرق مكتبته وتوالت عليه المصائب بالحرق والغرق والنهب أبو العباس الأنصاري الخزرجي (ت 569 هـ/ 1173 م)، وكان قد جمع خزانة حافلة بالكتب بالإضافة إلى ما نسخه بخطه الجميل، وقد توالت على كتبه النكبات أثناء إقامته بالأندلس غرقاً وحرقاً ونهباً، وقد تولى خزانة كتب السلطان أبي يعقوب عبد المؤمن في مراكش[3].

ومن التعصب المذهبي إحراق كتب الآخرين، فلما استولى المرابطون على الأندلس كثرت حركة التدمير فأحرقت كتب الفلاسفة، ومنها كتب الغزالي، ولما غلب الموحدون المرابطين أحرقوا كتبهم، ولما غُلب الموحدون أحرق المرابطون كتب الموحدين. فحملوا كتب المذهب المالكي أحمالاً على الرواحل ووجهوها إلى فاس في مراكش وأحرقوها أمام جمع من الناس[4].

وكان السلطان أبو يعقوب بن عبدالمؤمن قد أبعد ابن رشد عن مراكش إلى الأندلس، بعد أن آذاه، وأمر بإبعاد كل من يتكلم بالعلوم الفلسفية وبحرق كتب

---

(1) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 3/38، تاريخ ابن الوردي 2/83، السيوطي: بغية الوعاة ص 215.

(2) دي طرازي: خزائن الكتب 1/179.

(3) السابق 3/993.

(4) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة 2/567 ط كوديرا.

الفلسفة. وبعد أن مال السلطان إلى تعلم الفلسفة أعاد ابن رشد إلى مراكش، وتوفي ابن عبدالمؤمن سنة 594 هـ/ 1197 م.

ومن الرزايا التي حصلت في عام 595 هـ/ 1121 م احتراق جامع أصفهان، ذكر ابن الجوزي أنه: «كان فيه من المصاحف الثمينة نحو خمسمائة مصحف، من جملتها مصحف ذُكر أنه بخط أبيٍّ بن كعب»[1].

ولما احتل الصليبيون القسطنطينية سنة 599 هـ/ 1202 م ارتكبوا فظائع كثيرة من القتل والنهب والاضطهاد، وحرقوا كتباً كثيرة وخزائن كتب فيها النوادر التي لا تعوض، ونهب الجنود صلبان الكنائس وأمتعتها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الأناجيل من الفضة والذهب[2].

ومن الكتب التي أُحرقت بسبب حسد أرباب الشر وما تحمل من أفكار فلسفية، خزانة كتب عبدالسلام الجيلي (ت 611 هـ/ 1214 م)، ذكر القفطي قصة حرق كتبه فقال: «قرأ علوم الأوائل وأجادها، واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة، وله تقدم في الدولة الإمامية الناصرية، وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر، فثلبه أحدهم بأنه معطل، وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن، فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه. . . وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة، وأن تحرق بحضور الجمع الجم منها، ففعل، وأحضر لها عبيدالله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية، وجُعِل له منبر صعد عليه، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول قولهم، وذكر الركن عبدالسلام هذا بشرٍّ، وكان يخرج الكتب التي له، كتاباً كتاباً، فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار»[3].

(1) ابن الجوزي: المنتظم 9/224.

(2) المطران جراسيموس مسرة: تاريخ الانشقاق 2/231، الخوري إسحاق أرملة: الحروب الصليبية في الآثار السريانية ص 204، دي طرازي 3/1005.

(3) القفطي: أخبار الحكماء ص 228 ـ 229، أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر 3/116.

وأحرق الخليفة المستنصر كتب ابن الأبار البلنسي، وكان ابن الأبار من كبار الشعراء، والمؤرخين، وكان حافظاً حسن الخط، وهو مؤلف كتاب أعتاب الكتاب، وحصل خلاف بين ابن الأبار والمستنصر فأمر السلطان بالقبض عليه، وبعث إلى داره من نقل إليه كتبه بأجمعها، فألقي بينها فيما زعموا قرطاساً فيه أبيات أولها:

طغى بتونس خَلْفٌ سمّوه ظلماً خليفة

فغضب الخليفة على ابن الأبار وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقُتِلَ قعصاً بالرماح في منتصف محرم سنة 658 هـ/ 1259 م، ثم أحرق شلوه، وحُملت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه، وكان ابن الأبار قد استشعر ما سيؤول إليه الحال فقال هذين البيتين:

إذا ما رأيتَ الرسوم انمحت ولم يُرْعَ حقٌ لذي منصبِ
فخذ في التحول عن تونسٍ واترك معالمها واهربِ[1]

وأحرق المغول مكتبة مسعود بك في بخارى لما استولوا على المدينة سنة 617 هـ/ 1220 م، وكان بها كتب كثيرة[2].

وكانت مكتبة خوارزم من المكتبات الكبيرة الشهيرة في بلاد فارس، فلما دخلها التتر هدموها وأتلفوا ما كان فيها من الذخائر العلمية، وقتل جنكيزخان أهلها وسبى ذراريها، وقوَّض المساجد وأحرق المصاحف وجاء بأبشع المنكرات، وذلك سنة 618 هـ/ 1221 م[3].

وأحرق المغول المكتبات في بخارى والهند، وذلك حين تولى أباقا شؤون المملكة المغولية سنة 664 هـ/ 1265 م، خلفاً لأبيه هولاكو، تمادى في تخريب دور العلم، فأحرق مدرسة سمرقند، ومدرسة مسعود بك في بخارى،

(1) المقري: نفح الطيب 1/ 621 ـ 622.
(2) دائرة معارف القرن العشرين ص 75.
(3) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 3/ 127 ـ 128.

وكانت كلتا المدرستين من أعظم مدارس ذلك العصر تشتمل كل منهما على مكتبة ثرية، فالتهمت النيران مخطوطاتها الوافرة، ولم تسلم مكتبات الهند من الكوارث، إذ لم يبق منها إثر الفتنة فاحترق بعضها، ونهب بعضها الآخر، والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس[1].

ونشب حريق في خزانة الكتب النورية بحماة سنة 687 هـ/ 1288 م، فالتهم مخطوطاتها التي لا تحصى[2].

واحترقت خزانة الكتب التي في قلعة الجبل بمصر، قال المقريزي: «وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (1292 م)، فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً، كان من ذخائر الملوك، فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقاً محرقة، ظفر الناس منها بنفائس غريبة، ما بين ملاحم وغيرها، وأخذوها بأبخس الأثمان»[3].

وأحرقت خزائن كتب دمشق سنة 700 هـ/ 1300 م، فقد أغار غازان ملك التتر على دمشق واستباحها، وأحرق كثيراً من كتبها، وقد صور علاء الدين الأوتاري الدمشقي في شعره ما حل بالمدينة من بلاء فقال يبكيها:

أحسن الله يا دمشقُ عزاكِ ... في مغانيكِ يا عمادَ البلادِ
طرقتهم حوادثُ الدهرِ بالقتـ ... ـلِ ونهبِ الأموالِ والأولادِ
وبنات محجبات عن الشمـ ... ـسِ تناءَتْ بهنَّ أيدي الأعادي
وقصور مشيدات تقضَّتْ ... في ذراها الأيامُ كالأعيادِ
وبيوت فيها التلاوة والذكـ ... ـرُ وعالي الحديثِ والإسنادِ
حرَّقوها وخرَّبوها وبادتْ ... بقضاءِ اللهِ ربِّ العبادِ[4]

(1) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين 8/ 75.
(2) كرد علي: خطط الشام 6/ 198.
(3) المقريزي: الخطط 3/ 345، والسلوك لمعرفة الملوك 1/ 777، ابن الأثير: البداية والنهاية 13/ 327.
(4) محمد عبدالله عنان: مقالة بعنوان (انقذوا تراث الأندلس) مجلة الرسالة سنة 4 ص=

ومن النكبات الكبيرة التي حلت في الكتب والمكتبات ما حل في مكتبات الأندلس، بعد استيلاء الأسبان وذلك عام 853 هـ/ 1449 م، إذ جُمِعت المخطوطات من كل الأنحاء، وأحرقت أكداساً في أكبر ساحات غرناطة، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة مجلد في الطب والرياضة أهديت إلى جامعة (القلعة) التي أنشأها الكردينال زيمنس، ويقال إن عدد المخطوطات العربية التي أبيدت في تلك الفاجعة بلغ نحو ثمانين إلفاً[1].

واحترقت الخزانة الحيدرية بالنجف، وفيها مصاحف نفيسة بخط علي بن أبي طالب، قال ابن عنبة (ت 828 هـ/ 1424 م): «وقد كان بالمشهد الشريف الغروي، مصحف في ثلاث مجلدات، بخط أمير المؤمنين عليه السلام، احترق حين احترق المشهد سنة خمس وخمسين وسبعمائة (1354 م)، يقال إنه كان في آخره: وكتب علي بن أبو طالب»[2].

وأحرقت خزائن المدرسة العادلية والمدرسة القضائية في دمشق، وذلك في وقعة تيمورلنك سنة 803 هـ/ 1400 م، فقد استعرت النيران في دمشق مدة ثلاثة أيام متوالية، فأتلفت أسواقها ومنازلها ومساجدها ومدارسها، واحترقت كتب تلك المدارس[3].

وممن أُصيب بعلمه وذهبت النار بكتبه، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الأندلسي المتوفى سنة 804 هـ/ 1401 م، فقد كان أكثر أهل زمانه تصنيفاً، وبلغت مصنفاته نحو ثلثمائة مصنف، وكان جمَّاعة للكتب جداً، ثم احترق غالبها قبل موته، وكان ذهنه مستقيماً قبل أن تحترق كتبه، ثم تغيَّر حاله بعد ذلك[4].

= 1685 ـ 1686، جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 3/ 113.

(1) كرد علي: خطط الشام 6/ 376.

(2) ابن عنبة: عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ص 5.

(3) كرد علي: حفظ الشام 6/ 198.

(4) ابن العماد: شذرات الذهب 7/ 45، السخاوي: الضوء اللامع 6/ 105.

ومن الآفات الطبيعية التي أودت بنفائس الكتب، ما نزل بخزانة كتب المسجد النبوي الشريف، ففي الثالث عشر من شهر رمضان سنة 886 هـ/ 1287 م، وقعت صاعقة على مئذنة المسجد، فانهارت على سقفه وعلقت به النار، فأحرقت المسجد بكامله، والتهمت جميع ما فيه من الكنوز والمصاحف والربعات وخزائن الكتب، وكانت تضم تلك الخزائن كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة، هيهات أن يجود الزمان بمثلها[1].

وأحرق إسماعيل شاه الأول الصفوي مصاحف وكتب أهل السنة مع ارتكابه فظائع كثيرة، وذلك حين ولي العرش (890 ـ 930 هـ/ 1485 ـ 1523 م) في بلاد فارس نشط يثأر من قاتلي أبيه وجده، فأخذ يجيش الجيوش ويهاجم البلدان حتى ملك تبريز وأذربيجان وخراسان والعراقين العربي والفارسي، وأوشك أن يدعي الربوبية، فقتل من الناس ما ينوف عن الف الف (مليون) نسمة، وفتك بأعاظم علماء الفرس ولم ينجُ أحد منهم، ثم أحرق مصاحفهم وكتبهم تشفياً لكونها مصاحف أهل السنة، وكان كلما مر بقبور مشايخهم نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها، وكان إذا قتل أميراً من الأمراء استباح زوجته وأمواله وجعلها حلالاً لشخص آخر[2].

وقد أحرق الصليبيون كل أثر إسلامي في حروبهم مع المسلمين، فكانوا ما أن يقتحموا مدينة أو قرية مسلمة حتى يحرقوا ما فيها من مكتبات ومخطوطات، مع ما يتبقى من أهلها الأحياء بعد المعركة[3]، وقد ظهر هذا جلياً في الأندلس، فقد حكم المسلمون الأندلس قرابة ثمانية قرون، وأسسوا فيها حضارة مزدهرة، ولكن حكمهم انتهى بسقوط غرناطة سنة 905 هـ/ 1499 م،

---

(1) قطب الدين الحنفي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 105، والمراد بالربعات: صناديق لأجزاء المصحف، جمع ربعة، والكلمة من الألفاظ المولدة.

(2) عثمان بن عبدالله بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد ص 25، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 126، دي طرازي: خزائن الكتب 3/ 1009.

(3) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ ص 294، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 7/ 50.

وعلى أثر احتلال النصارى للمدن الإسلامية وإرضاء لمشاعرهم الدينية المتأججة، جمعوا المخطوطات العربية من أنحاء الأندلس واسبانيا وأحرقوها، وقد قاد هذه العملية البشعة الكاردينال خيمينيز سيسنيروس، وكان هذا العمل جزءاً من أعمال محاكم التفتيش ضد الإسلام والمسلمين، وقد قدرت المخطوطات العربية التي أحرقت بمليوني مخطوطة[1].

وكذلك أحرق اليونان النصارى الكتب الإسلامية بعد خروج الأتراك المسلمين، فقد دمر اليونانيون كل أثر للمسلمين من أبنية ومساجد وتكايا وحولوها إلى حانات وكنائس واسطبلات، ولم يبق في اليونان من الكتب الإسلامية غير أربعين مخطوطة، بعضها مصاحف أو كتب تفسير وغيرها محفوظة في المكتبة الأهلية بأثينا[2].

واحترقت كتب عربية في مدريد سنة 1082 هـ/ 1671 م، فقد شبّ حريق في مكتبة الأسكوريال بسبب صاعقة سقطت فالتهمت النار قسماً من المخطوطات، وكانت المكتبة تضم آلاف الكتب التي استولى عليها الاسبان من مكتبات الخلفاء المسلمين في الأندلس، وأضيف إليها ما غنمه الإسبان من المخطوطات التي كانت في خزائن مولاي زيدان سلطان مراكش[3].

ولم يكن التعصب الديني ليقتصر على الكتب الإسلامية بل كانت كتب النصارى واليهود طعمة للنار بسبب هذا التعصب البغيض، فقد كان الكاثوليك الفرنسيون في القرون الوسطى يحرقون كتب البروتستان واليهود، من ذلك أنه صدر حكم بإحراق كتاب التلمود، فحشدوا جميع نسخه المخطوطة ونقلوها على أربع وعشرين عجلة إلى ساحات مدينة باريس، وأضرموا الناس على مرأى من سكان العاصمة فالتهمتها بأجمعها، وكذلك فعل الفرنسيون بمصاحف

---

(1) إمام الدين: المخطوطات العربية في المكتبات الإسبانية الحديثة، مقالة بالإنجليزية في جريدة الجمعية التاريخية الباكستانية مجلد 7، عام 1959، ص 195 ـ 204، محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص 328 ـ 348.

(2) المرجع السابق.

(3) دي طرازي: خزائن الكتب 3/1020.

البروتستان الدينية في القرن السادس عشر، فجمعوها وكدسوها كلها أكداساً، ثم أضرموا فيها النيران، فأتت عليها برمتها[1].

غــرق الكتــب:

ومما أصيبت به الكتب الغرق أو التغريف بفعل الفيضانات أو إغراق الكتب بالماء بسبب الحروب والفتن لطمس معالمها وإبادتها، أو غسل الكتب بالماء فتذهب علومها ورسومها، وقد ذهب من جراء هذا تراث عزيز غزير ونفيس، ونقف هنا عند بعض الحالات، لأن الإحاطة بكل ما ذهب أمر عزيز المنال، فمن ذلك:

من أوائل الذين أغرقوا كتبهم داود الطائي بن نصير الكوفي (ت 165 هـ/ 781 م)، فإنه لما تبصر بالعلوم أغرق كتبه في نهر الفرات، وقال ياقوت في ذكر داود الطائي: «يقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر (أي بحر الفرات)، وقال يناجيها: «نعم الدليل كنتِ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول»[2].

ومن الكتب الأولى التي غرقت كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (ت 208 هـ/ 823 م)، وذلك ما قيل من أن أبا عمرو الهروي (ت 255 هـ/ 868 م) خرج مع الأمير يعقوب بن الليث إلى نواحي فارس، وحمل معه كتاب الجيم، فطغى الماء من النهروان على معسكر يعقوب، فغرق الكتاب فيما غرق من المتاع[3].

وغرقت كتب أحمد بن محمد البزاز (ت 407 هـ/ 1016 م)، قال الأزهري: «رأيت كتبه كلها طرية، وكان يذكر أن أصوله العتق غرقت»[4].

---

(1) دي طرازي: خزائن الكتب 3/1025.
(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/220، ياقوت: معجم الأدباء 15/21.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 4/263.
(4) ابن الجوزي: المنتظم 7/284.

وغرق كتاب الفصوص لأبي العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي الموصلي (ت 417 هـ/ 1026 م)، وكان أبو العلاء قد دخل الأندلس واتصل بالمنصور بن أبي عامر، فأكرمه واستوزره، وألف للمنصور كتباً، منها كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي، ولما أتمه أبو العلاء دفعه لغلام له يحمله بين يديه، وعبر به نهر قرطبة، فزلت قدم الغلام، فسقط في النهر هو والكتاب، فقال في ذلك ابن العريف، وكانت بينه وبين أبي العلاء شحناء ومناظرات:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص   وهكــذا كــل ثقيــل يغــوص

فقال أبو العلاء يجيبه على البديهة:

عــاد إلــى معــدنــه إنمــا   توجد في قعر البحار الفصوص[1]

وغرقت كتب أبي الحسن علي بن عبدالله بن عبدالغفار السمسماني (ت 415 هـ/ 1024 م) أحد علماء اللغة له مؤلفات كثيرة، وكان خطه جميلاً متقناً، ونسخ معظم كتبه بخط يده، وانتقلت كتبه بعد وفاته إلى ابن دينار الواسطي، وأدركها الغرق ففسد أكثرها[2].

ومن غريب ما حصل لكتب الأمير محمود الدولة أبي الوفاء المبشر بن فاتك الآمري، من أعيان أمراء مصر وعلمائها في أواخر المائة الخامسة للهجرة، أن زوجته كانت تندبه بعد وفاته وترمي بكتبه في بركة ماء، روى ابن أبي أصيبعة في ترجمته قال: «كان كثير الكتابة، وقد وجدت بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين، وكان المبشر بن فاتك قد اقتنى كتباً كثيرة جداً، وكثير منها يوجد وقد تغير ألوان الورق الذي له بغرق أصابه، وحدثني الشيخ سديد الدين المنطقي بمصر، قال: كان الأمير ابن فاتك محباً لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته، إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له

(1) ياقوت: معجم الأدباء 4/ 266.
(2) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/ 423.

دأب إلا المطالعة والكتابة، ويرى أن ذلك أهم ما عنده، وكان له زوجة كبيرة القدر أيضاً من أرباب الدولة، فلما توفي رحمه الله، نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب، وأنه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار، هي وجواريها، ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها، فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك، يوجد كثير منها وهو بهذه الحال»[1].

وغرقت كتب ابن الدهان النحوي سعيد بن المبارك (ت 569 هـ/ 1173)، ذكر ذلك ابن خلكان قال: «ترك ابن الدهان بغداد وانتقل إلى الموصل، قاصداً جناب الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد، فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه، وأقام في كنفه مدة، وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد، فسيَّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرقت، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً، وفاض الماء منها إلى داره، فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره، فلما حُمِلت إليه على تلك الصورة، أشاروا عليه أن يطيِّبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن، فبخرها باللاذن[2]، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه، فأحدث له العمى وكُفَّ بصره»[3].

ولا شك أن أكبر كارثة نزلت بالكتب غرقاً، هو ما فعله المغول حين سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 656 هـ/ 1258 م، فقد رمى المغول كما يقول النهروالي: «كتب مدارس بغداد في بحر الفرات[4]، فكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركاباً ومشاة، وتغيَّر لون الماء بمداد الكتابة إلى

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 2/ 98 ـ 99.
(2) ضرب من العلوك.
(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 295، الصفدي: نكت الهميان ص 95، ياقوت: معجم الأدباء 1/ 242.
(4) المراد دجلة.

السواد»[1]. وقال ابن خلدون إن المغول: «استولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف، ولا يحصره الضبط والعد، وأُلقيت كتب العلم التي بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يُعَبَّر عنه، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم»[2].

وفي سنة 750 هـ/ 1349 م غرق مصحف عثمان، وكان المصحف في منبر جامع قرطبة، ثم نُقل إلى مراكش في عهد السلطان عبد المؤمن بن علي، ثم أصبح في حوزة المعتضد بالله علي بن إدريس بن يعقوب المنصور، وبعد مقتله نُهب المصحف فعثر عليه ملوك بني عبدالواد أصحاب تلمسان فاحتفظوا به، فلما افتتح السلطان أبو الحسن المريني افريقيا، استولى على المصحف وحمله معه تبركاً به في رحلاته وفتوحاته، فلما قفل بحراً من تونس إلى المغرب سنة 750 هـ هبَّت عاصفة شديدة في البحر فأغرقت المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها من نفائس، وأخصها وأثمنها مصحف الخليفة عثمان، فكان ذلك آخر العهد به[3].

ومن الخسائر الفادحة التي نزلت بالمصاحف والكتب ما حدث سنة 1055 هـ/ 1645 م، حيث وقع سيل شديد في مكة لم يسبق له مثيل في تاريخ مكة، فدمر أبنيتها ودخل المسجد الحرام وأتلف ما في قبَّة الفراشين من المصاحف والرباع، فكانت الخسائر فادحة[4].

وذهبت في البحر كتب الشيخ فخر الدين الطريحي، وكانت كتباً كثيرة بخطوط غاية في الجودة، فانتقلت إلى ورثته بعد وفاته سنة 1085 هـ/ 1674 م، ونقل عن بعض الأعلام أنه رأى بعينيه في سرداب بدار الشيخ نعمة الطريحي ما يقرب من ثلاثة أحمال من أوراق كتب مبعثرة قد أتلفها المطر،

---

(1) قطب الدين النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 181 ـ 182.
(2) ابن خلدون: العبر 3/537.
(3) أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى 1/150.
(4) المحبي: خلاصة الأثر.

فنُقلت بأجمعها وألقيت في البحر[1].

وكذلك تلفت وأغرقت كتب الشيخ عبدالعزيز النجفي، وكان قد جمع كتباً نفيسة طلبها من العراق والهند وكانت تُعد بالألوف، ومنها مخطوطات مذهبة، وبعد وفاته تفرقت بين ورثته فباع فريق منهم حصته وأهمل الفريق الآخر حصصه حتى أمست فريسة للأرضة، فتلف أكثرها على ممر الأعوام، وألقيت جملة منها في بحر النجف وفي الآبار[2].

ومن الحوادث المتأخرة غرق سفينتين محملتين بالكتب الشرقية، فقد كان السمعاني اللبناني المتوفى سنة 1182 هـ/ 1768 م، يعمل في مكتبة الفاتيكان، فكلفه البابا أن يذهب إلى الشرق ينقِّب فيه عن الكتب والمخطوطات ويحملها إلى رومية، ففعل وتفقد ديور[3] الشرق، في مصر وسورية والعراق، وحمل ما وصلت إليه يده من الكتب الفلسفية واللاهوتية والتاريخية وغيرها، ما لا تُعرف قيمته، يُقال إنه حملها في ثلاث سفن، ومن جملتها كتب قبطية وعربية من ديور القطر المصري، فغرق منها اثنتان، وكانت السفينة الباقية وحدها كافية لإعجاب أهل الفاتيكان»[4].

وغرقت كتب ثمينة في الموصل في دير للكلدان يسمى دير الربان هرمزد، كان يشتمل على مكتبة ثمينة حوت مئات المخطوطات القديمة المكتوبة على الرق، وقد خرَّب الأكراد الدير المذكور وأعملوا السيف في رهبانه، فاستطاع الرهبان أن يهرِّبوا نحو خمسمائة مخطوطة أودعوها قبواً قديماً مجاوراً للدر، غير أن مطراً غزيراً سقط من أعالي الجبل فاجتاحت سيوله القبو والكتب معاً، ودفعتها إلى قعر الوادي، فتلفت جميعها ولم يعثر لها بعد ذلك على أثر[5].

---

(1) جعفر آل محبوبة: ماضي النجف ص 104.
(2) السابق والصفحة.
(3) جمع دير.
(4) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ص 206.
(5) كوركيس عواد: أثر قديم في العراق ص 50 ـ 54.

غســـل الكتـــب:

ومما يتعلق بغرق الكتب غسلها ومحو كتابتها وإتلافها، فكان بعض المؤلفين يعمد إلى غسل الكتابة بوضع الكتب في الماء مدة من الزمن فينحل حبرها وتطمس كتابتها، وذلك للتخلص مما فيها من أقوال وآراء لا يرغب في الإبقاء عليها أو الاحتفاظ لها، وكأن القصد من ذلك التبرؤ مما كتب، أو التوبة إلى الله عما صنع، أو تلافي ما فرط منه، أو لدواع أخرى مختلفة[1].

ومن أقدم ما روي عن غسل الكتب، ما رواه أبو نعيم في الحلية، من أن ابن أبي الحواري: «لما فرغ من التعليم جلس للناس، فخطر في قلبه يوماً خاطر من قبل الحق، فحمل كتبه إلى شط الفرات فجلس يبكي ساعة، ثم قال: نِعْمَ الدليلُ كنتِ لي على ربِّي، ولكن لما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال، فغسل كتبه»[2].

وكذلك فعل عبيدة بن عمرو السلماني المرادي (ت 72 هـ/ 691 م)، فقد دعا بكتبه عند موته فمحاها، وقال: أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعها في غير مواضعها[3].

وأمر شعبة بن الحجاج ابنه أن يغسل كتبه ويدفنها بعد موته[4].

وممن غسل كتابه غضباً وعصبية أبو الحسن بن عيسى الربعي النحوي (ت 420 هـ/ 1029 م)، روى ياقوت، وقد سرد أسماء كتب أبي حسن الربعي، وذكر من بينها كتابه الذي وضعه شرحاً على كتاب سيبويه، قال: «إلا أنه غسله، وذلك أن أحد بني رضوان التاجر نازعه في مسألة، فقام مغضباً وأخذ شرح سيبويه وجعله في إجَّانة وصبَّ عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان

(1) كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة في العراق ص 36.
(2) حاجي خليفة: كشف الظنون 1/ 40.
(3) ابن سعد: الطبقات 6/ 63.
(4) الخطيب البغدادي: تقييد العلوم ص 62.

ويقول: لا أجعل أولاد البقالين نحاة»[1].

وغسل أبو سعيد محمد بن علي بن المطلب (ت 478 هـ/ 1085 م) شعره تذمماً مما فيه من الهجاء، وقال ابن الجوزي: «إنه قال شعراً كثيراً، إلا أنه كثير الهجو، ثم مال عن ذلك، وأكثر الصوم والصلاة والصدقة، وروى الحديث عن ابن بشران وابن شاذان وغيرهما، وغسل مسودات شعره وأحرق بعضها بالنار»[2].

وغسل أبو غالب شجاع بن شجاع الذهلي الحافظ (ت 507 هـ/ 1113 م) ما كتبه في تتمة تاريخ بغداد الذي شرع في تأليفه، ثم غسل ذلك قبل موته بعد أن أرّخ بعد الخطيب، وكان أبو غالب مفيد أهل بغداد والمرجوع إليه في معرفة الشيوخ[3].

وممن ضنّ بخطه على الناس فغسله، المبارك بن المبارك أبو طالب الكرخي المتوفى سنة 585 هـ/ 1189 م، ترجم له ياقوت بقوله: «كان أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال ابن البواب، سمعت جماعة يحكون أنه لم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله في قلم الثلث، حتى رأيت من يغالي فيه فيقول: إنه كتب خيراً من ابن البواب، وكان ضنيناً بخطه جداً، فلذلك قلّ وجوده، وكان إذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستاً ويغسله، فأما إذا استفتي فإنه يكسر قلمه، ويجهد في تغيير قلمه»[4].

وكان الشميم الحلي يعمل مقامات ولم يرضها فيغسلها، فقد سأل ياقوت الحموي الشميم الحلي علي بن الحسن النحوي اللغوي الشاعر المتوفى سنة 601 هـ/ 1204 م، سأله كيف أنه لم يصنف مقامات يدحض بها مقامات الحريري؟ فقال له: «يا بني، اعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي على

(1) ياقوت: معجم الأدباء 15/ 79.
(2) ابن الجوزي: المنتظم 9/ 24.
(3) ابن الجوزي: المنتظم 9/ 176.
(4) ياقوت: معجم الأدباء 6/ 230.

الباطل، عملت مقامات مرتين، فلم ترضني، فغسلتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل ابن الحريري. . . »[1]، وفي رواية أخرى لياقوت أنه لقي في آمد سنة 593 هـ/ 1196 م علي بن الحسن المعروف بالشميم الحلي، وكان شديد المغالاة بنفسه، والغض من غيره، لا يُقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً، وقد حاول معارضة مقامات الحريري، فأنشأ مقامات كمقاماته ثلاث مرات، ولكنه ما إنْ يتأملها حتى يستردها، فيعمد إلى البركة فيغسلها[2].

وغسل أحمد بن هبة الله الخازن كتاباً للمعري، فلامه ابن الدهان الضرير الواسطي المعروف بالوجيه (ت 612 هـ/ 1215 م)، قال ياقوت في ترجمة الوجيه: «وحضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعري، فذمه الخازن، وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه: وأي شيء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن، أو خيراً منه، أو دونه، فإن كان مثله أو خيراً منه، وحاشى لله أن يكون ذلك، لا يجب أن يفرط في مثله، وإن كان دونه، وذلك ما لا شك فيه، فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت[3].

وغسل ابن تيمية كتب غيره لما ظنه أن فيها ما يضلل الناس، وذلك ما ذكره ابن حجر في ترجمة علي بن الحسن بن عبدالله بن الجابي المتوفى سنة 701 هـ/ 1301 م أنه: «كان قد أغري بالكيمياء، وحصل فيها كتباً كثيرة جداً، وكان يزعم أنها صحت معه، قال ابن الجوزي: كان صاحبي، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة، ولما مات، توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاشترى منها

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء 5/132.
(2) ياقوت: السابق 6/268 ـ 269.
(3) ياقوت 6/235.

جملة وغسلها في الحال، وقال: هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم، فافتديتهم بما بذلته في ثمنها»[1].

وغسل الشيخ القفطي ما كتبه من شعر أملاه عليه الشاعر النصيبي لأنه مكذوب، روى الأدفوي، قال: «حضر مرة الشيخ بهاء الدين القفطي من إسْنا، فتوجه النصيبي (محمد بن معتوق الشيباني المتوفى سنة 706 هـ/ 1307 م) إليه، وعرَّفوا الشيخ أنه فاضل، فصار يسأله عن لغة، فيذكر شيئاً من عنده ويستشهد عليه بشعره، فيكتب الشيخ ما يقوله، إلى أن اجتمعت عنده كراريس، فلما قصد التوجه، جاء إليه وقال: يا سيدنا، لا تعتمد على هذه الكراريس، فإني ارتجلتها، فشق على الشيخ وغسلها»[2].

وممن غسل ما كتب من شعر تديناً، صدر الدين ابن الوكيل المتوفى سنة (716 هـ/ 1316 م)، قال ابن حجر العسقلاني: «كان إذا مرض غسل ما نظمه من الشعر»[3].

نهـــب وسرقة الكتب ومصادرتها:

تكثر حوادث نهب الكتب والاستيلاء على الخزائن والمكتبات أزمان الفتح والاحتلال، واجتياح المغول خاصة، ومن هذه الحوادث المفجعة ما كان:

بسبب من الفتن المذهبية نُهِبتْ خزانة الصوفية بحلب، وذلك في فتنة حصلت في بعض أيام عاشوراء، بين أهل السنة والشيعة، ولم يبق منها إلا القليل، حدث ذلك في أيام أبي العلاء المعري المتوفى سنة (449 هـ/ 1057 م)[4].

ونهبت خزانة دار العلم في مصر في أيام الخليفة المستنصر بن الظاهر،

---

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة 3/39.
(2) الأدفوي: الطالع السعيد ص 354.
(3) ابن حجر: الدرر الكامنة 4/120.
(4) دي طرازي: خزائن الكتب العربية 1/121.

ففي شهر صفر من سنة 461 هـ/ 1068 م تجمهر جنوده الأتراك، وتمردوا عليه، يطلبون زيادة مرتباتهم، فتألبوا عليه، وأرغموه على بيع كنوز قصره، التي جمعها الفاطميون أجداده منذ تأسيس دولتهم، ثم اقتسموها بينهم، وكانت دار العلم تشتمل على كل نادر من الكتب الجليلة المقدار، المنقطعة المثال بجودة الخط، وأناقة التجليد، وغرابة الزينة، وكان فيها ما يقرب من ألفين وأربعمائة ختمة، مكتوبة بخط مُحَلًّى بالذهب والفضة، فاقتسمها الأتراك أيضاً، إلا جانباً منها كان خاصاً بالوزير عماد الدولة وأبي الفضل بن المحترق حاكم الاسكندرية، فأرسل إليه محمولاً على الجمال، فلما بلغت أحمال الكتب قرية أبيار، سطا عليها بعض عربان قبيلة لواتة فنهبوها، وأحرقوا ورقها واصطنعوا أحذية من جلودها، وكان في (دار العلم) أيضاً صناديق مملوءة أقلاماً من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما[1].

ونهب الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي من قصر الفاطميين بالقاهرة كتباً حملها خمسة وعشرون جملاً، أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدَّيْن عمَّا يستحقانه وغلمانهما، وكانت الكتب التي نقلت إلى دار الوزير هي وفاء لخمسة آلاف دينار، بينما بلغت قيمة الكتب أكثر من مائة ألف دينار، وكان ذلك سنة 461 هـ/ 1068 م، روي ذلك المقريزي عن مؤلف كتاب الذخائر[2].

وصودرت خزانة أمين الدولة هبة الله بن التلميذ المتوفى سنة 560 هـ/ 1164 م، صادرها الخليفة الناصر لدين الله، ووهبها إلى أبي الخير النسطوري طبيبه[3]، وكان ابن التلميذ قد خلف نعماً كثيرة وأموالاً جزيلة، وكتباً لا نظير لها في الجودة، فورث جميع ذلك ولده، وبقي مدة ثم إن ولد أمين الدولة خُنِق في دهليز داره، الثلث الأول من الليل، وأخذ ماله، ونُقِلت كتبه

---

(1) المقريزي: الخطط 2/254، وينظر: جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث 1/274، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 138.

(2) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 139.

(3) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1/302.

على اثني عشر جملاً إلى دار المجد بن الصاحب»[1].

ولما استولى صلاح الدين الأيوبي على حلب سنة 571 هـ/ 1175 م أباح لمؤدب ولده الأفضل أبي سعيد البندهي أن يأخذ من خزانة كتب حلب ما شاء من الكتب الكثيرة[2].

وجمع نصير الدين الطوسي كتباً كثيرة مما نُهِب من بغداد والشام والجزيرة، من ذلك ما ذكره ابن الفوطي في سنة 622 هـ/ 1263 م، قال: «وصل نصير الدين محمد الطوسي إلى بغداد، لتصفح الأحوال والنظر في أمر الوقوف، والبحث عن الأجناد والمماليك، ثم انحدر إلى واسط والبصرة، وجمع من العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد»[3]، والمراد بالرصد رصد مراغة الذي أنشأه نصير الدين الطوسي في أيام هولاكو.

وحين غزا المغول البلاد الإسلامية ودخلوا بغداد، وسقطت بأيديهم، أعملوا فيها النهب والسلب والحرق، ودمروا الكتب وأهانوها، من ذلك ما ذكره ابن الساعي أن المغول: «بنوا اسطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن»[4].

وفي سنة 923 هـ/ 1517 م سقطت دولة المماليك في مصر على عهد السلطان سليم الأول (918 ـ 925 هـ/ 1512 ـ 1519 م) وقد رأى السلطان سليم أن نصره لا يؤيد إلا إذا قبض على مقاليد السلطة الدينية. فانتزعها من يد محمد المتوكل على الله (الثالث)، وهو آخر من تبقى من سلالة الخلفاء العباسيين الذين فروا من بغداد بعد سقوط دولتهم ولجأوا إلى مصر، وكان في حاشية السلطان سليم الأول نخبة من أرباب العلم الذين دهشوا بما شاهدوه من الآثار الثمينة في المكاتب المصرية، فلما أخبروه بذلك أمرهم بجمع خيارها

---

(1) السابق 1/ 264.

(2) كرد علي: خطط الشام 6/ 192.

(3) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 350.

(4) ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء ص 127.

وانتقاء نفائسها، لنقلها إلى عاصمة سلطنته، ويقال إنه اقتضى في ذلك العهد ألف جمل لنقل تلك الكتب، مع سائر ما نقلوه من الذهب والتحف، ولم يزل قسم من هذه الأسفار محفوظاً في اثنتيتن وأربعين مكتبة من مكاتب قسطنطينية، التي تعد من أغنى مدن العالم بالمخطوطات الشرقية، العربية والفارسية والتركية[1].

وفي عام 978 هـ/ 1570 م، نهب الاسبان خزائن كتب جامع الزيتونة، وذلك حين دخلوا لنجدة أميرها أبي عبدالله محمد الحفصي ضد علي باشا التركي، فأغاروا على تونس بخيلهم ورجلهم، واحتل عساكرهم جامع الزيتونة، فأجهزوا على خزائن كتبه، ولم يسلم منها إلا بضع نسخ من صحيح البخاري، وكانت تلك الخزائن حافلة بألوف المجلدات التي بلغت ثلاثين ألف مجلد في عهد بني حفص[2].

وذكر المستشرق لامنس كيف كان الاندلسيون الإسبان يبتهجون بحرق الكتب العربية، قال: «ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من إحراق المكاتب ما حفظته للأندلس... وفي الأندلس سحابة قرون عدة كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من ألذ ما تتمتع به العامة في أعيادها وأفراحها»[3].

ونهب ملك الأزبكية خزائن المشهد الرضوي في طوس، ففي سنة 996 هـ/ 1587 م، زحف عبدالمؤمن خان ملك الأوزبكية في جيوش جرارة إلى مدينة طوس وحاصرها مدة أربعة أشهر، ففتحها ووضع السيف في سكانها، ونكل بهم تنكيلاً، ثم تحول إلى المشهد الرضوي، فنهب كل ما فيه من الجواهر والأمتعة الثمينة والكتب[4].

---

(1) دي طرازي: خزائن الكتب 1/ 188.

(2) البستاني: دائرة المعارف 6/ 278، محمد الخوجا: الروزنامة التونسية ص 33.

(3) دي طرازي: خزائن الكتب 3/ 984.

(4) محمد مهدي العلوي: تاريخ طوس ص 14 ـ 15.

وذكر الأستاذ كرد علي في خططه أن عبدالله البصروي من علماء القرن الثاني عشر للهجرة قد صنف كتاباً في تاريخ البلاد الشامية، فبلغ أعيان دمشق خبره، ولما مات المصنف دخلوا داره وآلوا أن لا يأذنوا بدفنه إلا بعد أن يأخذوا التاريخ الذي وضعه، فضبطوه وأحرقوه على أعين القوم، مخافة أن تنكشف سيئات بعضهم»[1].

ومن أغرب ما روي عن حرائق الكتب، ما ذكره محمد علي البيلاوي نقيب الأشراف بالديار المصرية عن تل الكتب نقلاً عن الجبرتي في حواد سنة 1225 هـ/ 1810 م قوله: إنه ظهر بالتل الكائن خارج رأس الصورة المعروفة الآن بالخطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير في وهدة بين التلول نار كامنة بداخل الأتربة، واشتهر أمرها وشاع ذكرها وزاد ظهورها في أواخر هذه السنة 1225 هـ، وكثر تردد الناس عليها أفواجاً رجالاً ونساء، وبلغ خبرها كتخذا بك فنزل إليها بجمع من الأكابر وأمر والي الشرطة بصب الماء عليها وإهالة الأتربة من أعالي التل فوقها، ففعل ذلك، واستمر الناس يغدون ويروحون ينظرونها نحو شهرين، فلا يبعد أن يكون هذا من تلال الكتب التي ذكرها المقريزي في خططه[2].

وفي الحاضر القريب سرقت الخزانة الشاهانية التي أنشأها السلطان (فتح علي شاه)، أحد سلاطين الدولة القاجارية، وكان فيها طائفة عظيمة من نوارد المخطوطات المصورة وغير المصورة التي يبلغ عددها 4807 من المجلدات، وبعضها منمق بريشة مشاهير مصوري الهند والصين وإيران، ومجلدة بأفخر المنسوجات، وإدارة هذه الخزانة منوطة بالبلاط الشاهاني، يُنفق عليها من موازنة المملكة، ولا يُرخَّص لأحد في الدخول إليها إلا بإذن خاص من الشاه أو من وزير البلاد، وفي آخر عهد مظفر الدين شاه (ت 1336 هـ/ 1917 م) تواطأ خازن هذه المكتبة مع تاجر أرمني يدعى (ارشاك خان كريانس) على اختلاس

---

(1) خطط الشام 1/ 8.

(2) مطبعة المعارف وأصدقاؤها ص 28، دي طرازي: خزائن الكتب 3/ 998 ـ 999.

نفائسها وبيعها في أوربا، ومن ذلك الحين منعت الحكومة الإيرانية منعاً باتاً إخراج الكتب المخطوطة من مملكتها[1].

وأخبار وأحداث سرقة الكتب ونهبها قديماً وحديثاً أكبر من أن يُحاط بها، وفي هذا القليل دلالة على كثير مما لم يذكر، ولم يُحَط به علماً.

دفـــن الكتـــب:

ومن الآفات التي ذهبت بطائفة من الكتب الثمينة، دفن الكتب وإخفائها تحت الأرض، وسبب ذلك الجهل أو التعصب أو الخوف أو الزهد والتدين في غير محله، وقد ذهب إلى إباحة دفن الكتب بعض العلماء وهم قلة، وأنكره أكثرهم، وقد روى ابن الجوزي أن سفيان الثوري: «أوصى بدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم، وقال: حملني شهوة الحديث ـ وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين ـ فكأنه لما عسر عليه التمييز أوصى بدفن الكل، وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك، فهذا أوجه التأويل للعلماء»[2].

ودفن بعض العلماء كتبهم زهداً وتعبداً، لئلا تشغلهم عن العبادة، وممن دفن كتب العلم يوسف بن السباط، ثم لم يصبر عن التحديث فخلط فعُدَّ من الضعفاء، وقال شعيب بن حرب: قلت ليوسف بن أسباط: «كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها، حتى جاء الماء عليها فذهبت، قلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردت أن يكون الهم همّاً واحداً. . . وقال ابن الجوزي، قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط الذي قصد به الخير، وهو شر»[3]. وقال ابن الجوزي: «وفي الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة، حتى دفن كتب العلم، وهذا الفعل عندي أعظم الخطأ، وإن كان منقولاً عن

(1) دي طرازي: خزائن الكتب العربية 1/325.
(2) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص 18.
(3) السابق ص 18 ـ 19.

جماعة من الكبار»[1].

وقد يدفنون الكتب خوفاً من السلطان أو العدو ويهربون بأنفسهم، حتى إذا أمنوا عادوا إليها، كما فعل سفيان الثوري، كان سفيان الثوري مستتراً من الخليفة، ومات بالبصرة سنة 161 هـ/777 م، وأنه: «أوصى إلى عمار بن سيف في كتبه، فمحاها وأحرقها»[2]. وكان سفيان الثوري قد ترك خزانة كتبه في الكوفة حين هرب واستتر من الخليفة في البصرة، روى الخطيب البغدادي عن أبي الأسود الحارثي، قال: «خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه[3]، فلما أمن أرسل إليَّ وإلى يزيد بن توبة المرهبي، فجعلنا نخرجها، فأقول يا عبدالله: (وفي الركاز الخمس)، وهو يضحك، فأخرجنا تسع قمطرات، كل واحدة إلى ها هنا ـ وأشار إلى أسفل من ثدييه ـ قال، فقلت له: اعرض لي كتاباً فحدثني به»[4].

ويذكر ياقوت أن سفيان الثوري كان قد مزَّق ألف جزء وطيَّرها في الريح، وقال: «ليت يدي قُطِعَتْ من ههنا بل من ههنا ولم أكتب حرفاً»[5].

وذكر أبو الفداء أن الإمام الشافعي (ت 204 هـ/ 819 م) دفن من الكتب التي كانت عنده جميع ما كان منها يبحث عن علم النجوم[6].

وأوصى محمد بن العلاء بن كريب الهمذاني (ت 243 هـ/ 857 م) أن تدفن كتبه فدفنت، وكان هذا من حفاظ الكوفة الثقات المجمع عليهم[7].

ودفن يوسف بن اسباط كتبه، قال ياقوت: «وهذا يوسف بن أسباط حمل

---

(1) صيد الخاطر ص 139.
(2) ابن النديم: الفهرست ص 225.
(3) أي دفنها كما يظهر في السابق، وكما مر في الرواية أعلاه.
(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 161/9.
(5) ياقوت: معجم الأدباء 22/15.
(6) تاريخ أبي الفداء 26/2 ـ 27.
(7) ياقوت: معجم البلدان 200/7.

كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهرجناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه»[1].

وفي العصور المتأخرة، كان أهل قرية قره قوش في العراق، قد طرحوا سنة 1780 م في بئر كنيسة الطاهرة بتلك القرية مخطوطات كثيرة جداً لزعمهم أن فيها من الأمور ما يخالف معتقدهم الديني[2].

بيع الكتب بثمن بخس:

ومن الآفات والبلايا التي حلت بخزائن الكتب أنها كانت تباع أحياناً بأبخس الأثمان، إما لمصادرتها أو لوفاة أصحابها، أو لسرقتها ثم بيعها، أو الغش في بيعها لكسر أثمانها، ومن صور ذلك:

ما كان يفعله ابن الخشاب في كسر الكتاب، كان لابن الخشاب (ت 567 هـ/ 1171 م) خزانة كتب كبيرة عامرة، جمع فيها كتباً كثيرة جداً، وقيل إنه كان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس، وكان إذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به، قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه، ولما توفي وقف كتبه على أهل العلم[3].

وكان القاضي الفاضل من المغرمين بجمع الكتب وحيازتها، ولما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر وقضى على الفاطميين، عهد إلى القاضي ببيع مكتبات الخلفاء الفاطميين، فاختار من أجود الكتب لنفسه، واشترك في البيع، وروى ابن أبي طيء: «إن القاضي الفاضل تفحَّص دار الكتب الفاطمية، فأخذ

(1) معجم الأدباء 15/21.
(2) المطران أفرام نقاشة: عناية الرحمن في هداية السريان ص 262، كوركيس عواد: خزائن الكتب العراقية ص 278 ـ 279.
(3) ياقوت: معجم الأدباء 4/286 ـ 287، السيوطي: بغية الوعاة ص 277.

أفضل ما فيها، وكلما أعجبه شيء قطع جلده ورماه في البركة لتبدو عند البيع بالية لا قيمة لها، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى هو تلك رخيصة جداً على أنها مخرومة»[1].

وكان مصير المكتبة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل بمصر أن بيع كل مجلد برغيف خبز، وذلك لما وقع الغلاء بوادي النيل في زمن الملك كتبغا المنصوري، حيث أصاب الجوع طلبة المدرسة الفاضلية، فأخذوا يبيعون كل كتاب برغيف، وكان قد بيع منها ومن مكاتب أخرى قسم كبير على يد (ابن صورة) دلال الكتب المتوفى سنة 607 هـ/ 1210 م، وكان ابن صورة يجلس في دهليز داره، ويجتمع عنده يومي الأحد والأربعاء كبار العلماء والفضلاء، ويعرض عليهم الكتب التي تباع، وكانوا يقيمون عنده إلى انقضاء وقت السوق، وقيل إن الكتب كانت تباع بالوزن[2].

ولما اغتصب هولاكو مدينة حماة سنة 658 هـ/ 1259 م، خَرَّب أسوارها، وأحرق زردخانتها، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة في قلعة حماة بأبخس الأثمان[3].

وحين دخل تيمورلنك حماة سنة 804 هـ/ 1401 م، نهبها وأحرقها وقتل من أهلها نحو عشرين الف إنسان عدا من هلك تحت أرجل الخيل وهلك من الجوع والعطش، وباع كتبها ومنها مكتبة أبي الفداء بأبخس الأثمان[4].

ومن أفجع المآسي على ضياع الكتب وسرقتها وبيعها بأبخس الأثمان، ما ذكره الفيكونت دي طرازي عن مكتبات القاهرة، وهو ينطبق على كثير من

(1) أبو شامة: كتاب الروضتين 1/200، القلقشندي: صبح الأعشى 1/278.
(2) أبو شامة: كتاب الروضتين 1/268، جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث 1/316، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 49.
(3) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 3/302، دي طرازي: خزائن الكتب 1/125.
(4) دائرة معارف القرن العشرين 8/75.

مكتبات العالم العربي والإسلامي، قال: وبالرغم مما أصاب مكاتب القاهرة من النهب والسلب والحريق والتدمير على توالي العصور، فقد بقي في مدارسها وجوامها وأديارها من المخطوطات ما يحصى بعشرات الألوف، وبينها طائفة عظيمة من نوادر الأشعار تُعتبر آية الآيات بجمال الخطوط وجودة الورق واتقان التجليد، إلا أنها كانت مهملة، إذ تولاها حُفَّاظ من أفقر الناس يجهلون قيمتها، ولا يدركون خطورتها، فباعوا قسماً منها صالحاً بأبخس الأثمان، ويروى عن هؤلاء حكايات كثيرة تدعو إلى التأثر والأسف، لأنهم بجهلهم وإهمالهم وطمعهم وقلة أمانتهم، أفقدوا الأمة ثروة أدبية كبيرة، قد اشتغل السلف في تأليفها وترجمتها ونساختها وجمعها قروناً عديدة[1].

ويقول دي طرازي: وفي مطلع ولاية الخديوي عباس الأول سنة 1265 هـ/ 1848 م حصر ديوان الأوقاف المصرية مكاتب القاهرة تحت إدارته، وأقام لها حفَّاظاً يعيرون الكتب لمن يرغب في مطالعتها، ولكنه أساء إلى تلك المكاتب بتعيين أولئك الحفاظ من أجهل الناس وأفقرهم، ثم تركهم وشأنهم بلا رقابة، وخصص لهم مرتبات يسيرة هي والعدم سواء، فقد عهد مثلاً بمكتبة مدرسة السلطان حسن ومكتبة مدرسة أزبك بن ططخ، ومكتبة مدرسة خُوَند بركة قايتباي المحمودي إلى خازن فقير الحال ساقط الأخلاق يدعى (ابن سليمان)، وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون قرشاً لأجل خدمة المكاتب الثلاثة المذكورة، والإشراف عليها، فصار هذا الخازن الجاهل الفقير المؤتمن على تلك الذخائر الغالية دون رقيب عليه، يبيع قصب السكر في زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن، فكان يضع بجانبه طائفة من مخطوطات تلك المكاتب الثلاثة يبيعها بيع قصب السكر، ويتصرف بأثمانها، فتأتَّى له أن يجازف في زمن قصير بجانب كبير من تلك الجواهر اليتية ليسد بها جوعه وجشعه.

وكان خدمة بعض المساجد يحملون إلى الأسواق سلالاً مملوءة من

---

(1) دي طرازي: خزائن الكتب 1/ 189 ـ 190.

المخطوطات القديمة يبيعونها للبقالين واللحامين والعطارين وباعة الفاكهة، كي يلفوا سلعهم بأوراقها[1]، وهذه الحال تصدق على مكتبات العالم الإسلامي في مكاتب بغداد والنجف والموصل ودمشق وطرابلس وحماة وحلب وسمرقند وديار بكر وفاس والقيروان وغيرها.

---

(1) السابق 1/190.

الفصـل الثامـن

فـي آداب الكتـب

نصـوص مختـارة

فـــي آداب الكتـــب

نصـــوص مختـــارة

لقد بين العلماء الأوائل الآداب الواجب اتباعها في التعامل مع الكتاب قراءة ونسخاً واقتناء وإعارة وما إلى ذلك، وبينوا كيفية تحصيل العلم وآدابه، ونوجز هنا أهم الفوائد التي ينبغي أن يتعملها طالب العلم والآداب التي يتحلى بها عند تعامله مع الكتاب، وأهم الكتب التي نقلنا عنها واقتبسنا منها في هذا العنوان: تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة، وتقييد العلم للخطيب البغدادي، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي أيضاً، وغيرها من الكتب التي تذكر في مواضعها.

1 ـ تحصيـــل الكتـــب:

يحث ابن جماعة على تحصيل الكتب التي يحتاجها طالب العلم، ويقتنيها إذا استطاع شراءً، وإن لم يستطع فعليه أن يستعيرها أو يستأجرها، لأن الكتب آلة العلم وباقتنائها يكون قد حاز العلم بين يديه، على ألا يكون اقتناء الكتب حباً في الاقتناء والتباهي بها، وإنما يجب أن يحفظ ما فيها، ويعي مكنوناتها، وقد صدق القائل[1]:

إذا لـم تكـن حـافظـاً واعيـاً   فجمعــك للكتــب لا ينفــع

وكان العلماء وطلاب العلم إذا لم يتيسر لهم شراء الكتب ينسخونها

---

(1) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 164.

بأيديهم، وينبغي ألا يشغل طالب العلم نفسه بنسخ الكتب، إلا فيما يتعذر عليه تحصيله بالشراء أو الإعارة، حتى لا يكون النسخ همّه الشاغل فيصرفه عن العلم والتحصيل، وإذا نسخ كتاباً فيكون همه العلم الذي في الكتاب، ولا يتشاغل بالمبالغة في تحسين الخط، بل يعنى بصحيحه وتصحيحه، ولا يستعير كتاباً إذا أمكن شراؤه أو إجارته.

وكان العلماء مولعين بشراء الكتب، وبذل المال في سبيل اقتنائها، وقد تبلغ بعض الكتب أثماناً عالية، من ذلك أن كتاب الحلية لأبي نعيم الأصفهاني، حُمل إلى نيسابور فبيع هناك بأربعمائة دينار[1]. ولم يكن كثير من العلماء موسرين، وكانوا مولعين بالكتب، فاشتغلوا بالكتابة والاستنساخ، وصار ذلك عادة لهم، وخير مثال لهؤلاء العلماء الذين ولعوا بالكتب قراءة وتأليفاً وانتساخاً واقتناء، أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي البغدادي، كان حافظاً ثقة متقناً واسع الرواية، كتب الكتب وجمع الفوائد وخرَّج التخاريج، يقول الذهبي: «لعله ما بقي جزء مروي إلا وقد قرأه وحصل نسخته، ونسخ الكتب الكبار مثل الطبقات لابن سعد وتاريخ الخطيب، وكان متفرغاً للحديث، إما أن يُقرأ عليه أو ينسخ شيئاً، مات سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة»[2].

ومثال آخر هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي برز في صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين، وقد بلغت مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الأوراق مائة مجلد، وصفه عبد اللطيف البغدادي في أيام شيخوخته، قال: «دخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويُملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات، لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه، وكان له غرام بالكتابة، وكان يقتني الكتب من كل فن، ويجتلبها من كل جهة، وله نُسَّاخ لا يفترون، ومجلدون لا يبطلون، قال لي بعض من يخدمه في الكتب: إن عددها قد بلغ

---

(1) الذهبي: تذكرة الحفاظ 3/276.
(2) الذهبي: السابق 4/75.

مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً»[1]، ولم تكن عناية القاضي الفاضل بالكتاب تقتصر على اقتناء نسخة منه، بل كانت لديه نسخ كثيرة للكتاب الواحد، كل نسخة بخط عالم مشهور أو ناسخ مذكور، فقد طُلِبَ من القاضي الفاضل نسخة من الحماسة، فطلب من الخادم أن يحضر الحماسات، فأحضر له خمسة وثلاثين نسخة، وصار ينفض نسخة نسخة، ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان، حتى أتى على الجميع[2].

ولا بد من الصبر والجلد والبذل لتحصيل العلم بنسخ الكتب، رُوي عن يحيى بن معين إنه قال: «كتبت بيدي ألف ألف حديث، ولو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه»[3]. وكانوا يتغلبون على الصعاب ولا يضجرون، وقد بلغ من شدة حرصهم على العلم والكتابة، مع شدة الحر، أن كان بعضهم ينسخ بالليل في الحر، وهو جالس في إجانة ماء يتبرد به[4].

وكانوا يحرصون على صحة النقل وجودة الضبط والاهتمام بالخط، وصف الخطيب البغدادي الحافظ الصوري بأنه: «دقيق الخط صحيح النقل، وأنه كان يكتب في الوجهة من ثمن الكاغد الخراساني ثمانين سطراً، وقال السلفي: كتب الصوري صحيح البخاري في سبعة أطباق من الورق البغدادي، ولم يكن له سوى عين واحدة»[5]. ويروى أن ابن الفرات محمد بن العباس الحافظ المحدث (ت 384 هـ/ 994 م) كتب مئة تفسير ومئة تاريخ، وقد خلف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً أكثرها بخطه، وكانت له جارية تعارض ما يكتبه، وكان خطه حجة في صحة النقل وجودة الضبط[6]. وكان هشام بن

(1) المقريزي: الخطط 2/336.
(2) المقريزي: الخطط 2/367.
(3) الذهبي: تذكرة 2/16.
(4) الذهبي: 4/17.
(5) الذهبي: 3/294.
(6) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة 384، والبداية والنهاية 11/314، وقد جاء اسمه (ابن القزاز) محرفاً، وتذكرة الذهبي 3/206.

يوسف قاضي صنعاء وعالمها (ت 197 هـ/ 812 م) أصح الناس كتاباً، قال إبراهيم بن موسى، وسمعت هشاماً يقول: «قدم الثوري اليمن، فقال: اطلبوا لي كاتباً سريع الخط، فارتادوني وكنت أكتب»، وكان هشام أصح اليمانيين كتاباً، وكان أكبرهم وأحفظهم وأتقنهم[1].

2 ـ إعـــارة الكتـــب:

وقال ابن جماعة: «يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها، ممن لا ضرر منه بها، وكره قوم عاريتها، والأولى أولى لما فيه من الإعانة على العلم، مع ما في مطلق العارية من الفضل والأجر، قال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره»[2].

وكتب الشافعي إلى محمد بن الحسن الشيباني، وكان قد منعه كتبه:

يـــا ذا الـــذي لـــم تـــرَ عيـــ ـــــــنٌ مـــــن رآهُ مثلَـــــهُ
العلـــــمُ يـــــأبـــى أهلُـــهُ أن يمنعـــــــوهُ أهلَـــــــهُ

فوجه إليه الشيباني بما أراد من كتبه فكتبها[3].

وقال ابن جماعة: وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً، ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة، بل يرده إذا قضى حاجته، ولا يحبسه إذا طلبه المالك، أو استغنى عنه، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه، ولا يحشيه ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه أو خواتمه، إلا إذا علم رضا صاحبه، وهو مما يكتبه المحدث على جزء سمعه أو كتبه، ولا يسوده ولا يعيره غيره، ولا يودعه لغير ضرورة حيث يجوز شرعاً، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه.

فإن كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين، فلا بأس بالنسخ منه مع

---

(1) ابن حجر: تهذيب التهذيب 11/56.
(2) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 168.
(3) ابن عبد البر: مختصر كتاب العلم ص 49.

الاحتياط، ولا بإصلاحه ممن هو أهل لذلك، وحسن أن يستأذن الناظر فيه، وإذا نسخ منه بإذن صاحبه وناظره، فلا يكتب منه والقرطاس في بطنه، أو على كتابته، ولا يضع المحبرة عليه، ولا يمر بالقلم الممدود فوق كتابته، وأنشد بعضهم:

أيهـا المستعيـرُ منِّـي كتـابـاً إرضَ لي فيهِ ما لنفسكَ ترضى

وأنشدوا في إعارة الكتب ومنعها قطعاً كثيرة لا يحتملها هذا المختصر[1].

وكان العلماء ـ إلا قلة منهم ـ يفضلون إعارة الكتب لما فيها من نشر العلم، وكانت عادة محمودة، ومن هؤلاء العلماء الذين نُوِّه بهم في إعارة الكتب ابن الخاضبة، محمد بن أحمد بن عبدالباقي البغدادي الأنصاري (ت 489 هـ/ 1096 م) من علماء الحديث، كان فاضلاً حسن الذكر محبوباً إلى الناس كلهم، لا يأتيه مستعير كتاباً إلا أعطاه أو دله عليه[2]. وقد كرهوا حبس الكتاب عن صاحبه، لما فيه من الظلم والخيانة للأخوان، قال البيهقي، سمعت أبا عبدالله الحافظ يقول: «سمعت الصفار (محمد بن عبدالله الأصفهاني 339 هـ/ 951 م)، يدعو في مسجده وهو رافع بطون كفيه إلى السماء، وهو يقول: يا رب إنك تعلم أن أبا العباس المصري ظلمني، وحبس عني أكثر من خمسمائة جزء من أصولي، اللهم لا تنفعه بذلك، وبسائر ما جمعه من الحديث، ولا تبارك له فيه»[3].

3 ـ وضع الكتاب عند المطالعة:

إذا نسخ من الكتاب أو طالعه، فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين أو شيئين، أو كرسي الكتب (رحل الكتاب)، كيلا يسرع

(1) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 167 ـ 170.
(2) الذهبي: تذكرة 4/24، هدية العارفين 2/77.
(3) ابن عساكر 2/72، الصفدي: الوافي 3/316، ابن العماد: شذرات الذهب 2/349، هدية العارفين 2/39.

تقطيع حبله (حبكه)[1]، وإذا وضعها في مكان مصفوفة، فلتكن على كرسي أو تحت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلوٌّ، ولا يضعها على الأرض كي لا تتندى أو تبلى[2].

وإذا وضعها على خشب ونحوه، وجعل فوقها أو تحتها ما يمنع تأكل جلودها به، وكذلك يجعل بينها وبين ما يصادفها أو يسندها من حائط أو غيره، ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفها وجلالتها، فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار أو وتد، في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم كتب الحديث الصرف، كصحيح مسلم ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض.

فإن استوى كتابان في فن، أعلى أكثرهما قرآناً وحديثاً، فإن استويا، فبجلالة المصنف، فإن استويا، فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا، فأصحهما.

وينبغي أن يكتب اسم الكتاب عليه في جانب آخر الصفحات من أسفل، ويجعل رؤوس هذه الترجمة إلى الغاشية التي من جانب البسملة، وفائدة هذه الترجمة معرفة الكتاب، وتيسر إخراجه من بين الكتب، وإذا وضع الكتاب على أرض أو تخت، فلتكن الغاشية التي من جهة البسملة وأول الكتاب إلى فوق، ولا يكثر وضع الردة[3] في أثنائه كيلا يسرع تكسيرها، ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات الصغير، كيلا يكثر تساقطها.

ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها، ولا مخدة ولا مروحة، ولا مكبساً ولا مسنداً ولا متكئاً، ولا مقتلة للبق وغيره، ولا سيما في الورق، فهو

---

(1) حبكة الكتاب: شد أوراقه.

(2) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 170.

(3) الردة: القطعة الزائدة من الجلد فوق الدفة اليسرى.

على الورق أشد.

ولا طوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يعلم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها، وإذا ظفر فلا يكبس ظفره قوياً[1].

لقد سجل المقريزي وصفاً لإحدى المكتبات، وكيفية وضع الكتب وحفظها، فقال في صفة خزانة المارستان العتيق: «يجيء الخليفة راكباً ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها، ويحضر إليه من يتولاها، وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبدالقوي، فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب، فإن عنَّ له أخذ شيء أخذه، ثم يعيده، وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجردات، فمنها الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث والتواريخ، وسير الملوك، والنجامة والروحانيات والكيمياء، من كل صنف النسخ، ومنها النواقص التي ما تمت، كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة، وما فيها من المصاحف الكريمة، في مكان فوقها، وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره، كابن البواب وغيره»[2].

4 ـ فحـص الكتـاب:

إذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقده عند إرادة أخذه ورده، وإذا اشترى كتاباً تعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه، ويصفح أوراقه، واعتبر صحته، ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه ما قاله الشافعي رضي الله عنه، قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح، فشهد له بالصحة، وقال بعضهم: لا يضيء الكتاب حتى يظلم، يريد إصلاحه[3].

(1) تذكرة السامع ص 170 ـ 171.
(2) الخطط 1/409.
(3) تذكرة السامع ص 173، وقوله: يريد إصلاحه، الضمير راجع إلى بعضهم.

5 ـ صفـة نسـخ الكتـب:

إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية، فينبغي أن يكون على طهارة مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب، بحبر طاهر، ويتبدىء كل كتاب بكتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإن كان الكتاب مبدوءاً فيه بخطبة تتضمن حمد الله تعالى والصلاة على رسوله، كتبها بعد البسملة، وإلا كتب هو ذلك بعدها، ثم كتب ما في الكتاب، وكذلك يفعل في ختم الكتاب، أو آخر كل جزء منه، بعدما يكتب آخر الجزء الأول أو الثاني مثلاً، ويتلوه كذا وكذا، إن لم يكن تم الكتاب، ويكتب إذا كمل: (تمّ الكتاب الفلاني)، ففي ذلك فوائد كثيرة:

وكلما كتب اسم الله تعالى، اتبعه بالتعظيم، مثل: تعالى، أو سبحانه، أو عز وجل، أو تقدس، ونحو ذلك. وكلما كتب اسم النبي ﷺ، كتب بعد الصلاة عليه، والسلام عليه، ويصلي هو عليه بلسانه أيضاً.

وجرت عادة السلف والخلف، بكتابة صلى الله عليه وسلم، ولعل ذلك لقصد موافقة الأمر في الكتاب العزيز، في قوله: (صلوا عليه وسلموا تسليماً)[1]، وفيه بحث يطول ها هنا. ولا تختصر الصلاة في الكتاب، ولو وقعت في السطر مراراً كما يفعل بعض المحررين المتخلفين[2]، فيكتب: صلع أو صلم أو صلعم، وكل ذلك غير لائق بحقه ﷺ، وقد وُرد في كتابة الصلاة بكمالها وترك اختصارها آثار كثيرة.

وإذا مرّ بذكر الصحابي، لا سيما الأكابر منهم، كتب: رضي الله عنه، ولا يكتب الصلاة والسلام لأحد غير الأنبياء، والملائكة إلا تبعاً لهم. وكلما مر بذكر أحد من السلف فعل ذلك، أو كتب رحمه الله، ولا سيما الأئمة الأعلام وهداة الإسلام[3].

إن ابتداء الكتاب والخطبة بالبسملة وبحمد الله أمر واجب قراءة وسماعاً،

---

(1) الأحزاب 56، قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾.

(2) ويروى: المحرومين المتكلفين.

(3) ابن جماعة ص 173 ـ 174.

وقد أوجبه الله تعالى في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون بهذا الواجب، من ذلك أن عبدالله بن عمر حين بايع عبد الملك بن مروان، كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الملك أمير المؤمنين، من عبدالله بن عمر، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأقر لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت»[3]، أما الصلاة على النبي فمستحبة، وهي من أخلاق المؤمنين، وفي اختصارها تقليد لغير المؤمنين، ونقص في الإيمان، وفي كتابتها كاملة ثواب وأدب مع النبي ﷺ، وجاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قال: من صلَّى عليَّ واحدة صلَّى الله عليه عشراً»[4]، وقال ابن مندة: سمعت حمزة بن محمد الحافظ (ت 357 هـ/ 967 م) يقول: «كنت أكتب الحديث ولا أكتب (وسلم)، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: أما تختم الصلاة علي في كتابك»[5].

6 ـ الكتابة الدقيقة:

ينبغي أن يتجنب الكتابة الدقيقة في النسخ، فإن الخط علامة، فأبْيَنُهُ أحسنُهُ، وكان بعض السلف إذا رأى خطاً دقيقاً قال: هذا خط من لا يوقن بالخلف من الله تعالى، وقال بعضهم: اكتب ما ينفعك وقت حاجتك إليه، ولا تكتب ما لا تنتفع به وقت الحاجة، والمراد وقت الكبر وضعف البصر، وقد يقصد بعض السفارة بالكتارة الدقيقة خِفَّة المحمل، فهذا وإن كان قصداً صحيحاً، إلا أن المصلحة الفائتة به في آخر الأمر، أعظم من المصلحة الحاصلة بخفة الحمل.

والكتابة بالحبر أولى من المداد، لأنه أثبت، قالوا: ولا يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجري، ولا رخواً فيسرع إليه الحفاء، وقال بعضهم: إذا أردت

---

(1) سورة العلق 1.
(2) سورة النمل 30.
(3) البخاري: الأدب المفرد ص 161.
(4) الأدب المفرد ص 94.
(5) الذهبي: تذكرة الذهبي 3/ 137.

أن يجود خطك فأطل جِلفتك وأسمنها، وحرِّف قَطَّتك وأيمنها، ولتكن السكين حادة جداً لبراية الأقلام وكشط الورق خاصة، ولا تستعمل في غير ذلك، وليكن ما يُقَطُّ عليه القلم صُلباً جداً، وهم يحمدون القصب الفارسي اليابس جداً، والآبنوس الصلب الثقيل[1].

في الفرق ما بين الحبر والمداد، روى المبرد عن التوَّزي، قال: «سألت الفرَّاء عن المداد لمَ سُمِّي حبراً، فقال: يقال للمعلم حَبْر وحِبْر، يعني بفتح الحاء وكسرها، فأرادوا مِدادَ حَبْر، أي مداد عالم، فحذفوا مداد وجعلوا مكانه حبراً، قال: فذكرت ذلك للأصمعي فقال: ليس هذا بشيء، إنما هو لتأثيره، يقال: على أسنانه حبْر، إذا كثرت صفرتها حتى صارت تضرب إلى السواد. . . قال المبرد: وأنا أحسب أنه سُمِّي بذلك لأن الكتاب يُحَبَّر به، أي يُحَسَّن، أخذاً من قولهم، حبَّرت الشيء تحبيراً إذا حسَّنته»[2].

أما صناعة الحبر، فالحبر الذي يناسب الكاغد أي الورق هو حبر الدخان، وهو أن يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل، يدق جريشاً، وينقع في ستة أرطال ماء مع قليل من الآس (وهو المرسين) أسبوعاً، ثم يغلى الماء على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ثم يُصَفَّى ثانياً، ثم يُضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي ومن الزاج القبرسي كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة، ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل، ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر (ثلث أوقية) بعد أن تسحق الدخان بِكلْوَة كفك بالسكر النبات والزعفران والشعر والزنجار، إلى أن تجيد سحقه، ولا تصحنه في صلاية ولا هاون، يفسد عليك.

الصنف الثاني ما يناسب الرَّق (وهو جلد رقيق يكتب عليه) ويُسمَّى حبر الرأس، ولا دخان فيه، ولذلك يجيء بصاصاً براقاً، وبه أضرار للبصر في النظر

---

(1) ابن جماعة 177 ـ 178.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى 2/461.

إليه من جهة بريقه[1].

أما صنعة القلم وبرايته ومقداره، فقد أوجزها القلقشندي نقلاً عن أصحاب الصنعة، قال الوزير أبو علي ابن مقلة: «ويجب أن يكون في القلم الصلب أكثر تقعيراً، وفي الرخو أقل، وفي المعتدل بينهما، وصفته أن يبتدىء بنزولك بالسكين على الاستواء، ثم يميل إلى القطع إلى ما يلي رأس القلم، ويكون طول الفتحة مقدار عقدة الإبهام أو كمناقير الحمام»[2].

ثم الجِلْفة[3] على أنحاء، منها أن يرهف جانبي البرية، ويسمن وسطها شيئاً يسيراً. وقطُّ القلم قطع سِنَّته، يقول القلقشندي: «واعلم أن أجناس القط تختلف بحسب مقاصد الكتاب، وهو المقصود الأعظم من البراية، وعليه مدار الكتابة»[4].

وقال عبد الحميد الكاتب لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البراية: «أتريد أن يجود خطك؟ قال: نعم، قال: فأطل جلفة قلمك وأسمنها، وحرِّف القَطَّة وأيمنها، قال رغبان: ففعلت ذلك فجاد خطي»[5].

وينبغي أن تكون السكين حادة جداً، ولا تستعمل في غير البراية لئلا تكل وتفسد، قال الوزير ابن مقلة: «واستحد السكين جداً، ولتكن ماضية جداً، فإنها إذا كانت كالَّة جاء الخط مضطرباً»[6].

والمقَطُّ: ما يقط عليه القلم، وينبغي أن يكون صلباً جداً، حتى تأتي القطة مستوية غير مشظية، قال ابن مقلة: «إذا قططت فلا تقط إلا على مَقَطٍّ أملس صلب غير مثلم ولا خشن، لئلا يتشظى القلم، وقال الشيخ عماد الدين بن

---

(1) القلقشندي 2/465 ـ 466.
(2) القلقشندي 2/451.
(3) الجِلفة: ما بين مبرى القلم إلى سِنَّته.
(4) صبح الأعشى 2/451 ـ 452.
(5) القلقشندي 2/449.
(6) السابق 2/456.

العفيف: ويتعين أن يكون من عود صلب كالآبنوس والعاج»[1].

7 ـ تصحيـــح الكتـــاب:

إذا صحح الكتاب بالمقابلة على أصله الصحيح أو على شيخ، فينبغي له أن يُشْكِلَ المُشْكِل ويُعْجِمَ المُسْتَعْجَم، ويضبط المُلْتَبِس، ويتفقد مواضع التصحيح، وإذا احتاج ضبطه ما في متن الكتاب إلى ضبطه في الحاشية وبيانه فعل، وكتب عليه بياناً، وكذا إن احتاج إلى ضبطه مبسوطاً في الحاشية وبيان تفصيله، مثل أن يكون في المتن اسم حريز، فيقول في الحاشية هو بالحاء المهملة وراء بعدها وبالياء الخاتمة بعدها زاي، أو هو بالجيم والياء الخاتمة بين رائين مهملتين، وشبه ذلك.

وقد جرت العادة في الكتابة بضبط الحروف المعجمة بالنقط، وأما المهملة، فمنهم من يجعل الإهمال علامة، ومنهم من ضبطه بعلامات تذكر عليها، من قلب النقط أو حكاية المثل، أو بشَكْلَة صغيرة كالهلال، وغير ذلك.

وينبغي أن يكتب على ما صححه وضبطه في الكتاب، وهو في محل شك عند مطالعته أو تطرق احتمال (ح)[2] صغيرة، ويكتب فوق ما وقع في التصنيف أو في النسخ وهو خطأ (كذا) صغيرة، ويكتب في الحاشية: صوابه كذا، إن كان يتحققه، وإلا فيعلم عليه ضبَّة، وهي صورة رأس صاد (صـ)، تكتب فوق الكتابة غير متصلة بها، فإذا تحققه بعد ذلك وكان المكتوب صواباً، زاد تلك الصاد حاد فتصير (صح)، وإلا تكتب الصواب في الحاشية كما تقدم.

وإذا وقع في النسخة زيادة، فإن كانت كلمة واحدة، فله أن يكتب عليها لا، وأن يضرب عليها، وإن كانت أكثر من ذلك، ككلمات أو سطر أو أسطر، فإن شاء كتب فوق أولها (من)، أو كتب (لا)، وعلى آخرها (إلى)، ومعناه: من هنا ساقط إلى هنا، وإن شاء ضرب على الجميع، بأن يخط عليه خطاً دقيقاً

---

(1) السابق 2/457.

(2) أي: صح.

يحصل به المقصود، ولا يسوِّد الورق، ومنهم من يجعل مكان الخط نقطاً متتالية.

وإذا تكررت الكلمة سهواً من الكاتب، ضرب على الثانية، لوقوع الأولى صواباً في موضعها، إلا إذا كانت الأولى آخر سطر، فإن الضرب عليها أولى صيانة لأول السطر، إلا إذا كانت مضافاً إليها، فالضرب على الثانية أَوْلَى، لاتصال الأولى بالمضاف[1].

تتضح صفة المقابلة على الشيخ في خبر أبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال الحافظ المتفنن محدث مصر (ت 482 هـ/ 1089 م)، قال أبو عبدالله الحميدي، وقد أتى إلى أبي إسحاق طالبو حديثه ليسمعوا منه جزءاً، فأخرج به عشرين نسخة، ناول كل واحد نسخة يعارض بها. وقال محمد بن طاهر الحافظ، سمعت أبا إسحاق الحبال يقول: كان عندنا بمصر رجل يسمع الحديث، وكان متشدداً، وكان يكتب السماع على الأصول، فلا يكتب اسم أحد حتى يستحلفه أنه سمع الجزء ولم يذهب عليه منه شيء.

وقال ابن طاهر: كان شيخنا الحبال لا يخرج أصله من يده إلا بحضوره، يدفع الجزء إلى الطالب فيكتب منه قدر جلوسه، وكان له بأكثر كتبه نسخ عدة، ولم أرَ أحداً أشد أخذاً منه، ولا أكثر كتباً منه[2].

8 ـ التخريج في الكتابة:

إذا أراد تخريج شيء في الحاشية، ويسمى اللَّحَق (بفتح الحاء)، علَّم له في موضعه بخط منعطف قليلاً إلى جهة التخريج، وجهة اليمين أولى إن أمكن، ثم يكتب التخريج من محاذاة العلامة، صاعداً إلى أعلى الورقة، لا نازلاً إلى أسفلها، لاحتمال تخريج آخر بعده، ويُجعل رؤوس الحروف إلى جهة اليمين، سواء أكان في جهة يمين الكتابة أم يسارها.

---

(1) ابن جماعة ص 180 ـ 185.
(2) الذهبي: التذكرة 3/361 ـ 362.

وينبغي أن يحسب الساقط وما يجيء منه من الأسطر قبل أن يكتبها، فإن كان سطرين أو أكثر، جعل آخر سطر منها يلي الكتابة إن كان التخريج عن يمينها، وإن كان التخريج عن يسارها جعل أول الأسطر مما يليها.

ولا يوصل الكتابة والأسطر بحاشية الورقة، بل يدع مقداراً يحتمل الحك عند حاجته مرات، ثم يكتب في آخر التخريج (صح)، وبعضهم يكتب بعد (صح) الكلمة التي تلي آخر الكلام في متن الكتاب، علامة على اتصال الكلام[1].

9 ـ كتابة الحواشي والفوائد في الهامش:

لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات على حواشي كتاب يملكه، ولا يكتب في آخره (صح) فرقاً بينه وبين التخريج، وبعضهم يكتب عليه حاشية أو فائدة، وبعضهم يكتبه في آخرها ولا يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل تنبيه على إشكال، أو احتراز أو رمز أو خطأ، ونحو ذلك. ولا يسوده بنقل المسائل والفروع الغريبة، ولا يكثر الحواشي كثرة تظلم الكتاب، أو تضيع مواضعها على طالبها.

ولا ينبغي الكتابة بين الأسطر، وقد فعله بعضهم بين الأسطر المفرقة بالحمرة وغيرها، وترك ذلك أولى مطلقاً[2].

10 ـ كتابة الأبواب والفصول بالحمرة:

لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بالحمرة، فإنه أظهر في البيان وفي فواصل الكلام، وكذلك لا بأس به على أسماء ومذاهب أو أقوال أو طرق أو أنواع أو لغات أو أعداد، ونحو ذلك، ومتى فعل ذلك بيَّن إصلاحه في فاتحة الكتاب، ليفهم الخائض فيه معانيها، وقد رمزنا بالأحمر جماعة من المحدثين

(1) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 185 ـ 186.
(2) ابن جماعة ص 186 ـ 191.

والفقهاء والأصوليين وغيرهم، لقصد الاختصار.

فإن لم يكن ما ذكرناه من الأبواب والفصول والتراجم بالحمرة، أتى بما يميزه عن غيره من تغليظ القلم وطول المشق واتحاده في السطر ونحو ذلك، ليسهل الوقوف عليه عند قصده.

وينبغي أن يفصل بين كل كلامين بدائرة أو ترجمة أو قلم غليظ، ولا يوصل الكتابة كلها على طريق وحدة، لما فيه من عسر استخراج المقصود، وتضييع الزمان فيه، ولا يفعل ذلك إلا غبي جداً[1].

كتابة الأبواب والفصول بالحمرة اصطلح على تسميتها بـ (ليق الافتتاحات)[2]، وقد كره بعض العلماء الكتابة بالحمرة، واعتبروا ذلك من صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف، ذكر ذلك الزرنوجي في كتابه (تعليم المتعلم)[3]، ولكن كتابة الأبواب والفصول بالحمرة جائز عند أكثر العلماء، كما ذكر المصنف ابن جماعة.

أما فواصل العبارات ومقدار المسافة بينها، فالنساخ يجعلون لذلك دائرة تفصل بين الكلامين، وكتاب الرسائل يجعلون للفواصل بياضاً يكون بين الكلامين من سجع أو فصل، إلا أن بياض فصل الكلامين يكون قدر رأس إبهام، وفصل السجعتين يكون في قدر رأس خنصر[4].

11 ـ استدراك الخطأ:

قالوا: الضرب أولى من الحك، ولا سيما في كتب الحديث، لأن فيه تهمة وجهالة فيما كان أو كتب، ولأن زمانه أكثر فيضيع، وفعله أخطر، فربما ثقب الورقة وأفسد ما ينفذ إليه فأضعفها، فإن كان إزالة نقطة أو شكلة ونحو

(1) السابق ص 191 ـ 192.
(2) ينظر تفصيل ذلك في ضبح الأعشى 2/467.
(3) ص 11.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى 3/150.

ذلك، فالحك أولى.

وإذا صحح الكتاب على الشيخ أو في المقابلة، علَّم على موضع وقوفه: (بلغ في الميعاد الأول، أو الثاني)، إلى آخرها، فيعين عدده، قال الخطيب: فيما إذا أصلح شيئاً ينشر المصلح بنحاتة الساج أو غيره من الخشب، وينفي التتريب[1].

فضل الكتب وبيان منافعها

لقد أفرد الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ/ 1070 م) القسم الرابع من كتابه النفيس (تقييد العلم)[2] لفضل الكتب وما قيل فيها، وفيه ستة فصول، نعرض له ونقتطف منه:

الكتـــب كنـــز:

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[3] اختلف أهل التأويل في ذلك الكنز، فقال بعضهم: «كان صحفاً فيها علم مدفونة»، قال: ما كان ذلك ذهباً ولا فضة، قال: صحفاً وعلماً، وعلَّق الحسن بن صالح بقوله: وأي كنز أفضل من العلم[4].

وقال بعض الحكماء: لن يصان العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه بمثل نشره.

---

(1) ابن جماعة: تذكرة السامع ص 192 ـ 193، في الأصل: الشريب، والصواب ما أثبتناه.
(2) الخطيب البغدادي ص 117 ـ 150، تحقيق يوسف العش، ط دار إحياء السنة النبوية، دمشق 1974 م.
(3) الكهف 83.
(4) تقييد العلم ص 117 ـ 118.

العالــم وكتبــه:

وقراءة الكتب أبلغ في إرشاد المسترشد من ملاقاة واضعيها، إذ كان مع التلاقي يقوى التصنُّع، ويكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد الحمية، وعند المواجهة يملك حب الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع، وعن جميع ذلك يحدث التضاغن، ويظهر التباين، وإذا كانت القلوب على هذه الصفة امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بقراءتها والمتفرد بعلم معانيها، لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله.

قال: والكتاب قد يفضل صاحبه، ويرجح على واضعه بأمور، منها:

إن الكتاب يقرأ في كل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، وموجود في كل زمان، مع تقارب الأعصار، وبُعد ما بين الأمصار[1]، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب، وقد يذهب العالم، وتبقى كتبه، ويفنى العقل، ويبقى أثره.

ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من فنون حكمها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بذلك ما غاب عنا، وأدركنا ما بَعُدَ منا[2]، وجمعنا إلى كثيرهم قليلنا، وإلى جليلهم يسيرنا، وعرفنا ما لم نكن نعرفه إلا بهم، وبلغنا الأمد الأقصى بقريب رسومهم، إذاً لحَسَرَ طُلاَّبُ الحكمة، وانقطع سببهم عن المعرفة، ولو ألجينا إلى مدى قوتنا، ومبلغ ما تقدر على حفظه خواطرنا، وتركنا مع منتهى تجارتنا، لما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، لقلَّت المعرفة، وقصرت الهمَّة، وضعفت المُنَّة، وماتت الخواطر، وتبلَّد العقل، ونقص العلم، فكان ما دونوه في كتبهم أكثر نفعاً، وما تكلفوه من ذلك أحسن موقعاً، ويجب الاقتفاء لآثارهم، والاستضاء بأنوارهم، فإن المرء مع من

(1) ينظر في هذا المعنى، ابن الجوزي: صيد الخاطر ص 185.
(2) هذه الفقرة جاءت منسوبة للجاحظ في المحاسن والمساوىء للبيهقي ص 5.

أحب، وله أجر ما احتسب[1].

الكتاب لا ينسى:

وروى الصولي أن ذا الرمة قال لعيسى بن عمر: «أكتب شعري، فالكتاب أعجب إليَّ من الحفظ، إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشده الناس، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلاماً بكلام»[2].

الكتاب يحفظ العلم ويخلد الذكر:

قال بعض الشعراء:

صنِّفْ الكتبَ يبقَ ذِكْرُكَ واحْرِصْ   أنْ تصـونَ العلـومَ والآدابـا
إنَّ في جوهر الخواطر علماً   يُلْقِحُ العقـلَ حكمـةً وصـوابـا

وللسري بن أحمد الكندي فيما قال:

كُنْ للعلوم مُصَنِّفاً أو جامعاً   يبقى لك الذكرُ الجميلُ مُخَلَّدا
كم من أديبٍ ذِكْرُهُ بين الورى   غَضٌّ وقد أودى به صَرْفُ الرَّدى
وأرى الأديـبَ يهـابُـهُ أعـداؤهُ   ويَعُـدُّهُ السـاداتُ فيهـم سيِّـدا
ينسى أواخِرَنا الأوائِلُ كُلُّهم   إلا أخا العلم الذي جاز المدى

وقال آخر:

أرى العلمـاءَ أطـولَنـا حيـاة   وإنْ أضْحَوا رُفاتاً في القبورِ
أنـاسٌ غُيِّبـوا وهـمُ شُهـودٌ   بما ابتدعوهُ من عِلْمٍ خطيرِ
كـأنَّهـمُ حضـورٌ حيـنَ تجـري   محاسِنُ ذكرهم عند الحضورِ

---

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 117 ـ 119.

(2) ينظر، الجاحظ: الحيوان 1/41، النويري: نهاية الأرب 7/18.

لئِـنْ مُلِئـتَ قبـورهُـمُ ظـلامـاً فإنَّ ضياءَهُم مِلءَ الصُّدورِ[1]

الكتـاب والقلـم:

قال عبدالله بن المعتز: «الكتاب والج للأبواب، جريء على الحجاب، مُفْهِمٌ لا يفهم، ناطق لا يتكلم، وبه يشخص المشتاقُ، إذا أقعده الفراقُ، فأما القلم فمُجَهِّزٌ لجيوشِ الكلام، يخدم الإرادة، ولا يملُّ الاستزادة، ويسكت واقفاً، وينطقُ سائراً، على أرض بياضُها مظلمٌ، وسوادُها مضيءٌ، وكأنه يُقبل بساط سلطان، أو يفتح باب بستان»[2].

نِعـم الجليس:

وقال بعض العلماء: الكتاب جليس لا مؤونة عليك فيه[3].

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا، قد قيل في الكتاب ما معناه: «إنه حاضر نفعه، مأمون ضره، ينشط بنشاطك، فينبسط إليك، ويملُّ بملالك فينقبض عنك، إن أدنيته دنا، وإن أنأيته نأى، لا يبغيك شراً، ولا يُفشي عليك سراً، ولا ينمُّ عليك، ولا يسعى بنميمة إليك».

وحدَّث أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق، قال: قرأت في كتاب:

نِعْمَ المُحَدِّثُ والرفيقُ كتابُ تلهو به إنْ خانكَ الأصحابُ
لا مُفْشِيـاً للسـرِّ إنْ أودعْتَـهُ ويُنالُ منهُ حكمةٌ وصوابُ[4]

خير نديم وأكرم مال:

قال البغدادي: وأنشدني جعفر بن محمد الخُلْدي:

---

(1) تقييد العلم ص 119.
(2) قريب من لفظه في، ابن المعتز: الآداب ص 96، الحصري: زهر الآداب 2/126.
(3) وبمعناه في المحاسن والمساوىء ص 2.
(4) مثله في جامع بيان العلم 2/203، والمحاسن والمساوىء ص 15، ومحاسن الوسائل للشبلي ص 3، ومعادن الجوهر للعاملي 1/28، وهدية الأمم ص 51.

نِعْمَ النديمُ إذا خلوتَ كتابُ إنْ خانكَ الندماءُ والأصحابُ
فأبِحْهُ سِرَّكَ قد أمِنْتَ لسانَهُ أو أنْ يغيبكَ عندهُ مغْتابُ
وإذا هفوتَ أمِنْتَ غَرْبَ لسانِهِ إنَّ العِتابَ من النديمِ عذابُ

قال البغدادي: «قلت ومع ما في الكتب من المنافع العميمة، والمفاخر العظيمة، فهي أكرم مال، وأنفس جمال، والكتاب آمن جليس، وأسَرُّ أنيس، وأسلم نديم، وأفصح كليم»[1].

صفة الكتاب عند الجاحظ:

وقد وصفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، فقال: «الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس ساعة الوحدة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والنزيل»، قال: «والكتاب وعاء مُليىء علماً، وظرف حُشي ظُرفاً، إنْ شئتَ كان أبينَ من سحبان وائل، وإنْ شئتَ كانَ أعيا من باقل، وإنْ شئتَ ضحكتَ من نوادرِه، وعجِبتَ من غرائبِ فوائده، وإنْ شئتَ شجتكَ مواعظهُ، ومَنْ لك بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتكٍ، وبناطقٍ أخرس، وبشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر والشاهد والغائب، والحسن وضده»، قال: «ولا أعلم جاراً أبر ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل خيانة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً وتكلفاً من كتاب»، «وبعد، فمتى رأيت بستاناً يُحمل في رُدْنٍ وروضة في كف، وحجراً ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، أبرُّ من أرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأضبط لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة، صامت ما أسكَتُّهُ، وبليغ إذا استنْطَقْتَهُ، ومن لك بمسامر لا يبتديكَ في حال شغلكَ، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمُّلِ له، والتذمم منه، ومن لك بزائر، إن شئتَ جعلتَ زيارته غِبًّا، ووِرْدَهُ خِمْساً، وإذا لزمك لزوم ظِلِّكَ، وكان منك مكان بعضك، والكتاب مكتفٍ بنفسه، ولا يحتاج إلى ما عند غيره، وهو الجليس الذي لا يُطريك،

(1) تقييد العلم ص 121، وينظر في حفظ الكتابِ للسر: مطالع البدور للغزولي 2/172.

الصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستمنح الذي لا يزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمَكْر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يختال لك بالكذب، والكتاب هو الذي إنْ نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وفخَّم ألفاظك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغُرْم، وكَدِّ الطلب، والوقوف بباب المكتسب بالتعليم، والجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم منه عرقاً، وهو المعلم الذي إنْ افتقرت لم يحقرك، وإن اقطعت المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإنْ هبَّت ريح أعدائك لم يتقلَّب عليك»(1).

محاسن الكتب لابن يسير:

وأنشد أبو حاتم السجستاني، وذُكرت الكتب والدفاتر بحضرته، فقال: ما أحسن ما قال ابن يسير:

فردا تحدثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتبُ
هو مُؤنسونَ وآلاف عُنيتُ بهم ... فليس لي في جليس غيرهم أربُ
لله من جلساء لا جليسهم ... ولا عشيرهم للشرِّ يرتقب
لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
أبقَوا لنا حِكَماً تبقى مناقِبُها ... أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا
فأيّما أدبٍ منهم مددتُ يدي ... إليه فهو قريب من يدي كَثَبٌ
إنْ شِئْتُ من محكم الآثار يرفعها ... إلى النبيِّ ثِقاتٌ خِيْرةٌ نُجُبُ
أو شِئْتُ من عُرَرٍ علما تأوَّلها ... في الجاهلية تأتيني به العربُ
أو شِئْتُ من سِيَرِ الأملاكِ من عجمٍ ... تُنْبي وتُخْبِرُ كيف الرأيُ والأدبُ

---

(1) تقييد العلم ص 121 ـ 122، وجاء هذا الوصف مع تقديم وتأخير في الحيوان 1/38، المحاسن والمساوىء ص 2 ـ 6، محاضرات الأدباء 1/55، نهاية الأرب 7/17 ـ 18، مروج الذهب 3/136 ـ 138 وغيرها.

حتى كأني قد شاهدتُ عصرهمُ وقد مضتْ دونه من دهرهم حِقَبُ
يا قائلاً قَصُرَتْ في العلم هِمَّتُهُ أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسبُ
إن الأوائـلَ قـد بـانـوا بعلمهـمُ خلافَ قولي ما ماتوا ولا ذهبوا
ما مات مِنَّا امرؤٌ أبقى لنا أدباً نكون منه إذا ما مات نكتسبُ(1)

المأمون والكتب:

روى يحيى بن أكثم قال: «قال المأمون لعبد الله بن الحسن العلوي: ما بقي من لذتك يا أبا علي؟ قال: اللعب مع الصغير من ولدي، ومحادثة الموتى، قال أبو بكر النقاش: يعني النظر في الكتب».

قال الخطيب البغدادي: وبلغني عن المأمون أنه قال: «لا شيء آثر للنفس، ولا أشرح للصدر، ولا أوفر لعرض، ولا أذكى للقلب، ولا أبسط للسان، ولا أشد للجنان، ولا أكثر وفاقاً، ولا أقل خلافاً، ولا أبلغ إشارة، ولا أكثر عبارة، من كتاب تكثر فائدته، وتقل مؤونته، وتسقط غائلته، وتحمد عاقبته، وهو محدث لا يُمَلُّ، وصاحب لا يَخِلُّ، وجليس لا يتحفظ، ومترجم عن العقول الماضية، والحكم الخالية، والأمم السالفة، ويُحيي ما أماته الحفظ، ويجدد ما أخلقه الدهر، ويُبرز ما حجبته الغباوة، ويصل إذا قطع الثقة، ويدوم إذا خان الملوك».

وعن الحسن بن سهل قال: «كان المأمون ينام والدفاتر حول فراشه، ينظر فيها متى انتبه من نومه، وقبل أن ينام»(2).

تعين على وحشة الغربة:

عن محمد بن علي النحوي، قال: «ودَّع رجل صديقاً له، فقال له:

---

(1) تقييد العلم ص 123، والقصيدة في الحيوان 1/94 ـ 96 باختلاف اللفظ مع زيادة خمسة أبيات في أولها، وجامع بيان العلم 2/203، وربيع الأبرار ص 24.
(2) تقييد العلم ص 123 ـ 124.

استعن على وحشة الغربة بقراءة الكتب، فإنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة».

نديـــم نافـــع:

قال أبو محمد الجابري، أنشدني ابن المعتز:

إذا جفـانـي نـدمـان ومـؤتلـف ... نادمت كتبي فشاهدت الألى سلفوا
وكـانـت الـراح أيضـاً لـي منـادمـة ... نعم النديمان صفو الراح والصحفُ
الـراح تُطـربُ نفسـي حيـن أشـربهـا ... والكُتُبُ يؤمن منها الزهوُ والصَّلَفُ

وقال الجابري أيضاً، أنشدنا ابن المعتز:

لا شيء أنفعُ من كتاب يدرسُ ... فيـه السـلامـة وهـو خِـلٌّ مـؤنِـسُ
رسمٌ يفيدُ كما يُفيدُ ذوو النُّهى ... أعمى أصمٌّ عن الفواحش أخرسُ

وقال عبد الحميد بن عبد الرحيم التوَّزي: الكتاب نديم، عهد وفائه قديم، الكتاب منادم، وليس من نادمه بنادم، الكتاب حميم، خيره عميم، الكتاب أخ غير خوَّان، فتفرَّدْ به عن الإخوان، الكتاب سمير، سليم الظاهر والضمير»[1].

مجالسة سوق الكتب:

أنشد الحسين بن محمد بن القاسم العلوي لبعضهم:

مجـالسـة الســوق مـذمـومـة ... وفيهـا مجـالـس قـد تستحـب
فلا تقصدنْ غير سوق الدواب ... وسوق السلاح وسوق الكتب

أنـــس الخلـــوة:

قيل لبعضهم: أما تستوحش؟ فقال: أيستوحش من معه من الأنس كله؟ قيل: وما الأنس كله؟ قال: الكتب.

---

(1) السابق ص 125.

وقيل لآخر: ألا تنادم فلاناً؟ قال: قد نادمت من لا يتكلف لي، ولا أتكلف له، قيل: ومن هو؟ قال: الكتاب.

وتأخر عن بعض الرؤساء، نديم له، فقال: يا غلام، عليَّ بالنديم الذي لا يتغيَّب، قال: من هو؟ قال: الكتاب.

وقال بعض الوزراء: يا غلام، ائتني بأنس الخلوة ومجمع السلوة، فظن جلساؤه أنه يستدعي شراباً، فأتاه بسفط فيه كتب.

وقيل لرجل: من يؤنسك؟ فضرب بيده إلى كتبه وقال: هذه، فقيل: من الناس؟ فقال: الذي فيها[1].

مجالسة الصحابة:

روى محرز بن جبير المروزي، قال: قيل لابن المبارك، يا أبا عبدالرحمن، لو خرجت فجلست مع أصحابك، قال: إني إذا كنت في المنزل جالست أصحاب محمد ﷺ، يعني النظر في الكتب.

وعن عبد الصمد بن مِردوَيْهِ قال: سمعت شفيق بن إبراهيم البلخي يقول: قلنا لابن المبارك: إذا صليت معنا، لمَ لا تجلس معنا؟ قال: أذهب فأجلس مع التابعين والصحابة، قال، قلنا: فأين التابعون والصحابة؟ قال: اذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع معكم؟ أنتم تجلسون تغتابون الناس، فإذا كان سنة مائتين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله تعالى، فُرَّ من الناس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك، يسلم لك لحمك ودمك.

قيل لبعضهم: لمَ لا تعاشر فلاناً الشريف؟ فقال: أنا أعاشر أباه وجده، ومعاشرة أبيه وجده أحبُّ إليَّ من معاشرته، فقيل: إن أباه وجده قد ماتا، فكيف تعاشرهما؟ فقال: بأخبارهما وآثارهما في الكتب التي إذا قرأتها قد عاشرتهما بها.

---

(1) السابق نفسه ص 126.

وقيل لحكيم من الحكماء: ألا تدعو قوماً يؤنسونك؟ فقال: كم جهد ما يمكن مثلي أن يدعو من الناس ليستأنس بهم؟ فقالوا: الاثنين والثلاثة، فقال: قد يؤنسني ألوف وألوف، وعشرات الألوف، فقيل: أنَّى لك كل هؤلاء؟ وهل تسع دارك جمعهم؟ فقال: مجمعهم في الكتب المسطورة والأخبار المأثورة[1].

الكتب تخلد أهلها:

وقال بعض الشعراء:

لولا العلومُ لما سمعتَ لهالكٍ ذكـراً ولا خبـراً مـن الأخبـارِ
كم من أديبٍ حاضرٍ في مصرهِ وحديثُهُ المشهورُ في الأمصارِ
يُنْسَـى الأنـامُ وذو العلـومِ مُخَلَّـدٌ في الناسِ من باقٍ هناكَ وسارِ[2]

خليل لا يخون:

قال أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن الشيرازي: أنشدني القاسم بن أبي بكر القفَّال لأبيه، وزعموا أنَّه كتب على باب خزانة كتبه:

خليلي كتابي لا يعافُ وصاليا وإنْ قلَّ مالي وولَّى جماليا
وفَى لي على حالَيْ شبابٍ وكِبْرَةٍ ولـم يتجهَّمُنـي لشَيْـبِ قَـذَاليـا
على حين خانتني الحسانُ عهودها وقطَّعْنَ من بعدِ اتصالٍ حِبَاليا
تجافينَ عنِّي أنْ تجافتْ شبيبتي وأنكـرتَنـي لمَّـا تنكَّـرْتُ حـاليـا
كتابي عشيقي حين لم يبقَ مَعْشَقٌ أغـازِلُـهُ لـو كـان يـدري غـزاليـا
كتـــابـــي أبٌ بَـــرٌّ وأمٌّ شفيقـــةٌ همـــا هـــو إذْ لا أمَ أو لا أبـــاليـــا
كتابي جليسي لا أخافُ مَلالَهُ مُحَدِّثُ صِدْقٍ لا يخافُ مَلاليا
مُحَدِّثُ أخبارِ القرونِ التي مضتْ كأنِّي أرى تلك القرونَ الخواليا

---

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 126.
(2) تقييد العلم ص 126.

فهـم جُلَسـائـي لا بهـائِـمُ رُتَّـعٌ حميرُ سُدىً ما يخطرونَ بباليا
كتـابـيَ بحـرٌ لا يغيـضُ عَطـاؤهُ يُفيضُ عليَّ المال إن غاضَ ماليا
وتلفـظُ لـي أفـلاذُ أكبـادِ كنـزِهِ لُجَيْنـاً وعِقْيـانـاً ودُرّاً لآليـا
أدِلُّ بعلمـي أنْ أذلَّ لجـاهـلٍ ويعقـلُ عقلي أنْ يحـلَّ عقـاليـا
كتـابـي دليـلٌ علـى خير غـايـة فمـن ثـم إدلالـي ومنـه دلاليـا
إذا زغتُ عن قصد السبيلِ أقامني وإنْ ضلَّ ذهني ردني عن ضلاليا
فهـذا خليلـي لا أزالُ خليلَـهُ وخيـرُ خِـلالـي أنْ أديـمَ خِـلاليا

المؤنـس:

أنشد أبو بكر بن الأنباري عن بعضهم:

إذا ما خلوتُ من المؤنسين جعلتُ المؤانِسَ لي دفتري
فلم أخلُ من شاعرٍ محسنٍ ومن عالمٍ صالحٍ مُنْذِرِ
ومن حِكَمٍ بين أثنائها فوائدُ للناظرِ المُفْكِرِ
فإنْ ضاقَ صدْري بأسرارِهِ وأودعْتُهُ السرَّ لم يظهرِ
وإنْ صرَّح الشعْرُ باسمِ الحبيب لم أحتشِمْهُ ولم أحْصَرِ
وإنْ عدتُ من ضجْرةٍ بالهجاء وسبَّ الخليفةِ لم أحْذَرِ
ونادمْتُ فيهِ كريمَ المغيب لندمانِهِ طيِّبَ المخبرِ
فلستُ أرى مُؤْثراً ما حييت نديماً عليه إلى المحشرِ

عن عبدالله بن المعتز قال، قال محمد بن أحمد بن طباطبا يصف كتاباً:

صَدَفٌ شُقَّ عن لآلِيء دُرٍّ أم كتابٌ قد فُضَّ عن نظمِ شِعْرِ
وقوافٍ مقوماتٍ لدى الأبـ ـياتِ موزونةٍ لقسطاسِ فِكْرِ

نزهـة الأديـب:

قال بعض العلماء: الكتاب تؤدبك عجائبه، وتسرك طرائفه، وتضحكك

ملحه ونوادره، وهو نزهة الأديب عند لذته، ومتعته عند خلوته، وتحفته عند نشاطه، وأنسه عند انبساطه، ومستراحه من هَمِّهِ، ومسلاته من غَمِّهِ، وعوضه من جليس السوء، وسخف الأماني، ومستقبح الشهوات، وهو روضة مجلسه، وبستان يده، وأنيس يتقلب معه[1].

القَسَم بالكتـــاب:

عن محمد بن يحيى الصولي قال، قال أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني:

لا وأنســي وفــرحتــي بكتــابٍ   أنا منهُ في حُسنِ أضحى وفِطْرِ
ما دجا ليلُ وحشتي قطُّ إلا   كنتَ لي فيه طالعاً مثلَ بدرِ
بحديثٍ يُقيمُ للأنْسِ شوقاً   ولثــامٍ يكُـفُّ لـوعـةَ صـدري

نعـــم المسامـــر:

عن إبراهيم بن عبدالله الشطي، قال: أنشدنا أبو محمد الجابري لنفسه:

نِعْمَ المسامرُ والنديمُ الدفترُ   إنْ ضاقَ صدْرُكَ أو عَلاكَ تفَكُّرُ
يُلْهي ويُؤْنِسُ وهو خِلٌ كلما   أبدي بحضرتِه فغيبٌ مُضْمَرُ

وقال عتَّاب بن ورقاء:

لو عَلمَ الجاهلونَ ما الأدبُ   لأيقنـــوا أنـــه هـــو الطَّـــربُ
لو يعلمُ العاشقونَ ما لذَّةُ العِلْمِ   ولـــم يعـــرفـــوهُ مـــا نصبـــوا
من كان يلهو وكان ذا أنس   فالعلمُ لهوي وأنْسيَ الكُتُبُ
إنْ عَجِبـوا مـن مقـالتـي فَهُـمْ   ما عَجِبوا من مقالتي العَجَبُ[2]

(1) السابق ص 128.
(2) تقييد العلم ص 129.

فضـــل الدفاتـــر:

أنشد أحمد بن محمد العروضي في الدفاتر وفضلها:

إنَّ جمـــعَ الـــدفـــاتـــرِ عُـــدَّةٌ للبصـــائـــرِ
قـــد حـــوت كـــلَّ فـــاخـــرٍ مـــن صنـــوفِ الجـــواهـــرِ
وعلـــومٍ قـــد أوضحـــتْ كـــلَّ مـــاضٍ وغـــابـــرِ
وعجيـــبٍ مـــن الأمـــو رِ بعيـــدٍ وحـــاضـــرِ
يكتفـــي كـــلُّ عـــالـــمٍ بـــارعِ اللفـــظِ بـــاهـــرِ
بـــريـــاضٍ مُقِيمَـــةٍ فـــي بطـــونِ الـــدفـــاتـــرِ
يتنـــاجَـــوْنَ صـــامتيـــنَ بمـــا فـــي الضمـــائـــرِ
وهـــمُ إنْ خبـــرتهـــم بيـــنَ نـــاهٍ وزاجـــرِ
ومثيـــرٍ بمـــا يـــراهُ وداعٍ وآمـــــــرِ
فتمسَّـــكْ بهـــا تَفُـــزْ بسَنِـــيِّ الـــذَّخـــائـــرِ

العلـــم والعمـــل:

أنشدني أبو أحمد عبدالعزيز بن عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزري الكاتب، لأبيه من قصيدة طويلة:

واعلـمْ بـأنَّ العلـمَ أرفـعُ رتبـة وأجـلُّ مكتسبٍ وآنسُ مفخرِ
فاسلك سبيلَ المقتفينَ لهُ تَسُدْ إنَّ السيـادةَ تُقْتَنـى بـالـدفْتَـرِ
والعـالـم المـدعـو حَبْـراً إنَّمـا سمَّاه باسم الحِبْرِ حمْلَ المحبرِ
والعلـمُ ليـسَ بنـافـعٍ أربـابَـهُ مـا لـم يُفِـدْ عمـلاً وحُسْـنَ تبَصُّرِ
فاعملْ بعلمكَ توفِ نفسَكَ وَزْنَها لا ترضَ بالتضييعِ دونَ المَخْسَرِ
سِيَّانَ عندي علمُ من لم يَسْتَفِدْ عمـلاً بـهِ وصـلاةَ مـنْ لـم يطْهـرِ

وبضُمَّـرِ الأقـلامِ يبلـغُ أهلُهـا ما ليس يُبْلَغُ بالجِياد الضُّمَّرِ[1]

الـــروض:

أنشد السري بن أحمد الرقَّاء لنفسه، يدعو أبا بكر المراغي النحوي، ويصف له كتباً عنده، وبستاناً في داره، ويصف الشطرنج:

عندي إذا ما الروضُ أصبحَ ذابلا تُحَفٌ أغَضُّ من الرياضِ شمائلا

خُـرْسٌ تُحَـدِّثُ آخِـراً عـن أوَّلٍ بعجـائـبٍ سلفـتْ ولسْنَ أوائـلا

سُقِيَتْ بأطرافِ اليراعِ ظهورُها وبطـونُهـا طـلاً أحَـمَّ ووابِـلا

تلقاكَ في حُمْرِ الثيابِ وسودِها فتخـالُهُـنَّ عـرائسـاً وثـواكـلا

وتُريكَ ما قد فاتَ من دهْرٍ مضى حتَّـى تـراهُ بعيـنِ فكـركَ مـاثـلا

وإذا خلـوتَ بهـنَّ ظمـآنَ الحشـا منحتْكَ من صوبِ العقولِ مناهِلا

ولهـا إذا حُلِّـتْ نتـاجُ غـرائـبٍ يمكُثْـنَ مـا زُرَّتْ بهـنَّ حـوامِـلا

يلْبَسْـنَ أرديَـةَ الأديـمِ كـأنَّمـا رقْرَقْتَ فيهنَّ الخَلوقَ السَّائِلا

فـإذا مـدَدْتَ يمينَـكَ فـاتِحـاً عَبِقَـتْ يمينُـكَ راحـةً وأنـامِـلا

نشـرتْ حـدائِقُهـا علـى أمثـالِهـا حُلَـلاً مُـدَبَّجـةً وحَلْيـاً كـامـلا

روضٌ تزخرفُهُ العقولُ وروضةٌ باتتْ تزخْرِفُها الغُيوثُ هواطِلا

وكتيبتـا زَنْـجٍ ورُوْمٍ أذْكتـا حرْباً يَسُلُّ بها الذكاءُ مَناصِلا

فـي معْـرَكٍ قسَـمَ النـزالُ بِقـاعَـهُ بيـنَ الكُمـاةِ المُعْلَميـنَ منـازلا

لـم يسفحـا فيـه دَمـاً وكـأنَّمـا رَشَـحُ الـدِّمـاء أعـاليـاً وأسـافـلا

يُبْـدي لعينِـكَ كُلَّمـا عـايَنْتَـهُ قِـرْنَيْـنِ جـالا مقـدمـاً ومُجَـاوِلا

فكـأنَّ ذا صـاحٍ يسيـرُ مُقَـوِّمـاً وكـأنَّ ذا نشـوانُ يخْطُـرُ مـائـلا

أعْجِبْ بها حَرْباً تُثيرُ إذا التظَتْ فضْلَ الرجالِ ولا تُثيرُ قساطِلا[2]

---

(1) تقييد العلم ص 130، وفي جامع بيان العلم 2/204، ومحاسن الوسائل للشبلي ص 3.

(2) تقييد العلم ص 130 ـ 131.

قيمــة الكتــب:

وأنشد أبو عبدالله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قيمــةُ الكُتُــبِ أجَــلُّ القِيَــمِ ... عندَ من يعرفُ رَصْفَ الكَلِمِ
جمعَـتْ مـن كـلِّ فـنٍّ حَسَـنٍ ... وغريبٍ من ضروبِ الحِكَمِ
بيــنَ منظــومٍ بــديــعٍ نَظْمُــهُ ... حــاكَــهُ كُــلُّ أديــبٍ فَهِــمِ
ثــم يتلــو النَّظْــمَ نَثْــرٌ مُشْبِــهٌ ... زَهَـرَ الـروضِ عَقِيْبَ الـدِّيَـمِ
فـإذا مـا نطقَـتْ فـي مجلسٍ ... تـركَـتْ أفْصَحَنـا كـالأعجَـمِ
فلَنَــا منهــا جليــسٌ مُمْتِــعٌ ... ليـسَ بـالعَـيِّ ولا بـالمُفْحِـمِ
نـاظـمٌ طـوراً وطـوراً نـاثـرٌ ... حِكَــمٌ فيهــا لِقَــاحُ الفَهَــمِ
نحنُ منهُ في سرورٍ لا كَمَنْ ... هـو مـن جُـلاَّسِـهِ فـي مـأتـمِ
يكْتُــمُ السِّــرَّ إذا بُحْنــا بــهِ ... فـي سُـويـداهُ ولـم يسْتَكْتِـمُ
وإذا النُّــدْمَـانُ يـومـاً سَئِمـوا ... مجلسـاً لـم تُلْفِـهِ بـالسَّئِـمِ
فاحْفَظِ الكُتُبَ ففي بذلِكِها ... نَـدَمٌ مـا شِئْـتَ كُـلَّ النَّـدَمِ[1]

نعــم الأنيــس:

وأنشد أبو عبدالله الصوري لنفسه أيضاً:

نِعْــمَ الأنيــسُ كتــابُ ... إنْ خــانــكَ الأصحــابُ
يحــوي ضــروبَ علــومٍ ... تـــزينُهـــا الآدابُ
تنــالُ منــهُ فنــونــاً ... تحظــى بهــا وتُثــابُ
لا مُظْهِــرٌ لــكَ سِــرّاً ... ولا عليــهِ حِجــابٌ
ولا يصُــدُّكَ عنــهُ ... إنْ جِئْتَــهُ بــوَّابُ
ولا يســوؤكَ منــهُ ... تغَضُّــبٌ أو عِتــابُ

---

(1) السابق ص 131 ـ 132.

ولا يعيبُـــــكَ إنْ كـــــا نَ فيـــكَ شـــيءٌ يُعَـــابُ
خِـــلافَ قـــومٍ تـــراهُـــمْ ليســـتْ لهـــم ألْبـــابُ
لكنَّهـــــم كـــــذِئـــابٍ طُلْـــسٍ عليهـــم ثيـــابُ
إذا تقـــرَّبْـــتَ منهـــم أرضـــاكَ منهـــم خِطـــابُ
وإنْ تبـــاعـــدْتَ منهـــم فكلُّهـــــمْ مُغْتـــــابُ
مـــا هـــؤلاءِ بنـــاسٍ بـــلْ هـــمْ لَعمْـــري كـــلابُ
فـــالبُعْـــد منهـــمْ ثـــوابٌ والقُـــرْبُ منهـــمْ عِقـــابُ

وعن محمد بن خلف بن المرزبان، قال: كتب بعض الأدباء إلى صديق له وأهدى له دفتراً: «قد أهديت لك من فنون كلامي، وعيون مقالي، دفتراً طريف المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ، يلذ بأفواه الناطقين، ويلين على أفواه الصامتين.

قيمة الكتاب بما حواه:

وقال ابن المرزبان: أخبرني علي بن الحسن الكاتب، قال: أهدى بعض أهل الأدب إلى بعض الكتاب، في يوم نوروز، كتاباً فيه أخبار وآداب، فاستصغره واستقلَّه، فكتب إليه المُهْدي:

هـــديَّـــةٌ تصغُـــرُ لكنَّهـــا فـي عيـنِ مـن يعـرفُهـا تكْبُـرُ
بعثْتُهـا كـالـروضِ فـي حُسْنِـهِ أنـــوارُهـــا مشـــرقـــةٌ تـــزهـــرُ
كالعِقْدِ في النظمِ حوى جوهراً مـا مثلُـهُ فـي حُسْنِـهِ جـوهَـرُ
جَـوْنَـةُ عطَّـارٍ إذا اسْتُفْتِحَـتْ يفـوحُ منهـا المِسْـكُ والعَنْبَـرُ
كـالـوشـي فـي الحُسْـنِ ولكنَّـهُ أحسـنُ مـا يُطْـوى ومـا يُنْشَـرُ
لا تحْقَـرِ الـدفتـرَ وانظـرْ إلـى ما قد حوى من علْمِهِ الدفترُ
من نادر الأخبارِ أو محكمِ الـ ـأشعـارِ أو مكـرمـةٍ تـؤْثَـرُ
كالدرِّ في الأصدافِ ما ضَمَّتِ الأوراقُ ممـا خطَّـتِ الأسطُـرُ

أنكـرتَ منهـا يـا أبـا جعفـرٍ مـا مثلـهُ عنـدكَ لا يُنْكَـرُ[1]

ما يكتب على الدفاتر:

قال أحمد بن يوسف الأزرق التنوخي قال: أنشدنا أبو سعد داود بن الهيثم بن إسحاق بن البهلول لنفسه، وكتبها بخطه على ظهر دفتر، جمع فيه أخباراً وأشعاراً جعلهما ترجمة له:

نُتَـفٌ مـن طـرائـفِ الأخبـارِ وشـذورِ المقطَّعـاتِ القِصـارِ
نـزهـةٌ للقلـوبِ فيهـا رِيـاضٌ زيَّنَتْهـا بـدائِـعُ الأشعـارِ

وقال نصر بن علي الجهضمي: أهدى أحمد بن المعذَّل إلى أبي يحيى عيسى بن أبي حرب، دفتراً فيه دعاء، وكتب إليه:

فيهِ دُعاءٌ إذا ما الأمرُ أعضلني واستحكـمَ الهـمُّ في قلبي فـأرَّقني
ناديتُ معتمدي في كلِّ نائبةٍ فلم أتممهُ حتى هوْ يخلصني[2]

وعن علي بن عبدالله بن الحسن الهمذاني قال: سمعت أبا الطيب محمد بن جعفر الورَّاق يقول، قرأت على ظهر كتاب لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي:

هـذا كتـابُ فـوائـدٍ مجمـوعـةٍ جُمِعَتْ بكَدِّ جوارِحِ الأبدانِ
جُمِعَتْ على بُعْدِ المشقَّةِ والنَّوى والسيـرِ بيـنَ فيـافـيَ البلـدانِ

وقال القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، أنشدني أبو الحسن النصيبي مؤدبي لنفسه، وترجم به كتاباً:

كتـابٌ يحتـوي جُمَـلَ السـرورِ ويكسـو القلـبَ أنـواعَ الحُبـورِ

---

(1) السابق نفسه ص 132 ـ 133.

(2) تقييد العلم ص 134، وانظر مثال هذا في المحاسن والمساوىء ص 2، ديوان ابن نباتة ص 252، مطالع البدور 2/175، 177، محاسن الوسائل ص 2، هدية الأمم ص 56، محاضرة الأبرار 1/4.

به أنسُ الوحيدِ إذا تخلَّى بلـوعتِـه وبـالـدمـعِ الغـزيـرِ[1]

اقتناء الكتب والحرص عليها:

عن موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كُرَيب حِملَ بعير من كتب ابن عباس، فكان علي بن عبدالله بن عباس، إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إليَّ بصحيفة كذا وكذا، فينسخها ويبعث بها[2].

قال بعض أهل العلم: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها، ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال، احتاج إليها في حال، وإن سئمها في وقت، ارتاح إليها في وقت، وإن شُغل عنها في يوم، فرغ لها في يوم، وأن لا يسرع ويعجل، فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رامه فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولاً، فلم يجد إليه سبيلاً، فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرَّقه، كالذي حُكي عن بعض العلماء، قال: بعتُ في بعض الأيام كتاباً ظننت أني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هجس في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبته في جميع كتبي فلم أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح، فما زلت قائماً على رجلي إلى الصباح، قيل: فهلا قعدت؟ قال: لطول أرقي وشدة قلقي.

وباع آخر كتاباً، ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم إنه احتاج إليه فالتمس نسخة به، فلم يجدها بعارية ولا ثمن، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده فشخص إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن منه، فأبى عليه، فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه، فلم يجبه، فانكفأ قافلاً وآلى على نفسه ألا يبيع كتاباً أبداً.

وباع آخر كتاباً ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم إنه احتاج إلى كلمة منه، فقصد صاحبه، وسأله أن يُكْتِبَهُ تلك الكلمة، فقال: والله ما تكتبها إلا بثمن الكتاب

---

(1) تقييد العلم ص 135.

(2) تقييد العلم ص 136، ومثله في طبقات ابن سعد 5/316، وشذرات الذهب 1/114.

كله، فردَّ عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة.

وقيل لآخر: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها، فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم[1].

الحاجة إلى أنواع العلوم:

اشترى رجل كتاباً، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: اشتريت ما ليس من علمي ليصير من علمي.

وقيل لآخر: ألا تشتري كتباً تكون عندك؟ فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم.

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه.

ومما يُعزى إلى السري بن أحمد الكندي:

لا تُخدَعنَّ عن العلومِ فإنَّها ... سُرُجٌ يزيدُ على الزمانِ ضياؤها
تُنْسَى القُرونُ فلا يشيدُ بذكرها ... أحدٌ ويذكر دائباً علماؤها
فاحرص على جمع العلوم فإنها ... ريُ القلوبِ من الصدى وشفاؤها[2]

على قدر الصناعة تكون الآلة:

كان بعض القضاة يشتري الكتب بالدين والقرض، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئاً بلغ بي هذا المبلغ، قيل: فإنك تكثر، فقال: على قدر الصناعة تكون الآلة.

واحتاج بعض النجارين إلى بيع فأسه ومنشاره فباعهما، وحزن عليهما،

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 136 ـ 137.
(2) السابق ص 137.

ندم على بيعهما، إلى أن رأى جاراً له من أهل العلم في سوق الوراقين، وهوبيع كتبه، فقال: إذا باع العالم آلته، فالصانع أعذر منه، وسلا بذلك[1].

الجاحظ خبير بما في الصحف:

وحدَّث محمد بن سليمان الجوهري، قال: كُنَّا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يوماً لنزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناه، إذ عارضتنا امرأة، معها أوراق مقطَّعة، فعرضت ذلك علينا، فلم نجد فيها طائلاً، فتركناهاوانصرفنا، وتخلَّف معها الجاحظ، ونحن ننتظره، فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً، وأخذ الأوراق، وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ونقول: فزت بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حمقى، والله إن فيها ما لا يوجد إلا فيها، ولكنكم جُهَّال لا تعرفون النفيس من الخسيس[2].

فضل الدرس والمطالعة:

حدَّث إبراهيم بن المنذر عن أيوب بن عباية قال، قيل لابن دأب: يا أبا الوليد، إنك ربما حملت الكتاب وأنت رجل تجد في نفسك، قال: إن حمل الدفاتر من المروءة.

أخبر أبو بكر أحمد بن المفضل المعروف بسندانة، قال: أملى عليَّ عبدالله بن المعتز، قال: رأى المأمون بعض ولده وبيده دفتر، فقال: ما هذا يا بُنَي، قال: بعض ما يشحذ الفطنة، ويؤنس الوحدة، فقال المأمون: الحمد لله الذي رزقني ذرية يرى بعين عقله، أكثر مما يرى بعين جسمه[3].

---

(1) تقيد العلم ص 137.

(2) السابق ص 137 ـ 138.

(3) تقييد العلم ص 139، وينظر مثله في ربيع الأبرار ص 11، محاضرات الأدباء 1/55، والحيوان 1/61، وجامع بيان العلم 1/204، ومطالع البدور 2/173 ـ 174.

أحرص الناس على العلم:

عن أبي العباس المبرد، قال: ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، فأما الجاحظ، فإنه كان إذا وقع في يده كتاب قرأه من أوله إلى آخره، أي كتاب كان، وأما الفتح بن خاقان فكان يحمل الكتاب في خفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل ليبول أو ليصلي، أخرج الكتاب فنظر فيه، وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه، وأما إسماعيل بن إسحاق، فإني ما دخلت عليه قط إلا وفي يده كتاب ينظر فيه، أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه[1].

وقال ابن المبارك: من أحب أن يستفيد فلينظر في كتبه.

وعن محمد بن العباس العُصْمي قال: سمعت أبا العباس الدغولي يقول: لا يفارقني أربع مجلدات في البلد وفي الخروج إلى ضياعي: كتاب المزني، وكتاب العين، وكتاب التاريخ للبخاري، وكتاب كليلة ودمنة.

وأخبر زكريا بن عيسى عن ابن شهاب قال: خرجنا مع الحجاج بن يوسف إلى الحج، فلما كنا بالشجرة، قال: تبصَّروا الهلال، فإن في بصري عُهدة، فقال له نوفل بن مساحق: أتدري ممَ ذاك؟ ذاك من كثرة نظرك في الدفاتر.

قال الخطيب البغدادي: وينبغي لمتحفظ ما يقرأه أن يصرف عنايته إلى اتقان ما يُسأل عنه، إن كان ممن ينتصب للسؤال. وعن المبرد قال، قال الخليل: اجعل ما في كتبك رأس مال، وما في قلبك للتفقه وقال الخطيب البغدادي: ويعمد إلى عيون الأخبار، ومستحسن الأشعار، وغرائب الأمثال، ونكت الحكايات، فيجعل مذاكراته بها، وما يورده منها، فإن ذلك يكسبه جميل

(1) تقييد العلم ص 139 ـ 140، وبمعناه في أمالي الشريف المرتضى 1/138، والفخري لابن الطقطقي ص 3، ومعجم الأدباء لياقوت 16/75.

الذكر وطيب الثناء والنشر[1].

انتقـاء الأحسـن:

عن أبي العيناء محمد بن القاسم بن خلاد، قال ابن عباس: العلم كثير، ولن تعيه قلوبكم، ولكن ابتغوا أحسنه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2].

عن أبي عمرو بن أبي معاذ، قال: كان المأمون يوصي بعض بنيه فيقول: اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وحدِّث بأحسن ما تحفظ.

وعن أبي خليفة الفضل بن الحباب، أن أبا زيد الأنصاري رأى رجلاً حسن العلم، كثير الرواية، جيد الحفظ لمُلَح الأخبار، لا يتمثل إلا بحسن، ولا يستشهد إلا بجيد، فقال: كأن والله علمه من ظهور الدفاتر، قال المعافي بن زكريا الجريري: يريد به ظهور الدفاتر، لا يكتب عليها إلا الأحسن.

الأنـس بالكتـاب:

حدَّث المبرد عن عمرو بن عبدالله البصري، قال: كان عبدالله بن عبد العزيز العمري يلزم الجَبَّان كثيراً، فكان لا يخلو من كتاب يكون معه ينظر فيه، فقيل له في ذلك، فقال: إنه ليس شيء أوعظ من قبر، ولا أسلم من وحدة، ولا آنس من كتاب.

وعن عبدالله بن خُبيق قال: تعبَّد العمري، وسكن المقابر، وكان لا يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرأه، وترك مجالسة الناس، فسُئل عن فعاله ونزوله المقابر، فقال: لم أرَ أوعظ من قبر، ولا آنس من كتاب، ولا أسلم من وحدة، وقيل له:

(1) تقييد العلم ص 140 ـ 141، ومثله في: جامع بيان العلم 1/75، والكامل 1/171 ـ 172 والبيان والتبيين 1/214، وألف باء البلوي 1/60.
(2) سورة الزمر 18.

فقد جاء في الوحدة ما جاء، فقال: ما أفسدها للجاهل[1].

قال الحارث بن أبي أسامة: سمعت موسى بن هارون البرزي يقول: عوتب بعض الأدباء على لزومه منزله، وتركه محادثة الرجال، فأجاب بجواب مدح فيه كتبه، فقال:

لنا جلساء ما نملُّ حديثَهم ... ألِبَّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من رأيهم علم من مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
بلا مؤونة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا تتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت هم موتى فلست بكاذب ... وإن قلت أحياءٌ فلست مُفَنَّداً
يفكرُ قلبي دائباً في حديثهم ... كأنَّ فؤادي ضافه سم أسودا[2]

أنشد لؤلؤ بن عبدالله القيصري، قال: أنشدني أستاذي أبو محمد العسكري لابن المعتز:

جعلت كتابي أنيسي ... من دون كل أنيسِ
لأنني لستُ أرضى ... إلا بكلِّ نفيس

الكتب دنيا:

وقال علي بن محمد العسكري، أنشدني أبو بكر الشيطان صاحب أبي بكر بن دريد:

إذا اعتللتُ فكُتْبُ العلمِ تشفيني ... فيها نزاهةُ ألحاظي وتزييني
إذا اشتكيتُ إليها الهَمَّ من حَزَنٍ ... مالتْ إليَّ تعزيني وتسليني

---

(1) تقييد العلم ص 132، وينظر في هذا الموضوع: المحاسن والمساوىء ص 14، مطالع البدور 2/172 ـ 173، محاضرات الأدباء 1/55، الحيوان 1/62، مروج الذهب 3/138.

(2) تقييد العلم ص 143، والأبيات لكلثوم بن عمرو العتَّابي، وينظر: الفخري ص 4، ربيع الأبرار ص 13، هدية الأمم ص 44، محاضرة الأبرار 1/4.

حسبي الدفاترُ من دنيا قنعتُ بها   لا أبتغي بدلاً منها ومن ديني[1]

الكتب خير أنيس:

أنشد أبو الحسن الفارسي لبعضهم:

أَنِسْتُ إلى التفرُّدِ طولَ عمري   فما لي في البريةِ من أنيسِ
جعلت محادثي ونديم نفسي   وأنسي دفتري بدلَ الجليسِ
قد استغنيتُ عن فرسٍ برجلي   إذا سافرتُ أو بغلٍ كبوسِ
ولي عِرْسٌ جديدٌ كلَّ يومٍ   بطرحِ الهَمِّ في أمرِ العروسِ
فبطني سفرتي والخرج جسمي   وهمياني فمي أبداً وكيسي
وبيتي حيث يدركني مسائي   وأهلي كلُّ ذي عقلٍ نفيسِ

ولأبي القاسم عبد الصمد بن علي الطبري:

ولقد أَلِفْتُ فناء بيتي لابساً   حلل الغني إلْفَ القطا الأفْحوصا
لم أدَّرِعْ طمعاً ولم أمدُدْ يداً   نحو النَّوالِ ولا زجرتُ قلوصا
أجتابُ إنْ خَصِرَتْ أناملُ راحتي   من نسجِ دَنِّي جُبَّةً وقميصا
وإذا أردتُ منادماً لم تُلْفِني   إلا على غُرِّ العلومِ حريصا
فترى الكتابَ مجالِساً لي مودعاً   سمعي فصولا تُنْتَقَى وفصوصا
لا مُفشياً سِرِّي ولا مُتَنَمِّراً   جَهْمَ اللِّقاءِ ولا عليَّ خروصا

قال محمد بن علي الصوري، أنشدني أبو الحسن محمد بن معقل بن محمد الأزدي بحمص لنفسه:

ليس شيءٌ ألذُّ عندي ولا آ   نسُ لي من تأمُّلٍ في كتابِ
هو أشهى من ارتشافِ رِضابٍ   من حبيبٍ من بعد طولِ اجتنابِ
فأنا مَعْ حضوره حاضرُ الأنْـ   ـسِ وإنْ غابَ آمِنُ الاغتيابِ

---

(1) تقييد العلم ص 143 ـ 144.

أجتني من ثمارِه بارعَ العلـ ـــم مشوباً بلذَّةِ الآدابِ
ذاكَ أنْسي من دون كلِّ أنيسٍ وحبيبي من سائرِ الأحبابِ
فإذا ما مللتُ من نظرٍ فيـ ـهِ طواهُ عنِّي ظريف احتجابِ
سَلَّةٌ تحتوي ضروباً كثيراً هي قَصْرٌ لهم بلا أبوابِ
لا يُعيدُ الحديثَ إنْ خيفَ من لفـ ـظِ جليسٍ يبديهِ للأصحابِ
فإذا ما فارقْتُهُ كنتُ منهُ آمِناً أنْ يُعيبني بِمَعَابِ
ولنا ثالثٌ به يكملُ الأنْـ ـسُ لها ريقةٌ ألذُّ شرابِ
يغتذي دَرَّها أصَمٌّ سميعٌ أخرسٌ ناطقٌ بغيرِ خطابِ
فإذا ما جرى بميدانِ أطرا سي على رأسه أتى بالعُجابِ
فهمُ مألفي وأنْسي ولا أبـ ـغي بديلاً بهم وهم أترابي(1)

خير الأصحاب:

وأنشد ابن لنكك لبعض الكتاب:

إنْ صَحِبْنا الملوكَ تاهوا وعقُّوا واستبدوا بالرأي دونَ الجليسِ
أو صَحِبْنا التجارَ عُدْنا إلى الفَقْرِ وصِرْنا إلى حساب الفلوسِ
فلَزِمْنا الرِّحالَ نتَّخِذُ الحبْرَ ونَمْلا بهِ وجوهَ الطُّروسِ(2)

وقال آخر:

تميَّزْ بعلمِكَ عن عُصْبَةٍ إذا ذُكِرَ الناسُ لم يُذْكَروا
وحيِّ الطُّروسَ ورَوِّ النفوسَ بلفظٍ ينظمُ أو يُنْثَرُ
فعلمُكَ ذا جوهرٌ نافقٌ ويا ربَّما كَسَدَ الجوهرُ
وذكرُكَ باقٍ به ما بدا لمبصرهِ كوكبٌ أزهَرُ(3)

---

(1) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص 144 ـ 145.
(2) تقييد العلم ص 145، ونسبت الأبيات لأبي العباس ثعلب في جامع بيان العلم 2/202 ـ 203، ومحاسن الوسائل ص 2 ـ 3.
(3) تقييد العلم ص 145.

الضــن بالكتاب على غير أهله:

قال بعض الأدباء: البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه، ومعرفة بفضله، وكان بعض أهل العلم إذا أتاه رجل يستفيد منه علماً، أو يستعير منه كتاباً امتحنه، فإن وجده أهلاً له أعاره، وإلا منعه، وكان إذا أراد أن يعيره وعده وردَّه، فإن عاد إليه ولم يضجر أعاره، وإن لم يعد إليه كُفِي أمره، وعلم أنها خطرة بقلبه خطرت، وشهوة كاذبة عرضت، وكان يقول: لا تُعِرْ كتاب علم من ليس من أهله، واعتبارك ذلك بأن تستقريه الكتاب الذي طلبه، فإن قرأه قراءة صحيحة فهو من أهله، وإن لم يحسن قراءته فليس من أهله، فلا تعره، وكان يقول: من حق العلم إعزازه، وقال غيره: لا تُعِرْ كتاباً إلا بعد يقين بأن المستعير ذو علم ودين[1].

وفي معنى ما ذكرناه من أن العلم تجب صيانته عن غير أهله، ما روي عن محمد بن جحادة عن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ: (لا تطرحوا الدرَّ في أفواه الكلاب)، قال ابن بكار: أظنه يعني العلم[2].

وعن حميد بن عبدالرحمن، قال سمعت أبي يقول: قال الأعمش: «لا تنثروا اللؤلؤ تحت أظلاف الخنازير» يعني الحديث.

وقال المبرد: أتى الأصمعيَّ رجلٌ فسأله أن يكتب له شيئاً من العلم، فكتبه له، فلما كان بعد أيام عاد إليه، فقال: يا أبا سعيد، إن ذلك القرطاس الذي كتبته لي سقط مني فأكلته الشاة، فأحب أن تكتب لي غيره ثانياً، فكتب له، وكتب:

قـل لبُغـاةِ الآدابِ مـا وصلـتْ ... منهـا إليكـم فـلا تضيعـوهـا

---

(1) تقييد العلم ص 146، وانظر في حبس الكتاب المعار: ديوان كشاجم ص 131، محاضرات الأدباء 1/56، مطالع البدور 2/177، ربيع الأبرار ص 17، 29، هدية الأمم ص 17.

(2) الجامع لأخلاق الراوي والسامع ص 3، ربيع الأبرار ص 15، مطالع البدور 2/175.

ضمنوا علمها الدفاتر والحبر بحسن الكتاب أوعوها
إن اشتريتم يوماً لأهلكمُ شاة لبوناً فلا تجيعوها
فإن عجزتم ولم يكن علف يشبعها عندكم فبيعوها[1]

من ابتذل الكتب:

رأى بعض الحكماء رجلاً يبتذل كتاباً، فقال له: بيَّنْتَ عن نقصك، وبرهنت عن جهلك، فما أهان أحد كتاب علم إلا لجهله بما فيه، وسوء معرفته بما يحويه.

ورأى آخر رجلاً قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله، يصون ثيابه ولا يصون كتابه، لَصَونُ الكتاب أولى من صون الثياب.

وكان بعضهم إذا سأله إنسان أن يعيره كتاباً قال: أرني كتبك، فإن وجدها مصونة مكنونة أعاره، وإن رآها مغبرة متغيرة منعه.

وقيل: من أعار كتاب علم غير أهل العلم، فقد جهل حق العلم وأضاعه.

وكان بعض أهل العلم يكتب على ظهور كتبه التي يعيرها: يا ربِّ من حفظ كتابي فاحفظه، ومن أضاعه فلا تحفظه.

وكتب آخر: الكتاب أمانة، وهو حقيق بالصيانة.

وكتب آخر: أكرم الله من أكرمك، وردَّك كما تسلمك.

وكتب آخر: كتابي أعز شيء عليَّ، وإحسانك إليه إحسانك إليَّ[2].

آداب استعارة الكتب:

عن محمد بن العباس الخزاز قال، أنشدنا محمد بن خلف المرزبان، قال أنشِدتُ:

---

(1) تقييد العلم ص 147.
(2) السابق ص 147 ـ 148.

أيهــا المستعيــرُ منِّــي كتــابــاً   إنْ رددتَ الكتابَ كان صواباً
أنــت واللــه إنْ رددتَ كتــابــاً   كنــتَ أعطيتــهُ أخــذتَ كتــابــاً

قال الخطيب البغدادي: قرأت في كتاب القاضي أبي الحسين أحمد بن علي التوزَّي، الذي سمعه من أبي محمد عبد الحميد بن عبد الرحيم التوزَّي، قال: جاء رجل إلى رجل يستعير منه كتاباً، فأعاره وقال له: لا تكن في حبسك له كصاحب القِربة، قال: لا، ولا تكن أنت في ارتجاعك له كصاحب المصباح، قال: لا. وكان من حديث هذين أن رجلاً استعار من رجل قِربة، على أن يستقي فيها مرة واحدة ثم يردها، فاستقى فيها سنة ثم ردها إليه متخرِّقة. وأما الآخر، فإن رجلاً ضافه ضيف من النهار، فاستعار من جار له مصباحاً ليسرجه لضيفه في الليل، فلما كان بعد ساعة أتاه وطالبه برده، فقال له: أعرتني مصباحاً لليل أو للنهار؟ قال: لليل، قال: فما دخل الليلُ.

قال عبدالرحيم: وأعار رجل لرجل كتاباً، وقال له: لا تكن كصاحب السُلَّم، قال: وما معنى ذلك؟ قال: جاء رجل إلى رجل يستعير منه سلَّماً، فقال له: ما أطيق حمله، قال: سبحان الله، وهل أكلفك حمله؟ أنا أحمله قال: صدقت، أنت تحمله ولا ترده، فأحتاج إلى أن أجيء وأحمله.

قال: وسأل رجل رجلاً أن يعيره كتاباً، فأبى عليه، فقال: خذ مني رهناً، فقال: من وجب أن يسترهن على علم، فواجب أن لا يُعار.

قال: وسأل رجل رجلاً أن يعيره كتاباً، فقال: عليَّ يمين أن لا أعير كتاباً إلا برهن، قال: فهذا كتاب استعرته من فلان، فأتركه رهناً عندك، فقال: أخاف أن ترهن كتابي، كما رهنت كتاب غيري.

وأنشد محمد بن خلف بن المرزبان، قال: أنشِدتُ:

أعِــرْ الــدفتــرَ للصــاحــبِ   بــالــرهــنِ الــوثيــقِ
إنـــهُ ليـــسَ قبيحـــاً   أخــذُ رهــنٍ مــن صــديــقِ(1)

(1) السابق نفسه ص 148 ـ 149.

من استعار كتاباً فأهانه:

استعار رجل من أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الأسفراييني الفقيه كتاباً، فرآه أبو حامد يوماً، وقد أخذ عليه عنباً، ثم إن الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتاباً، فقال: تأتيني إلى المنزل، فأتاه، فأخرج الكتاب إليه في طبق وناوله إياه، فاستنكر الرجل ذلك، وقال: ما هذا؟ فقال له أبو حامد: هذا الكتاب الذي طلبته، وهذا طبق تضع عليه ما تأكله، فعلم بذلك ما كان من ذنبه.

إكـــرام الكتـــاب:

قال الخطيب البغدادي: قرأت في كتاب أبي الحسين التوَّزي سماعه من عبد الحميد بن عبدالرحيم، قال: استعار رجل من بعض أهل العلم كتاباً، ثم ردَّه إليه بعد حين متكسراً متغيراً، عليه آثار البذور وغيره، فسأله أن يعيره غيره، فقال له: ما أحسنت ضيافة الأول، فنضيفك الثاني.

قال: واستعار رجل من رجل كتاباً بنفسه، ثم رده مع غلام له، فكتب إليه: ليس من حق العلم أنْ يُمَكِّنَ منه غير أهل العلم، وقد كان ينبغي أن تكون الكرامة في ردِّهِ كالكرامة في أخذه، وإنك لمَّا أخذته بنفسك، وجب أن ترده بنفسك، فكتب إليه: إن الغلام الذي أنفذته معه مؤتمن على المال، فكتب إليه: العلم أفضل من المال، وليس كل مؤتمن على المال يؤتمن على العلم، والمال يعرف قدره كلُّ أحد، فهو يصونه ويعظمه، وليس العلم كذلك، ولم يعره شيئاً بعد ذلك.

لمسافر بن الحسن، أحد أدباء خراسان:

أجـودُ بجُـلِّ مـالـي لا أبـالـي   وأبخـلُ عنـد مسـألـة الكتـابِ
وذاك لأننـي أنفقـتُ حـرصـاً   على تحصيلهِ شَرْخَ الشَّبابِ[1]

---

(1) الخطيب البغدادي ص 149.

الاعتذار عن ضياع الكتاب:

عن أبي ضياء بشر بن يحيى القُتْبي قال: حدثني بعض البصريين قال: أعارني رجل من وجوه بني هاشم بالبصرة دفتراً فضاع، فتفجَّع لذلك، فاعتذرت إليه وقلت:

يا مالكاً ما تزالُ راحتُهُ ... تُعطي المعالي وتُبسطُ النِّعَمَا
هَبْ لِمُقرٍّ بالذنبِ معترفٍ ... بواسعِ العفوِ منكَ ما اجترما
أعرتَهُ دفْتَراً تضُنُّ بهِ ... فخانهُ الدهر فيه فاصْطَلَما
إعظامُكَ العلمَ إذْ فُجعْتَ بِهِ ... يزيدُ عندي خطيئتي عِظَمَا

ذكر أبو الحسين بن التوَّزي أن عبد الحميد بن عبد الرحيم أنشده:

أجَلُّ مصائبِ الرجلِ العليمِ ... مصائِبُهُ بأسفارِ العلومِ
إذا فُقِدَ الكتابُ فذاكَ خطْبٌ ... عظيمٌ قد يجلُّ عن العظيمِ
وكم قد ماتَ من أسَفٍ عليها ... أناسٌ في الحديثِ وفي القديمِ[1]

الترغيب في إعارة كتب السماع:

عن أبي إسحاق الفزاري قال: سمعت سفيان الثوري يقول: من بخل بعلمه ابْتُلي بثلاث: إما أن ينساه ولا يحفظ، وإما أن يموت ولا ينتفع به، وإما أن تذهب كتبه.

عن أحمد بن يحيى بن زيد: أتى أبا العتاهية بعضُ إخوانه، فقال له: أعرني دفتر كذا وكذا، فقال: إني أكره ذلك، فقال له: أما علمتَ أنَّ المكارمَ موصولة بالمكاره؟ فدفع إليه الدفتر.

---

(1) السابق ص 150.

كراهة حبس الكتاب المستعار:

عن يونس بن يزيد قال: قال لي الزهري: يا يونس إياك وغلول الكتب، قال، قلت: وما غُلولُ الكتب؟ قال: حبسُها عن أصحابها[1].

سرقة صحف العلم:

عن ابن قتيبة بسنده عن جعفر عن أبيه قالا: سرقة صحف العلم مثل سرقة الدنانير والدراهم.

عن القاسم بن أبي صالح، قال: سمعت الجاحظ يقول وقد تقاضى تلميذاً له كتاباً، وتقاضي التلميذُ أيضاً كتاباً له، فرد الكتاب عليه ثم أنشأ الجاحظ يقول:

أيهـا المستعيـرُ منِّـي كتـابـاً إرضَ لي فيهِ ما لنفسكَ ترضَى
لا تـرى ردَّ مـا أعـرتُـكَ نَفْـلاً وترى ردَّ ما استعرْتُكَ فرْضا

قال أبو بكر: ولأجل حبس الكتب امتنع غير واحد من إعارتها، واستحسن آخرون أخذ الرهون عليها من الأصدقاء، وقالوا الأشعار في ذلك.

وعن حمزة الزيات قال: لا تأمنَنَّ قارئاً على صحيفة، ولا حمَّالاً على حبل. وعن علي بن قادم قال: سمعت سفيان الثوري يقول: لا تُعِرْ أحداً كتاباً. وعن أحمد بن إبراهيم الشيباني قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: كتب إليَّ البُوَيْطي: احفظ كتبك، فإنه إن ذهب لك كتاب لم تجد بدلَه.

الإعارة بالرهن:

أنشد أبو الحسن محمد بن أحمد بن رزق، لأبي القاسم علي بن الحسن القطيعي:

---

(1) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي والسامع 242/1.

جلَّ قدْرُ الكتابِ يا صاحِ عندي فهو أغلى من الجواهرِ قَدْرا
لستُ يوماً مُعيرَهُ من صديقٍ لا ولا مـن أخٍ أحـاذِرُ غَـدْرا
ما على من يصونهُ من مَلامٍ بل له العذرُ فيه سِرّاً وجَهْراً
لـن أعيـرَ الكتـابَ إلا بـرهْـنٍ من نفيسِ الرهونِ تبْراً ودُرّاً

وقال محمد بن خلف، أُنشِدتُ:

أعِـــرِ الـــدفتــرَ للصـــا حـبِ بـالـرهـنِ الـوثيـقِ
إنـــهُ ليـــس قبيحـــاً أخـذُ رهْـنٍ مـن صـديـقِ

وعن محمد بن خلف قال، أنشِدتُ:

أيهـا المستعيـرُ منِّـي كتـابـاً إنْ رددتَ الكتابَ كان صوابا
أنـتَ واللـهِ إنْ رددتَ كتـابـاً كنتَ أُعْطيتَهُ أخذْتَ كتابا(1)

التعجيل برد الكتاب:

ذكر أبو خازم محمد بن الحسين الفرَّاء، أن أبا الحسين علي بن أحمد الجُورْدكي أنشدهم لنفسه بالبصرة:

يـا مـن يـرومُ كتـابـي لنَسْخِـــــــه إنْ أرادَهُ
أو رغبـــةٍ فـــي اطِّـــلاعٍ يبغـــي بـــذاكَ الـــزيـــادهْ
تَـــوَقَّ فيـــهِ خصـــالاً تســـويـــدَهُ وفســـادَهْ
ونَـــلْ مُـــرادَكَ منـــهُ بـــالفكـــرِ والاستعـــادهْ
فـــالعلـــمُ للمـــرء يُحْيـــي تـــامـــورَهُ وفُـــؤادَهُ
لا تقصـــدَنَّ التـــوانـــي أمـــانـــةً كـــالقِـــلادَهْ
إذا فـــرغـــتَ فـــأسْـــرِعْ بِـــهِ إلـــى الإعـــادَهْ
حَـرَّمْـتُ تـأخيـرَ أصلـي مـن غيـر عُـذْرٍ أكـادَهْ

---

(1) السابق 1/244 ـ 245.

فحَبْسُـهُ فِعْـلُ سَـوْءٍ وسُـرْعَـةُ الـرَّدِّ عـادَهْ
رواهُ شيـخٌ مُفِـنٌ عـن معْمَـرٍ عـن قَتَـادَهْ

وذكر أبو خازم أن الجُوردْكي أنشدهم لنفسه أيضاً:

إنَّ المـروءَةَ تـدفـعُ عـن حبْسِ جُـزْءٍ وتمنـعْ
والحـرُّ فيـهِ اقتصـادٌ يـرومُ نسخـاً ويَقْنَـعْ
يُعَجِّـلُ الـردَّ حتَّـى يصيـرُ فـي الغَيْـرِ يشْفَـعْ
والنَّـذْلُ يبغـي التَّـوانـي فـي الغَصْبِ للحُـرِّ يطْمَـعْ
فـدهـرُهُ فـي احتيـالٍ مـن خيـره ليـسَ يشْبَـعْ
إذا اقتُضـي أمَّ بَهْتَـاً بـالمَطْـلِ والمَيْـنِ يـدْفَـعْ
لا العَتْـبُ ينجـحُ فيـهِ والاقْتِضَـا ليـسَ يَنْفَـعْ
لا بـارِكَ اللَّـهُ فيـهِ وبِئْـسَ مـا هـو يصْنَـعْ[1]

قال أبو أحمد عبدالسلام بن علي المؤدب، أنشدنا أبو مزاحم الخاقاني:

ما أنتَ في سعةٍ من حبْسِ دفترِنا بل أنت من حَبْسِهِ في أضيقِ الحَرَجِ
عذَّبْتَ قلبي بالتعليقِ منك لهُ وما أرى لك من عُذْرٍ ولا حُجَجِ
قد كنتَ مستغنياً عن أنْ تبينَ لنا ما أنتَ بيَّنْتَهُ من خُلْقكَ السَّمِجِ
يلقاكَ بالخُلْفِ مَنْ في دِينِهِ عِوَجٌ وليسَ في دينِ أهلِ الصِّدْقِ من عِوَجِ
من يحبسِ الجُزْءَ عمْداً بعدَقوليَ ذا فهـو امـرؤٌ مـا بـهِ قلبـي بمبتهـجِ

قال الشيخ أبو بكر: قرأت على ظهر كتاب لصاحبنا أبي بكر أحمد بن الحسين القطَّان بخطه:

يـا مستعيـرَ كتـابـي إنَّـهُ عَلِـقٌ بمهجتي علق المحبوبِ بالمُهَجِ
انسخهُ واردُدْهُ في حِلٍّ وفي سعةٍ وأنتَ من حبْسِهِ في أضيقِ الحَرَجِ

(1) الجامع لأخلاق الراوي والسامع 1/246، التامور: النفس.

شكر المعيـــر:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)، وعن عبد الرحمن بن عدي الكندي، عن الأشعث بن قيس الكندي، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ أشكرَ الناسِ لله أشكَرهُم للناس)، وعن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من اصطنع إليكم معروفاً فجازوه، فإن عجزتم عن مجازاته فادعوا له، حتى يعلم أنكم قد شكرتم، فإن الله شاكر يحبُّ الشاكرين)[1].

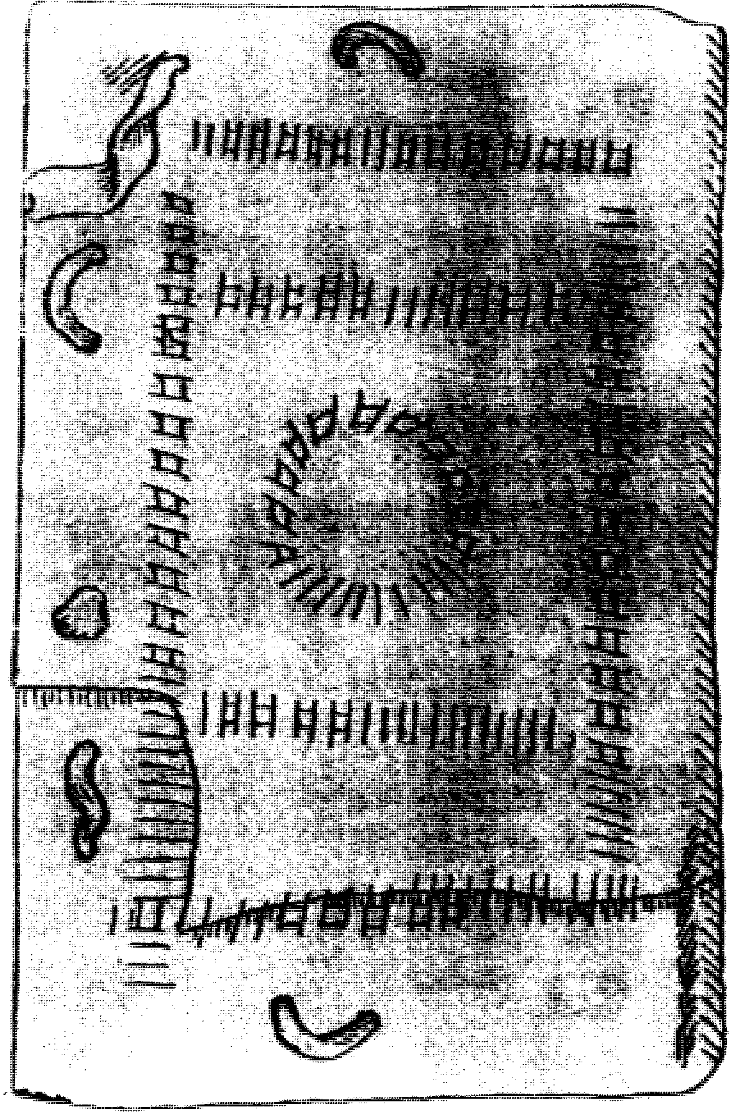
قال محمد بن أحمد بن رزق، سمعت بعض شيوخنا يقول:

قد رَدَدْنا إليكَ أصلحكَ اللّـ ـهُ مع الشكر ما استعرناهُ منكا
ورأينـاكَ أحسـنَ النـاسَ صبـراً واحتمالاً لما حبسْناهُ عَنْكا[2]

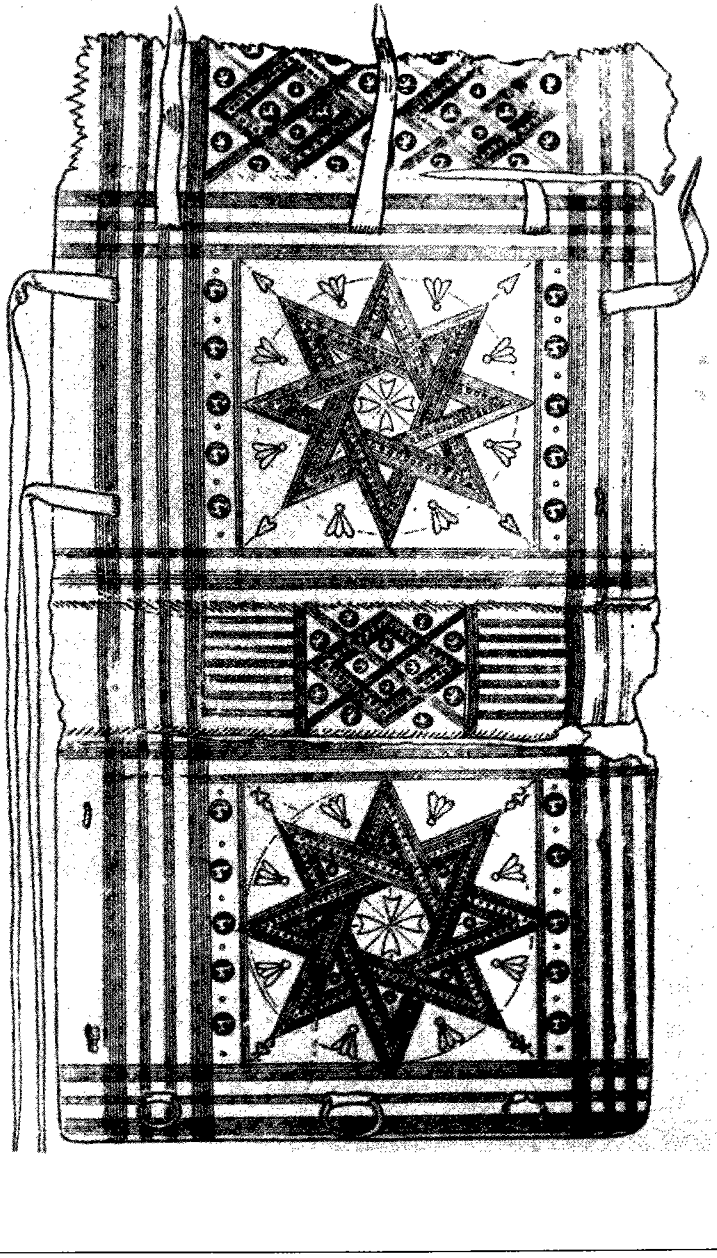
(1) تنظر الأحاديث في: أبو داود: كتاب الأدب، باب في شكر المعروف 4/255، مسند أحمد بن حنبل 5/212، الهيثمي: مجمع الزوائد 8/180 ـ 181، الجامع لأخلاق الراوي والسامع 2/247 ـ 248.
(2) الجامع لأخلاق الراوي والسامع 2/248.

فهـرس اللوحـات

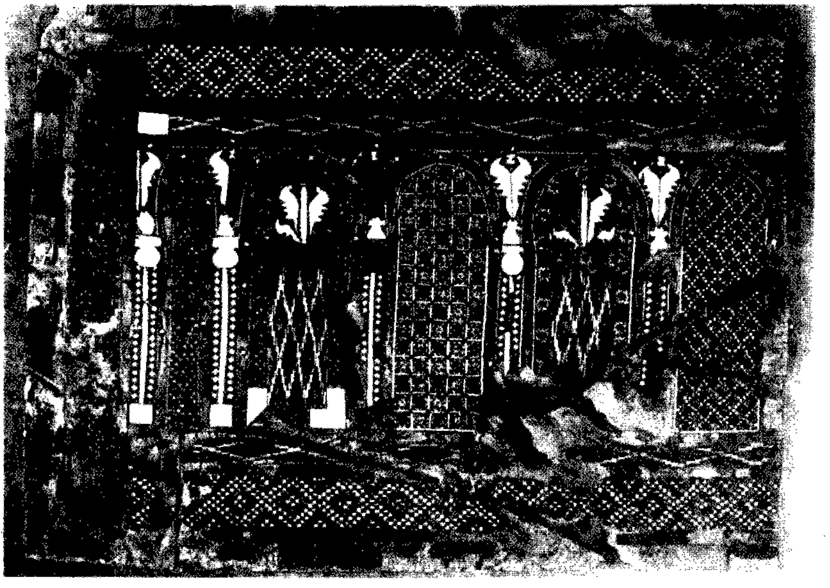
رقم اللوحة	محتوى اللوحة	المصدر
	مثيل لها لديوان يوم منظور وروح محبوسة)	أغاأوغلو
لوحة 14	صفحة من مصحف كتبت بمداد ذهبي وفيها زخارف وتوريق	ديماند
لوحة 15	صفحة من مصحف كتبت بالخط الكوفي	ديماند
لوحة 16	فرسان يستعدون للمهرجان من كتاب مقامات الحريري رسم اللوحة يحيى الواسطي ق 13 م	كروهمان
لوحة 17	صفحة من كتاب عجائب المخلوقات للقزويني فيها رسم ملائكة، إيراني الأسلوب	ديماند
لوحة 18	الصفحة الأولى لمخطوطة المنظومات الخمس لنظامي	ديماند
لوحة 19	ورقة من مخطوطة كلستان لسعدي الشيرازي فيها رسومات نباتية وآدمية مذهبة	ديماند
لوحة 20	طغراء مذهبة لفرمان السلطان سليمان القانوني	ديماند
لوحة 21	مجلس الغربان من كتاب كليلة ودمنة ق 13 م	كروهمان
لوحة 22	زيارة إلى قرية من كتابات مقامات الحريري رسم يحيى الواسطي من ق 13 م	كروهمان
لوحة 23	جنازة اسفنديار من كتاب الشاهنامة	ديماند
لوحة 24	خسرو وشيرين من مخطوطة المنظومات الخمس لنظامي من ق 15 م	ديماند
لوحة 25	النبي يونس والحوت من مخطوطة جامع التواريخ لرشيد الدين من ق 15 م	ديماند
لوحة 26	الدراويش يجادلون سلطان سوريا من مخطوطة البستان لسعدي الشيرازي ق 16 م	ديماند



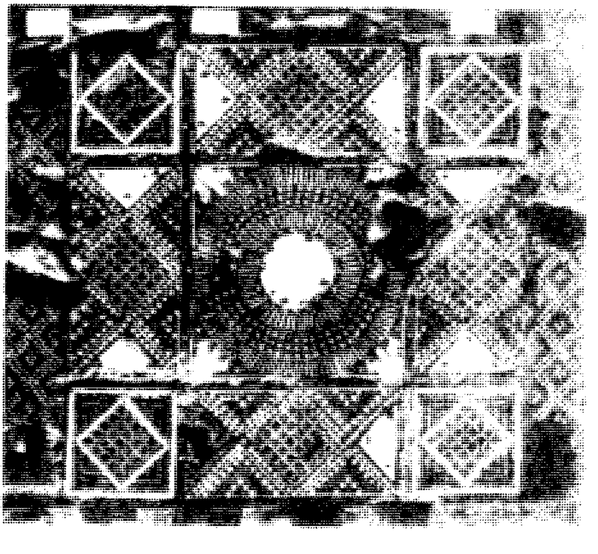
(لوحة 1) غلاف كتاب الصلاة والتعاويذ من مجموعة مستر لايدن ق 5 م



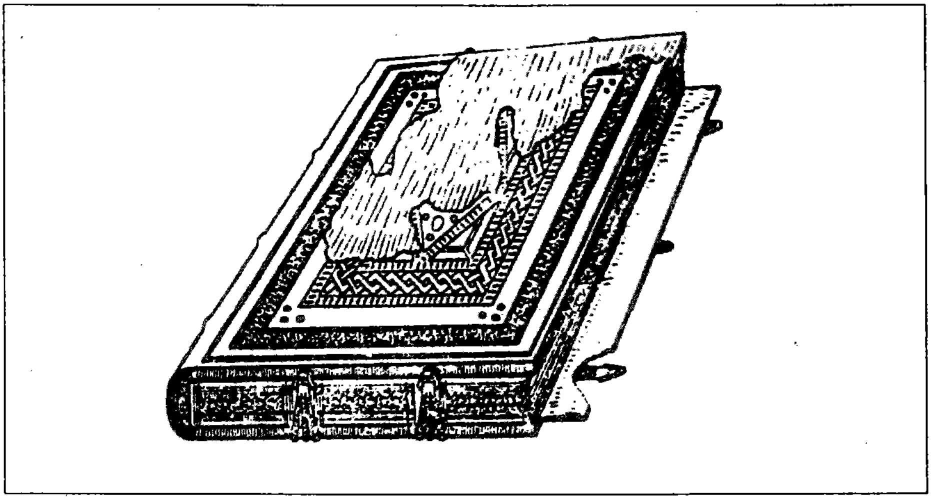
(لوحة 2) غلاف من جلد أحمر من مجموعة جستربتي ق 6 م



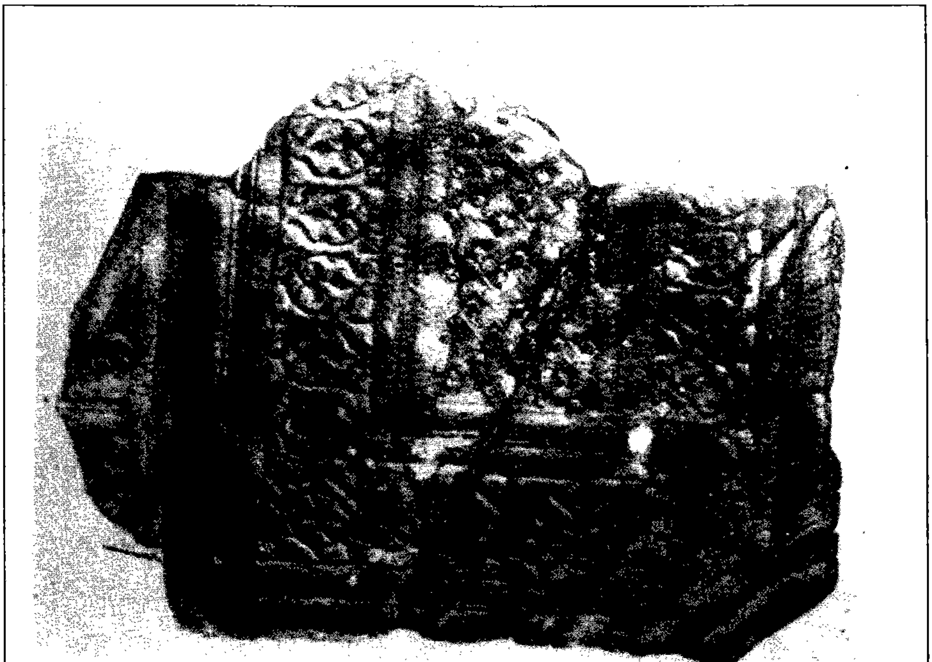
(لوحة 3 أ) غلاف خشبي من مصر



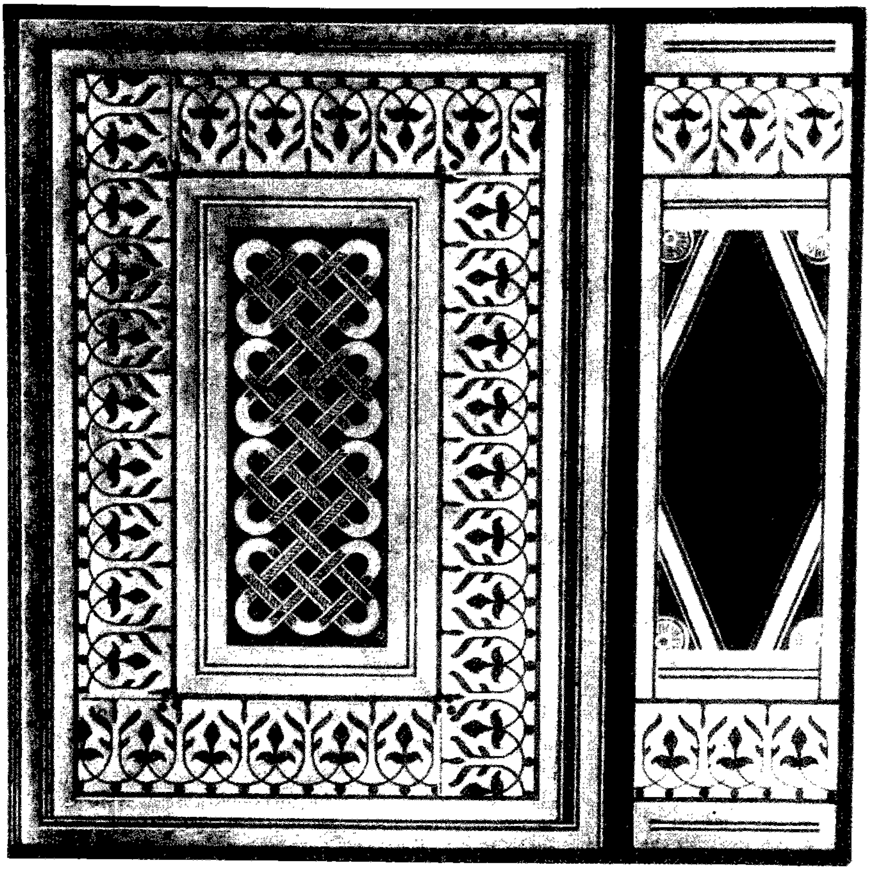
(لوحة 3 ب) باطن غلاف خشبي من مصر



(لوحة 4) غلاف خشبي على هيئة صندوق في متحف الجلود بمدينة باخ بألمانيا من ق 8 م

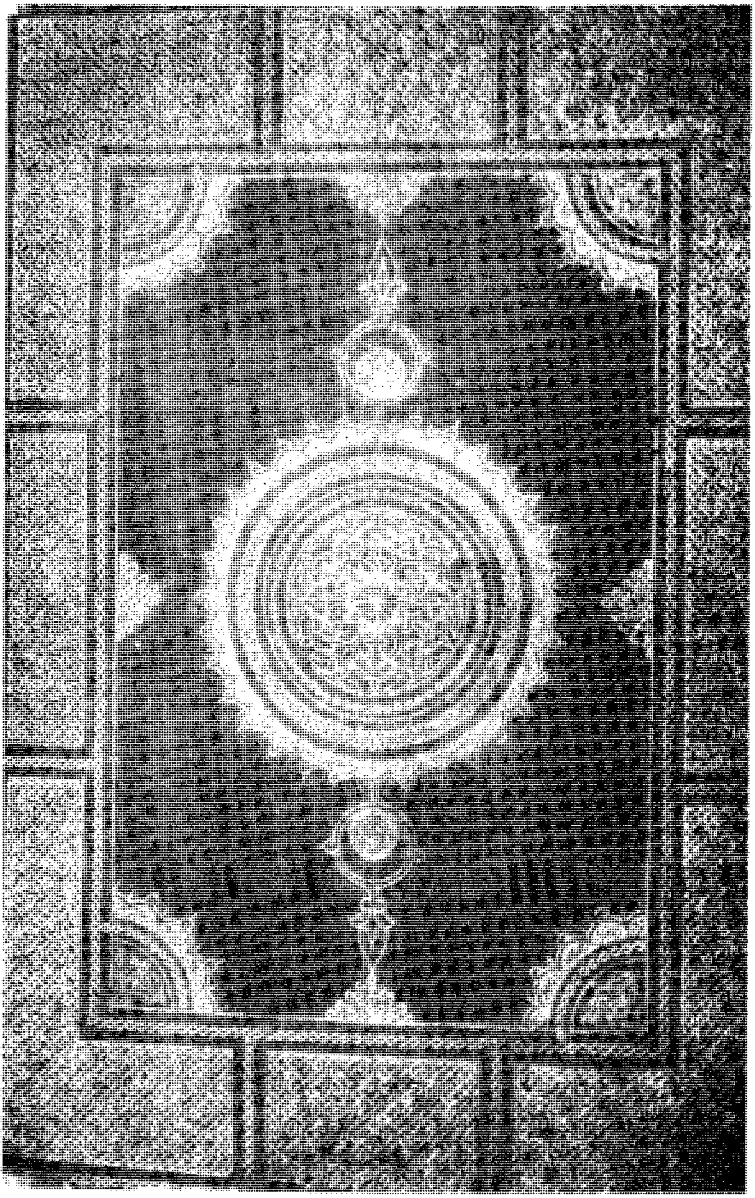


(لوحة 5 أ) جزء من جلدة غلاف من مصر



(لوحة 5 ب)

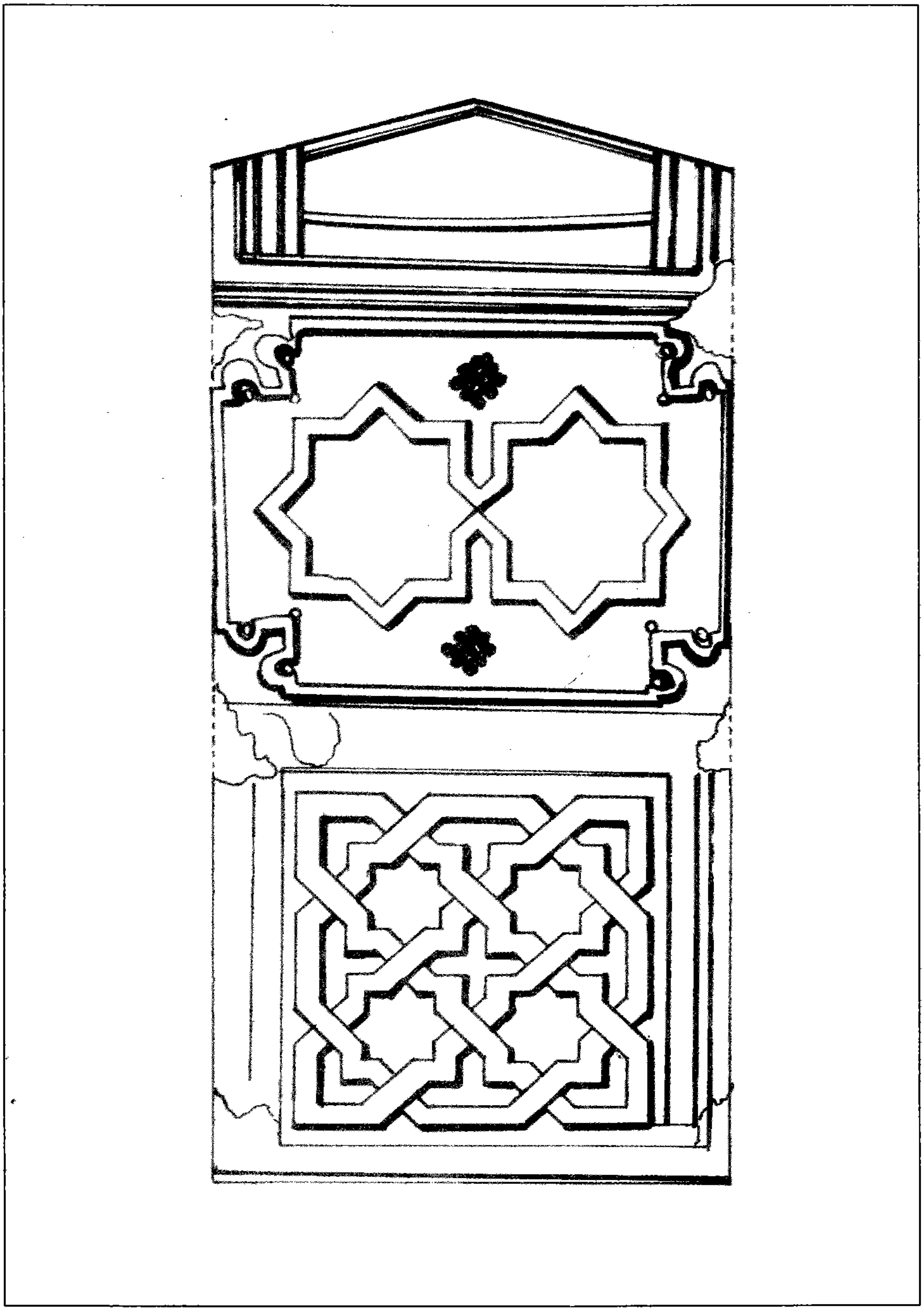
جزء من غلاف مخطوط من مصر



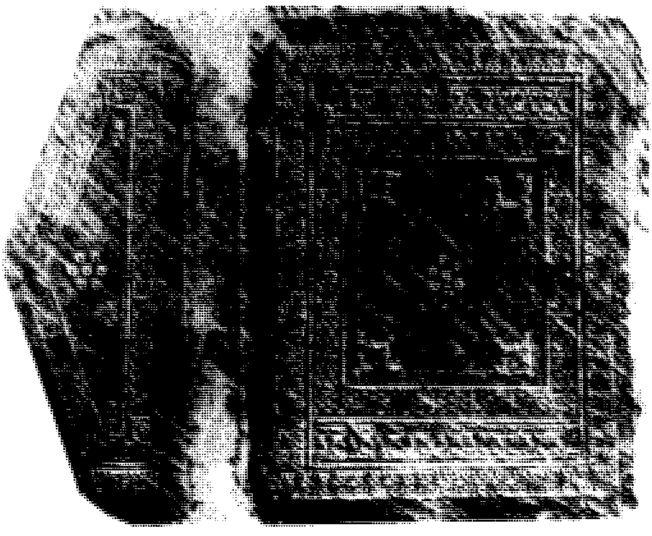
(لوحة 6) غلاف مصحف من مصر

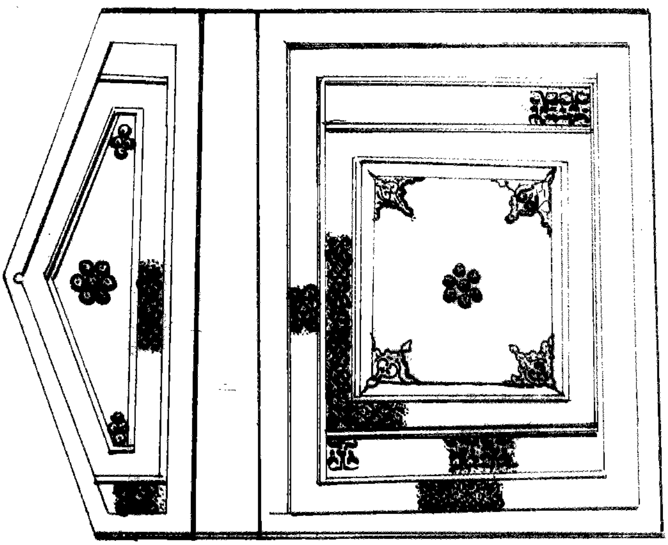


(لوحة 7) غلاف كامل لمخطوط مراكشي

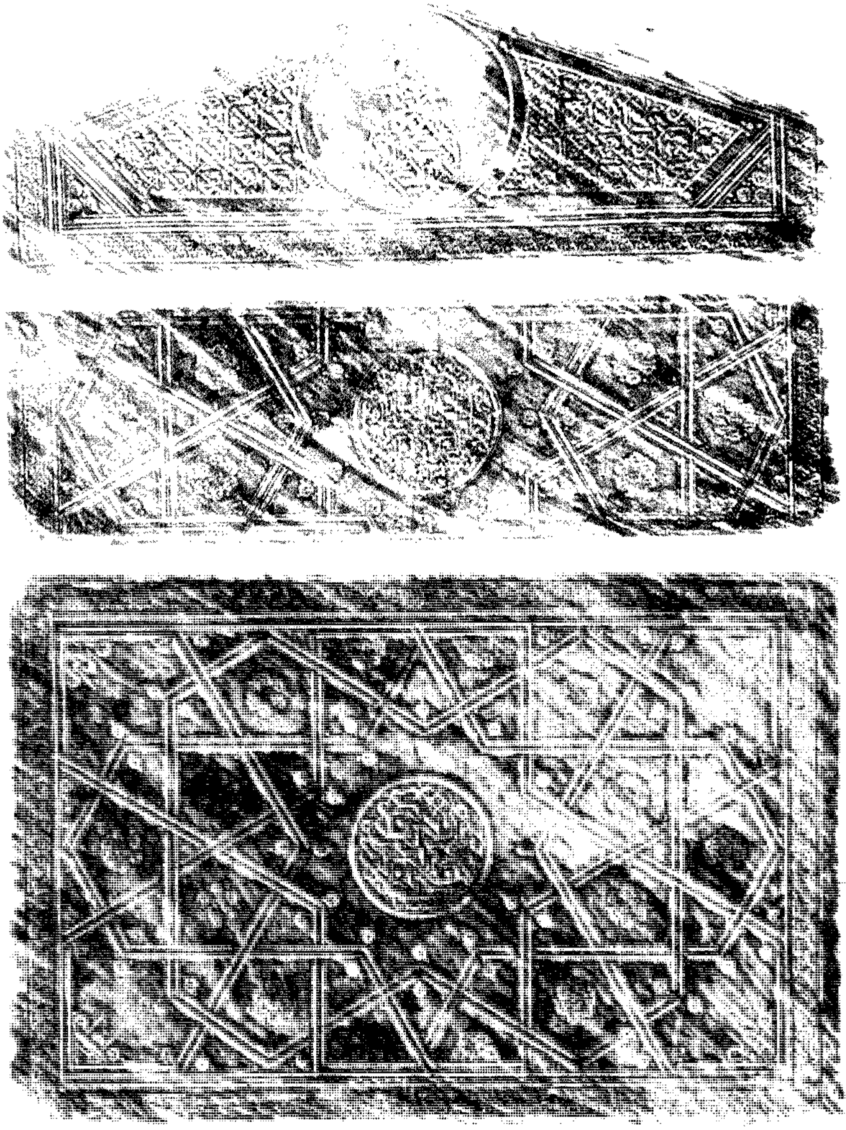


رسم توضيحي للوحة 7

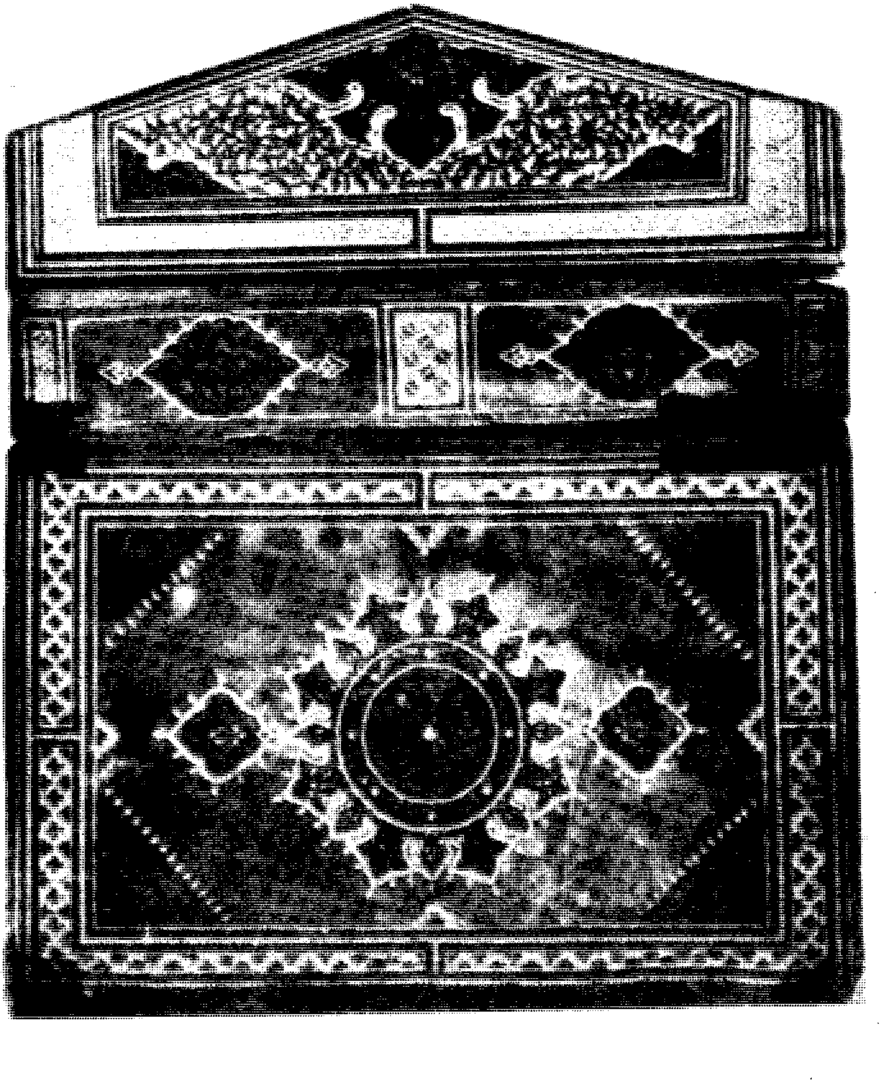




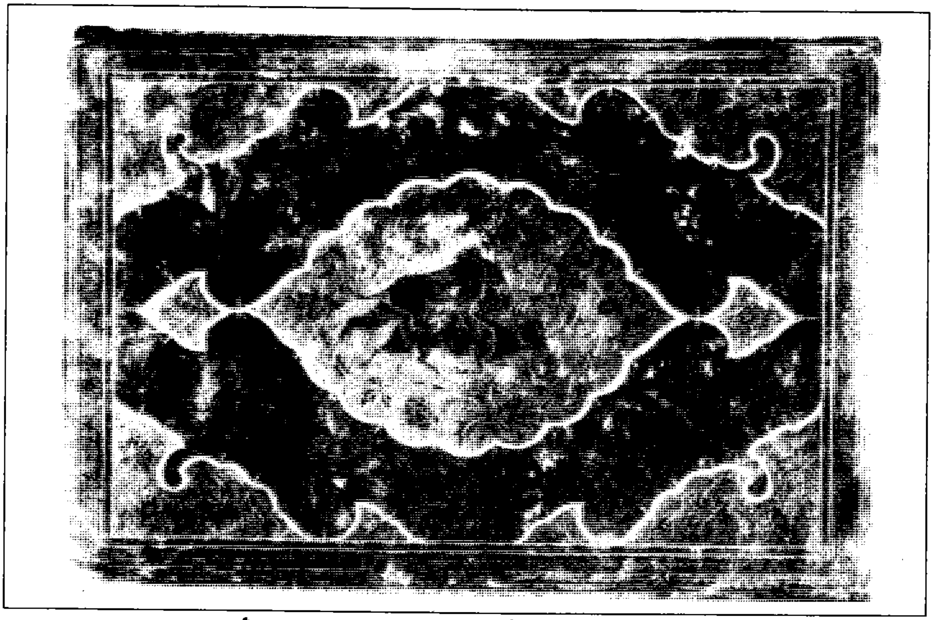
رسم توضيحي للوحة 8



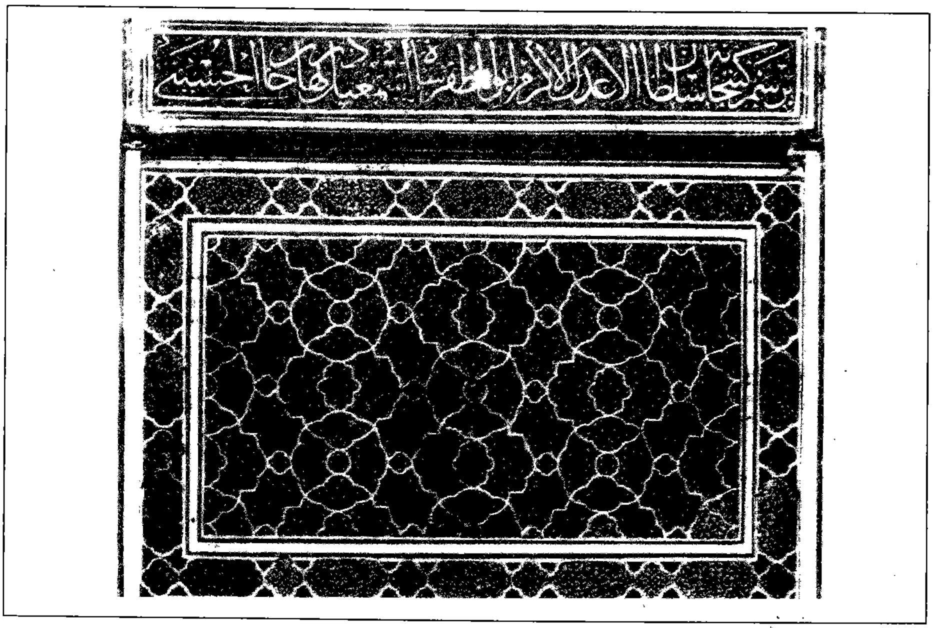
(لوحة 9) لسان غلاف مخطوط من مصر



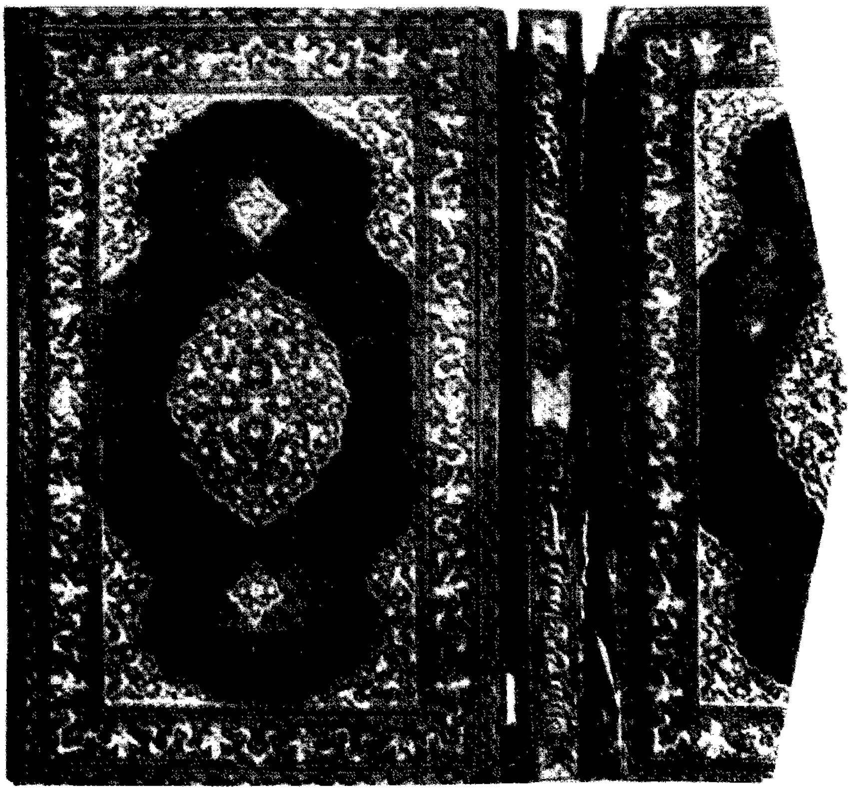
(لوحة 10) باطن غلاف مخطوط من يزد



(لوحة 11) الجانب الأيسر لغلاف مخطوط من أصفهان

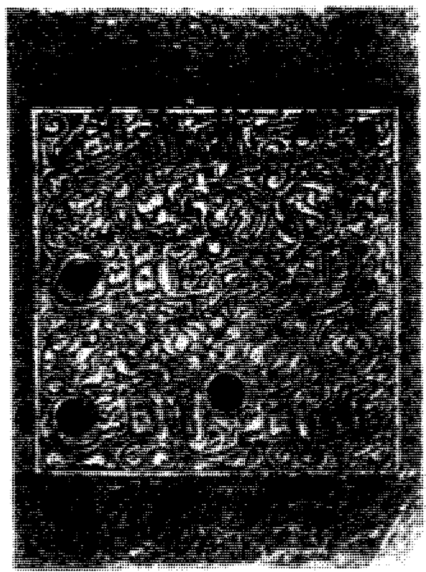


(لوحة 12) الجانب الأيسر لغلاف مصحف للسلطان إسماعيل الصفوي

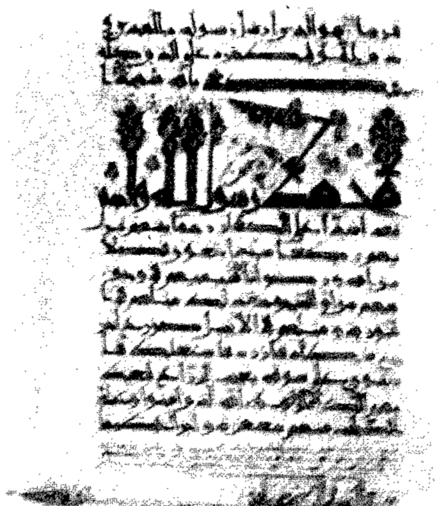


(لوحة 13)

غلاف من مكتبة جامعة استانبول مطرز بخيوط حريرة كتب على رابطته ما ترجمته: (غلاف منقوش بألوان نفيسة لا مثيل لها لديوان يوم منظور وروح محبوسة).



(لوحة 14) صفحة من مصحف كتبت بمداد ذهبي وفيها زخارف وتوريق



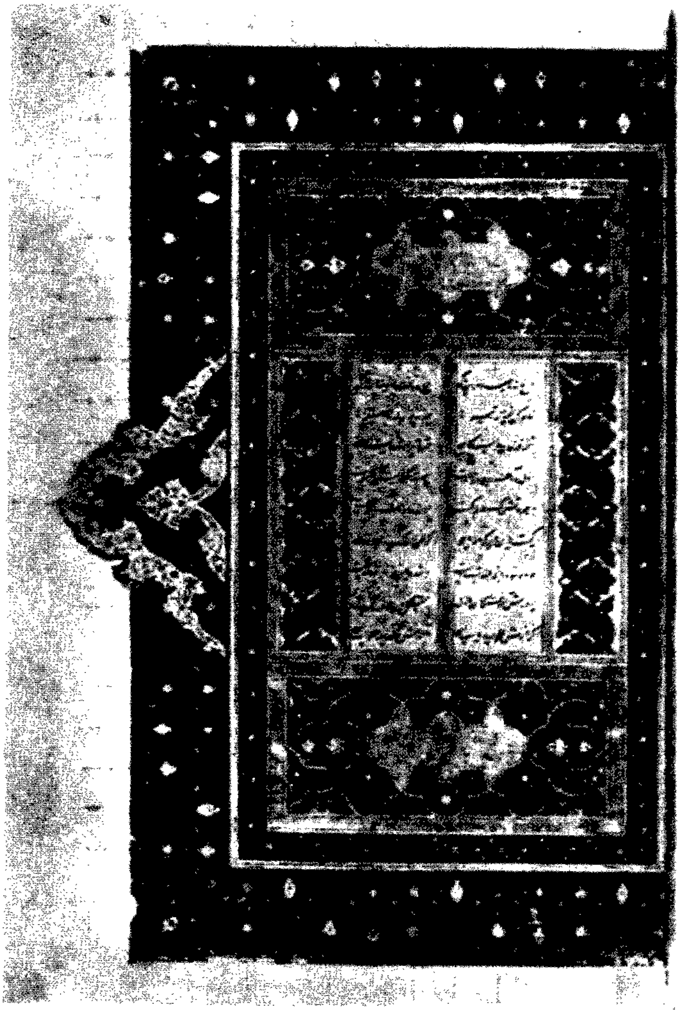
(لوحة 15) صفحة من مصحف كتبت بالخط الكوفي



(لوحة 16) فرسان يستعدون للمهرجان من كتاب مقامات الحريري رسم اللوحة يحيى الواسطي ق 13 م.

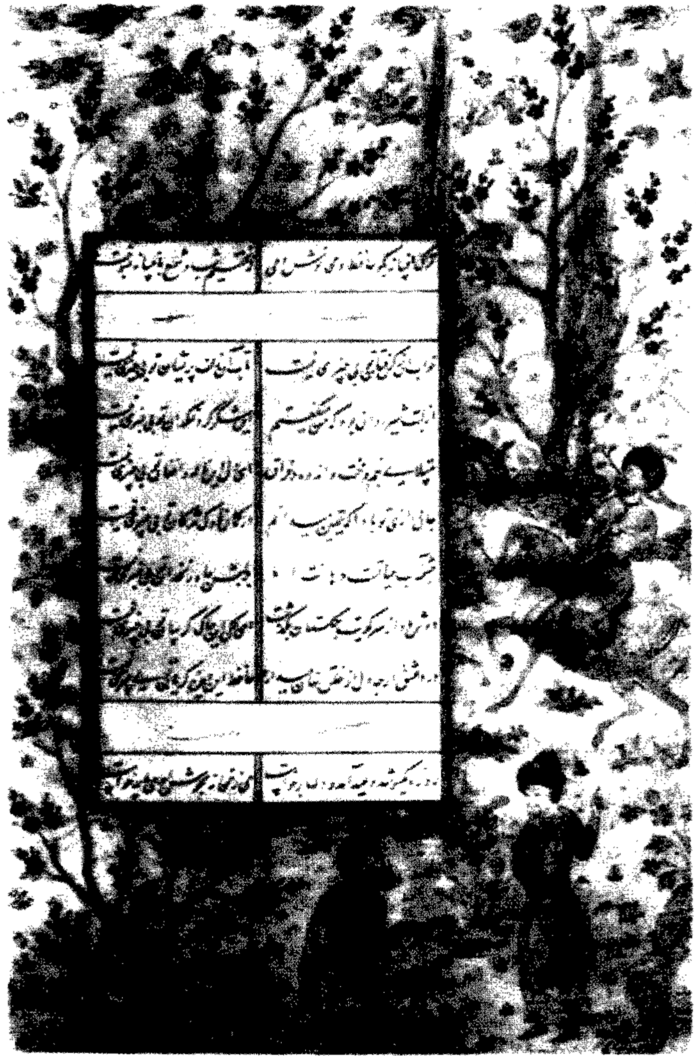


(لوحة 17) صفحة من كتاب عجائب المخلوقات للقزويني فيها رسم ملائكة، إيراني الأسلوب.



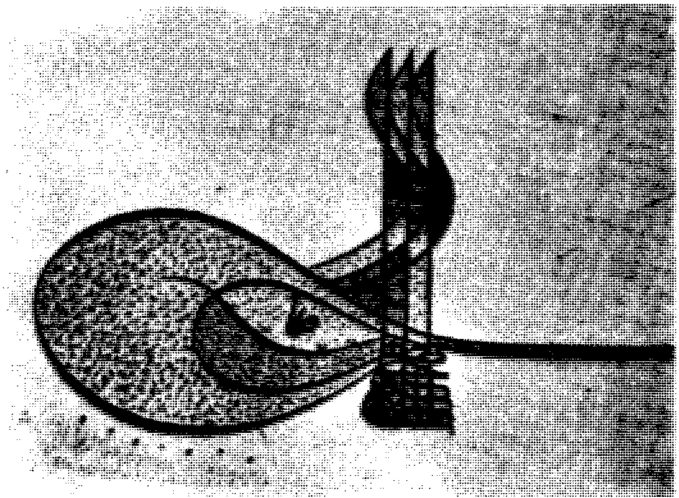
(لوحة 18)

الصفحة الأولى لمخطوطة المنظومات الخمس لنظامي.

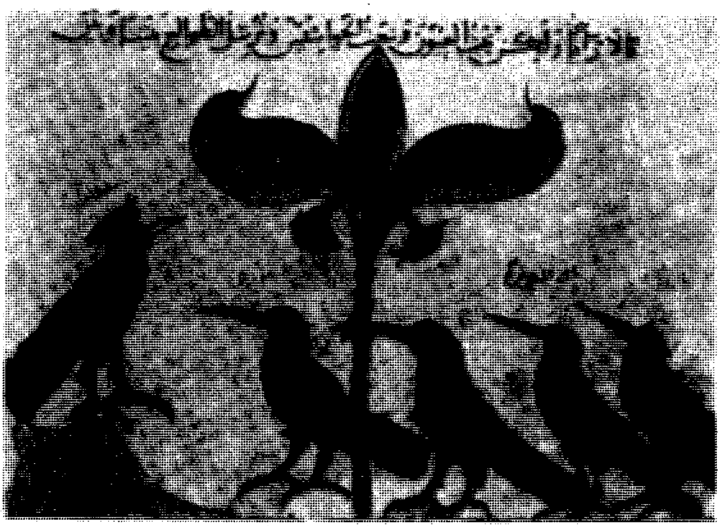


(لوحة 19)

ورقة من مخطوطة كلستان لسعدي الشيرازي فيها رسومات نباتية وآدمية مذهبة.



(لوحة 20) طغراء مذهبة لفرمان السلطان سليمان القانوني



(لوحة 21) مجلس الغربان من كتاب كليلة ودمنة ق 3 م



(لوحة 22) زيارة إلى قرية من كتاب مقامات الحريري رسم يحيى الواسطي من ق 13 م



(لوحة 23) جنازة اسفنديار من كتاب الشاهنامة

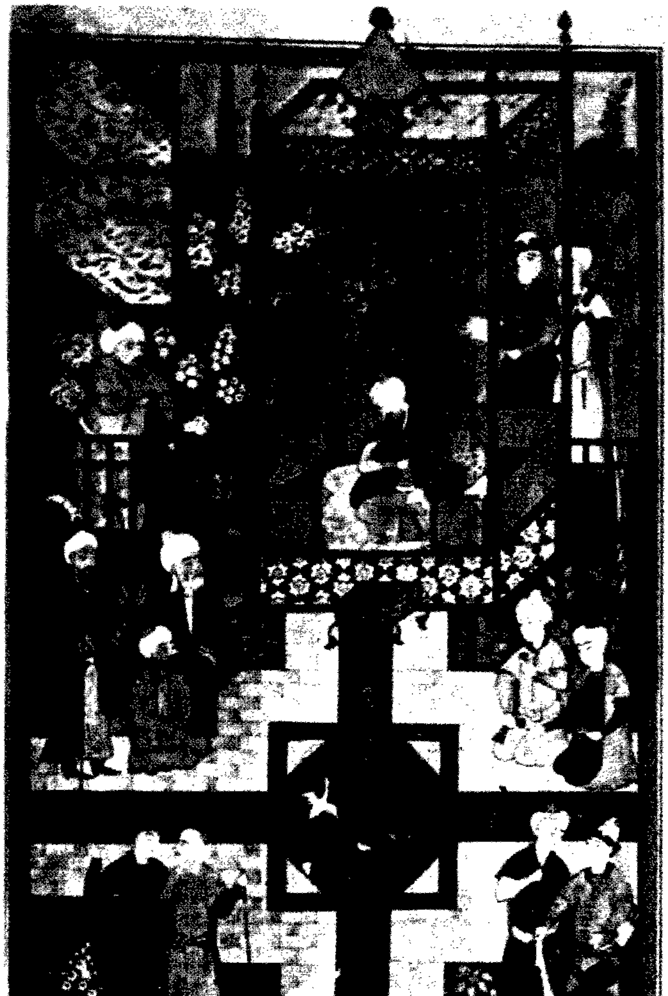


(لوحة 24) خسرو وشيرين من مخطوطة المنظومات الخمس لنظامي من ق 15 م



(لوحة 25)

النبي يونس والحوت من مخطوطة جامع التواريخ لرشيد الدين من ق 15 م.



(لوحة 26)

الدراويش يجادلون سلطان سوريا من مخطوطة البستان لسعدي الشيرازي ق 16 م.

فهرس المصادر والمراجع

*** آدي شير:**

- الألفاظ الفارسية المعربة، ط الكاثوليكية، بيروت 1908 م.

*** آربري: ارثر:**

- تراث فارس، نقله إلى العربية محمد كفافي وآخرون، ط القاهرة، دار إحيار الكتب العربية 1959 م.

*** آغا برزك: محمد حسن بن علي الشهير بالشيخ آغا برزك الطهراني (ت 1389 هـ):**

- الذريعة إلى تصانيف الشيعة (عشرون جزءاً) ط النجف 1355 هـ/ 1936 م).

*** الأثري: محمد بهجة:**

- الخطاط البغدادي علي بن هلال، القسم الثاني تحقيق الأثري، ط المجمع العلمي العراقي، بغداد 1377 هـ/ 1958 م.

*** ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد (ت 630 هـ)**

- الكامل في التاريخ، ط صادر، بيروت 1966 م.
- اللباب في تهذيب الأنساب، ط مصر 1356 هـ.

*** أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم (ت 1373 هـ/ 1954 م):**

- ضحى الإسلام، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 35 - 1936 م.
- فجر الإسلام، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1942 م.

*** أحمد حسين شرف الدين:**

ـ اللغة العربية في عصور ما قبل التاريخ، ط القاهرة 1975 م.

*** أحمد فخري:**

ـ اليمن ماضيها وحاضرها، ط القاهرة 1957 م.

*** أحمد بن يوسف: الكاتب أبو جعفر (ت 334 هـ):**

ـ المكافأة، ط القاهرة 1941 م.

*** الأدفوي: كمال الدين جعفر بن تغلب (ت 748 هـ):**

ـ الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، ط القاهرة 1914 م.

*** الأربلي: عبد الرحمن بن إبراهيم (ت 717 هـ):**

ـ خاصة الذهب المسبوك، ط بيروت 1885 م، وط بغداد 1968 م.

*** أرسطو (ت 322 ق. م):**

ـ علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، ط القاهرة 1924 م.

ـ فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة وتحقيق عبدالرحمن بدوي، ط القاهرة 1953 م.

ـ النفس، نقله إلى العربية أحمد فؤاد الأهواني، راجعه على اليونانية جورج شحاتة، ط القاهرة 1949 م.

*** أرنولد: توماس (ت 1349 م):**

ـ تراث الإسلام، ترجمة زكي محمد حسن، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1936 م، وترجمة جرجيس فتح الله، جزآن ط سنة 1954.

*** الأزدي: علي بن ظافر (ت 613 هـ):**

ـ بدائع البدائه، ط القاهرة 1278 هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصر 1970 م.

*** الأزهري: محمد بن أحمد (ت 370 هـ):**

ـ تهذيب اللغة، ط القاهرة 64 ـ 1967 م.

* **إسحاق: رفائيل بابو:**
- أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، ط بغداد 1960 م.
* **الأسد: ناصر الدين:**
- مصادر الشعر الجاهلي، ط دار المعارف، مصر 1956 م.
* **الإشبيلي: بكر بن إبراهيم:**
- كتاب التيسير في صناعة التسفير، نشره عبدالله كنون، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع.
* **الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (ت 360 هـ):**
- الأغاني، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1927م، ط ساسي، القاهرة 1905م.
* **الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت 430 هـ):**
- حلية الأولياء، ط السعادة، مصر 1938 م.
* **الاصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت 341 هـ):**
- مسالك الممالك، ط ليدن 1927 م.
* **الأصفهاني: حمزة بن الحسن (ت 360 هـ):**
- سني ملوك الأرض، ط برلين 1340 هـ.
* **ابن أبي أصيبعة: أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت668هـ):**
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق موللر، ط القاهرة 1884 م، تحقيق نزار رضا، ط بروت 1965 م.
* **أفرام نقاشة (المطران):**
- عناية الرحمن في هداية السريان، ط بيروت 1910 م.
* **الأنباري: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعد (ت 577 هـ):**
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق عطية عامر، ط الكاثوليكية، بيروت 1963 م.
* **الأندلسي = صاعد الأندلسي:**
- الأنطاكي: داود بن عمر (ت 1008 هـ): تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، دون تاريخ أو مكان الطبع.

* **الأنطاكي: يحيى بن سعيد بن يحيى (ت 458 هـ):**
ـ تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ملحق بكتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لسعيد البطريق، ط الآباء اليسوعيين، بيروت 1909 م.
* **الأهواني: أحمد فؤاد:**
ـ الكندي فيلسوف العرب، ط القاهرة د. ت.
* **أوليري: دي لاسي:**
ـ علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب كامل، ط القاهرة 1962 م.
ـ الفكر العربي ومكانه في التاريخ. ترجمة تمام حسان، ط القاهرة 9161 م.
ـ مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ترجمة تمام حسان، ط القاهرة 1957 م.
* **ابن إياس: محمد بن أحمد (ت 930 هـ):**
ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط القاهرة 1311 هـ.
* **بارتولد: ف. ف:**
ـ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط القاهرة 1958 م.
* **البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ):**
ـ صحيح البخاري، ط بولاق، القاهرة 1311 ـ 1312 هـ.
* **بدوي: عبد الرحمن:**
ـ الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، ط القاهرة 1954 م.
ـ دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ط بيروت 1965 م.
ـ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ط القاهرة 1946 م.
* **البديعي: يوسف البديعي قاضي الموصل (ت 1073 م):**
ـ هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام، نشره محمود مصطفى، ط مصر 1352هـ 1934 م.
* **برانق: محمد أحمد:**
ـ البرامكة في ظل الخلفاء، ط القاهرة 1971.

* **برهام: عبد العزيز:**

- الفكر الإسلامي الحر وآثاره في النهضة الأوربية، ط الإسكندرية 1962 م.

* **بروكلمان: كارل (1868 ـ 1956 م):**

- تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبدالحليم النجار (الجزء الأول) ط دار المعارف مصر 1961 م، وترجمة رمضان عبد التواب (الجزء الثاني) ط دار المعارف مصر 1977 م.

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط دار العلم للملايين، بيروت 1950 م.

* **ابن بشكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود الخزرجي الأندلسي (ت 578 هـ):**

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955 م.

* **البغدادي: سماعيل باشا بن محمد أمين الباباني (ت 1339 هـ):**

- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ط وكالة المعارف الجليلة، استانبول 51 ـ 1955 م.

* **البغدادي: عبدالقادر بن عمر (ت 1093 هـ):**

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ط القاهرة 1299 هـ.

* **البكري أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (478 هـ):**

- سمط اللآلي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1936 م.

* **البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ):**

- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، ط دار المعارف، مصر 59 ـ 1962 م.

- فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960 م.

* **البلوي: يوسف بن محمد (ت 604 هـ):**

- ألف باء، ط مصر 1287 هـ.

* **البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440 هـ):**

- الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط ليبسك 1923 م.

- تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، ط أنقرة 1962 م.

- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ط حيدرأباد، الهند 1957 م.

* **البيهقي: إبراهيم بن محمد (ت حوالي 320 هـ):**

- المحاسن والمساوىء، تحقيق أبي الفضل، ط نهضة مصر، القاهرة 1961 م.

* **البيهقي: أبو فضل محمد بن حسين (ت 470 هـ):**

- تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب، ط القاهرة 1956 م.

* **البيهقي: ظهير الدين أبو الحسن علي (ت 565 هـ):**

- تاريخ حكماء الإسلام، ط دمشق 1946 م.

- تتمة صوان الحكمة، ط لاهور 1351 هـ.

* **ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 874 هـ):**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1929 م.

* **التنوخي: القاضي المحسن بن علي بن محمد البصري (ت 384 هـ):**

- نشوار المحاضرة، ط مرجليوث، القاهرة 1921 م.

* **التهانوي: محمد علي (ت 1158 هـ):**

- كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، ط كلكتا 1862 م، وط مكتبة لبنان، بيروت 1996 م.

* **التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد (ت 400 هـ):**

- رسالة علم الكتابة، نشرها فرانز رونتال في مجلة إسلاميكا، جامعة ميتشكان 1948 م، ونشرت باسم (رسالة في الخط، ضمن ثلاث رسائل)

تحقيق إبراهيم الكيلاني، ط المعهد الفرنسي، دمشق 1951 م، ونشرت باسم (رسالة الكتابة المنسوبة) نشرها خليل محمود عسكر، في مجلة معهد المخطوطات العربية.

- مثالب الوزيرين، تحقيق إبراهيم الكيلاني، ط دمشق 1961 م.

* **تيمور: أحمد بن إسماعيل (ت 1348 هـ):**

- التصوير عند العرب، تعليق زكي محمد حسن، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1942 م.

* **الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت 429 هـ):**

- يتيمة الدهر، تحقيق محمد الصاوي، ط القاهرة 1934 م.
- النهاية في التعريض والكناية، ط مصر.

* **الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ):**

- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ط دار الكاتب المصري، القاهرة 1948 م.
- البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 48 ـ 1950 م.
- التاج في أخلاق الملوك (وقيل إنه منسوب للجاحظ) نشره أحمد زكي، ط مصر 1914 م.
- التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، ط الرحمانية، القاهرة 1935 م.
- الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، ط الحلبي، مصر 1967 م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة 1965 م.

* **الجبرتي: عبد الرحمن بن حسن (ت 1237 هـ):**

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط القاهرة 1322 هـ.

* **الجبوري: يحيى وهيب:**

- الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994 م.

ـ المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997 م.
* **ابن الجراح: محمد بن داود (ت 296 هـ):**
ـ من اسمه عمرو من الشعراء في الجاهلية والإسلام، نشر قسماً منه الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب، الرياض، أجزاء سنة 1389 هـ/ 1969 م.
* **جروهمان: أدولف:**
ـ أوراق البردي العربية، نقله إلى العربية حسن إبراهيم وعبدالحميد حسن، ط القاهرة 1934 م.
* **ابن الجزري: أبو الخير شمس الدين محمد بن محمد الدمشقي الشافعي (ت 833 هـ):**
ـ غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق برجستراسر، ط القاهرة 33 ـ 1935 م.
* **ابن جلجل: أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت 384 هـ):**
ـ طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، ط المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1955 م.
* **ابن جماعة: بدر الدين محمد بن إبراهيم (ت 733 هـ):**
ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ط حيدرأباد، الهند 1353 هـ.
* **جمعة: إبراهيم:**
ـ دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، المطبعة العالمية، القاهرة 1969 م.
* **الجميلي: رشيد:**
ـ حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الرابع والخامس للهجرة، ط وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1986 م.
* **الجندي: علي الجندي وآخرون:**
ـ أطوار الثقافة والفكر، ط القاهرة 1959 م.

* **الجهشياري: محمد بن عبدون (ت 331 هـ):**
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط الحلبي، القاهرة 1938 م.
* **جواد وسوسة: مصطفى جواد وأحمد سوسة:**
- دليل خارطة بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد 1378 هـ/ 1958 م.
* **ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ):**
- صيد الخاطر، ط القاهرة 1927 م.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ط مصر 1359 هـ.
- مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبعة السلام، بغداد 1342 هـ.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط حيدرأباد، دائرة المعارف العثمانية 1357 هـ.
* **حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله (ت 1071 هـ):**
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط وكالة المعارف، استانبول 41 ـ 1943 م.
* **حبي: يوسف:**
- حنين بن إسحاق، ط بغداد 1974 م.
* **ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي (ت 245 هـ):**
- المحبر، ط الهند 1942 م.
* **حتي: فيليب:**
- تاريخ العرب (مطول)، ط بيروت 1965 م.
- العرب تاريخ موجز، ط بيروت 1965 م.
- موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحة، ط بيروت 1970.

* **ابن حجة: أبو بكر بن علي بن عبدالله الحموي (ت 837 هـ):**
- ثمرات الأوراق، ط القاهرة 1339 هـ.
* **ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت 852 هـ):**
- الإصابة في تمييز الصحابة، ط القاهرة 23 ـ 1327 هـ.
- تهذيب التهذيب، ط دائرة المعارف النظامية، حيدرأباد، الهند 1325 ـ 1327 هـ.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ط حيدرأباد، الهند 45 ـ 1950 م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط القاهرة 1348 هـ.
- لسان الميزان، ط حيدر أباد، الهند 1331 هـ.
* **ابن أبي الحديد: عز الدين عبدالحميد بن هبة الله بن محمد (ت 656 هـ):**
- شرح نهج البلاغة، ط دار الفكر، بيروت 1956.
* **الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري (ت 516 هـ):**
- مقامات الحريري، ط ساسي، وط باريس 1947 م.
* **حسن إبراهيم حسن:**
- الفاطميون في مصر، ط القاهرة 1932 م.
* **حسن الباشا:**
- التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1959 م.
* **حسن: زكي محمد (ت 1376 هـ/ 1957 م):**
- أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، ط القاهرة 1956 م.
- الصين وفنون الإسلام، مطبعة المستقبل، القاهرة 1948 م.
- فنون الإسلام، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1948 م.
- الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1946 م.
- مدرسة بغداد في الفن الإسلامي.

* **حسن: محمد عبد الغني:**
- فن الترجمة في الأدب العربي، ط القاهرة 1966 م.
* **حسين نصار:**
- نشأة التدوين التاريخي عند العرب، ط القاهرة 1966 م.
* **الحصري: إبراهيم بن علي القيرواني (ت 453 هـ):**
- زهر الآداب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط القاهرة 1373 هـ/ 1953 م.
* **الحكيم: أسعد مظفر الدين:**
- علم الترجمة النظري، ط دمشق 1989 م.
* **الحلبي: محمد راغب الطباخ (ت 1370 هـ):**
- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط سنة 1342 هـ.
* **الحلوجي: عبد الستار:**
- المخطوط العربي منذ نشأته إلى القرن الرابع الهجري، ط جامعة محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض 1368 هـ/ 1978 م.
* **الحموي = ياقوت الحموي.**
* **الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن عماد (ت 1089 هـ):**
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط القاهرة 1350 هـ.
* **حنين بن إسحاق = العبادي**
* **ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل (ت 380 هـ):**
- المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، أو (كتاب صورة الأرض)، ط كريمرز، ليدن 1938 م.
* **ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان القيسي (ت 535 هـ):**
- قلائد العقيان، ط سليمان الحرائري، باريس 1277 هـ، وط مصر 1283 هـ.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلَح أهل الأندلس، ط الجوائب 1302 هـ.

* **الخربوطلي: علي:**
- المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ط القاهرة 1970 م.
* **ابن خرداذبة: أبو القاسم عبدالله بن أحمد (ت 300 هـ):**
- المسالك والممالك، نشر دي غويه، ط ليدن 1889 م.
* **الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ):**
- تاريخ بغداد، ط مكتبة الخانجي، القاهرة 1349 هـ/ 1931 م.
- تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، ط المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1949 م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، ط مكتبة المعارف، الرياض 1403 هـ/ 1983 م.
* **الخطيب: محب الدين:**
- الحديقة، ط القاهرة 1348 م.
* **ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت 808 هـ):**
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط بولاق، القاهرة 1284 هـ.
- مقدمة ابن خلدون، بعناية كاترمير، ط باريس 1858 م، وتحقيق علي عبد الواحد وافي، ط لجنة البيان العربي، القاهرة 57 ـ 1962 م، وط بيروت 1956 م.
* **ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 981 هـ):**
- وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط السعادة مصر 1367 هـ/ 1948 م.
* **الخوارزمي: محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت 387 هـ):**
- مفاتيح العلوم، ط القاهرة 1342 م.
* **الخوارزمي: محمد بن موسى (ت 236 هـ):**
- الجبر والمقابلة، تقديم وتعليق على مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد، ط القاهرة 1939 م.

* **الخوانساري: محمد باقر الموسوي الأصبهاني (ت 1313 هـ):**
- روضات الجنان في أحوال العلماء والسادات، ط طهران 1367 هـ.
* **خودا بخش: صلاح الدين:**
- الحضارة الإسلامية، ط القاهرة 1960 م.
* **ابن الخياط: أحمد بن محمد بن علي التغلبي (ت 517 هـ):**
- ديوان ابن الخياط، ط النجف 1343 هـ.
* **دال: سفند:**
- تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة صلاح الدين حلمي، ط القاهرة 1958 م.
* **ابن الداية: أحمد بن يوسف الكاتب البغدادي (ت 340 هـ):**
- المكافأة وحسن العقبى، تحقيق محمود محمد شاكر، ط القاهرة 1940 م.
* **ابن الدبيثي: محمد بن سعيد (ت 637 هـ):**
- ذيل تاريخ مدينة السلام، مخطوطة المكتبة الوطنية 5921.
* **ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت 321 هـ):**
- الجمهرة (جمهرة اللغة)، تحقيق كرنكو، ط حيدرأباد، الهند 44 ـ 1351 هـ.
* **الدميري: كمال الدين أبو البقا محمد بن موسى (ت 808 هـ):**
- حياة الحيوان الكبرى، ط القاهرة 1293 هـ.
* **دوزي: رينهارت (ت 1301 هـ/ 1883 م):**
- تكملة المعجمات العربية، ط مكتبة لبنان، بيروت 1981 م.
* **دي بور: ت. ج:**
- تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد أبو ريدة، ط القاهرة 1957 م.
* **ديماند: م. س:**
- الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم أحمد

فكري، ط دار المعارف، مصر 1982 م.
* **الديوه جي: سعيد:**
- بيت الحكمة، ط الموصل 1954 م.
* **الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748 هـ):**
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ط السعادة، مصر 67 ـ 1969 م.
- تذكرة الحفاظ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند 1333 هـ.
- دول الإسلام في التاريخ، ط حيدرأباد 1364 هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط مصر 1325 م.
* **الرازي: أبو بكر محمد بن زكريا (ت 320 هـ):**
- الحاوي، ط حيدرأباد 1955 م.
* **راغب: محمد راغب الطباخ الحلبي (ت 1370 هـ):**
- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط القاهرة 1344 هـ.
* **الرامهرمزي: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (ت 360 هـ):**
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم 483 مصطلح.
* **الراوندي: محمد بن علي بن سليمان:**
- راحة الصدور وآية السرور في تاريخ السلاجقة، ط ليدن 1921 م.
* **ربيرا: خوليان:**
- المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا، ترجمة جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية م 4 ج 1 سنة 1958 م.
* **رفاعي: أحمد فريد(ت 1376 هـ):**
- عصر المأمون، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1346 هـ/ 1928 م.
* **أبو ريان: محمد علي:**
- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ط بيروت 1970 م.

* **ربيرا: خوليان:**
- المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا، ترجمة جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الرابع الجزء الأول 1958 م.

* **الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي (ت 379 هـ):**
- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مكتبة الخانجي، القاهرة 1954 م.

* **الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله (ت 794 هـ):**
- البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ط الحلبي مصر 1957 م.

* **الزركلي: خير الدين محمود بن علي بن فارس (ت 1396 هـ):**
- الأعلام، الطبعة الخامسة، ط دار العلم للملايين، بيروت 1980 م.

* **زكي محمد حسن = حسن:**

* **زغلول: الشحات السيد:**
- السريان والحضارة الإسلامية، ط الإسكندرية 1975 م.

* **الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ):**
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعيمي، (أربعة أجزاء) ط بغداد 76 ـ 1982 م.

* **زيات: حبيب بن نقولا بن إلياس الدمشقي (ت 1373 هـ/ 1954 م):**
- الجلود والرقوق والقراطيس في الإسلام، مجلة الكتاب، السنة الثانية الجزء الرابع، القاهرة 1366 هـ.
- الخزانة الشرقية، ط بيروت 1948.
- الوراقة والوراقون في الإسلام، مجلة المشرق، السنة 41 تموز ـ أيلول 1947 م.

* **زيادة: نقولا:**
- الحسبة والمحتسب في الإسلام، ط الكاثوليكية، بيروت 1963 م.

*** زيدان: جرجي زيدان (ت 1323 هـ/ 1914 م):**
- تاريخ آداب اللغة العربية، ط القاهرة 1931 م.
- تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس، ط دار الهلال، القاهرة 1958 م.
- التاريخ العام، ط القاهرة 1948 م.
*** سارتون: جورج:**
- تاريخ العلم، ترجمة جورج حداد، ط القاهرة 1959 م.
- الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ترجمة عمر فروخ، ط بيروت 1952 م.
*** ابن الساعي: علي بن أنجب بن عثمان (674 هـ):**
- الجامع المختصر في عنوان التاريخ والسير، تحقيق مصطفى جواد، ط بغداد 1934 م.
- مختصر أخبار الخلفاء، المنسوب لابن الساعي، ط بولاق 1309 هـ.
*** سبط ابن الجوزي: يوسف بن قزأوغلي (ت 654 هـ):**
- مرآة الزمان، مخطوطة كوبريلي 1157، والجزء الثامن تحقيق جيمس ريشار، ط شيكاغو 1907 م.
*** السبكي: أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت 771 هـ):**
- طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية، القاهرة 1324 هـ.
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، ط القاهرة 1948 م.
*** ستودارد: لوثروب:**
- حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، ط القاهرة 1352 هـ.
*** السجستاني: أبو حاتم سهل بن محمد (ت 255 هـ):**
- كتاب المعمرين، ط جولد زيهر، ليدن 1899 م.
*** السجستاني: أبو بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت 316 هـ):**
- كتاب المصاحف، نشر آرثر جفري، مطبعة الرحمانية، القاهرة 1355 هـ/ 1936 م.

* **السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت 902 هـ):**
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ط دمشق 1349 هـ.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 12 جزءاً، ط مصر 53 - 1355 هـ.
* **سزكين: محمد فؤاد:**
- تاريخ التراث العربي، الترجمة العربية، ترجمة عرفة مصطفى ومحمود فهمي حجازي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1404 هـ/ 1984 م.
- مكانة حنين في تاريخ الترجمة من الإغريقي والسرياني إلى العربية، ط بغداد 1974 م.
* **ابن سعد: محمد بن منيع الزهري (ت 230 هـ):**
- الطبقات الكبير، تحقيق أدوارد سخو، ط ليدن، 22 - 1325 هـ.
* **سفندال:**
- تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة صلاح الدين حلمي، ط القاهرة 1958 م.
* **السقياني (السفياني): أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1337 هـ):**
- صناعة تسفير الكتب وحلى الذهب، نشره المسيو ريكارد متفقد الفنون الأهلية ومدير متحف الآثار بفاس، ط باريس 1935 م.
* **سليمان صائغ الموصلي:**
- تاريخ الموصل، جزآن، طبع الأول في مصر سنة 1923، والثاني في بيروت سنة 1928 م.
* **السمعاني: عبد الكريم بن محمد (ت 562 هـ):**
- الأنساب، نشر مرجليوث، تصوير ليدن، مطبعة بريل 1912 م.
* **سيديو: لويس أميلي:**
- تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، ط القاهرة 1948 م.
- خلاصة تاريخ العرب، ترجمة علي باشا مبارك، ط القاهرة 1309 هـ.

* **السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ):**
- الإتقان في علوم القرآن، مطبعة حجازي، القاهرة 1368 هـ/ 1948 م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر 1979 م.
- تاريخ الخلفاء، ط القاهرة 1351 هـ.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف، ط القاهرة 1966 م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط إدارة الوطن، القاهرة 1299 هـ.
- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، نشر وتعليق علي سامي النشار، ط القاهرة 1955 م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل، ط القاهرة د. ت.
* **الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد (ت 388 هـ):**
- كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد 1951 م.
* **ابن شاكر: محمد بن شاكر الكتبي (ت 764 هـ):**
- فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط القاهرة 1951 م، وتحقيق إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت 1974 م.
- عيون التواريخ، مخطوط، الظاهرية، تاريخ رقم 480.
* **أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي (ت 665 هـ):**
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي أحمد، ط القاهرة 1287 هـ.
- الذيل على الروضتين، مخطوطة المكتبة الوطنية باريس 5852، وط مصر 1366 هـ.

* **الشحات: علي أحمد:**
- أبو الريحان البيروني، ط القاهرة 1968 م.
* **الشكعة: مصطفى:**
- مناهج التأليف عند العلماء العرب، ط دار العلم للملاين، بيروت 1989 م.
* **شلبي: أحمد شلبي:**
- موسوعة التاريخ الإسلامي، ط القاهرة 1966 م.
* **الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت 548 هـ):**
- الملل والنحل، ط القاهرة 1968 م.
* **شوقي ضيف:**
- العصر الإسلامي، ط دار المعارف، مصر 1976 م.
- العصر العباسي الأول، ط دار المعارف، مصر 1966 م.
- العصر العباسي الثاني، ط دار المعارف، مصر 1973 م.
* **الصابي: هلال بن المحسن الصابي (ت 448 هـ):**
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، نشرة أمدوز، بيروت 1904 م.
* **ابن صاحب الصلاة: عبد الملك بن محمد بن أحمد الأشبيلي (ت بعد 594 هـ):**
- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، ط دار الأندلس 1383 هـ/ 1964 م.
* **صاعد الأندلسي: صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد (ت 462 هـ):**
- طبقات الأمم، ط لويس شيخو، بيروت 1912 م.
* **الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764 هـ):**
- تذكرة الصفدي، مخطوط، دار الكتب المصرية رقم 430 أدب.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ط مصر 1290 هـ.
- نكت الهميان في نكت العميان، بعناية أحمد زكي، ط مصر 1911 م.
- الوافي بالوفيات، باعتناء دريدرنغ، ط الهاشمية، دمشق 1959 م،

وباعتناء ريتر، ط استانبول 1931، وط فيسبادن 1971 م.

* **الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت 336 هـ):**

ـ أخبار أبي تمام، ط مصر 1356 هـ/ 1937 م.

ـ أدب الكُتَّاب، تصحيح محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، مصر 1341 هـ/ 1922 م.

ـ كتاب الأوراق، تحقيق هيورث دن، ط القاهرة 1935 م.

* **طاش كبرى زاده: أحمد بن مصطفى (ت 962 هـ):**

ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط حيدرأباد 1329 هـ.

* **الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ):**

ـ تاريخ الأمم والملوك، ط القاهرة 1939.

* **ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (ت 709 هـ):**

ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق اهلواردت 1860 م، وط بيروت 1966 م.

* **الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت 460 هـ):**

ـ الفهرست، ط النجف 1356 هـ/ 1937 م.

* **طوقان: قدري حافظ:**

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ط القاهرة 1963 م.

ـ الخالدون العرب، ط بيروت 1954 م.

ـ العلوم عند العرب، ط القاهرة د. ت.

* **أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي الحلبي(ت 351 هـ):**

ـ مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصر 1375 هـ/ 1955 م.

* **ابن طيفور: أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت 280 هـ):**

ـ بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، ط بيروت 1968 م.

* **العبادي: حنين بن إسحاق (ت 260 هـ):**

ـ العشر مقالات في العين، تحقيق ماكس مايرهوف، ط القاهرة 1928 م.

* **العبادي: عبد الحميد:**
- صور وبحوث من التاريخ الإسلامي، ط القاهرة 1953 م.
* **ابن عبدالبر: يوسف بن عبدالله بن محمد النمري القرطبي (ت 463 هـ):**
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ط القاهرة د. ت.
- القصد والأمم، ط حسام الدين القدسي، د. ت.
* **ابن عبد الحق: صفي الدين عبد المؤمن (ت 739 هـ):**
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط ليدن 1852 م.
* **ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي (ت 328 هـ):**
- العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، القاهرة 48 ـ 1950 م.
* **عبدالوهاب: حسن حسني بن صالح بن عبدالوهاب (ت 1388 هـ/ 1968 م):**
- ورقات عن الحضارة العربية فأفريقية التونسية، ط تونس 1965 م.
* **ابن العبري: غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي (ت 685 هـ):**
- تاريخ مختصر الدول، ط صالحاني، بيروت 1890 م.
* **عبودي: هنري:**
- معجم الحضارات السامية، ط لبنان 1988 م.
* **أبو عبيدة: معمر بن المثنى (ت 210 هـ):**
- النقائض، تحقيق بيفان، ط ليدن 1905 ـ 1908 م.
* **ابن العديم: عمر بن أحمد العقيلي (ت 660 هـ):**
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ط المعهد الفرنسي للدراسات العربية 1951 ـ 1958 م.
* **ابن عذاري: أحمد بن محمد المراكشي (ت 695 هـ):**
- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ط باريس 1930 م.
* **العزاوي: عباس بن محمد بن ثامر (ت 1391 هـ/ 1971 م):**
- تاريخ العراق بين احتلالين، ط بغداد 1939 م.

* **ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت 571 هـ):**

ـ التاريخ الكبير، تهذيب عبد القادر بدران، ط دمشق 29 ـ 1332 هـ، وتاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط دمشق 1330 هـ.

* **العسكري: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت 395 هـ):**

ـ الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، ط دمشق 1975 م.

ـ كتاب الصناعتين، تحقيق البجاوي وأبي الفضل، ط الحلبي مصر 1371 هـ/ 1952 م.

* **العش: يوسف العش:**

ـ دور الكتب العربية العامة وشبه العامة، لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة عن الفرنسية، نزار أباظة، ومحمد صباغ، دار الفكر دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت 1411 هـ/ 1991 م.

* **عفيفي: فوزي سالم:**

ـ نشأة وتطور الكتابة الخطبة العربية ودورها الثقافي والاجتماعي، ط الكويت 1400 هـ/ 1980 م.

* **العقيقي: نجيب:**

ـ المستشرقون، ط القاهرة 1965 م.

* **العلموي: عبد الباسط بن موسى بن محمد (ت 981 هـ):**

ـ المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ط المكتبة العربية، دمشق 1349 هـ.

* **العلوجي: عبدالحميد:**

ـ تاريخ الطب العراقي، ط بغداد 1967 م.

* **العلوجي: عبدالحميد، وعامر رشيد السامرائي:**

ـ أثار حنين بن إسحاق، ط بغداد 1974 م.

* **علي مبارك: علي بن مبارك بن سليمان الروجي (ت 1311 هـ/ 1893 م):**

ـ الخطط التوفيقية الجديدة (عشرون جزءاً) ط مصر 1304 ـ 1306 هـ.

* **العماد الأصفهاني: محمد بن محمد صفي الدين ابن نفيس الدين الكاتب (ت 597 هـ):**

- خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ط مصر 1951، قسم شعراء الشام، ط دمشق 1955، القسم العراقي ط بغداد 1955 م.

* **ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحي بن عماد الحنبلي (ت 1089 هـ):**

- شذرات الذهب، ط مكتبة القدسي، القاهرة 1351 هـ.

* **العمري: عبد الوهاب بن فضل الله (ت 745 هـ):**

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول تحقيق أحمد زكي، القاهرة 1924 م، ومخطوطة أبا صوفيا 3422.

* **ابن عنبة: أحمد بن علي العلوي (ت 828 هـ):**

- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ط النجف 1358 هـ.

* **عواد كوركيس:**

- خزائن الكتب القديمة في العراق، ط دار الرائد، بيروت 1986 م.

* **الغزولي: علاء الدين علي بن عبدالله (ت 815 هـ):**

- مطالع البدور في منازل السرور، ط القاهرة 1299 هـ.

* **ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395 هـ):**

- الصاحبي في فقه اللغة، ط المكتبة السلفية، مصر 1910 هـ.

* **أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت 732 هـ):**

- المختصر في أخبار البشر، ط الحسينية، القاهرة 1325 هـ، وط بيروت 1960 م.

* **ابن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت 799 هـ):**

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي)، ط القاهرة 1330 هـ، وط 1351 هـ.

* **فروخ: عمر:**

- تاريخ العلوم عند العرب، ط بيروت 1970 م.

- تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط بيروت 1966 م.
- عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط بيروت 1969 م.
- العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، ط بيروت 1966 م.

* **ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت 403 هـ):**
- تاريخ علماء الأندلس، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966 م.

* **ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني (ت 365 هـ):**
- مختصر كتاب البلدان، ط ليدن 1885 م.

* **الفندي: محمد جمال:**
- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، ط القاهرة 1968 م.

* **فوز: فاروق عمر:**
- حنين بن إسحاق والسلطة العباسية، ط بغداد 1974 م.

* **ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الفوطي الشيباني البغدادي (ت 723 هـ):**
- تلخيص مجمع الآداب، ط لاهور، الهند 1940 م، ومخطوطة مصورة بمكتبة المتحف العراقي، بغداد.
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط بغداد 1351 هـ/ 1932 م.

* **فيليب: حتي = حتي.**

* **فيليب دي طرازي (الفيكونت): فيليب بن نصر بن أنطون (ت 1375 هـ/ 1956 م):**
- خزائن الكتب العربية في الخافقين، ط وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، د. ت.

* **ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن محمد الأسدي (ت 851 هـ):**
- الإعلام بتاريخ الإسلام، مخطوط في ثمانية مجلدات.

* **القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم (356 هـ):**
- أمالي القالي، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1926 م.
* **ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت 276 هـ):**
- عيون الأخبار، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 1343 هـ/ 1925 م، والقاهرة 1958 م.
- المعارف، ط القاهرة 1965 م.
* **القرشي: عبد القادر بن محمد بن نصر الله (ت 775 هـ):**
- الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية، ط حيدرأباد 1332 هـ.
* **القرطبي: أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمري (ت 463 هـ):**
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ط المنيرية، القاهرة دون تاريخ، وط العاصمة، القاهرة 1968 م.
* **القرطبي: عريب بن سعد (ت 369 هـ):**
- صلة تاريخ الطبري، ط بريل، لايدن 1897 م.
* **القزويني: أبو عبدالله زكريا بن محمد (682 هـ):**
- آثار البلاد وأخبار العباد، ط وستنفيلد، غوتنجن 1848 م، وط بيروت 1960.
* **القصير: اعتماد القصير:**
- فن التجليد عند المسلمين، ط بغداد.
* **القفطي: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت 646 هـ):**
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط ليبسك 1903 م، وط مصر 1326 هـ/ 1908 م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 50 ـ 1955 م.
- تاريخ الحكماء (وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، ط بغداد د. ت.

* **القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت 821 هـ):**
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة 13ـ 1915م.
- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ط الكويت 1964 م.
* **ابن القيسراني: أبو الفضل محمد بن طاهر (ت 507 هـ):**
- الأنساب المتفقة، ط ليدن 1886 م.
* **الكاتب = أحمد بن يوسف:**
* **ابن الكازروني: ظهير الدين علي بن محمد (ت 697 هـ):**
- مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، ط بغداد 1970 م.
* **الكاندهلوي: محمد بن يوسف:**
- حياة الصحابة، ط دار القلم، بيروت 1968 م.
* **الكتاني: عبد الحي (ت 1383 هـ):**
- التراتيب الإدارية، المطبعة الأهلية، الرباط 1346 هـ.
* **الكتبي: محمد بن شاكر (764 هـ):**
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط القاهرة 1951 م، وط دار الثقافة، بيروت 1974 م.
* **ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774 هـ):**
- البداية والنهاية، ط السعادة، القاهرة 1932 م، وط مكتبة المعارف، بيروت 1966 م.
* **كرد علي: محمد بن عبد الرزاق بن محمد (ت 1372 هـ/ 1953 م):**
- أمراء البيان (جزآن)، ط مصر 1355 هـ/ 1937 م.
- الإسلام والحضارة العربية، ط القاهرة 1959 م.
- خطط الشام، مطبقة الترقي، دمشق 1345 هـ/ 1926 م.
- كنوز الأجداد، ط دمشق 1950 م.
* **الكردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكي الخطاط:**
- تاريخ الخط العربي وآدابه، المطبعة التجارية الحديثة، السكاكيني، القاهرة 1939 م.

* كريمر: فون:
- الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، ط مصر 1947 م.
* الكلبي: ابن دحية عمر بن الحسن بن علي (ت 633 هـ):
- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ط بغداد 1946 م.
* الكندي: محمد بن يوسف (ت 355 هـ):
- السيوف وأجناسها، تحقيق عبد الرحمن زكي، ط بغداد 1959 م.
- الولاة والقضاة، تحقيق رفنكَسْت، ط الآباء اليسوعيين، بيروت 1908 م.
- في خبر صناعة التأليف، تحقيق يوسف شوقي، ط القاهرة 1969 م.
* كنون: عبدالله:
- صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع 1959 م.
* كونل: آرنست:
- الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، ط دار صادر بيروت 1966 م.
* كير: أدوارد (ت 1352 هـ/ 1933 م):
- كتبوا على الطين، ترجمة محمود حسين أمين، الطبعة الثانية، بغداد 1962 م.
* لامب:
- تيمورلنك، ترجمة عمر أبو النصر، ط بيروت.
* لامنس: هنري (ت1356 هـ/ 1937 م):
- دور العلم وبيوت الحكمة، مجلة المشرق 2، 3/129، سنة 1938 م.
- الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام، مجلة المشرق سنة 1922 م.
* لوبون: غوستاف:
- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط القاهرة 1956 م.
* ابن ماسويه: يوحنا بن ماسويه (ت 243 هـ):
- كتاب الأزمنة، تحقيق بول سباث، ط القاهرة 1933 م.

* **الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ):**
- الأحكام السلطانية، ط القاهرة 1909 م.
* **متز: آدم (ت 1335 هـ/ 1916 م):**
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1948 م.
* **المحبي: محمد أمين بن فضل الله بن محب الله الحموي (ت 1111 هـ):**
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط مصر 1284 هـ.
* **محرم كمال:**
- تاريخ الفن المصري القديم، دار الهلال، القاهرة 1937.
* **محمد بن الخوجة:**
- الروزنامة التونسية، ط سنة 1326 هـ.
* **محمد: محمد عوض:**
- فن الترجمة، ط معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1969 م.
* **المرتضى: الشريف المرتضى علي بن الحسين العلوي (ت 436 هـ):**
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ط بيروت 1967.
* **المرزباني: أبو عبيد محمد بن عمران (ت 384 هـ):**
- معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، ط القاهرة 1379 هـ/ 1960 م.
* **مرزوق: محمد عبدالعزيز:**
- الحياة الفنية في مصر الإسلامية، مقالة (تاريخ الحضارة المصرية) العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة.
- الفن المصري الإسلامي ط دار المعارف، مصر 1952 م.
- الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، ط بغداد 1965 م.
* **المرزوقي: أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421 هـ).**
- الأزمنة والأمكنة، ط دار المعارف، الهند 1232 هـ.

* **المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346 هـ):**
- أخبار الزمان ومن أباد الحدثان وعجائب البلدان والغمر بالماء والعمران، ط بيروت 1966 م.
- التنبيه والإشراف، تصحيح عبدالله الصاوي، ط القاهرة 1938 م، وط بيروت 1965 م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط باريس 61 ـ 1877 م، وط مصر 1283 هـ، وط القاهرة 1958 م.
* **مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد (ت 421 هـ):**
- تجارب الأمم، نشر آمدوز، ط القاهرة 1915 م.
* **مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ):**
- صحيح مسلم بشرح النووي، ط القاهرة 1930 م.
* **المصرف: ناجي زين الدين (ت 1409 هـ/ 1988 م):**
- بدائع الخط العربي، ط مؤسسة رمزي للطباعة، بغداد 1972 م.
* **مصطفى جواد: مصطفى جواد بن مصطفى بن إبراهيم البغدادي (ت 1389 هـ/ 1969 م):**
- المدرسة النظامية ببغداد، موقعها، مجلة المعلم الجديد، العدد 8 سنة 1945 م.
* **مصطفى نجيب:**
- حماة الإسلام (جزآن)، ط مصر 1901 م.
* **مظهر: إسماعيل:**
- تاريخ الفكر العربي، ط القاهرة 1928 م.
* **ابن المعتز: أبو العباس عبدالله بن المعتز العباسي (ت 296 هـ):**
- طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق عباس إقبال، ط لندن 1939 م، وتحقيق عبد الستار فراج، ط دار المعارف، مصر 1375 هـ/ 1956 م.
* **المعري: أبو العلاء أحمد بن عبدالله (ت 449 هـ):**
- رسائل أبي العلاء المعري، تحقيق مرجليوث، ط أوكسفورد 1898 م.

ـ رسالة الغفران، ط القاهرة 1321 هـ.
* **المقدسي: شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي البشاري (ت 375 هـ):**
ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط دي غويه، ليدن 1906 م.
* **المقدسي: مطهر بن ظاهر (ت 355 هـ):**
ـ البدء والتاريخ، ط باريس 1916 م.
* **المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 هـ):**
ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط دوزي وآخرين، ليدن 1861 م.
* **المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت 845 هـ):**
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا، ط دمشق 1909 م.
ـ السلوك لمعرفة الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، ط مصر.
ـ الخطط (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)، تحقيق كرستن ويت، ط بولاق، 1270 هـ، ومطبعة النيل، القاهرة 1325 هـ.
* **ابن المقفع: عبدالله بن المقفع (ت 142 هـ):**
ـ كليلة ودمنة، ط المطبعة الأميرية، القاهرة.
* **مكمبر: وليم:**
ـ النشاط الأدبي لحنين بن إسحاق بالسريانية، ط بغداد 1974 م.
* **ملكة أبيض:**
ـ التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة للهجرة، ط دار العلم للملايين، بيروت 1980 م.
* **المنجد: صلاح الدين:**
ـ دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، ط بيروت 1972 م.
* **ابن منظور: جمال الدين محمد بن المكرم الأفريقي (ت 711 هـ):**
ـ لسان العرب، ط بيروت 1968 م.
ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، ط القاهرة 1966 م.

*** ميلي: ألدو:**

- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبدالحليم النجار، ط القاهرة 1962 م.

*** ناصف: حنفي (أو محمد حفني) بن إسماعيل بن خليل ناصف (ت 1338 هـ):**

- تاريخ الأدب، أو حياة اللغة العربية، ط القاهرة 1958 م.

*** نافع: محمد مبروك:**

- عصر ما قبل الإسلام، ط القاهرة 1948 م.

*** نامي: خليل يحيى:**

- أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية، المجلد الثالث، الجزء الأول، القاهرة 1935 م.

- العرب قبل الإسلام، تاريخهم، لغتهم، آلهتهم، ط دار المعارف، مصر 1986 م.

*** نالينو: كارلو الفونسو:**

- علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ط روما 1911 م.

*** نخبة من العلماء:**

- تاريخ الأتراك العثمانيين، نقله إلى العربية حسين لبيب وحسن عبدالوهاب، القاهرة 1917 م.

*** ابن نباتة: جمال الدين محمد بن محمد المصري (ت 768 هـ):**

- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل، ط القاهرة 1964 م.

*** ابن النجار: محيي الدين محمد بن محمود (ت 643 هـ):**

- ذيل تاريخ بغداد، مخطوطة الظاهرية، دمشق التاريخ 42، ومخطوطة المكتبة الوطنية، باريس 2131.

*** ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن يعقوب (ت 385 هـ):**

- الفهرست، ط فلوجل، ليبسك 1871 م، وط المكتبة التجارية، مصر

1348 هـ، وط رضا تجدد، طهران 1971.
* **النشار: علي سامي:**
- مناهج البحث عند مفكري الإسلام ونقد المسلمين للمنطق الأرسطوطاليسي، ط القاهرة 1947 م.
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط القاهرة 1966 م.
* **نلسون: ديتلف:**
- التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، ط القاهرة 1958 م.
* **النهروالي: قطب الدين محمد بن أحمد الحنفي (ت988 هـ):**
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ط وستنفيلد، ليبسك 1857 م.
* **النوبختي: الحسن بن موسى بن الحسن (ت 310 هـ):**
- فرق الشيعة، ط استانبول 1931 م، وط النجف 1936 م.
* **النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 732 هـ):**
- نهاية الإرب، ط دار الكتب المصرية، القاهرة 29 ـ 1955 م.
* **ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام (ت 218 هـ):**
- السيرة النبوية، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ط الحلبي، مصر 1955 م.
* **هل: جوزيف:**
- الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، ط القاهرة 1956 م.
* **الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 334 هـ):**
- الإكليل، نشر الكرملي، ط بغداد الجزء الثامن، وط برنستن ومصر 1940 ، الجزء العاشر.
- صفة جزيرة العرب، نشر ملر، ط ليدن 1884 م، وانظر ط ابن بليهد، الرياض.
* **هونكه: زيغريد:**
- شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربا)، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط بروت 1969 م.

* **ابن الوردي: عمر بن مظفر (ت 749 هـ):**
- تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)، ط القاهرة 1285 هـ.
* **الوطواط: رشيد الدين أحمد بن إسحاق بن عبدالجليل (ت 573 هـ):**
- مناهج الفكر ومباهج العبر، مخطوط في ثلاث مجلدات، دار الكتب المصرية رقم 359.
* **الوطوط: محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي (ت 718 هـ):**
- غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة، المطبعة الأدبية، مصر 1318 هـ.
* **ولفنسون: إسرائيل:**
- تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر 1348 هـ/ 1929 م.
* **اليازجي: كمال:**
- معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، ط بيروت 1966 م.
* **اليافعي: عبدالله بن أسعد بن علي (ت 768 هـ):**
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، الدكن 1337 هـ.
* **ياقوت: شهاب الدين أبو عبدالله الرومي الحموي (626 هـ):**
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، ط وستنفيلد، جوتنجن 1846 م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ط مرجليوث، القاهرة 23 ـ 1930 م.
- معجم البلدان، بعناية وستنفيلد، ط ليبسك 1866 م، وط صادر، بيروت 1957 م.
* **يحيى بن سعيد الأنطاكي (458 هـ):**
- تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ملحق بكتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) للبطريق أفتيشيوش المكنى بسعيد بن البطريق، ط بيروت 1909 م.

* **اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (ت 292 هـ):**
- البلدان، نشر دي غويه، ط ليدن 1892 م، وط النجف 1957 م.
- تاريخ اليعقوبي، نشر هوتسمان، ط ليدن 1883 م، وط النجف 1358 هـ.
- مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، ط بيروت 1962 م.

* **ابن أبي يعلى: محمد بن محمد بن أبي يعلى (ت 526 هـ):**
- طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة 1371 هـ/ 1952 م.

* **يوجين: أ. نيدا:**
- نحو علم للترجمة، ترجمة ماجد النجار، ط بيروت.

* **اليونيني: موسى بن محمد (ت 726 هـ):**
- ذيل مرآة الزمان، ط حيدر أباد 74 ـ 1375 هـ.

* **أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب.**
* **دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة وإعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، ط القاهرة د. ت.**
* **دائرة المعارف لبطرس البستاني (أحد عشر جزءاً) ط بيروت 1876 ـ 1900 م.**
* **الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف شفيق غربال، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت 1965 م.**

المراجـــع الأجنبيـــة

Abbot Nabia: The Rise of the North- Arabic Script and its Kuranic Development, with a Full Description of the Kur'an Manuscripts in the Oriental Institute, Ubiv. Chicago Press, Chicago, 1939.

Aga- Oglu Mehmet,: A note on the Manuscript of Manafi al-Hayawan in the library of Mr. J.P. Morgan, Parnassus, v, No.3 p. 19 - 20.

-------: Preliminary Notes on some Persian illustrated MSS in the Topkapu Sarayi Muzesi, part 1. Ars Islamica, 1, p. 183- 199, 1934.

-------: An illustrated page from the demotte Shah- Name, Bull. Detroit Institute of Arts, xv, p. 1-2. 1935.

Arbuthnot. F.F.: Arabic Authors, A Manual of Arabian History and Literature, London, 1890.

Arnold, Sir Thomas and Grohmann, Adolf: The Islamic Book, a contribution to its art history from the vii- viii century, Leipzig, 1929.

Arnold T.W.: Painting in Islam, a Study of the Place of Pictorial Art in Muslim Culture, Clarendon press, Oxford, 1928.

-------: The Legacy of Islam, Oxford, 1931.

Barthold, V.V.: Musuluman Culture, Calcutta, 1934.

Binyon, Wilkinson and Gray: Persian Miniature Painting, Oxford, 1933.

Coke, R.: Baghdad the City of Peace, London, 1927.

Creswell, K.A.C.: Early Muslim Architecture, Oxford, the Clarendon Press 1932.

De Boer, T. Jones: The History of Philosophy in Islam, London, 1933.

Della Vida Georgo Levy: Pre- Islamic Arabic the Arab Heritage, New Jersy, 1944.

Grohmann, Adolf: From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1952.

Hell, Joseph: The Arab Civilization, Lahore, 1943.

-------: Makers of Arab History, London, 1935.

Ettinghausen, Richard: «Manuscript Illumination» in A.U. Pope, Survey of Persian Art, 3, 1937- 1974 (1939), Figs, 640- 642 and Plates 926- 950.

Kenyon, Frederic G: Books and Readers in Ancient Greece and Rome, 2nd ed. Oxford, the Clarendon press, 1951.

Khuda Buksh: Contributions to the History of Islamic Civilization, Calcutta 1929.

Mackenson Ruth; Four Great Librairies of Medieval Baghdad, in the Librairy Quarterly, Chicago, vol 11, 1932, p. 279, SS.

Metz, Adam: The Renaissance of Islam, London, 1937.

Muir, William: The Caliphate its Rise, Decline and Fall, Edinburgh, 1930.

Nicholson, R.A.: A Literay History of the Arabs, Cambridge, 1930.

O'Leary, Delacy: Arabic Thought and its Place in History, London, 1958.

-------: How Greek Science Passed to the Arabs, London, 1957.

Palmer, E. H.: Haroun Al- Raschid, London, 1955.

Pope, Arthur Upham: Masterpieces of Persian Art, New York, the Dryden Press, n. d.

Sarre, F,: Islamic Book- bindings, London, Kegan Paul & Co., 1923.

Sarton, George: The Study of the History of Science, Harvard, 1936.

Wilkinson J.V.S.,: The Shah- Namah of Firdausi, the Book of the Persian Kings, Oxford, 1931.

The New Encyclopaedia Britannica, 15th ed. Chicago, 1975.

The Encyclopaedia of Islam, New edition, Leiden, Brill, 1960.

فهارس الكتاب

1 ـ فهرس الآيات القرآنية

2 ـ فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
«من اصطنع إليكم معروفاً فجازوه».	382
«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة».	7 ـ 6
«من صوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً».	280
«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».	6
«نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها».	6
«يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي».	139
«يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».	280
«يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم».	280

3 ـ فهرس الشعر

4 ـ فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

5 ـ فهرس القبائل والأمم والشعوب والجماعات

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ي)

6 ـ فهرس المواضع والبلدان

(ت)

(ج)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

7 ـ فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

8 ـ فهرس اللغات

9 ـ فهرس الخطوط والأقلام

10 ـ فهرس حضاري بالمصطلحات والكلمات المستعملة في الكتاب وعلومه وآدابه وأدواته

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

11 ـ فهرس الموضوعات

الكتب الصادرة للمؤلف

اسم الكتاب	الناشر
1 ـ الإسلام والشعر .	مكتبة النهضة ـ بغداد 1964 .
2 ـ شعر المخضرمين وأثر الإسلام .	ط 1 مكتبة النهضة ـ بغداد 1964 . ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1981 .
3 ـ ديوان العباس بن مرداس السلمي .	ط 1 وزارة الثقافة ـ بغداد 1968 . ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1991
4 ـ الجاهلية ـ مقدمة في الحياة العربية لدراسة الشعر الجاهلي .	مطبعة المعارف ـ بغداد 1968 .
5 ـ شعر النعمان بن بشير الأنصاري .	ط 1 مطبعة المعارف ـ بغداد 1968 . ط 2 دار القلم ـ الكويت 1985 .
6 ـ شعر عروة بن أذينة .	ط 1 مكتبة الأندلس بغداد ـ بيروت 1970 . ط 2 دار القلم ـ الكويت 1981 .
7 ـ لبيد بن ربيعة العامري .	ط 1 مكتبة الأندلس بغداد ـ بيروت 1970 . ط 2 دار القلم ـ الكويت 1980 .
8 ـ شعر المتوكل الليثي .	مكتبة الأندلس بغداد ـ بيروت 1971 .
9 ـ شعر الحارث بن خالد المخزومي .	ط 1 مطبعة الآداب ـ النجف 1972 . ط 2 دار القلم ـ الكويت 1983 .
10 ـ الشعر الجاهلي ـ خصائصه وفنونه .	ط 1 مكتبة التربية بغداد ـ بيروت 1972 . ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1979 . ط 3 بيروت 1983 . ط 4 بيروت 1986 . ط 5 بيروت 1988 . ط 6 بيروت 1994 .

اسم الكتاب	الناشر
11 ـ شعر عبدة بن الطيب.	مكتبة التربية بغداد ـ بيروت 1972.
12 ـ شعر عبدالله بن الزبير الأسدي.	وزارة الثقافة ـ بغداد 1974.
13 ـ شعر أبي حية النميري.	وزارة الثقافة ـ دمشق 1975.
14 ـ شعر عمرو بن شأس الأسدي.	ط 1 مكتبة الأندلس ـ بغداد 1976. ط 2 دار القلم ـ الكويت 1983.
15 ـ شعر عمر بن لجأ التيمي.	ط 1 دار الحرية ـ بغداد 1976. ط 2 دار القلم ـ الكويت 1981.
16 ـ الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية (ترجمة عن الإنجليزية).	جامعة بغداد 1976.
17 ـ ديوان الطغرائي (بالاشتراك مع الدكتور علي جواد الطاهر).	ط 1 وزارة الثقافة ـ بغداد 1976. ط 2 دار القلم ـ الكويت 1983.
18 ـ شعر هدبة بن الخشرم العذري.	ط 1 وزارة الثقافة ـ دمشق 1976. ط 2 دار القلم ـ الكويت 1985.
19 ـ أصول الشعر العربي (ترجمة عن الإنجليزية).	ط 1 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1978. ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1981. ط 3 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1988. ط 4 جامعة قاريونس ـ بنغازي 1994.
20 ـ شعر عبدالله بن الزبعرى.	ط 1 معه المخطوطات العربية ـ القاهرة 1978. ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1981.
21 ـ ديوان أحمد بن يوسف الجابر (بالاشتراك مع الدكتور محمد قافود).	مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ـ جامعة قطر ـ الدوحة 1983.
22 ـ شعر خداش بن زهير العامري.	مجمع اللغة العربية ـ دمشق 1986.
23 ـ قصائد جاهلية نادرة.	ط 1 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1982. ط 2 مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1988.

اسم الكتاب	الناشر
24 ـ كتاب المحن لأبي العرب التميمي.	ط 1 دار الغرب الإسلامية ـ بيروت 1983. ط 2 دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1988.
25 ـ الزينة في الشعر الجاهلي.	دار القلم ـ الكويت 1984.
26 ـ الأقوال الكافية والفصول الشافية (في الخيل) للملك علي بن داود الرسولي الغساني.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1987.
27 ـ الملابس العربية في الشعر الجاهلي.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1989.
28 ـ كتاب الردة للواقدي.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1990.
29 ـ كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل للوشاء.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1991.
30 ـ منهج البحث وتحقيق النصوص.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1992.
31 ـ الخط والكتابة في الحضارة العربية.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1994.
32 ـ أمالي المرزوقي (تحقيق).	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1995.
33 ـ المستشرقون والشعر الجاهلي.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1996.
34 ـ الكتاب في الحضارة الإسلامية.	دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1998.

إصدارات دار الغرب الإسلامي
للمؤلف

1 ـ في التحقيق

اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ
كتاب المحن	لأبي العرب التميمي	1983
الأقوال الكافية والفصول الشافية (في الخيل)	للملك علي بن داود	1984
كتاب الردة	للواقدي	1990
كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل	للوشاء	1991
أمالي المروزقي	للمرزوقي	1995

2 ـ في الدراسات

الزينة في الشعر الجاهلي	1984
الملابس العربية في الشعر الجاهلي	1989
منهج البحث وتحقيق النصوص	1992
الخط والكتابة في الحضارة العربية	1994
المستشرقون والشعر الجاهلي	1996
الكتاب في الحضارة الإسلامية	1998

The Book In Islamic Civilization

The present study deals with the early beginnings of writing books and the development of manufacturing books since the early pre- Islamic era until the fall of the Islamic caliphate. The study falls into eight chapters. The first chapter deals with the origin and evolution of different writing systems and the efforts of Arab and orientalist archeologists in investigating this field. Chapter two studies notemaking and writing, whereas chapter three focuses on the history of scribing and its role in fostering book production. Chapter three also presents biograhical information on prominent scribes. The movement of translation is the theme of chapter four. This chapter surveys the translation movement since its early beginnings in Iraq, Syria and Egypt; with special emphasis on the role of the Abbasids. Chapter five deals with libraries in Islam whether public libraries, as that of Beit-il-Hikma, or private libraries owned by some scholars and ministers. The topic of chapter six is the development of some aspects of bookmaking, like binding and gilding; whereas chapter seven discusses the setbacks which adversely affected book writing and book production during the Islamic ages as a result of wars, famines and other disasters. Finally, chapter eight deals with the ethics related to dealing with books (while reading, scribing, or lending them), as well as with the views of some scholars on the prestige and high status of books.

دار الغرب الإسلامي

بيروت – لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: 009611-350331 :Tel / خليوي: 009613-638535 :Cellulair
فاكس: 009611-742587 :Fax / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم : 335 - 2000 - 7 - 1998

التنضيد : كمبيوتايب – بيروت

الطباعة : دار صادر، ص.ب. 10- بيروت